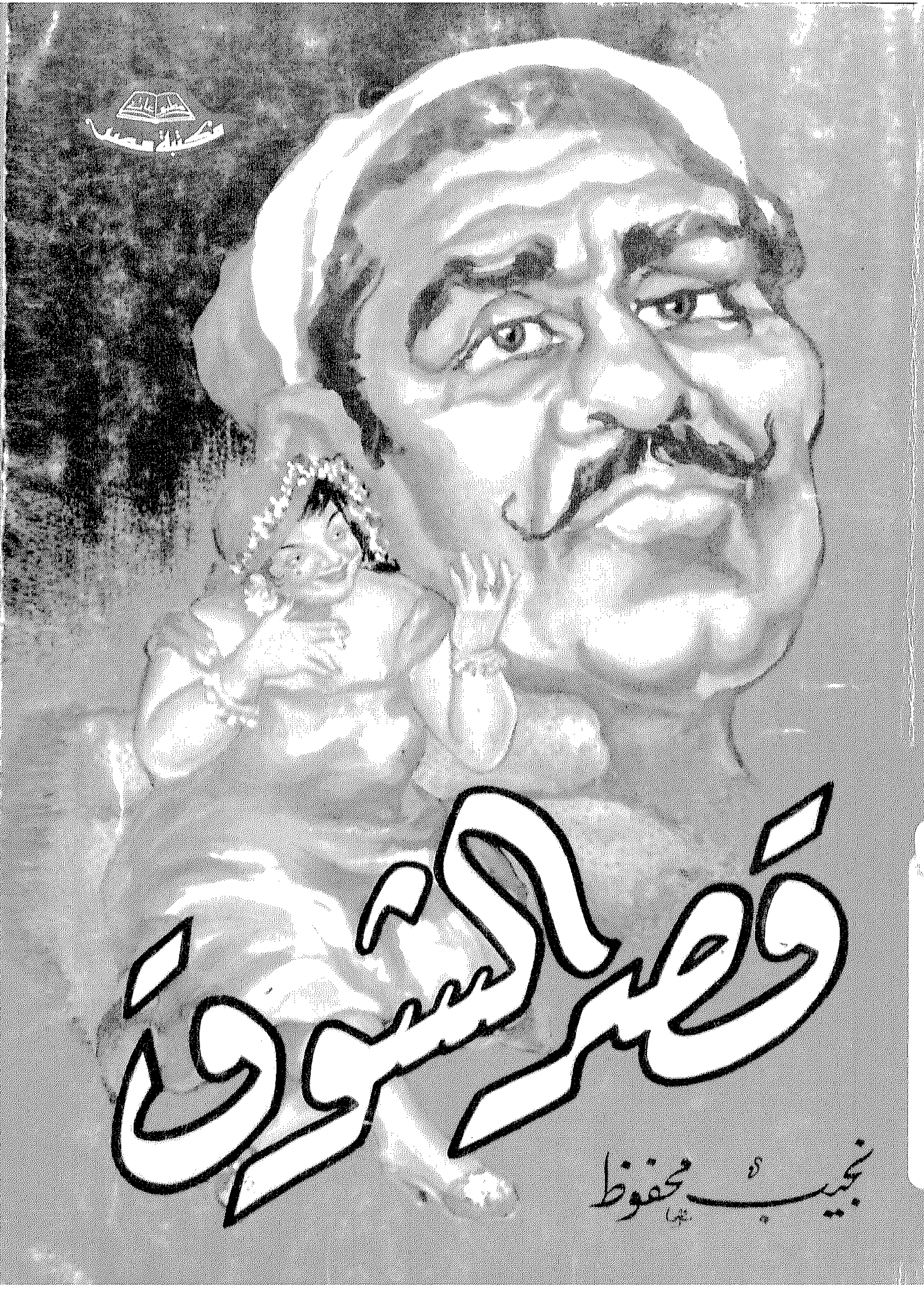
مكتبة مصر
قصر الشوق
نجيب محفوظ

قصر الشوق

مطبوعات مكتبة مصر

قصر الشوق

كتب عربي
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
(نشر أ ه) مكتبة الاسكندرية

رقم التسجيل ٦١١٩٠٨

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

١

أغلق السيد أحمد عبد الجواد باب البيت وراءه ، ومضى يقطع الفناء على ضوء النجوم الباهت فى خطوات متراخية ، وطرف عصاه ينغرز فى الأرض التربة كلما توكأ عليها فى مشيته المتثائبة . تشوّق وجوانبه تحمى بمثل الوهج إلى الماء البارد الذى سيغسل به وجهه ورأسه وعنقه كى يلطف ـــ ولو إلى حين ـــ من حرارة يولية والنار المستعرة فى جوفه ورأسه ، فهش لفكرة الماء البارد حتى انبسطت أساريره . ولما جاز باب السلم لاح له الضوء الوانى الهابط من أعلى يتحرك على الجدران واشيا بحركة اليد القابضة على المصباح ، فرقى على السلم يدا على الدرابزين ويدا على عصاه التى بعث طرفها دقات متتابعة اكتسبت من قديم إيقاعا خاصا غدا ينم عنه كما تنم عنه سماته . وعند رأس السلم بدت أمينة والمصباح فى يدها ، حتى إذا انتهى إليها توقف وصدره يعلو وينخفض ريثما يسترد أنفاسه ، ثم حياها تحيته الليلية المألوفة قائلا :

ـــ مساء الخير . .

فغمغمت أمينة وهى تتقدمه بالمصباح :

ـــ مساء الخير ياسيدى ! . .

فى الحجرة هرع إلى الكنبة فتهالك عليها ، ثم تخلص من عصاه وخلع طربوشه ، وطرح قذاله على المسند مادا ساقيه إلى الأمام حتى انحسر جناحا الجبة عن قفطانه ، وكشف القفطان عن رجلى سرواله المتداخلتين فى جوربه ، وأغمض عينيه وهو يجفف بمنديله جبهته وخديه وعنقه . على حين كانت أمينة تضع المصباح على الخوان ، ثم وقفت تترقب قيامه لتساعده فى نزع ثيابه ، وهى تنظر إليه باهتمام مشوب بقلق ، وتود لو تواتيها شجاعتها فتسأله أن يعفى نفسه من الدأب على السهر الذى لم تعد تنهض به صحته بالاستخفاف المعهود قديما . ولكنها لم تدر كيف تفصح عن أفكارها الأسيفة ! توالت دقائق قبل أن يفتح عينيه ، ثم نزع الساعة الذهبية من قفطانه والخاتم الماسى فأودعهما داخل الطربوش ، ثم نهض ليخلع الجبة والقفطان بمعاونة أمينة ، هناك بدا جسمه كالعهد به : طولا ، وعرضا ، وامتلاء . . لولا شعيرات اغتصبها المشيب من فوديه ، وعندما أدخل رأسه فى طاقة الجلباب

الأبيض غلبه الابتسام فجأة ، إذ ذكر كيف تقيأ السيد على عبد الرحيم الليلة فى مجلس الأنس ، وكيف اعتذر عن ضعفه ببرد أصاب معدته . وكيف تعمدوا أن يعيروه به زاعمين أنه لم يعد يحتمل الشراب ، وأنه ليس كل الرجال من يستطيعون معاشرة الخمر إلى نهاية العمر الخ الخ ، وذكر كيف غضب السيد على وجدَّ فى دفع الريبة عنه ، ياعجبا.. ألهذا الحد يعير بعض الناس أهمية لهذه الأمور التوافه ؟!، ولكن إذا لم يكن ذلك كذلك ! فلم فاخر هو فى صخب الحديث الضاحك بأنه يستطيع أن يشرب حانة دون أن تضطرب له معدة ؟!.

جلس على الكنبة مرة أخرى ومد ساقيه للمرأة التى راحت تخلع الحذاء والجورب ، وغابت عن الحجرة قليلا ، وعادت بالطست والإبريق وجعلت تصب له الماء فيغسل رأسه ووجهه وعنقه ويتمضمض ، وأخيرا تربع فى جلسته مستعرضا نسمة الهواء التى تهفو فى لطف ما بين المشربية والنافذة المطلة على الفناء .

ـــ ياله من صيف فظيع صيف هذا العام !

فقالت أمينة وهى تسحب الشلتة من تحت السرير ، وتتربع بدورها عليها على كثب من قدميه :

ـــ ربنا يلطف بنا (ثم وهى تتنهد) الدنيا كلها كوم وحجرة الفرن كوم !. السطح هو المتنفس الوحيد فى الصيف بعد مغيب الشمس .

بدت فى جلستها غيرها بالأمس ، نحفت واستطال وجهها ، أو لعله تراءى أطول مما هو لما حل بالخدين من رقة ، وقد انتشر المشيب فيما انحسر عنه منديل رأسها من خصلات ، فأضفى عليها روح كبر أكثر مما تستحق .. وغلظت الشامة في وجنتها قليلا ، على حين نمّت عيناها ـــ إلى نظرة الخضوع القديمة ـــ عن شرود مزيج بالحزن ، كم إشتدت حيرتها لما طرأ عليها من تغير ، ولئن كانت قد رحبت به بادىء الأمر على سبيل التعزى إلا أنها أخذت تتساءل فى قلق : أليست هى فى حاجة إلى صحتها مادام فى العمر بقية ؟، بلى ! والآخرون فى حاجة إلى صحتها أيضا ، ولكن كيف يعاد الشيء إلى أصله ؟!، ثم إنها تقدمت سنين ، لعلها لم تكن بالكثرة التى تبرر هذا التغير ولكنها مما يترك أثرا ولا شك .

هكذا كانت تقف فى المشربية الليالى المتعاقبة تراقب الطريق من وراء الخصاص ، فترى طريقا لا يتغير ، والتغير يدب إليها غير متوان . وعلا صوت

النادل فى القهوة فتطاير إلى الحجرة الصامتة كالصدى ، فابتسمت وهى تسترق النظر إلى السيد .

ما أحب هذا الطريق الذى يسهر الليالى سامرا إلى قلبها ، إنه الصديق الغافل عن القلب الذى يحبه من وراء خصاص ، معالمه ملء نفسها ، سمّاره أصوات حية تعيش فى مسامعها ، هذا النادل الذى لا يستكن له لسان ، وذو الصوت المبحوح الذى يعقب على حوادث اليوم بلا تعب أو ضجر ، وذو الصوت العصبى الذى يتصيد بخته فى « الكومى » و « الولد » ، ووالد هنية الطفلة المصابة بالسعال الديكى الذى يُسأل عنها فيجيب ليلة بعد أخرى « عند الله الشفاء » ، آه .. كأن المشربية ركن من القهوة هى جليسته . كانت ذكريات الطريق ترتسم على مخيلتها وراء عينين لا تفارقان الرأس المتوسد لمسند الكنبة ، فلما انقطع التيار تركز انتباهها فى الرجل فتبينت فى صفحتى وجهه حمرة شديدة اعتادت أن تطالعها فى أعقاب الليالى الأخيرة ، ولم تكن ترتاح إليها فتساءلت فى إشفاق :

ـــ سيدى بخير ..؟

فاعتدل رأسه ، وهو يتمتم :

ـــ بخير ، والحمدلله (مستدركا) ما أفظع الجو !!

الزبيب خير مسكر فى الصيف .. هكذا قالوا له وأعادوا ، ولكنه لا يطيقه ، فإما الويسكى وإلا فلا . عليه إذن أن يعانى خمار سكرة صيف ـــ وصيف شديد ـــ كل ليلة . شد ما ضحك هذه الليلة ... ضحك حتى كلت عروق عنقه . ولكن فيم كان الضحك ؟! ، لا يكاد يذكر شيئا ، وليس هناك شيء يروى أو يعاد ، ولكن جو المجلس كان مشحونا بكهرباء لطيفة بحيث أن أى لمسة كانت تحدث اشتعالا ، فما هو إلا أن قال السيد إبراهيم الفار : « أبحر الإسكندرية من سعد اليوم إلى باريس » وكان يقصد أن يقول : « أبحر سعد من الإسكندرية اليوم إلى باريس » حتى انفجروا ضاحكين ، فعدت « نادرة » من نوادر الخمر اللسانية . وابتدروه قائلين : « وسيمكث فى المفاوضة ريثما يسترد صحته ، ثم ينحر إلى الدعوة تلبية للندن التى تلقاها من » أو « وسينال رامزاى مكدونالد من الاستقلال على الموافقة » و « سيعود حاملا مصر إلى الاستقلال » ، وجعلوا يتحدثون عن المفاوضة المنتظرة ويعلقون عليها بما يحلو لهم من المداعبات ..

حقا .. إن دنيا الأصدقاء على رحابتها تتلخص فى ثلاثة : محمد عفت ، وعلى عبد الرحيم ، وإبراهيم الفار .. فهل يستطيع أن يتصور للدنيا وجودا من دون وجودهم ؟! إن إشراق وجوههم بالبشر الصادق حين رؤيته ، سعادة لا تدانيها سعادة . التقت عيناه الحالمتان بعينى أمينة المستطلعتين ، فقال وكأنه يذكرها بأمر هام :

ـــ غدا ..

فقالت ، وقد شاعت فى وجهها ابتسامة :

ـــ كيف أنسى !

فقال بشىء من الفخار لم يحاول مداراته :

ـــ قيل لى إن نتيجة البكالوريا كانت سيئة هذا العام ..

فقالت وهى تشاركه فخاره بمعاودة الابتسام :

ـــ ربنا ينجح مقاصده ، ويمد فى عمرنا حتى نشهد نجاحه فى الدبلوم ..

فتساءل :

ـــ هل ذهبت اليوم إلى السكرية ؟

ـــ نعم ، ودعوتهم جميعا ، وسوف يحضرون إلا الست الكبيرة التى اعتذرت بتعبها ، فقالت : إن ابنيها سينوبان عنها فى تهنئة كمال .

فقال السيد ، وهو يومىء بذقنه صوب جبته :

ـــ جاءنى اليوم الشيخ متولى عبد الصمد بأحجبة لأولاد خديجة وعائشة ، ودعا لى قائلا : « إن شاء الله أعمل لك أحجبة لأولاد أحفادك » .

ثم وهو يهز رأسه باسما :

ـــ لا شىء على الله ببعيد ، ها هو الشيخ متولى نفسه كالحديد رغم الثمانين !..

ـــ ربنا يمتعك بالصحة والعافية !

فتفكر مليا ، وهو يعد على أصابعه ، ثم قال :

ـــ لو امتد العمر بأبى ـــ رحمه الله ـــ ما زاد على عمر الشيخ كثيرا ..

ـــ رحم الله الراحلين ..

وخيم الصمت ريثما ذهب الأثر الذى تركه ذكر « الراحلين » ، ثم قال الرجل بلهجة من تذكر أمرا هاما :

ـــ زينب خطبت !
اتسعت عينا أمينة ، وهى ترفع رأسها قائلة :
ـــ حقا ؟!..
ـــ نعم ، أخبرنى محمد عفت بذلك الليلة !..
ـــ من ؟
ـــ موظف يدعى محمد حسن ، رئيس إدارة المحفوظات بالمعارف .
فتساءلت بوجوم :
ـــ يبدو أنه متقدم فى السن ؟
فقال كالمعترض :
ـــ كلا ، فى الحلقة الرابعة ، خمسة وثلاثين .. ستة وثلاثين .. أربعين عاما على الأكثر !
ثم بلهجة تهكمية :
ـــ جربت حظها مع الشباب فأخفقت ، أعنى الشباب الذين لا يرفعون رأسا ، فلتجرب حظها مع الرجال العقلاء !.
فقالت أمينة بأسف :
ـــ كان ياسين أولى بها ، على الأقل من أجل خاطر ابنهما ..
كان هذا رأى السيد ، وعنه دافع طويلا لدى محمد عفت ، بيد أنه لم يعلن موافقته على رأيها مداراة لخيبة مسعاه ، فقال متسخطا :
ـــ لم يعد للرجل به من ثقة ، والحق أنه غير جدير بالثقة ، لذلك لم ألح عليه ، لم أقبل أن أستغل صداقتنا فى حمله على ما لا خير فيه ..
فغمغمت أمينة فى شىء من الإشفاق :
ـــ هفوة شباب لا يضيق عنها العفو !
هان على السيد أن يعترف بجانب من مسعاه الخائب ، فقال :
ـــ لم أقصر فى حقه ولكنى لم أصادف ترحيبا ، وقال لى محمد عفت برجاء : « إن السبب الأول فى اعتذارى هو إشفاق من تعريض صداقتنا إلى الشقاق » ، وقال لى أيضا : « لا أستطيع أن أرفض لك رجاء ، ولكن صداقتنا أعز لدىَّ من رجائك » .. فأمسكت عن الكلام ..

قال محمد عفت هذا حقا ، ولكنه لم يصرح به إلا مدافعة لإلحاحه . والحق أن السيد كان شديد الرغبة فى وصل ما انقطع من مصاهرة محمد عفت لمكانته من نفسه ومكانة أسرته من المجتمع ، ولم يكن يطمع فى أن يجد لياسين زوجة خيرا من زينب ، ولكنه لم يسعه إلا التسليم بالهزيمة ، خاصة بعد أن صارحه الرجل بما يعلم عن حياة ياسين الخاصة ، حتى قال له : « لا تقل لى إننا نحن أنفسنا لا نختلف عن ياسين ، فالحق أننا نختلف بعض الشيء ، والحق أنى لا أرتضى لزينب ما ارتضيت لأمها ! » .

تساءلت أمينة :

ـــ هل علم ياسين بما كان ؟

ـــ سيعلم غدا أو بعد غد ، هل ترينه يكترث لذلك ؟. إنه أبعد ما يكون عن تقدير الزيجة المشرفة ..

فهزت أمينة رأسها أسفا ، ثم تساءلت :

ـــ ورضوان ؟

فقال السيد مقطبا :

ـــ سيبقى عند جده ، أو يلحق بأمه إن لم يصبر على فراقها ، الله يخير من خيره ..!

ـــ مسكين يا ربى ، أمه فى ناحية وأبوه فى ناحية ، أتطيق زينب فراقه ..؟

فقال السيد فيما يشبه الازدراء :

ـــ للضرورة أحكام (ثم متسائلا) متى يبلغ السن ؟.. ألا تذكرين ؟

فتفكرت أمينة قليلا ، ثم قالت :

ـــ إنه أصغر قليلا من نعيمة بنت عائشة ، وأكبر قليلا من عبد المنعم ابن خديجة ، فيكون فى الخامسة يا سيدى ، سوف يسترده أبوه بعد عامين ، أليس كذلك يا سيدى ؟

قال السيد ، وهو يتثاءب :

ـــ يا ترى من يعيش (ثم مستطردا) وكان متزوجا ، أعنى الزوج الجديد !

ـــ وله أولاد ؟

ـــ كلا لم ينجب من زوجه الأولى ..

ــــ لعل هذا ما حسَّنه فى عينى السيد محمد عفت ..
فقال السيد بامتعاض :
ــــ ولا تنسى مقامه ..
فقالت أمينة معترضة :
ــــ لو أن الأمر أمر مقام ما عدل بابنك أحدا ، على الأقل من أجلك أنت ..
فشعر باستياء حتى لعن فى سره ــــ على حبه ــــ محمد عفت ، ولكنه عاد يجر خطا تحت النقطة التى يتعزى بها ، فقال :
ــــ لا تنسى أنه لولا حرصه على أن يضع صداقتنا فى حرز حريز ما تردد عن قبول رجائى ..
فقالت أمينة معربة عن نفس الإحساس :
ــــ طبعا ، طبعا يا سيدى ، إنها صداقة العمر ، وليست لهوا ولعبا .
عاوده التثاؤب مرة أخرى ، فتمتم قائلا :
ــــ خذى المصباح خارجا ..
قامت أمينة لتنفيذ أمره فأغمض عينيه قليلا ، ثم نهض دفعة واحدة كأنما ليقاوم الكسل واتجه نحو الفراش فاستلقى عليه .. إنه الآن خير حالا !! ما أهنأ الرقاد بعد التعب !! أجل . لا يخلو رأسه من نبض قارع ، ولكن رأسه لا يكاد يخلو من شىء ما ، فليحمد الله على أى حال .! الصفاء الكامل ماض مضى ، ثمة شىء نفتقده كلما خلونا إلى أنفسنا ولكنه لا يعود ، يلوح لنا من الماضى بذكرى شاحبة كهذا الضوء الخافت الذى تشف عنه شراعة الباب . فليحمد الله على أى حال !! ولينعم بحياة يغبطه عليها الغابطون !! الأجدى أن يقطع برأى فيما إذا كان سيقبل الدعوة أم لا ، أو فليدع ما للغد للغد ، إلا ياسين .. فإنه مسألة الأمس واليوم والغد ، ليس صغيرا من بلغ الثامنة والعشرين ، وليس المشكل أن يبحث له عن زوجة أخرى ، ولكن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . متى تسطع هداية الله فتملأ الأرض حتى يبهر نورها الأعين ؟ هنالك يهتف من الأعماق أن الحمد لله ، ولكن ماذا قال محمد عفت ؟ إن ياسين يصول ويجول فى الأزبكية حتى سراديبها .. كانت الأزبكية مغنى آخر حينما كان هو يصول فيها ويجول ، وهزه الحنين مرات إلى معاودة بعض مشاربها إحياء للذكريات ، فليحمد الله على أنه علم بسر ياسين قبل أن

يقدم ، وإلا لضحك الشيطان من أعماق قلبه الهازىء . أوسعوا الطريق للأبناء فقد شبوا ، عنها صدك الأستراليون أول الأمر ، وأخيرا هذا البغل الأسترالى ..

٢

تتابعت دقات العجين من حجرة الفرن فى هدأة السحر مع صباح الديكة ، كانت أم حنفى مكبة على جرة العجين بجسمها اللحيم ، يلوح وجهها ريان على ضوء المصباح المنبعث من فوق سطح الفرن لم ينل الكبر من شعرها ولا شحمها ولكن شابت ملامحها جهامة واخشوشنت قسماتها ، وإلى يمينها قعدت أمينة على كرسى المطبخ تفرش ألواح العجين بالردة استعدادا لاستقبال الأقراص ، تواصل العمل — فى صمت — حتى توقفت أم حنفى عن العجين . فاستخرجت يدها من الجرة ومسحت على جبينها المبتل بالعرق ببطن مرفقها ، ثم لوحت بقبضتها المغطاة بالعجين كقفاز ملاكمة أبيض ، وقالت :

— أمامك يا ستى يوم شاق ولكنه لذيذ ، كثر الله من أيام السرور ..

فغمغمت أمينة دون أن ترفع رأسها عن عملها :

— علينا أن نقدم مائدة شهية ..

فابتسمت أم حنفى ، وهى تومىء بذقنها إلى سيدتها ، قائلة :

— البركة فى المعلمة ..

ثم غرست يديها فى الجرة مرة أخرى ، وعادت إلى ملاكمة العجين .

— وددت لو قنعنا بتوزيع الثريد على فقراء الحسين .

فقالت أم حنفى بلهجة معاتبة :

— لن يكون بيننا غريب.

فتمتمت أمينة بصوت لم يخل من ضيق :

— ولكنها وليمة وضجة على أى حال ، فؤاد ابن جميل الحمزاوى نال البكالوريا أيضا ، ولا من رأى ولا من سمع !!

ولكن أم حنفى أصرت على المعاتبة ، قائلة :

ـــ ما هى إلا فرصة نجتمع فيها بمن نحب ..

كيف تكون مسرة دون تأنيب أو توجس خيفة . قديما استخبرت السنين فأجابت بأن تاريخ ابتدائية هذا سيوافق تاريخ ليسانس ذاك ، حفل لم يجىء ونذر لم يوف . ١٩ .. ٢٠ .. ٢١ .. ٢٢ .. ٢٣ .. ٢٤ .. شباب العمر اليافع الذى حرمت من احتضان ينعه ، من قسمة التراب كان ، يا انصداع القلب الذى يسمونه الحسرة .

ـــ ستفرح ست عائشة بالبقلاوة ، وتذكر أيام زمان يا ستى ..

ستفرح عائشة وأم عائشة ستفرح أيضا ، نهار وليل وشبع وجوع ويقظة ونوم ، وكأن شيئا لم يكن . سلى الزعم الذى زعم بأنك لن تعيشى بعده يوما واحدا ، عشت لتحلفى بتربته ، إذا زلزل القلب فليس معناه أن تزلزل الدنيا ، كأنه نسى منسى حتى تزار المقابر ، كنت ملء العين والنفس يا بنى ثم لا يذكرونك إلا فى المواسم ، أين أنتم يا هؤلاء ؟. كل مشغول بشواغله ، إلا أنت يا خديجة قلب أمك وروحها حتى وصيتك يوما بالصبر ، لم تكن كذلك عائشة ، مهلا ! لا ينبغى أن أكون ظالمة ، حزنت حزنها كما ينبغى ، كمال لا لوم عليه ، رفقا بالقلوب الغضة ، بات الأول والأخير ، شاب شعرك وصرت كالخيال ، هكذا تقول أم حنفى ، لا كانت الصحة ولا كان الشباب ، تقاربين الخمسين وهو لم يتم العشرين ، حبل ووحم وولادة ورضاعة وحب وآمال ، ثم لا شىء .. ترى هل خلا من الأفكار رأس سيدى ؟. دعيه وشأنه ! ليس حزن الرجال كحزن النساء ، هكذا قولك يا أمى جعل الله الجنة مثواك ، يحز فى نفسى يا أمى أنه عاد إلى سيرته ، كأن فهمى لم يمت ، وكأن ذكراه قد تبخرت ، بل يلومنى كلما لج بى الحزن ، أليس هو أباه كما أنا أمه ؟.. يا أمينة يا مسكينة .. لا تفتحى صدرك لهذه الأفكار .. لو صح أن نحكم على القلوب بقلب الأم لبدت القلوب أحجارا .. إنه رجل وليس حزن الرجال كحزن النساء .. لو استسلم الرجال للأحزان لناءت بها كواهلهم المثقلة بالأعباء ، عليك إذا أنست منه حزنا أن تسرى عنه .. إنه ركنك يا ابنتى المسكينة » . غاب ذلك الصوت الحنون وصادف فقده قلوبا مترعة بالحزن فلم يكد يبكيه أحد ، وشهد شاهد حكمتها ليلة عاد فى أخريات الليل ثملا ، ثم ارتمى على الكنبة مجهشا فى البكاء ، وتمنيت ليلتئذ له السلامة ولو بالنسيان الأبدى ، أنت نفسك ألا تنسين

أحيانا ؟، ثمة ما هو أفظع من ذلك ، هو تمتعك بالحياة وحرصك عليها . هذه هي الدنيا . هكذا يقولون ! فترددين ما يقولون وتؤمنين به . كيف جاز لك — يوما — بعد هذا أن تحنقي على ياسين بره ومواصلته مألوف الحياة ! ، مهلا ، الإيمان والصبر .. سلمي إلى الله ، فكل ما جاءك من عنده ، « أم فهمي » إلى الأبد ، سوف أظل ما حييت أمك يا بني وتظل ابني ..

تتابعت دقات العجن ، ففتح السيد عينيه على نور الصباح الباكر ، وراح يتمطى ويتثاءب بصوت مرتفع ممطوط ، تصاعد كالتذمر أو الاحتجاج ، ثم جلس فى الفراش مستندا براحتيه على ساقيه الممدودتين ، فبدا ظهره مقوسا وقد نضح أعلى الجلباب الأبيض بالعرق ، وجعل يحرك رأسه يمنة ويسرة كأنما لينفض عنه وطأة الوخم ، ثم انزلق إلى أرض الحجرة ، ومضى متهاديا إلى الحمام إلى الدش البارد .. الدواء الوحيد الذى يغير عليه بدنه فيعيد إلى رأسه اتزانها وإلى نفسه اعتدالها ، تجرد من ثيابه ، ولما تعرض لرشاش الماء وردت ذهنه ذكرى الدعوة التى وجهت إليه أمس ، فخفق فؤاده الذى تلقى الذكرى والإحساس المنعش بالماء البارد معا ، على عبد الرحيم قال : «نظرة إلى الوراء ، إلى حبيبات زمان ، لا يمكن أن تمضى الحياة هكذا إلى الأبد ، إنى أعرف الناس بك » . أيتقدم على هذه الخطوة الأخيرة ؟ خمس سنوات مضت وهو يأبى أن يخطوها . أكان تاب إلى الله توبة مؤمن مصاب ؟. أم أضمر التوبة وخاف أن يجهر بها ؟ أم أطلقها نية صادقة دون تورط فى التوبة ؟.. لا يذكر ، ولا يريد أن يذكر ، ليس صغيرا من يدنو من الخامسة والخمسين . ولكن ما لفكره قد تقلقل وتزلزل ؟! كحاله يوم دعى إلى السماع فلبى ،هل يلبى النداء إلى حبيبات زمان بالمثل ؟، متى يبعث الحزن ميتا ؟ ، هل أمرنا الله أن نهلك أنفسنا وراء من نحبهم إذا ذهبوا !؟.. فى عام الحداد والتقشف كاد الحزن يقتله قتلا ، عام طويل لم يذق فيه شرابا ، ولم يسمع نغما ، ولم تند عن فيه ملحة حتى شابت شعيراته .. أجل لم يتسلل الشيب إلى شعره إلا فى ذلك العام ، رغم أنه عاد إلى الشراب والسماع رحمة بالأصدقاء المقربين الذين انقطعوا عن اللذات إكراما لحزنه ، كذب وصدق ، عاد إلى الشراب لنفاد صبره ورحمة بالأصدقاء الثلاثة ، لم يكونوا كالآخرين ، وما على الآخرين من ملام ، حزنوا لحزنك ، ثم جعلوا يراوحون بين مجلسك الجاف ومجالسهم الندية فأى تثريب عليهم ؟! بيد أن الثلاثة المحبين أبوا أن

ينالوا من الحياة نصيبا أوفى مما ارتضيت لنفسك ، وعدت رويدا إلى أشياء ، إلا المرأة رأيتها كبيرة فلم يلحوا عليك أول الأمر ، لشد ما تأبيت وحزنت ، لم يؤثر فيك رسول زبيدة ، رددت أم مريم بوقار حزين حازم وأنت تكابد آلاما لا قبل لك بها ، ظننت أن لن تعود أبدا ، وخاطبت نفسك المرة تلو المرة .. « أأعود إلى أحضان الغواني وفهمي في قبضة التراب ؟! » آه .. ما أحوجنا في ضعفنا وتعاستنا إلى الرحمة !! فليداوم على الحزن من يضمن ألا يموت غداً ، من قائل هذه الحكمة ؟ . واحد من اثنين : علي عبد الرحيم أو إبراهيم الفار . محمد عفت بك لا يجود بالحكم . رفض رجائي ، وزوج البنت من رجل غريب ، ثم ضحك عليَّ بالقبل ، لا ينكر غضبه ويشفق من أن يطالعني به كما وقع قديما ، لله هو أي وفاء وأي ود أتذكر كيف امتزج دمعه بدمعك في القرافة ؟ ، ولكنه القائل فيما بعد « أخاف عليك الكبر إن لم تفعل .. تعال إلى العوامة » . ولما آنس تردداً قال : « لتكن زيارة بريئة .. لن يجردك أحد من ملابسك ويرميك على امرأة » . لم أحزن قليلا علم الله ، بموته مات جزء جسيم مني . مات أملي الأول في الدنيا ، منذا يلومني على الصبر والعزاء ؟ ، قلبي جريح وإن ضحكت ! ترى ، كيف هن ؟، ماذا فعل بهن الزمان في خمسة أعوام ؟. خمسة أعوام طوال ؟

* * *

كان شخير ياسين أول ما تلقى كمال من عالم اليقظة ، فلم يتمالك أن يناديه وهو إلى معاكسته أرغب منه إلى إيقاظه في ميعاده ، ولاحقه بصوته غير متوان حتى رد عليه الآخر بصوت كالنزع تشكيا وتذمراً ، ثم تقلب بجسمه الضخم فطقطق الفراش فيما يشبه الأنين والتوجع ثم فتح عينين حمراوين وتأوه .

لم يكن ثمة — في رأيه — ما يدعو إلى هذه العجلة ما دام أحد منهما لن يذهب إلى الحمام قبل عودة الأب منه ، لم يعد من اليسير استعمال حمام الدور الأول منذ قضى التنظيم الجديد للبيت — منذ خمسة أعوام — بنقل الحجرات إلى الدور الأعلى فيما عدا حجرة الاستقبال والصالة المتصلة بها التي فرشت بأثاث بسيط باعتبارها مدخلا لها ، ومع أن ياسين وكمال لم يرحبا — قط — بالإقامة مع الأب في دور واحد ، إلا أنهما لم يجدا بداً من احترام الرغبة في مقاطعة الدور الأول الذي لم تعد تدخله قدم إلا حين يلم بالبيت زائر ، أغمض ياسين عينيه ، ولكنه لم ينم لا لأن

معاودة النوم كانت عبثا فحسب ـــ ولكن لأن صورة انبعثت فى خياله فأشعلت إحساسه .. وجه مستدير ، تتوسط صفحته العاجية عينان سوداوان . مريم ! فاستجاب لداعى الأحلام .. واستسلم لتخدير ألذ من تخدير المنام .

قبل أشهر معدودات ، لم تكن بالنسبة إليه موجودة قط ، وكأنها لم تكن ، حتى سمع أم حنفى تتحدث ـــ ذات مساء ـــ إلى امرأة أبيه ، فتقول : « أما سمعت بالخبر يا ستى ؟.. ست مريم طلقت من زوجها وعادت إلى أمها » هنالك عاوده ذكر مريم ، وفهمى ، والجندى الإنجليزى ، صديق كمال وإن غاب عنه اسمه ، ثم ذكر بالتالى اهتمامه القديم بشخصيتها الذى جاش بها صدره عقب ذيوع الفضيحة ، ما يدرى إلا وقد أضاءت فجأة فى نفسه لوحة معبرة ، كما تضىء الإعلانات الكهربائية فى الليل ، سطر عليها « مريم .. جارتك .. الجدار لصق الجدار .. مطلقة .. ذات تاريخ وأى تاريخ .. أبشر » ، ولكنه ما لبث أن جفل من نفسه ، لأن اقترانها بذكرى فهمى صده وآلمه وأهاب به أن يغلق هذا الباب وأن يحكم إغلاقه ، وأن يندم ـــ إن كان ثمة ندم ـــ على فكرة خفية عابرة ، صادفها بعد ذلك فى الموسكى مع أمها ، فالتقت الأعين على سهوة ، ولكن سرعان ما لاح فيها العرفان ، ونمت بسمات لا تكاد ترى بالعين المجردة عن عرفانها ، فتحرك قلبه ، تحرك للعرفان ـــ فحسب ـــ أول الأمر ، ثم للطيف الأثر الذى خلفه وجه عاجى مكحول العينين ، وجسم نابض بالفتوة والحيوية ، ذكّره بزينب فى إبانها .. فمضى إلى طيّته متفكراً هائجا . غير أنه بعد خطوات ، أو حال هبوطه إلى قهوة أحمد عبده ، هفت عليه ذكرى محزنة بعثت فى قلبه الشجن ، بعث فهمى فى خياله بشتى ذكرياته : صورته وأماراته وأسلوبه فى الحديث والحركة ففتر وجده وباخ وغشيه حزن غليظ ، يجب أن ينتهى كل شىء .. لم ؟..

عاد يتساءل بعد ساعة ، أو بعد أيام ، فكان الجواب : فهمى .. أية علاقة بين الاثنين ؟. ود يوما أن يخطبها ، ولم لم يفعل ؟.. أبوك لم يوافق . فقط ؟.. هذا فى الأقل أصل المسألة . ثم ؟.. جاءت فضيحة الإنجليزى ، فمحت ما بقى من أثر باهت .. أثر باهت ؟.. أجل لأنه على الأرجح كان نسى . إذن نسى أولا ، ونبذ أخيراً ؟ نعم ، فأية علاقة هنالك ؟.. لا علاقة ؟، ولكن !!.. أعنى شعور الأخوة ، هل يمكن أن يرق شك إلى شعورك ؟.. كلا وألف مرة كلا . الفتاة

تستحق ..؟.. نعم ، وجها وجسما ؟.. وجها وجسما فما انتظارك ؟..
في النافذة كان يلمحها حينا بعد حين ، ثم فوق السطح .. فوق السطح مرات ، ومرات ..
لم طلقت ؟.. لسوء في خلق زوجها ، فيكون الطلاق من حسن حظها . أو لسوء في خلقها فيكون الطلاق من حسن حظك أنت .
ـــ قم وإلا غلبك النوم .
فتثاءب وهو يتخلل شعره الملهوج بأصابعه الغلاظ ، ثم قال :
ـــ يا بختك بعطلتك المدرسية الطويلة !
ـــ ألم أستيقظ قبلك ؟
ـــ ولكن بوسعك أن تواصل النوم إذا شئت ..
ـــ لا أشاء كما ترى ..
ضحك ياسين ضحكة لا معنى لها ، ثم تساءل :
ـــ ما اسم الجندي الإنجليزي صديقك القديم ؟
ـــ أوه .. جوليون ..
ـــ أجل جوليون ..
ـــ ما الذي دعاك إلى السؤال عنه ؟
ـــ لا شيء !!
لا شيء ؟. ما أسخف لساننا ، أليس ياسين خيراً من جوليون ؟. في الأقل جوليون عابر وياسين مقيم ، في وجهها شيء يبسم إليك دواما ، ألم تلاحظ مثابرتك على الظهور فوق السطح ؟، بلى وذكر جوليون ، ليست ممن يفوتهن معنى ، ردّت تحيتك .. أول مرة أدارت رأسها باسمة ، في المرة الثانية ضحكت ، ما أجمل ضحكتها ! في الثالثة أشارت إلى أسطح البيوت محذرة ، سأعود بعد الغروب . هكذا قلت في جرأة ، ألم يرسل جوليون إشارته من الطريق العام ؟
ـــ لشد ما أحببت الإنجليز في صغري !.. انظر كيف أمقتهم الآن مقتا ..
ـــ سعد بطلك سافر ينشد صداقتهم !.
هتف كمال بحدة :
ـــ والله لأبغضنهم ولو وحدي ..

وتبادلا نظرة أسى صامتة ، تناهى إليهما وقع قبقاب السيد وهو راجع إلى حجرته مبسملا محوقلا ، فانزلق ياسين إلى الأرض وغادر الحجرة وهو يتثاءب .

تقلب كمال على جنبه ثم استلقى على ظهره مسترخيا وثنى ساعديه شابكا راحتيه تحت رأسه ، ومضى ينظر فيما أمامه بعينين لا تريان شيئا .. لتسعد بك رأس البر ، لم تخلق بشرتك الملائكية لتصلى حر القاهرة ، فلتطب بموطىء قدميك الرمال ، وليهنأ بمشهدك الماء والهواء ، سوف تشيدين بالمصيف ، وعيناك تنطقان بالمسرة والحنين ، فأتطلع إليهما بقلب مشوق وعين تسائل الغيب — فى حسرة — عن المكان الذى استهواك فاستحق عن جدارة رضاك .. ولكن متى تعودين ومتى ينسكب فى أذنى تغريدك المسحور ؟، كيف المصيف ؟. ليتنى أدرى .. قيل إنه حرية كالهواء ، ولقاء بين أحضان الماء ، وأهواء بعدد حبات الرمال .. وخلق كثيرون يحظون بمحياك .. أما أنا .. أنا الذى خفقات قلبه تئن لشكاتها الجدران فأتلظى فى سعير الانتظار . هيهات ! أن تنسى وجهك المنطلق بالبشر وأنت تغمغمين : « سنسافر غداً .. ما أجمل رأس البر ! » ولا اكتئابى وأنا أتلقى نذير الفراق من ثغر يومض بسنا السرور كمن يتلقى السم مدسوسا فى طاقة من الزهر الفواح ، ولا غيرتى من الجماد الذى قدر على إسعادك حين عجزت وحظى بمودتك حين حرمت . ألم تلحظى حين الوداع اكتئابى ؟. كلا لم تلحظى شيئا ، لا لأنى كنت واحداً بين كثيرين ولكن لأنك يا حبيبة لا تلحظين .. كأنما كنت شيئا لا يسترعى انتباهك .. أو كأنما أنت مخلوق بديع غريب استوى فوق الحياة يطالعنا من عل بعينين هائمتين فى ملكوت لا ندريه .. هكذا وقفنا وجها لوجه .. أنت شعلة من سعادة سادرة ، وأنا رماد من وجوم وكآبة .. تحظين بحرية مطلقة أو تذعنين لسنن فوق مداركنا ، وأنا أدور فى فلكك مجذوبا بقوة هائلة .. كأنك الشمس ، وكأننى الأرض ، هل وجدت عند الشاطىء حرية لم تنعمى بها فى مغانى العباسية ؟. كلا ، وحق قدرك عندى .. لست كالأخريات .. فى حديقة القصر والطريق ، آثار عاطرات لقدميك .. وفى قلب كل صديق ذكريات وآمال .. آنسة سهلة ممتنعة ، تطوف بنا على غير مثال ، كأن الشرق قد استوهبها الغرب فى ليلة القدر .. أى جديد من الجود ترى تهبين إذا امتد الشاطىء وترامى الأفق واكتظ الساحل بالمعجبين ؟. أى جديد يا أملى وحسرتى ؟!. القاهرة فى غيبتك خواء تنضح كآبة

ووحشة ، كأنها عكارة الحياة والأحياء .. ثمة مناظر ومعالم ، ولكنها لا تخاطب وجدا ولا تحرك قلبا ، كأنها عاديات الدنيا وذكرياتها فى قبر فرعونى لم يفض .. ما من مكان بها يعدنى بعزاء أو تسلية أو مسرة . إخالنى حينا مختنقا وحينا سجينا وحينا مفقوداً ضالا غير مفتقد . يا عجبا أكان وجودك ينيل أملا أفقدنيه البعاد ؟. كلا يا قضائى وقدرى ، ولكنك كالأمنية الاستظلال بجناحها برد وسلام وإن اعتصمت بالمحال ، هل يغنى المشتاق المتطلع إلى ظلمة السماء معرفته .. أن البدر يسطع فوق المكان الآخر من الأرض ؟.. كلا وإن لم يدر للبدر امتلاكا . إنما أطمع إلى الحياة فى صميمها ونشوتها ولو بفادح الألم ، بل أنت حالّة فى ما خفق الفؤاد والفضل لهذا المخلوق السحرى : الذاكرة . عن إعجازها غفلت حتى عرفتك ، اليوم أو غدا أو بعد دهر فى العباسية أو رأس البر أو فى أقصى الأرض لن تبرح مخيلتى عيناك السوداوان الساجيتان ، وحاجباك المقرونان ، وأنفك السوى اللطيف ، ووجهك الدرى الخمرى ، وجيدك الطويل ، وقامتك الهيفاء ، وما شئت من سحر يكتنفك مزريا بكل وصف مسكرا كعرف الفل والياسمين ، لأملكن هذه الصورة ما ملكت الحياة ، وبعد الحياة لتتقوض عوائق وموانع فيكون المصير إلى .. إلى وحدى بما أحببت هذا الحب كله .. وإلا فخبرينى عن معنى لهذه الحياة ينشد أو عن طعم للخلود يرام ، لا تزعم أنك سبرت جوهر الحياة إلا أن تحب ، السمع والبصر والذوق والجد واللهو والمودة والظفر مسرات تهوى عند من فعم الحب قلبه ، من أول نظرة يا قلبى . ما ارتدت عنها عيناى حتى آمنت بأنها زيارة مقيم لا زيارة عابر ، لحظة خاطفة حاسمة ، ولكن فى مثلها تخلق الأرواح فى الأرحام وتزلزل الأرض .. رباه لم أعد أنا .. قلبى تلاطمه جدران الأضلع ، أسرار السحر تنفث معانيها ، العقل يتمادى حتى يمس الجنون ، اللذة تسطع حتى تعانق الألم ، أوتار الوجود والنفس تجود بالنغم المكنون ، دمى يصرخ مستغيثا لا يدرى مم يستغيث ، الأعمى يبصر والكسيح يسير والميت يحيا ، حلفتك بكل عزيز ألا تذهبى أبدا ، أنت يا إلهى فى السماء وهى فى الأرض ، آمنت بأن ما مضى من حياتى كان تمهيدا لبشارة الحب ، لم أمت صغيرا ولم ألحق بمدرسة غير فؤاد الأول ولم أصادق أول ما صادقت من تلاميذها حسين ولم .. ولم .. كل أولئك كى أدعى يوما إلى قصر آل شداد ، يا للذكرى ! يكاد القلب من وقعها يقتلع ، كنت وحسين وإسماعيل وحسن

منهمكين فى شتى الأحاديث حين ورد مسامعنا صوت رخيم محييا ، التفت وأنا من الذهول فى غاية .. من تكون القادمة ؟.. كيف لفتاة أن تقتحم على غرباء مجلسهم ؟.. ثم سرعان ما انقطعت عن التساؤل .. وتناسيت التقاليد جميعا .. وجدتنى حيال مخلوق لا يمكن أن يكون من هذه الأرض جاء . بدت وكأنها صديقة للجميع إلَّاى ، فقال حسين يعارف بيننا : « صديقى كمال .. أختى عايدة » ليلتئذ عرفت لم خلقت .. لم لم أمت .. لم دفعتنى المقادير إلى العباسية ، وحسين ، وقصر آل شداد ، متى كان ذلك ؟. كان الزمان نسيا منسيا وا أسفاه ! إلا اليوم ، كان يوم الأحد .. عطلة مدرستها الفرنسية الذى صادف عطلة رسمية لعلها مولد النبى ، وعلى اليقين كانت مولدى أنا ، ما قيمة التاريخ ؟، سحر التقويم أنه يوهمنا بأن الذكرى تبعث حية وتعود ولو أن شيئا لا يعود ، لن تفتأ تجد فى البحث عن التاريخ ، ولن تفتأ تردد : مطلع السنة الثانية بالمدرسة .. أكتوبر نوفمبر .. حين زيارة سعد للصعيد وقبل نفيه للمرة الثانية .. مستخبراً الذاكرة والشواهد والأحداث وليس إلا أنك تتشبث تشبث اليائس باستعادة سعادة مفقودة وعهد مضى إلى الأبد . لو مددت يدك عند التعارف كما كدت لصافحتك فعرفت مسها ، وهو ما تتخيله حينا بعد حين بشعور ملئه الشك والهيام ، كأنما هى مخلوق غير جسمانى لا مس له .. وهكذا ضاعت فرصة كالحلم كما ضاع الزمان ، ثم أقبلت على صديقيك تحادثهما ويحادثانها ـــ بغير كلفة ـــ وأنت قابع فى مقعدك تحت الكشك تكابد حيرة المتشبع بتقاليد حى الحسين ، حتى عدت تتساءل : ترى ، أهى تقاليد خاصة بالقصور ، أم نفحة من باريس التى نشأ المعبود بين أحضانها ؟.. ثم تستغرق فى رخامة الصوت وتستطعم نبراته وتنتشى بتغريده وتمتلىء بكل حرف يند عنه ، ولعلك ـــ يا مسكين ـــ لم تدرك وقتها أنك تولد من جديد ، وأنك كالوليد سوف تستقبل دنياك الجديدة بالارتياع والدموع . وقالت ذات الصوت الرخيم : « سنذهب هذا المساء لمشاهدة الغندورة » . فسألها إسماعيل باسما : « أتحبين منيرة المهدية ؟ » .. فترددت كما ينبغى لآنسة نصف باريسية ، ثم أجابت : « ماما تحبها » ، ثم اشترك حسين وإسماعيل وحسن فى حديث عن منيرة وسيد درويش وصالح وعبد اللطيف البنا ، ثم ما أدرى إلا والصوت الرخيم يسأل : « وأنت يا كمال ، ألا تحب منيرة ؟ » ، أتذكر ذلك النداء الذى نزل على غير انتظار ؟، أعنى

أتذكر النغمة الطبيعية التي تجسمها ؟. لم يكن قولا ، ولكن نغماً وسحرا استقر في الأعماق كي يغرد دوما بصوت غير مسموع ينصب فؤادك إليه في سعادة سماوية لا يدريها أحد سواك ، كم روعك وأنت تتلقاه ، كأن هاتفا من السماء اصطفاك فردد اسمك ، سقيت المجد كله والسعادة كلها والامتنان كله في نهلة واحدة وددت بعدها لو تهتف مستنجداً : «زملوني .. دثروني » ، ثم أجبت وإن كنت لا أذكر بماذا أجبت ، لبثت دقائق ثم ودعتنا ومضت ، في عينيها السوداوين نظرة أنيقة ، تنم إلى جمالها الفاتن عن صراحة محببة وجرأة مصدرها الثقة ــ لا الاستهتار أو القحة ــ وترفع مروع ، كأنما تجذبك وتدفعك معا .. جمالها فتنة لا أدرك له كنها ولا أدرى له شبها ، وكان يخيل إلى كثيراً أنه ليس إلا ظلا لسحر أعظم يكمن في شخصها .. من أجل أى هذين أحبها ؟.. كلاهما لغز ، ولغز ثالث هو حبى . يتراجع ذلك اليوم كل يوم يوما إلا أن ذكرياته ناشبة في قلبى أبدا . لبناتها مكان وزمان وأسماء وصحاب وأحاديث يتقلب القلب في جنباتها نشوان حتى يخال أنها الحياة جميعا ، فيتساءل فيما يشبه الشك : هل كانت ثمة وراء ذلك حياة ؟.. هل حقا مضى زمن قبلها خلا من الحب قلبى وأقفرت من تلك الصورة الإلهية نفسى ؟. ربما أسكرتك السعادة حتى تحزن على ما ضاع من ماض جديب وربما لسعك الألم حتى تذوب حسرات على السلام الذى ولى ، وبين هذا وذاك لا يجد قلبك إلى الاستقرار سبيلا ، فيمضي ملتمسا الشفاء في شتى العقاقير الروحية ، يستمدها من الطبيعة آنا ، ومن العلم آنا ، ومن الفن حينا ، وفي العبادة أحيانا كثيرة .. قلب استيقظ فانطلقت من صميمه شهوة مولعة بالمسرات الإلهية .. أيها الناس حبوا أو موتوا .. لسان حالك وأنت تسير مزهواً فخوراً بما تحمل بين جنبيك من نور الحب وأسراره .. يزدهيك علو فوق الحياة والأحياء ، ويصل أسبابك بالسموات جسر مفروش بورود السعادة ، وأنت أنت الذى تخلو حينا آخر إلى نفسك فتطغى عليك حساسية أليمة مريضة بإحصاء النقائص وتقصيها بلا رحمة في كائنك الصغير ودنياك المتواضعة وهناتك الآدمية .. رباه ، كيف تخلق نفسك من جديد ؟، هذا الحب طاغية يتيه فوق كافة القيم وفي ركابه يتألق معبودك ، لا تكمله الفضائل ولا تنقصه المثالب ، النقيصة تلوح في تاجه الدرى حسنا يشغلك إعجابا ، هل أزرى بها في نظرك أن تخرج على التقاليد المرعية ؟. كلا ، بل إن خروجها بالتقاليد المرعية أزرى . يطيب

لك أحيانا أن تسأل نفسك : ماذا تروم من حبها ؟. أجب بكل بساطة : أن أحبها ، أيجوز أن تنبثق فى النفس هذه الحياة كلها ثم يتساءل عن غاية وراءها ؟ لا شيء وراءها . العادة هى التى ربطت بين لفظى الحب والزواج ، ليست فوارق السن والطبقة هي وحدها التى تجعل من الزواج غاية مستحيلة فى مثل حالى ، ولكنه الزواج نفسه ، بما يستنزل الحب من سمائه إلى أرض العقود والعرق .. ويسألك الذى يأبى إلا أن يحاسبك ، بم جادت عليك لقاء التهالك فى حبها ؟. أجبه بلا تردد : ابتسامة فاتنة ، و « يا كمال » الغالية ، وزيارتها للحديقة فى الأوقات السعيدة النادرة ، وترائيها مع الصباح الندى ، وسيارة المدرسة تمضى بها ، ومعابثتها الخيال فى سبحات اليقظة وتهويم الأحلام . ثم تسألك النفس الطماعة المجنونة : أمن المحال أن يكون المعبود مشغولا بأمر عابده ؟.. أجبها غير مستسلم لإغراء الآمال الكواذب : حسن أن يذكر عند العودة اسمنا .. » ..

ـــ بسرعة إلى الحمام ، هل تأخرت ؟!

مالت عينا كمال ــ وقد لاح فيهما رجع المفاجأة ــ إلى ياسين الذى عاد إلى الحجرة وهو ينشف رأسه بالفوطة ، ثم وثب إلى الأرض فبدا فرعه الطويل نحيفا ، وألقى نظرة طويلة على المرآة كأنما يتفحص رأسه الضخم وجبينه البارز وأنفه الذى تراءى لكبره وقوته كأنه منحوت من الجرانيت ، ثم تناول فوطته من على شباك السرير ومضى إلى الحمام .

وكان السيد أحمد قد فرغ من الصلاة ، فعلا صوته الغليظ بالدعاء المعتاد للأولاد ولنفسه ، سائلا الله الهداية والستر فى الدارين .. وفى أثناء ذلك كانت أمينة تعد المائدة ، ثم ذهبت إلى حجرة السيد ، فدعته ــ بصوتها الوديع ــ إلى تناول الفطور ، واتجهت إلى حجرة ياسين وكمال فكررت الدعوة .

اتخذ الثلاثة أماكنهم حول الصينية ، وبسمل الأب وهو يتناول رغيفا معلنا بدء الأكل ، فتبعه ياسين ثم كمال ، على حين وقفت الأم وقفتها التقليدية إلى جانب صينية القلل . كان مظهر الأخوين يدل على الأدب والخشوع ، ولكن خلا قلباهما ــ أو كادا ــ من الخوف الذى كان يركبهما ــ قديما ــ فى حضرة الأب ، ياسين : لأن بلوغه الثامنة والعشرين منحه امتيازا من امتيازات الرجولة ، وضمانا ضد الإهانات الجارحة والاعتداءات التعيسة ، وكمال : لأن بلوغه السابعة عشرة ،

وتقدمه فى الدراسة وهباه نوعا من الضمان أيضا إلا يكن بقوة ضمان ياسين ، فإنه لم يخل من العفو والتسامح على الأقل في الهفوات التافهة ، إلى أنه آنس من أبيه فى السنوات الأخيرة أسلوبا من المعاملة تخفف من البطش والإرهاب بدرجة محسوسة ، ولم يكن من النادر أن يدور حديث مقتضب بين الآكلين بعد أن كان الصمت يتحكم فى مجلسهم تحكما مخيفا ، إلا أن يسأل الأب أحدهم فيجيب بعجلة وهوجة ولو بفم ممتلىء بالطعام . أجل لم يعد غريبا أن يخاطب ياسين أباه ، فيقول مثلا : « زرت أمس رضوان فى بيت جده ، وهو يقرئكم السلام ويقبل يدكم » ، فلا يعد السيد الخطاب جرأة غير محمودة ، ولكنه يقول له ببساطة : « ربنا يحفظه ويرعاه » .. ولا يبعد عند ذلك أن يتساءل كمال بأدب ، محدثا بذلك تطورا خطيرا فى علاقته التاريخية بأبيه : « متى يستحق رضوان شرعا لأبيه يا بابا » . فيجيبه السيد : « عندما يبلغ السابعة » ـــ بدلا من أن يصيح به : « اخرس يا ابن الكلب » طاب لكمال يوما أن يتعرف على تاريخ آخر شتمة تلقاها من أبيه ، حتى تذكر أنه كان ذلك قبل عامين على وجه التقريب ، أو بعد حبّه ـــ الذى غدا يؤرخ به ـــ بعام ، إذ شعر وقتذاك بأن مصادقته لشبان من طراز حسين شداد وحسن سليم وإسماعيل لطيف تتطلب زيادة كبيرة فى مصروفه كي يتأتى له مجاراتهم فى لهوهم البرىء ، فشكا أمره إلى أمه راجيا إياها أن تخاطب أباه فى شأن الزيادة المأمولة ، ومع أن مخاطبة الأب ـــ فى مثل هذا الأمر ـــ لم تكن يسيرة على الأم ، إلا أنها هانت بعض الشيء بتغير معاملته لها عقب وفاة فهمى ، فحدثته منوّهة بعلاقة جديدة مشرفة لابنها بأصدقاء من « الأكابر » ، وعند ذاك دعا السيد كمال ، وصب عليه غضبه ، حتى صاح به : « هل ظننتنى تحت أمرك أو أمر أصحابك !.. ملعون أبوك وأبوهم » ، فغادره كمال خائب الرجاء وقد ظن أن الأمر انتهى عند ذاك .. ولكنه ما يدرى إلا والرجل يسأله عن هوية أصدقائه على مائدة إفطار اليوم التالى ، وما أن سمع اسم حسين عبد الحميد شداد ، حتى سأله باهتمام : « من العباسية صاحبك ؟ » . فأجاب كمال بالإيجاب ، وقلبه يخفق ، فقال السيد : « كنت أعرف جده شداد بك ، وأعرف أيضا أن أباه عبد الحميد بك كان مبعدا فى الخارج لسابق علاقته بالخديو عباس .. أليس كذلك ؟ » ، فأجاب كمال بالإيجاب مرة أخرى ، وهو يغالب وجده الذى أهاجه الحديث عن والد معبودته ؛ وذكر لتوه

ما علم عن الأعوام التى قضتها الأسرة فى باريس ، حيث ترعرعت معبودته فى نور مدينة النور ، فما تمالك أن شعر نحو أبيه بإجلال وإكبار جديدين ومودة مضاعفة ، وعد معرفته لجد معبودته رقية سحرية تنسبه — ولو من بعيد — إلى منزل الوحى ومبعث السنا . ثم ما لبثت أمه أن زفت إليه بشرى موافقة والده على مضاعفة مصروفه .

منذ ذلك اليوم لم يتعرض لشتمة جديدة ، إما لأنه لم يرتكب ما يستوجبها ، وإما لأن أباه رأى أن يعفيه من الشتم إطلاقا .. وقف كمال إلى جانب أمه فى المشربية يشاهدان السيد أحمد فى الطريق ، وهو يردد — فى وقار ولطف — تحيات عم حسنين الحلاق والحاج درويش بائع الفول والفولى اللبان وبيومى الشربتلى ، وأبو سريع صاحب المقلى . ثم رجع إلى الحجرة حيث وجد ياسين واقفا أمام المرآة يتأنق فى عناية وصبر . جلس على كنبة بين السريرين ، وراح يتأمل جسم أخيه الطويل البدين ووجهه المورد المكتنز بنظرة باسمة غامضة ، كان يكن له حبا أخويا صادقا ، بيد أنه لم يكن يستطيع — كلما أنعم فيه الفكر أو النظر — أن يقاوم شعورا خفيا بأنه حيال « حيوان أليف جميل » ، على رغم أنه أول من هز أوتار أذنيه بأنغام الشعر ونفثات القصص ، ربما تساءل ، تساؤل من يرى فى الحب جوهر الحياة والروح ، أمن الممكن أن يتصور ياسين عاشقا ؟. فيتمثل الجواب ضحكة باطنية أو منطلقة ، أجل ما للحب وهذه الكرش المترعة ، ! ما للحب وهذا الجسم اللحيم !، ما للحب وهذه النظرة الشهوانية الساخرة !، ثم لا يتمالك أن يجد نحوه إحساسا بالازدراء الملطف بالعطف والود ، وإن لم يخل أحيانا — خاصة فى الأوقات التى تعترى حبه فيها نوبة من نوبات الألم والهبوط — من عاطفة إعجاب بل حسد ، كذلك بدا ياسين لعينيه أبعد ما يكون عن عرش الثقافة ، الذى بوأه إياه قديما حينما كان يظنه عالما ساحرا مالكا لفنون الشعر والقصص ، تكشف له قارئا سطحيا يقنع من وقت مجلس القهوة ببضع ساعة يتنقل فيها بلا جهد أو عناء بين الحماسة وقصة من القصص قبل انطلاقه إلى قهوة أحمد عبده ، حياة عاطلة من بهاء الحب وأشواق المعرفة الحقيقية وإن كنَّ لصاحبها حبا أخويا لا تشوبه شائبة .. لم يكن كذلك فهمى ، كان مثله الأعلى فى الحب والعقل ، ولكنه بدا أخيرا كالمتخلف بعض الشىء عما يطمح إليه ، أجل ساوره شك يقارب اليقين فى أن فتاة كمريم يمكن أن

تبعث فى النفس حبا حقيقيا كالحب الذى يضىء به نفسه ، كما ارتاب فى أن تضاهى الثقافة القانونية التى نزع إليها أخوه الراحل المعرفة الإنسانية التى يتشوقها بكل قوة نفسه ، كان يتأمل من حوله بعين تنفتح على التأمل والنقد ، وذهب فى ذلك كل مذهب ، إلا أنه وقف عند عتبة أبيه لا يجرؤ على أن يرفع قدما ، لاح الرجل لعينيه شيئا هائلا يتربع على عرشه فوق النقد !!

ـــ أنت اليوم عريس !. اليوم عيد من أعيادك الظافرة ، أليس كذلك ؟. لولا نحافتك ما وجدت ما أؤاخذك عليه ..

قال كمال مبتسما :

ـــ إنى راض عنها .

ألقى ياسين على صورته نظرة أخيرة ، ثم وضع الطربوش على رأسه وأماله يمنة بعناية حتى أوشك أن يمس حاجبه ، ثم قال وهو يتجشأ :

ـــ أنت حمار كبير يحمل البكالوريا ، تمتع بالطعام والراحة فهذه هى العطلة ، كيف تسول لك نفسك أن تقرأ فى العطلة أضعاف ما تقرأ فى عامك الدراسى ؟! اللهم إنى برىء من النحافة وأصحابها !

ثم ، وهو يغادر الغرفة والمنشة العاجية فى يده :

ـــ لا تنس أن تختار لى قصة جيدة ، مثل « باردليان » ، و « فوستا » ، هه ؟.. مضى زمن كنت تستجدينى فصلا من رواية ، هاك زمنا أغبر أشحذك فيه القصص !

ارتاح إلى الوحدة التى يخلو فيها إلى نفسه ، فنهض وهو يغمغم : من أين له بالبدانة والقلب لا ينام ؟!. لم تكن تحلو له الصلاة إلا خاليا ، صلاة بالجهاد أشبه ويشترك فيها القلب والعقل والروح ، جهاد من لا يضن بجهد للفوز بالضمير الطاهر النقى ولو لاحق نفسه بالحساب تلو الحساب على الهفوة والخاطرة .. أما الدعاء فى أعقاب الصلاة ، فلها ، لها وحدها ..

٣

عبد المنعم : الفناء أوسع من السطح ، ولا بد أن نزيح الغطاء عن البئر لنرى ما فيها ..

نعيمة : ستغضب ماما وخالتى وجدتى ..

عثمان : لن يرانا أحد ..

أحمد : البئر فظيعة ، ويموت من ينظر فيها .

عبد المنعم: نرفع الغطاء ، ثم ننظر من بعيد .. (**ثم بصوت مرتفع**) .. هيا بنا ننزل .

أم حنفى : (**معترضة باب السطح**) لم يبق فى حيل للنزول والطلوع ، قلتم نطلع السطح فطلعنا السطح ، وقلتم ننزل الفناء فنزلنا إلى الفناء ، نطلع السطح مرة ثانية فطلعنا السطح مرة ثانية ، ماذا تريدون من الفناء ؟.. الجو حار تحت ، أما هنا فالنسمة جارية ، وعما قليل تغيب الشمس .

نعيمة : سيرفعون غطاء البئر لينظروا فيها ..

أم حنفى : سأنادى ست خديجة وست عائشة .

عبد المنعم : نعيمة كذابة ، لن نرفع الغطاء ، ولن نقترب منه ، سنلعب فى الفناء قليلا ثم نعود ، ابقى هنا حتى نعود .

أم حنفى : أبقى هنا ؟!. رجلى على رجلكم ، الله يهديكم .. ليس فى البيت كله مكان أجمل من السطح ، انظروا إلى هذا البستان !

محمد : نامى لأركبك ..

أم حنفى : كفاية ركوب ، اختر لنفسك لعبة أخرى : الله ! الله .. انظروا إلى الياسمين واللبلاب ، انظروا إلى الحمام ..

عثمان : أنت قبيحة كالجاموسة ، ورائحتك نتنة ..

أم حنفى: الله يسامحك ، عرقى سال من الجرى وراءكم .

عثمان : خلينا نر البئر ولو شوية صغيرة .

أم حنفى : البئر ملأى بالعفاريت ، ولذلك سددناها .

عبد المنعم : كذابة ، لم تقل ماما ولا خالتى هذا ..
أم حنفى : الحقيقة عندى أنا ، أنا وستى الكبيرة ، كنا نراهم رؤية العين ، فانتظرنا حتى دخلوا ، وألقينا على فوهة البئر الغطاء الخشبى وأثقلناه بالحجارة . لا تذكروا البئر ، وقولوا معى : « باسم الله الرحمن الرحيم » ..
محمد : نامى لأركبك .
أم حنفى : انظروا إلى اللبلاب والياسمين !. ليت عندكم مثلهما ، ليس فى سطحكم إلا الدجاج والخروفان اللذان تسمنونهما للعيد .
أحمد : ماء .. ماء .. ماء ..
عبد المنعم : هاتى سلما لنطلع عليها !
أم حنفى : يا ساتر يا رب ، الولد لخاله ، العبوا فى الأرض لا فى السماء .
رضوان : فى شرفة بيتنا وفى السلاملك أصص ورد أحمر وأبيض وقرنفل ..
عثمان : عندنا خروفان ودجاج ..
أحمد : ماء .. ماء .. ماء .
عبد المنعم : أنا فى الكتاب ، من منكم فى الكتاب ؟
رضوان : أنا حافظ « الحمد » .
عبد المنعم : الحمد ، كبةٍ لمبه !
رضوان : إخص ، أنت كافر .
عبد المنعم : هذا ما يتغنى به العريف فى الطريق ..
نعيمة : قلنا ألف مرة لا تردد كلامه ..
عبد المنعم : (**لرضوان**) لماذا لا تعيش مع باباك خالى ياسين ؟
رضوان : أنا عند ماما .
أحمد : أين ماما ؟
رضوان : عند جدى الآخر !
عثمان : أين جدك الآخر ؟
رضوان : فى الجمالية !.. فى بيت كبير وسلاملك .
عبد المنعم : لماذا أمك فى بيت ، وأبوك فى بيت ؟

رضوان : ماما عند جدى هناك ، وبابا عند جدى هنا ..
عثمان : لم لا يوجدان فى بيت واحد مثل بابا وماما ..؟
رضوان : القسمة والنصيب ، هذا ما تقوله جدتى الأخرى !
أم حنفى : قررتموه حتى أقر ، لا حول ولا قوة إلا بالله ! ارحموه والعبوا ..
أحمد : نامى لأركبك ..
رضوان : انظروا إلى العصفورة فوق عود اللبلاب ..
عبد المنعم : هاتوا سلما ، وأنا أقبض عليها ..
أحمد : لا ترفع صوتك ، إنها تنظر إلينا بعينيها وتسمع كل كلمة نقولها ..
نعيمة : ما أجملها ، عرفتها ! ، هى العصفورة التى رأيتها أمس فوق حبل الغسيل عندنا ..
أحمد : الأخرى فى السكرية ، فكيف عرفت الطريق إلى بيت جدى ..؟
عبد المنعم : يا حمار ، العصفورة تطير من السكرية إلى هنا وتعود قبل المساء .
عثمان : أهلها هناك وأقاربها هنا ..
محمد : نامى لأركبك ، أو أبكى حتى تسمعنى ماما ..
نعيمة : نلعب الحجلة ؟
عبد المنعم : بل نتسابق ..
أم حنفى : من غير شجار بين السابق والمسبوق .
عبد المنعم : اسكتى يا جاموسة ..
عثمان : نا ع ع ع .. نا ع ع ع .
أحمد : ماء .. ماء .. ماء .
محمد : سأدخل السباق راكبا ، نامى لأركبك ..
عبد المنعم : واحد .. اثنان .. ثلاثة ..

* * *

احتفى السيد أحمد عبد الجواد بالمدعوين فأخلى نفسه لهم النصف الأول من النهار كله ، ثم توسط مائدة الوليمة التى ضمت : إبراهيم شوكت ، وخليل شوكت ، وياسين وكمال . ثم دعا بالرجلين إلى حجرة نومه فى جلسة عائلية ، فمضوا يتسامرون فى جو من المودة والمؤانسة وإن لم يخل من تحفظ من ناحية السيد وتأدب

من ناحية صهريه ، مصدره ما يلتزمه الرجل فى المعاملة مع آل بيته حتى الوارد من الخارج منهم على رغم المقاربة فى السن بينه وبين إبراهيم شوكت زوج خديجة .

ودعى الأطفال إلى حجرة الجد ليقبّلوا يده ويتلقوا هداياه النفيسة من الشيكولاطة والملبن ، فتقدموا إليه بترتيب أسنانهم : نعيمة بنت عائشة أولا ، فرضوان بن ياسين ، فعبد المنعم بن خديجة ، فعثمان بن عائشة ، فأحمد بن خديجة ، ثم محمد بن عائشة . راعى السيد المساواة المطلقة فى توزيع عطفه وابتساماته على أحفاده ، منتهزا فرصة خلو الحجرة من مراقبين ـــ عدا إبراهيم وخليل ـــ ليتخفف بعض الشىء من تحفظه المأثور ، فهز الأيدى الصغيرة بترحاب ، وقرص الخدود الموردة بحنان ، ولثم الجباه وهو يداعب هذا ويمازح ذاك ، وظل مراعيا المساواة حريصا عليها حتى مع رضوان أحظى الصغار بمحبته .

كان من عادته إذا خلا إلى أحد من أحفاده أن يتفحصه بشغف ، مدفوعا بعواطف أصيلة كالأبوة وأخرى دخيلة كحب الاستطلاع . وكان يجد لذة كبيرة فى تتبع ملامح الأجداد والآباء والأمهات فى السلالات الجديدة الصاخبة التى لم تكد تلقن احترامه فضلا عن مخافته ، وقد أسره جمال نعيمة ذات الشعر الذهبى والعينين الزرقاوين التى فاقت أمها نفسها حسنا ورواء ، فأتحفت الأسرة بقسمات غنية من الحسن بعضها مشتق من أمها والبعض الآخر متوارث عن آل شوكت ، وعلى هذا المنهج من الجمال سار شقيقاها عثمان ومحمد مع ميل واضح إلى ملامح الأب ـــ خليل شوكت ـــ خاصة فى عينيه الواسعتين البارزتين ذواتى النظرة الهادئة الخاملة ، وعلى خلاف هذا تبدى عبد المنعم وأحمد ابنا خديجة ، فبشرتهما وإن تكن شوكتية ، إلا أن عينيهما هما عينا الأم أو الجدة الصغيرتان الجميلتان ، أما الأنف فينذر بمشابهة أنف الأم أو الجد على الأصح ، أما رضوان فما كان له إلا أن يكون جميلا حظى بعينى أبيه أو عينى هنية السوداوين المكحولتين وبشرة آل عفت العاجية ، وأنف ياسين المستقيم . أجل ترقرقت الملاحة فى وجهه أسرة . مضى زمن طويل مذ كان يتعلق به أطفاله بلا خوف من ناحيتهم ولا تكلف من ناحيته كما يفعل الأطفال اليوم ، يا لها من أيام ! ويا لها من ذكريات ! ياسين وخديجة وفهمى ثم عائشة وكمال ، ما منهم إلا وقد دغدغه تحت إبطه وأركبه منكبيه ، ترى هل يتذكرون ؟. لقد كاد هو ينسى ، على أن نعيمة تبدو رغم ابتسامتها الوضيئة متحلية

بالحياء والأدب ، أما أحمد فلم يكف عن المطالبة بالمزيد من الشيكولاطة والملبن ، على حين وقف عثمان ينتظر نتيجة المطالبة بفارغ الصبر ، وأما محمد فهرول إلى الساعة الذهبية والخاتم الماسى فى جوف الطربوش وكبشهما فما استخلصهما خليل شوكت من يده إلا بالقوة . ومرت لحظات توزع السيد الارتباك والحيرة ، فلم يدر ماذا يفعل وهو محاط ، بل مهدد من كل جانب بالأحفاد الأعزاء .. وقبيل العصر غادر السيد البيت إلى الدكان ، وبذهابه تمتعت الصالة — حيث اجتمع بقية أفراد الأسرة — بكامل حريتها . ورثت صالة الدور الأعلى أختها بالدور المهجور ، ففرشت بحصيرها وكنباتها ، وعلق بسقفها الفانوس الكبير ، فغدت مجلسا ومقهى لمن تبقى من الأسرة فى البيت القديم . وقد حافظت طوال اليوم — رغم امتلائها على هدوئها ، حتى إذا لم يعد يبقى من السيد إلا ما سطع فى الجو من عرف الكولونيا التى تطيَّب بها ، استردت أنفاسها ، فتعالت بها الأصوات والضحكات ، ودبت فيها الحركة ، واتخذ المجلس هيئته كالعهد القديم ، فتربعت أمينة على كنبة أمام أدوات القهوة ، وعلى الأخرى المواجهة لها جلست خديجة وعائشة ، وعلى ثالثة جانبية قعد ياسين وكمال ، وما لبث أن انضم إليهم إبراهيم شوكت ، وخليل شوكت — بعد ذهاب السيد — فجلس إبراهيم إلى يمين حماته ، وخليل إلى يسارها .

لم يكد إبراهيم يستقر على مجلسه ، حتى خاطب أمينة قائلا بلهجة متوددة :

— بارك الله فى اليد التى قدمت لنا أشهى الطعام وألذه (ثم وهو يردد عينيه البارزتين الخاملتين فى الجلوس كأنما يلقى محاضرة) الطواجن .. الطواجن !.. معجزة هذا البيت ، ليس الطاجن بما يحويه من المأكول — وإن لذ وطاب — ولكن بتسبيكه قبل كل شىء . التسبيك هو كل شىء !! هو الصنعة ، وهو المعجزة ، دلونى على طواجن كالتى التهمناها اليوم !..

كانت خديجة تتابع كلامه باهتمام ، وهى بين التأييد له اعترافا بمهارة أمها والاحتجاج عليه لتجاهله إياها ، فلما أمسك كى يهيىء للمنصتين فرصة للإقرار برأيه ، لم تتمالك من أن تقول :

— هذا حكم مسلم به وليس فى حاجة إلى شهادة شاهد ، غير أنى أذكر — وأحب أن أفكر أيضا — بأنك ملأت بطنك فى بيتك مرارا من طواجن لا تقل

صنعة عن طواجن اليوم !.
ارتسمت ابتسامة — ذات معنى — على وجوه عائشة وياسين وكمال ، وبدا على الأم أنها تغالب حياءها ، لتقول كلمة تجمع بين الشكر لإبراهيم وإرضاء خديجة ، ولكن خليل شوكت بادر قائلا :
— صدقت خديجة هانم ، إن لطواجنها فضلا علينا جميعا ، لا يمكن أن تنسى ذلك يا أخي ..
فردد إبراهيم نظره بين زوجه وحماته ، وهو يبتسم كالمعتذر ، ثم قال :
— معاذ الله أن أنكر هذا الفضل ، ولكني بصدد التحدث عن المعلمة الكبيرة (ثم وهو يضحك) وعلى أى حال ! فأنا أنوّه بفضل والدتك لا والدتى أنا !
وانتظر حتى خفت أصوات الضحك التى أثارها قوله الأخير ، ثم واصل تقريظه متلفتا نحو الأم ، وهو يقول :
— نعود إلى الطواجن ، ولكن لم نقصر كلامنا على الطواجن ؟!. الحق أن الصنوف الأخرى لم تكن دون الطواجن لذة وفخامة ، خذوا مثلا : البطاطس المحشو ، الملوخية ، الأرز المفلفل بالكبد والقوانص ، المحاشى المتنوعة ، والله أكبر على الدجاج ولحمه المكتنز .. خبرينى . أى غذاء تطعمينه يا حماتى ؟
أجابته خديجة فى تهكم :
— من الطواجن تطعمه !
— سأكفّر طويلا عن إقرارى بالفضل لأهله ، ولكن الله غفور رحيم ، مهما يكن من أمر فلندع الله أن يكثر من أيام الأفراح .. مبارك عليك البكالوريا يا سى كمال ، وعقبى للدبلوم إن شاء الله ..
قالت أمينة بامتنان ، وكانت موردة الوجه من الحياء والسرور :
— ربنا يفرحك بعبد المنعم وأحمد ، ويفرح سى خليل بنعيمة وعثمان ومحمد ، (ثم ملتفتة إلى ياسين) ويفرح ياسين برضوان ..
كان كمال يسترق النظر إلى إبراهيم حينا وإلى خليل آخر ، وعلى شفتيه ابتسامة ثابتة يدارى بها عادة مللِه من الحديث ، الذى تنعدم متعته وتقضى اللياقة بالاشتراك فيه ولو بحسن الإنصات . إن الرجل يتحدث عن الطعام وكأنه لم يزل على المائدة سكران بشهوة الأكل . الطعام .. الطعام .. الطعام .. لم استحق هذا التقديس

كله ؟. هذان الرجلان العجيبان لا يبدو أنهما يتغيران مع الزمن ، كأنهما بمنأى عن تياره . إبراهيم اليوم هو إبراهيم الأمس ، لم يكد يطرأ عليه من إشرافه على الخمسين إلا أثر غير ملحوظ تحت العينين أو فيما حول طرفى الفم ، ونظرة رزينة ثقيلة لم تكسبه وقارا بقدر ما أكسبته مزيدا من الخمول ، ولكن شعرة واحدة — سواء فى رأسه أم فى شاربه المفتول — لم تشب ، وبدانته لم تزل مدمجة قوية لم يعتورها ترهل ، إلى أن التشابه الذى جمع بين الشقيقين إلا فى أعراض لا يعتد بها : كالاختلاف بين شعر خليل السبط المرسل وشعر إبراهيم القصير المحلوق ، وتماثلهما فى الصحة والنظرة الخاملة كان مما يبعث على الضحك والازدراء حقا . وكانا يرتديان بذلتين من الحرير الأبيض وقد نزع كل منهما جاكتته فلاح قميصه الحريرى والأزرار الذهبية تلمع فى عرا أكمامه . مظهر ينم على وجاهة هى كل ما هنالك . فى بحر السنوات السبع التى وصلت بين الأسرتين ، كان يخلو إلى هذا أو ذاك منهما كثيرا أو قليلا ، ولكن حديثاً واحدا ذا طعم لم يجر بينهم !.. فيم الانتقاد ؟ ولولا ذاك ما كان هذا الانسجام الموفق بينهما وبين شقيقتيه ؟!. إن الازدراء — من حسن الحظ — لا يناقض العطف والإيثار بالخير والمودة . أوه .. يبدو أن حديث الطواجن لم ينته بعد ، ها هو سى خليل شوكت يتهيأ ليلقى كلمته :

— لم يعدُ أخى إبراهيم الحق فيما قال ، يد لا عدمناها ، ومائدة جديرة بأن ينادى بها المنادون ..

كانت أمينة فى أعماقها تحب الثناء ، وكثيرا ما تعانى مرارة الحرمان منه ، لشعورها بالجهد الدائب الذى تبذله عن حب وطواعية فى خدمة البيت وآله ، وكثيراً ما نهمت إلى سماع كلمة طيبة من السيد ، ولكن السيد لم يكن من عادته أن يجود بالثناء عليها وإذا جاد ففى اقتضاب وفى أحوال نادرة لا تكاد تذكر ، لذلك وجدت نفسها بين إبراهيم وخليل فى موقف عُجب غير مألوف ملأها سرورا حقا ، ولكنه هيج لحد الارتباك حياءها ، فقالت تدارى مشاعرها :

— لا تبالغ يا سى خليل ، أنت لك أمّ من يألف طعامها يزهد فى أى طعام سواه !..

وبينا عاد خليل إلى توكيد الثناء ، اتجهت عينا إبراهيم بحركة عكسية إلى خديجة ،

فالتقى بعينيها وهما تحدجان إليه كأنما توقعت نظرته فاستعدت لها ، فابتسم كالظافر ، وقال يخاطب حماته :

ـــ لا يقرّك بعض الناس على هذا الرأى يا حماتى ..

أدرك ياسين مرمى هذه الملاحظة ، فضحك ضحكة عالية ، وسرعان ما ضج المجلس بالضحك ، حتى أمينة ابتسمت ابتسامة عريضة واهتز نصفها الأعلى بضحكة مكتومة فدارت استسلامها بخفض رأسها كأنما تنظر فى حجرها ، بقيت خديجة وحدها جامدة الوجه وانتظرت حتى هدأت العاصفة ، ثم قالت بتحد :

ـــ لم يكن خلافنا حول الطعام وطهيه ، ولكن حول حقى فى الاستقلال بشئون بيتى ، ولا علىَّ من هذا ..

تجددت فى النفوس ذكرى المعركة القديمة التى استعرت فى العام الأول من زواج خديجة بينها وبين حماتها حول « المطبخ » ، وهل يظل واحداً للبيت كله تحت إشراف الأم ، أو تستقل خديجة بطبيخها كما أرادت . كان خلافا خطيرا هدد وحدة الأسرة الشوكتية وترامت أنباؤه إلى بين القصرين ، حتى علم به الجميع ما عدا السيد الذى لم يجرؤ أحد على إبلاغه إياه . لا هو ولا سائر الخلافات التى نشبت تباعا بعد ذلك بين الحماة وكِنّتها ، وأدركت خديجة مذ فكرت فى الكفاح أن عليها أن تعتمد على نفسها وحدها ، فزوجها على حد تعبيرها « رجل نائم » لا هو لها ولا عليها ، كلما حرضته على استخلاص حقها قال لها كالمداعب : « يا ست .. دعينا من وجع الدماغ » ، ولكنه إذا كان لم يؤيدها فإنه كذلك لم يشكمها . فانبرت إلى الميدان وحيدة ورفعت رأسها حيال العجوز المبجلة بجرأة لم تكن متوقعة وبعناد لم يخذلها حتى فى ذلك الموقف الدقيق . عجبت العجوز لجرأة البنت التى تلقتها على يدها من عالم الغيب وسرعان ما احتدم الخصام وجنَّ الغضب ، وراحت تذكرها بأنه لولا فضلها عليها ما صح ولو فى الأحلام أن تظفر مثلها بزوج من آل شوكت ، ولكن خديجة رغم ثورتها كظمت غيظها فوقفت عند التصميم على نيل ما تراه حقا لها دون اللجوء إلى حدة لسانها المأثورة ، لسابق منزلة العجوز من ناحية ، ولخوفها من أن تشكوها إلى أبيها من ناحية أخرى ، ثم هداها مكرها إلى أن تحرض عائشة على العصيان ، ولكنها وجدت من الفتاة الكسول إعراضا وجبنا ، لا حبا فى الحماة ولكن إيثارا للراحة والدعة اللتين تمتعت بهما ـــ بغير حساب ـــ فى ظل الحضانة

الإجبارية التى فرضتها حماتها على الجميع ، فصبَّت غضبها عليها ورمتها بالضعف والتنبلة ، ثم ركبها العناد فواصلت « الجهاد » بلا توان أو تردد حتى ضاق صدر العجوز فسلمت كارهة بحق كِنَّتها « الغجرية » بالاستقلال بمطبخها وهى تقول لابنها الأكبر : « أنت وشأنك . إنك رجل ضعيف لا قبل لك بتأديب زوجك ، وجزاؤك الحق أن تحرم من طعامي إلى الأبد ! » . ظفرت خديجة ببغيتها فاستردت أدوات جهازها النحاسية ، وهيأ لها إبراهيم المطبخ كما رسمت ، ولكنها خسرت حماتها وفتكت بأسباب المودة التي ربطت بينهما مذ درجت فى المهد ، ولم تحتمل أمينة فكرة الخصام فصبرت حتى هدأت النفوس ثم سعت سعيها عند السيدة المبجلة مستعينة بإبراهيم وخليل حتى تم صلح ، ولكن أى صلح كان ؟.. كان صلحا لا يكاد يستقر حتى يصطدم بنقار ، ثم يعقبه صلح ، فنقار من جديد ، وهكذا .. وكل واحدة منهما تلقى التبعة على الأخرى ، وأمينة بينهما حائرة ، وإبراهيم واقف موقف المحايد أو المتفرج ، كأن الأمر لا يعنيه ، فإذا رأى أن يتدخل تدخل وانيا وقنع بترديد النصيحة فى هدوء بل برود غير مبال بتوبيخ أمه أو عتاب زوجه ، ولولا إخلاص أمينة ودماثة خلقها لسارت العجوز بشكواها إلى السيد أحمد ، ولكنها عدلت عن ذلك كارهة ومضت تنفس عن صدرها فى أحاديثها الطويلة مع كل من يلقاها من الأهل والجيران ، معلنة على رءوس الأشهاد بأن اختيارها خديجة زوجة لابنها كان أكبر غلطة ارتكبتها فى حياتها وأن عليها أن تتحمل الجزاء .

قال إبراهيم معقبا على كلام خديجة ، وهو يبتسم ، كأنما ليخفف بابتسامته من وقع تعقيبه :

ـــ ولكنك لم تكتفى بالمطالبة بحقك ، بل طعنت بلسانك ما حلا لك الطعن ، هذا إذا لم تكن خانتنى الذاكرة ..

رفعت خديجة رأسها المعصوب بمنديل بنى فى تحد ، وقالت وهى ترمق زوجها بنظرة تهكم وغيظ :

ـــ ولم تخونك الذاكرة ؟!. هل من أفكار أو مشاغل ترهقها حتى تخونك !.، ليت للناس جميعا ذاكرة هادئة مطمئنة خالية البال كذاكرتك !. لم تخنك ذاكرتك يا سى إبراهيم ، ولكنها خانتنى أنا ! ، والحق أنى لم أتعرض لمقدرة نينتك ، ولم يكن لى بها شأن ولا حاجة إليها ، فإنى أعرف بحمد الله كافة واجباتى وأعرف كيف أؤديها

على خير وجه ، ولكننى كرهت أن أقبع فى بيتى وأن يجيئنى الطعام من الخارج كنزلاء الفنادق ، وفضلا عن هذا كله فإنى لم أطق ـــ كما يحلو « لبعض الناس » أن أمضى نهارى نائمة أو لاهية وغيرى يقوم بمهام بيتى .

أدركت عائشة من توها المقصود من « من بعض الناس » ، فضحكت ولما تكمل خديجة كلامها ، ثم قالت بلهجة لطيفة كأنما دافعها الإشفاق :

ـــ افعلى ما يحلو لك ودعى الناس ـــ أو بعض الناس وشأنهم ، لا شيء الآن يدعو إلى كدرك ، فأنت سيدة مستقلة عقبى لمصر ـــ وتعملين من طلوع الفجر إلى نزول الليل : فى المطبخ ، والحمام ، وفوق السطح ، وتعنين فى وقت واحد بالأثاث والدجاج والأولاد ، والجارية سويدان لا تجرؤ على الاقتراب من شقتك أو حمل ابن من أبنائك ، رباه .. لم هذا العناء وقليل منه يغنى ؟!

أجابت خديجة بحركة من ذقنها ، وهى تغالب ابتسامة دلت على أنها وجدت فى كلام عائشة ما استأنست إليه ، وعند ذاك قال ياسين :

ـــ بعض الناس يخلقون للسيادة ، وبعضهم يخلقون للعبودية ..

فقال خليل شوكت ، وهو يبتسم كاشفا عن ثنيتيه المتراكبتين :

ـــ خديجة هانم مثال صالح لست البيت ، غير أنها تتجاهل حقها من الراحة .

فقال إبراهيم شوكت مؤمنا على قوله :

ـــ هذا رأيى بالتمام ، صارحتها به مرارا ، ثم آثرت السكوت تفاديا من وجع الدماغ..

نظر كمال إلى أمه ، وكانت تملأ فنجان خليل للمرة الثانية واستحضر صورة أبيه مقرونة بذكريات جبروته ، فعلت شفتيه ابتسامة ، ثم مد بصره إلى إبراهيم مدهوشا وهو يقول :

ـــ كأنك تخافها !

فقال الرجل وهو يهز رأسه الكبير :

ـــ أنا أتفادى من النكد ما وجدت سبيلا إلى السلامة ، وأختك تتفادى من السلامة ما وجدت سبيلا إلى النكد !

هتفت خديجة :

ـــ اسمعوا الحكم (ثم وهى تشير إليه كالمتحدية) أنت تتفادى من اليقظة ما

وجدت سبيلا إلى النوم !

فقالت لها أمها ، وهى تحدجها بنظرة تحذير :

ــ خديجة !

فربت إبراهيم على منكب حماته ، قائلا :

ــ عندنا من هذا كثير !.. ولكن اشهدى بنفسك !

وكان ياسين يردد بصره بين خديجة القوية الممتلئة ، وعائشة النحيفة الرقيقة بحركة متعمدة للفت الأنظار ، ثم قال كالمستنكر :

ــ حدثتمونا عن تعب خديجة المتصل من الفجر إلى الليل ، فأين أثر ذلك التعب ؟!.. كأنها هى اللاهية وكأن عائشة هى العاملة !..

فقالت خديجة ، وهى تبسط راحة يمناها فى وجهه مفرجة بين أصابعها الخمس :

ــ ومن شر حاسد إذا حسد !

ولكن عائشة لم ترتح لمجرى الحديث الأخير ، فلاحت فى عينيها الزرقاوين الصافيتين نظرة اعتراض ، واندفعت للذود عن نحافتها متجاهلة الغاية الواضحة من ملاحظة ياسين ، وهى تعانى شيئا من الغيرة فقالت :

ــ لم تعد السمانة موضة العصر (ثم مستدركة عندما شعرت باتجاه رأس خديجة نحوها) ، أو على الأقل فالنحافة موضة كذلك عند كثيرات.. !

فقالت خديجة بتهكم :

ــ النحافة موضة العاجزات عن السمانة .

خفق قلب كمال عندما تناهت كلمة «النحافة» إلى سمعه ، فوثب من باطنه إلى مخيلته صورة القامة الفارعة والقد الممشوق ، فرقص قلبه بطرب روحانى وانبثقت منه النشوات ، ثم احتضنته فرحة صافية نسى فى حلمها الهادىء العميق نفسه ومكانه وزمانه . فلم يدر كم فيها لبث حتى انتبه على ظل سحابة من الأسى تجىء كثيرا ذيلا لحلمه ، لا كما يجىء الغريب الدخيل أو العنصر المتنافر ، ولكنها تتسرب إلى الحلم الباهر كأنها خيط من نسجه أو نغمة من هارمونيته . تنفس تنفسا عميقا ، ثم جال ببصره الحالم فى الوجوه التى يحبها من قديم ، والتى يبدو أنها تتباهى على نحو أو آخر بحسنها ، خاصة الوجه الأشقر الذى هام زمنا باحتساء الماء من موضع شفتيه ..

استرجع هذه الذكرى فى حياء ـ وما يشبه التأفف ـ فشعر بأن أى نموذج من الجمال خلا النموذج المعبود خليق بأن يثير تعصبه وإن حظى بعطفه وحبه .

ـ لن أرضى عن النحافة ولو فى الرجال (واصلت خديجة حديثها) . انظروا إلى كمال ما أجدره بأن يعنى بزيادة وزنه ، لا تظن يابنى أن طلب العلم هو كل شىء .

أصغى كمال إليها باسما فى استهانة وهو يتفحص جسمها الذى تراكم لحمه وشحمه ، ووجهها الذى توارت بالاكتناز عيوبه ، معجبا بروح السعادة والفوز التى تكتنفها ، غير أنه لم يجد فى نفسه الرغبة فى مناقشة رأيها ، أما ياسين ، فقال بتحد وسخرية معا :

ـ إذاً فأنت راضية عنى ، لا تكابرى فى هذا !

كان ثانيا ساقه اليمنى تحته طارحا الأخرى على الأرض ، وقد فتح ـ من الحر ـ طوق جلبابه ، فبدت من فتحة فانلته الواسعة خصلات من شعر صدره الأسود الأثيث ، فألقت عليه نظرة نافذة ، ثم قالت :

ـ لكنك زدتها حبتين ، ثم أن شحمك وصل إلى المخ ، وهذا شىء آخر .

نفخ ياسين كاليائس ، ثم التفت إلى إبراهيم شوكت متسائلا فى إشفاق وعطف :

ـ خبرنى عما تصنع بين زوجك ـ وهذه حالها ـ وبين والدتك ؟

أشعل إبراهيم سيجارة ، وأخذ نفسا ، ثم نفخه وهو يمط بوزه مشاركا أخاه خليل ـ الذى لم يكن ينزع غليونه من فيه إلا حين يتكلم ـ فى تعفير جو الصالة ، ثم قال فى عدم اكتراث :

ـ أذنا من طين وأذنا من عجين ، هذا ما تعلمته من التجربة !

فقالت خديجة ، مخاطبة ياسين بصوت مرتفع وشى بغيظها :

ـ لا دخل للتجربة فى ذلك ، التجربة بريئة وحياتك عندى . المسألة أن ربنا أعطاه طبعا مثل دندورمة عم بدر التركى ، ولو تحركت مئذنة الحسين ما اهتزت له شعرة..!

رفعت أمينة رأسها ، فرمقت خديجة بنظرة عتاب وتحذير حتى ابتسمت الابنة وخفضت عينيها فيما يشبه الحياء . وإذا بخليل شوكت يقول فى فخار لطيف :

ـــ هذا طبع آل شوكت ، وهو طبع سلطانى . أليس كذلك ؟!

فقالت خديجة ـــ بلهجة ذات مغزى ـــ وهى تضحك لتخفف من وقع كلامها :

ـــ من سوء حظى ياسى خليل أن والدتك لم تتطبع بهذا الطبع السلطانى !

فبادرتها أمينة قائلة وقد نفد صبرها :

ـــ حماتك لا نظير لها فى النساء ، سيدة جليلة بكل معنى الكلمة !!

فمال رأس إبراهيم يسرة ، وهو يخدج زوجه بنظرة من عل التمعت بها عيناه البارزتان ، ثم قال وهو يتنهد فى ظفر :

ـــ وشهد شاهد من أهلها ، الله يكرمك ياحماتى .. (ثم مخاطبا الجميع) ياهوه أمى ست كبيرة ، وفى سن تستوجب الرعاية والحلم ، وزوجى لا تعرف عن الحلم شيئا ..

فانبرت خديجة للدفاع عن نفسها قائلة :

ـــ أنا لا أغضب بلا سبب ، ولم يكن الغضب من طبعى فى يوم من الأيام ، وهاك أهلى فسلهم عما تشاء !

ساد الصمت . كان أهلها لا يدرون ماذا يقولون ، حتى ندت عن كمال ضحكة ، فلفتت إليه الأنظار ، فلم يتمالك أن يقول :

ـــ أبلة خديجة أغضب حليمة عرفتها !

فتشجع ياسين قائلا :

ـــ أو هى أحلم غضوب ، والله أعلم ..

انتظرت خديجة حتى هدأت ثائرة الضحك التى أعقبت ذلك . ثم أومأت إلى كمال وهى تهز رأسها فى حسرة ، قائلة :

ـــ خاننى الذى حملته على حجرى أكثر مما حملت أحمد وعبد المنعم .

فقال كمال كالمعتذر :

ـــ لا أظننى أفشيت سرا ..

وسرعان ما اتخذت أمينة موقفا جديدا للدفاع عن خديجة التى بدت فى مركز لا تحسد عليه فقالت باسمة :

ـــ جل من له الكمال ..

وجاراها إبراهيم شوكت فى لباقة قائلا :

ـــ صدقت ، إن لزوجي مزايا لا يستهان بها ، لعنة الله على الغضب الذى يصيب أول ما يصيب صاحبه ، لا شىء فى الدنيا يستحق فى نظرى الغضب !

فقالت خديجة ضاحكة :

ـــ يا بختك !.. لذلك تمضى الأيام ـــ عينى عليك باردة ـــ وأنت من التغير فى حصن !

بدا على أمينة الاستياء ـــ لأول مرة ـــ بصورة جدية ، فقالت فى عتاب :

ـــ ربنا يصون له شبابه ، هو وأمثاله !

تساءل إبراهيم ضاحكا ، وهو لا يخفى سروره بدعاء حماته :

ـــ شبابه ؟!

فقال خليل شوكت يجيبه ، وإن وجَّه الخطاب لأمينة :

ـــ إن التاسعة والأربعين فى آل شوكت تعد من مراحل الشباب !.

فعادت أمينة تقول فى إشفاق :

ـــ يا بنى لا تتكلم هكذا ودعونا من هذه السيرة ..

ابتسمت خديجة لما بدا من أمها من إشفاق كانت هى على علم وإيمان بأسبابه وبواعثه ، ذلك أن الإشادة بالصحة جهرا فى البيت القديم ـــ صراحة ـــ مكروهة ، لتجاهلها « العين » وشرها ، وهى نفسها ـــ خديجة ـــ لم تكن لتعالن ـــ بقوة صحة زوجها لو لم تكن قضت السنوات الست الأخيرة من حياتها بين آل شوكت ، حيث لا تحظى عقائد كثيرة ـــ كالحسد مثلا ـــ بإيمان عميق ، وحيث يخوضون فى أمور شتى بلا خوف ـــ كسير الجن والموت والمرض ـــ يحول الإشفاق والحذر دون الخوض فيها فى البيت القديم ، إلى هذا كله ، كانت العلاقة بين الزوجين أوثق مما تبدو فى الظاهر ، فلم يكن ثمة ما يتهددها من قول أو فعل ، كانا زوجين موفقين ، يشعر كلاهما فى أعماقه بأنه لا غنى له عن الآخر رغم شتى المآخذ ، وقد كان مرض إبراهيم يوما فرصة غريبة جلت مكنون ما يعمر صدر خديجة من محبة ووفاء . أجل ! لم يكن النقار ليسكت بينهما ، على الأقل من ناحيتها هى ، فلم تكن أمه هدفها الوحيد ، ورغم سياسة الرجل وبروده لم يعيها أن تكتشف فيه موضعا كل يوم لانتقاد . مثل : كثرة نومه ، قبوعه فى البيت بلا

عمل ، تكبره على مجرد فكرة أن يكون له عمل فى الحياة ، ثرثرته التى لا تنتهى ، تجاهله لما ينشب بينها وبين أمه من نزاع وملاحاة .. حتى مرت أيام وأيام ــ على حد تعبير عائشة ــ لم يكن لها من حديث إلا شكه ولسعه ــ ولكن رغم هذا كله ــ أو بفضل هذا ، من يدرى ؟!. فالنقار نفسه يقوم أحيانا بوظيفة الشطة فى تهييج شهوة الطعام ــ ظلت عواطفهما قوية ثابتة لا تتأثر بما يكدر الظاهر ، كأنها التيارات المائية العميقة التى لا يتحول مجراها بفورات السطح وتشنجاته ، إلى ذلك لم يسع الرجل إلا أن يقدر نشاطها حق قدره ، بعد أن لمس آثاره فى رونق مسكنه ولذة مطعمه وأناقة ملبسه وهندمة ابنيه .. فكان يقول لها مداعبا : « الحق أنك لقيَّة يا غجرية ! » رغم رأى أمه فى هذا النشاط الذى لم تتردد عن الجهر به فى أوقات الخصام وما أكثرها ، فتقول لخديجة ساخرة : « هذه فضيلة الخدم لا الهوانم » ، فتبادرها خديجة قائلة : « أنتم أناس لا عمل لكم إلا الأكل والشرب ، سيد البيت الحقيقى من يخدمه » ، فتقول العجوز مواصلة تهكمها : « لقنوك هذا الكلام فى بيتك كى يخفوا عنك أنك لم تكونى تصلحين فى نظرهم إلا للخدمة ! » ، فتصيح خديجة : « أنا أعلم بسبب حنقك علىَّ ، أعلم به منذ لم أجعل لك وزنا فى بيتى » ، فتصرخ العجوز : « يا ربى اشهد . السيد أحمد عبد الجواد رجل طيب ، ولكنه أنجب شيطانة ، أنا أستحق ضرب الشبشب جزاء اختيارى لك » . فتمضى خديجة وهى تغمغم ، حتى لا تتبين المرأة كلامها : « أنت تستحقين ضرب الشبشب .. لا أجادلك فى هذا » .

نظر ياسين إلى عائشة ، وقال وهو يبتسم فى خبث :

ــ ما أسعدك بنفسك يا عائشة ، علاقتك حسنة مع جميع الأحزاب !.

فأدركت خديجة ما وراء كلامه من التعريض بها ، وقالت له وهى تهز كتفيها متظاهرة بالاستهانة :

ــ وقَّاع يسعى بوقيعة بين أختين ! .

ــ أنا ؟!.. حسبى الله ، فهو المطلع على حسن نيتى !

وهى تهز رأسها كالآسفة :

ــ لم تكن يوما ذا نيَّة حسنة !.

وقال خليل شوكت ، معلقا على كلام ياسين :

ــ نحن نعيش فى سلام ، وشعارنا : « عش ودع غيرك يعيش » !

فضحكت خديجة حتى بدت أسنانها اللامعة الدقيقة ، وقالت بلهجة لم تخل من تهكم :

ــ بيت سى خليل بيت أفراح ، لا يزال هو يلعب بأوتار العود ، والهانم تسمع أو تستعرض نفسها فى المرآة أو تحادث هذه أو تلك من صويحباتها من النافذة أو المشربية ، ونعيمة وعثمان ومحمد يلعبون بالمقاعد والوسائد ، حتى إن عبد المنعم وأحمد إذا ضاقا برقابتى فرَّا إلى شقة خالتهما فانضما إلى فرقة التخريب ..!

تساءلت عائشة باسمة :

ــ أهذا كل ما ترين فى بيتنا السعيد ؟

قالت خديجة بنفس اللهجة :

ــ أو تغنين ونعيمة ترقص ..!

عائشة بمباهاة :

ــ حسبى أن جميع الجارات يحببننى ، وأن حماتى تحبنى كذلك ..

ــ لا أتصور أن أفتح صدرى لإحدى أولئك النسوة الثرثارات ، أما حماتك فتحب من يتملقها ويسجد لها ..

ــ يجب أن نحب الناس ، وما أسعد أن يحبنا الناس كذلك ، حقا من القلب للقلب رسول ، إنهن جميعا يخشينك وكثيرا ما قلن لى : « أختك لا ترحب بنا ولا تتعب من تنقصينا ! » .. (ثم مخاطبة أمها وهى تضحك) ... لا تزال تسمِّى الناس بأسماء هزلية ، ثم تتندر بها فى البيت ، فيحفظها عبد المنعم وأحمد ، ويرددانها فى الحارة بين الغلمان فتذيع !.

عاود الضحك الصامت أمينة ، كذلك ضحكت خديجة فى شىء من الارتباك ، كأنما طافت بها ذكريات بعض مواقف محرجة ، على حين راح خليل يقول فى ابتهاج غير خاف :

ــ بالجملة نحن تخت صغير ، فيه العواد والمطربة والراقصة ! حقا لا يزال ينقصنا جماعة المنشدين والمرددين ، ولكننى أتوسم فى أولادى خيرا ، والمسألة مسألة وقت !

فقال إبراهيم شوكت ، موجها الخطاب إلى أمينة :
ـــ أشهد أن بنت بنتك نعيمة راقصة بارعة !
ضحكت أمينة حتى تورد وجهها الشاحب ، ثم قالت :
ـــ رأيتها وهى ترقص ، ما ألطفها !
قالت خديجة بحماس نطق بحنانها العائلى المأثور :
ـــ ما أجملها ! ، كأنها صورة من صور الإعلانات .
فقال ياسين :
ـــ ما أجملها عروسا لرضوان !
فقالت عائشة ضاحكة :
ـــ ولكنها بكرية الأسرة !.. آه .. لم يمكننى أن أغالط فى عمرها كما يجدر بالأمهات !
فتساءل ياسين بعدم اكتراث :
ـــ لماذا يشترط الناس أن تكون العروس أحدث سنا من العريس ؟
فلم يجبه أحد ، حتى قالت أمينة :
ـــ لن يطول انتظار نعيمة للعريس المناسب !
فعادت خديجة تقول :
ـــ ما أجملها يا ربى ! ، لم أر لجمالها مثيلا ..
فتساءلت عائشة ضاحكة :
ـــ وأمها ؟!.. ألم ترى أمها ؟
فقطبت خديجة لتضفى على كلامها صفة الجدية ، وهى تقول :
ـــ هى أجمل منك يا عائشة ، لن تستطيعى المكابرة فى هذا !.
ثم ما لبثت أن عاودتها سخريتها فقالت :
ـــ وأنا أجمل منكما معا !.
« هؤلاء الناس يتحدثون عن الجمال ! ، ماذا عرفوا من كنه الجمال ؟. تعجبهم ألوان : بياض العاج ، وسبائك الذهب . سلونى أنا عنه ، ولن أحدثكم عن السمرة الصافية والأعين السود السواجى والقامة الهيفاء والأناقة الباريسية . كلا ! كل أولئك جميل ، ولكنه خطوط وشكول وألوان تخضع فى النهاية للحواس

والقياس . الجمال هزة فى القلب جارحة وحياة فى النفس عامرة وهيمان تسبح الروح على أثيره حتى تعانق السماوات .. حدثونى عن هذا إن استطعتم .. » .

ــ لم يلتمس نساء السكرية ود خديجة هانم ؟.. ربما كان لها مزايا ــ كما يشهد بذلك زوجها ــ ولكن الناس عامة يستهويها الوجه الصبيح واللسان الحلو ..!

قال ياسين ذلك كي ينكش خديجة من جديد ، بعد أن رأى الحديث يتحول عنها فى سلام ، فرمته بنظرة كأنما تقول له : « تأبى أن أرحمك » .

ثم قالت وهى تتنهد بصوت مسموع :

ــ حسبى الله ونعم الوكيل ، لم أكن أعلم أن لى هنا حماة أخرى .

ثم إذا بها تعود من جديد إلى ذلك الموضوع ، ولكن بلهجة جدية تاركة ياسين وشأنه على غير ما توقع ، فتقول :

ــ ليس عندى متسع من الوقت كى أضيعه فى الزيارات ، البيت والأولاد يلتهمون وقتى كله ، خاصة وأن زوجى لا يهتم لا بالبيت ولا بالأولاد !

قال إبراهيم شوكت ، مدافعا عن نفسه :

ــ اتقى الله ولا تغالى شأنك فى كل شيء ، الأمر وما فيه : أنه ينبغى لمن كان له زوجة كزوجتى أن يقف موقف الدفاع من حين لآخر . الدفاع عن قطع الأثاث التى تكاد تنبرى من كثرة النفض والمسح ، والدفاع عن الأولاد الذين تحملهم فوق ما يطيقون .. آخر العهد بذاك ، ما علمتم من دفعها عبد المنعم إلى الكتاب ولما يبلغ الخامسة من عمره !

قالت خديجة بفخار :

ــ لو اتبعت رأيكم لاستبقيته فى البيت حتى يبلغ سن الرشد ! ، كأن بينكم وبين العلم عداوة ، كلا يا حبيبى ، سينشأ أولادى على ما نشأ عليه أخوالهم . إنى أذاكر عبد المنعم فى دروسه بنفسى !

ياسين مستنكرا :

ــ أنت تذاكرينه ؟!

ــ لم لا ؟! كما كانت نينة تذاكر كمال ، أجالسه كل مساء فيسمعنى ما يحفظونه فى الكتّاب .

ثم وهى تضحك :

ـــ وبذلك أيضا أستذكر مبادىء القراءة والكتابة التى أخاف أن أنساها بمرور الزمن ..

تورد وجه أمينة حياء وسرورا ، فرنت إلى كمال كأنما تستجديه إشارة إلى ذكر الليالى الخوالى فابتسم إليها ابتسامة ذكور « لتنشىء خديجة ابنيها على ما نشأ عليه أخوالهما ، ليكن منهما من يتأثر كمال الذى يشق السبيل إلى المدرسة العليا ، ليكن منهما من يتشبه بـ ... ، آه ما أضعف الصدور المتصدعة عن تحمل الخفقات الواهلة ، لو امتد به العمر لكان اليوم قاضيا أو فى الطريق إليها ، كم حدثك عن آماله أو آمالك ! ، أين مضى كل ذلك ؟ ، ليته عاش ولو فردا من غمار الناس . » ..

قال إبراهيم شوكت ، مخاطبا كمال :

ـــ لسنا كما تتهمنا أختك . لقد دخلت امتحان الابتدائية سنة ١٨٩٥ ودخله خليل سنة ١٩١١ ، كانت الابتدائية على أيامنا شيئا عظيما على خلاف الحاصل الآن حيث لا يكاد يقنع بها أحد ، لم نواصل التعليم ، لأنه لم يكن فى نيتنا أن نتوظف ، أو بمعنى آخر لم نكن فى حاجة إلى الوظيفة !..

أعجب كمال إعجابا ساخرا بقوله « دخلت امتحان الابتدائية » ، ولكنه قال مجاملا :

ـــ هذا أمر طبيعى ..

كيف يكون للعلم قيمة ذاتية عند ثورين سعيدين ؟ ، كلا كما تجربة ثمينة علمتنى أنه من الجائز أن أحب ـــ أى حب كان ـــ من أحتقر .. أو أن أتمنى الخير كل الخير لشخص تثير مبادئه فى الحياة نفورى وتقززى ، لا أملك إلا أن أكره الحيوانية من صميم قلبى ، صار ذلك حقيقة وحقا مذ هفت على القلب نسمة السماء !

هتف ياسين فى حماس هزلى :

ـــ لتحيى الابتدائية القديمة !

ـــ نحن حزب الأغلبية على أى حال !

تضايق ياسين من إقحام خليل نفسه ـــ وأخاه ضمنا ـــ على حزب الابتدائية التى لم ينالاها ، ولكنه لم يجد بدا من التسليم ، على حين راحت خديجة تقول :

ـــ سيواصل عبد المنعم وأحمد التعليم حتى ينالا الدبلوم العالى ، سيكونان عهدا جديدا فى آل شوكت ، اسمعوا وقع هذين الاسمين جيدا : عبد المنعم إبراهيم

شوكت ، أحمد إبراهيم شوكت ،.. ألا يرن الاسم رنين « سعد زغلول » ؟!
فصاح إبراهيم ضاحكا :
ـــ من أين لك هذا الطموح كله ؟
ـــ لم لا ؟.. ألم يكن سعد باشا مجاورا بالأزهر ؟!. من الجراية إلى رياسة الوزراء ، وكلمة منه تقيم الدنيا وتقعدها ، ليس شيء على الله بكثير !!.
تساءل ياسين متهكما :
ـــ هلا قنعت بأن يكونا مثل عدلى أو ثروت ؟
فصاحت كالمستعيذة بالله :
ـــ الخونة ؟!. لن يكونا من الذين يهتف الناس بسقوطهم ليل نهار !
أخرج إبراهيم من جيب بنطلونه منديلا ، ومسح به وجهه الذى زادت حمرته عمقا بحرارة الجو ونضح عرقا بما يشرب، من ماء مثلوج وقهوة ساخنة ، ثم قال وهو آخذ فى تجفيفه :
ـــ لو أن لشدة الأمهات فضلا فى خلق العظماء ، فأبشرى من الآن بما ينتظر ابنيك من مجد كبير !
ـــ تريدنى على أن أتركهما وشأنهما ؟
قالت عائشة بزقة :
ـــ لا أذكر أن نينة انتهرت أحدا منا فضلا عن ضربه ، ألا تذكرين ؟
فقالت خديجة كالآسفة :
ـــ لم تلجأ نينة إلى الشدة ، لأن بابا كان هناك ! كان ذكره كافيا لإلزام كل حدّه ، أما عندى ، أو عندك فالحال من بعضه ، فالأب غير موجود إلا بالاسم (اضطرت أن تضحك) ما عسى أن أفعل والحال كذلك ؟ إذا كان الأب أما ، فعلى الأم أن تكون أبا .. !
ياسين مبتهجا :
ـــ يقينى أنك نجحت فى أبوتك ! أنت أب .. هذا ما شعرت به طويلا ، ولكن كانت تنقصنى معرفته !
فتظاهرت بالرضى قائلة :
ـــ أشكرك يا بمبة كشر ..

« خديجة وعائشة ، صورتان متعارضتان .. تأمل جيدا ، أيهما تظن الأجدر بأن تكون معبودتك على مثالها ؟.. أستغفر الله ! معبودتى على غير مثال ، لا أتصورها ربة بيت . ما أبعد هذا عن التصور ! معبودته فى ثياب البيت تنهنه طفلا أو ترعى مطبخا ؟! يا للفزع ويا للتقزز ، بل لاهية أو سادرة أو رافلة فى حلة باهرة فى حديقة أو سيارة أو ملهى ، ملاك فى زيارة طارئة سعيدة للدنيا ، جنس مفرد غير سائر الأجناس لا يعرفه إلا قلبى ، لا يجمعها وهؤلاء النسوة إلا تسمية العاجز عن معرفة الاسم الحقيقى ، لا يجمع جمالها وجمال عائشة وسائر ألوان الجمال إلا تسمية العاجز عن معرفة الاسم الحقيقى ، هاك حياتى أكرسها لمعرفتك ، هل ثمة وراء ذلك ظمأ لعرفان ؟ » .

ـــ يا ترى ما أخبار مريم ؟

تساءلت عائشة حال خطرت صديقتها القديمة ببالها ، فأحدث الاسم آثارا متباينة فى كثير من الجالسين ، تغير وجه أمينة حتى نمت أساريره عن الامتعاض الشديد ، تجاهل ياسين السؤال كأنه لم يسمعه متشاغلا بتفحص أظافره ، وردت رأس كمال جملة من ذكريات هزت نفسه هزا ، أما خديجة فأجابتها بلهجة باردة

ـــ أى أخبار جديدة تتوقعين ؟ طلّقت وعادت إلى بيتها !

انتبهت عائشة ـــ بعد فوات الفرصة ـــ إلى أنها انزلقت سهوا إلى ورطة ، وأنها أساءت إلى أمها بهفوة لسان . ذلك أن أمها آمنت منذ عهد بعيد بأن مريم وأم مريم لم تصدقا فى حزنهما على فهمى ، إن لم تكونا شمتتا بهم من أجل ذلك ، لما سبق من معارضة السيد فى خطبة مريم للفقيد . وكانت خديجة البادئة بترديد ذلك الظن ، فتابعتها الأم عليه بلا تردد أو تفكير ، وسرعان ما تغيرت عواطفهما نحو جارتهما القديمة حتى أوحى ذلك بالتنكر فالقطيعة .

قالت عائشة بارتباك ، محاولة الاعتذار عما بدر منها :

ـــ لا أدرى ماذا دعانى للسؤال عنها ؟

فقالت أمينة بانفعال ظاهر :

ـــ ما ينبغى لك أن تفكرى فيها .

كانت عائشة قد أعلنت شكها ـــ عندذلك التاريخ ـــ فى واقعية التهمة التى ألصقت بصديقتها ، معتلة بأن الخطبة وما دار حولها بقى طى الكتمان ، فلم يتناه

نبوؤه إلى بيت مريم فى حينه ، مما ينفى على الفتاة وآلها دواعى الشماتة .. ولكن أمها لم تر رأيها محتجة بأن مسألة خطيرة كهذه المسألة مما يتعذر منع تسرب خبرها إلى أصحاب الشأن فيها ، فلم تلبث عائشة وراء رأيها طويلا خشية أن تتهم بمحاباة مريم أو بفتور حماسها لذكرى شقيقها ، لكنها بإزاء انفعال أمها ، وجدت نفسها مساقة إلى تلطيف وقع هفوتها ، فقالت :

ــ لا يدرى بالحقيقة يا نينة إلا الله .. لعلها بريئة مما رميناها به .

فاشتد امتعاض أمينة على خلاف ما توقعت عائشة ، حتى لاحت فى وجهها بوادر غضب بدت غريبة عنها لما عرف عنها من حلم وهدوء ، وقالت بصوت متهدج :

ــ لا تحدثينى عن مريم يا عائشة .

وصاحت خديجة مشاركة أمها فى عواطفها :

ــ قطعت مريم وسيرتها !

فابتسمت عائشة فى ارتباك دون أن تنبس . وقد لبث ياسين متشاغلا بأظافره حتى انتهى ذاك الحديث الحامى ، وأوشك مرة أن يشترك فيه متشجعا بقول عائشة « لا يدرى بالحقيقة يا نينة إلا الله .. » ، ولكن اندفاع أمينة إلى الرد عليها بذاك الصوت المتهدج غير المعهود أسكته . أجل أسكته وانطلق لسانه باطنيا بالشكر على نعمة السكوت . وكان كمال يتابع الحديث باهتمام وإن لم يبد أثره على وجهه ، وقد أكسبه حمل الحب عهدا طويلا ــ فى ظروف حساسة غير مواتية ــ قدرة على التمثيل تحكم بها فى كتمان عواطفه ومطالعة الناس ــ إن دعت الضرورة ــ بمظهر على نقيض مخبره ، فذكر ما سمع قديما عن « شماتة » آل مريم ، ومع أنه لم يأخذ التهمة مأخذ الجد إلا أنه تذكر عهد الرسالة السرية التى ذهب بها إلى مريم والرد الذى عاد به إلى فهمى ، ذلك سر قديم صانه ولم يزل مستمسكا بصونه رعاية لعهد أخيه واحتراما لرغبته ، وقد لذ له أن يعجب كيف لم يفقه معنى الرسالة التى حملها إلا أخيرا ، حين انبثقت معانيها فى نفسه خلقا جديدا .. كان ــ على حد تعبيره ــ حجرا يحمل نقوشا مبهمة حتى جاء الحب فحل رموزها ، ولم يفته أن يلاحظ غضب أمه ، وهو ظاهرة جديدة فى حياتها لم تكن تعرفها قبل العهد المشئوم ، لم تعد كما عهد ، أجل لم تتغير تغيرا خطيرا أو دائما ولكنها غدت عرضة

بين الحين والحين لنوبات لم تكن نطرأ عليها ولم تكن إذا طرأت تستسلم لها ، ما عسى أن يقول فى ذلك ؟ ، إن قلب الأم الجريح الذى لا يعرف عنه إلا شذرات وقع عليها بضمن مطالعاته ، شد ما يتألم لها ، ثم ما وراء عائشة وخديجة ؟ ، هل يمكن أن ترمى عائشة ببرود نحو ذكرى فهمى ؟ ، لا يتصور هذا ولا يطيقه ، إنها امرأة سليمة الطوية وفى قلبها متسع للصداقة والمودة ، تميل فيما يبدو ــ ولها عذرها ــ إلى تبرئة مريم ، ولعلها تحن إلى عهدها بهذا القلب المفتوح للناس جميعا ، أما خديجة فقد ازدردتها الحياة الزوجية ، لم تعد إلا أما وربة بيت ، لا حاجة بها إلى مريم أو غيرها ، لم يبق لها من ماضيها إلا عواطفها الثابتة نحو أسرتها ، نحو أمها خاصة ، فهى تدور حيث تدور ، ما أعجب هذا كله !.

ــ وأنت يا سى ياسين إلام تبقى أعزب ؟

وجّه إبراهيم هذا السؤال إلى ياسين ، مدفوعا برغبة صادقة فى تنقية الجو مما شابه ، فأجابه ياسين مازحا :

ــ غادرنى الشباب وقضى الأمر !

فقال خليل شوكت بلهجة جدية ، دلّت على أنه لم يفطن إلى ما فى قول ياسين من مزاح :

ــ لقد تزوجت وأنا فى مثل سنك تقريبا ، ألست فى الثامنة والعشرين ؟

فتضايقت خديجة من ذكر سن ياسين الذى كشف بطريقة غير مباشرة عن سنها ، فخاطبت ياسين قائلة بلهجة حادة :

ــ هلا تزوجت وأرحت الناس من حديث عزوبيتك ؟

فقال ياسين راميا ــ قبل كل شىء ــ إلى التودد إلى أمينة :

ــ مرت بنا أعوام أنست الإنسان رغائبه !

ارتد رأس خديجة إلى الوراء ، كأنما دفعته قبضة يد ، ثم رمته بنظرة كأنما تقول « غلبتني يا شيطان » ، ثم قالت وهى تتنهد :

ــ اه منك ! ، قل إن الزواج لم يعد يروقك وهو الأصدق !

فقالت أمينة ممتنة لتودده :

ــ ياسين رجل طيب ، والرجل الطيب لا يمتنع عن الزواج إلا مضطرا ، الحق آن لك أن تفكر فى استكمال دينك ..

يا طالما فكر فى استكمال دينه ، لا ليجرب حظه من جديد فحسب ولكن رغبة فى رد الإهانة التى لحقت به يوم اضطر — بدافع من أبيه — إلى تطليق زينب إنفاذا « لمشيئة » أبيها محمد عفت !! ثم كان مصرع فهمي فصرفه عن التفكير فى الزواج حتى كاد يألف هذه الحياة الطليقة ويعتادها ، غير أنه قال لأمينة ، وكان يؤمن بما يقول :

— لا بد مما ليس منه بد ، وكل شيء رهن بوقته ..

قطع عليهم أفكارهم بغتة ضجة وصياح وضوضاء جاءت من ناحية السلم ، مختلطة بوقع أقدام متدافعة ، فاتجهت الأبصار متسائلة نحو باب السلم ، وما هى إلا لحظة حتى ظهرت أم حنفى على عتبة الباب عابسة لاهثة ، وهى تصيح :

— الأولاد يا ستى ، سى عبد المنعم وسى رضوان متشابكان ، رمونى بالحصى وأنا أخلص بينهما ..

قام ياسين وخديجة ، فهرعا إلى الباب ، ثم نفذا إلى السلم ، ومضت دقيقة أو دقيقتان عادا بعدها ، ياسين قابضا على يد رضوان ، وخديجة دافعة أمامها عبد المنعم وهى تلكمه برخمة فى ظهره ، ثم تتابعت البقية مهللة ، فجرت نعيمة إلى أبيها خليل ، وعثمان إلى عائشة ، ومحمد إلى جدته أمينة ، وأحمد إلى أبيه إبراهيم ، ثم جعلت خديجة تنتهر عبد المنعم وتنذره بأنه لن يرى بيت جده مرة أخرى ، حتى صاح بصوت باك ، وهو يشير متهما إلى رضوان الذى جلس بين أبيه وكمال :

— قال إنهم أغنى منّا ..

فصاح رضوان محتجا :

— هو الذى قال لى إنهم أغنى منّا ، وقال أيضا : إنهم يملكون بوابة المتولى بكنوزها !

فطيب ياسين خاطره ، وهو يقول ضاحكا :

— اعذره يا بنى ، إنه مزّاع مثل أمه ..!

فقالت خديجة لرضوان ، وهى لا تتمالك نفسها من الضحك :

— تتشاجران على بوابة المتولى ؟! عندك يا سيدى باب النصر وهى قريبة من بيت جدك ، فخذها ولا تتشاجر !

فقال رضوان ، وهو يهز رأسه بإباء :

ـــ فيها أموات لا كنوز ، فليأخذها هو !

عند ذاك علا صوت عائشة ، وهى تقول برجاء وإغراء :

ـــ صلوا على النبى ، أمامكم فرصة نادرة كى تسمعوا نعيمة وهى تغنى ، ما رأيكم فى هذا الاقتراح ؟..

فجاءها الاستحسان والتشجيع من أركان الصالة جميعا ، حتى رفع خليل نعيمة بين يديه ووضعها على حجره ، وهو يقول لها « أسمعى هذا الجمهور صوتك . الله .. الله .. ، إياك والخجل ، أنا لا أحب الخجل » ، ولكن نعيمة غلب عليها الخجل ، فدفنت وجهها فى حجر أبيها حتى لم يعد يبدو منه إلا هالة من نضار الذهب ، وحانت من عائشة التفاتة ، فرأت محمد وهو يحاول عبثا أن ينزع الشامة من خد جدته ، وقامت إليه وعادت به إلى مجلسها رغم ممانعته ، ثم واصلت تشجيع نعيمة على الغناء ، وألح معها خليل حتى همست الصغيرة فى أذن أبيها بأنها لن تغنى إلا إذا توارت عن الأنظار وراء ظهره ، فسمح لها بما أرادت ، فزحفت على أربع حتى لبدت بين ظهره ومسند الكنبة .. وعند ذاك شمل الصالة سكون باسم مترقب ، وامتدت فترة السكوت فأوشك خليل أن يفقد صبره ، ولكن صوتا رفيعا لطيفا بدأ يتكلم فيما يشبه الهمس ، ثم أخذ يتشجع رويدا رويدا ، حتى سرت فى نبراته الحرارة فعلا مغنيا :

حوِّد من هنـــا   وتعال عندنـــا
يا اللى أنـا وانت   نحب بعضنـــا

وراحت الأيدى الصغيرة تصفق على إيقاعه .

٤

ـــ آن لك أن تخبرنى عن المدرسة التى تنوى الالتحاق بها ..

كان السيد أحمد عبد الجواد متربعا على الكنبة بحجرة نومه ، على حين جلس كمال على طرفها المواجه للباب شابكا ذراعيه على حجره يكتنفه الأدب والطاعة . ود السيد لو يجيبه الفتى قائلا : « الرأى رأيك يا أبى » . بيد أنه كان مسلما بأن اختيار المدرسة ليس من الأمور التى يدعى لنفسه فيها حقا مطلقا ، وأن موافقة الابن عامل جوهرى فى الاختيار ، إلى أن مدى علمه بالموضوع كله كان محدودا جدا ، وقد استمد أكثره مما يثار أحيانا فى بعض مجالسه بين أصحابه من الموظفين والمحامين الذين أجمعوا على الإقرار بحق الابن فى اختيار نوع دراسته تفاديا من الإخفاق والفشل ، لهذا كله لم يستنكف أن يجعل الأمر شورى مسلما أمره إلى الله ..

ـــ نويت يا بابا بإذن الله ، وبعد موافقة حضرتك طبعا ! الالتحاق بمدرسة المعلمين العليا ..

ندت عن رأس السيد حركة موحية بالانزعاج ، واتسعت عيناه الزرقاوان الواسعتان ، وهو يحدج ابنه بغرابة ، ثم قال بنبرات ناطقة بالاستنكار :

ـــ المعلمين العليا !.. مدرسة المجانية !. أليس كذلك ؟.

فقال كمال بعد تردد :

ـــ ربما ، لا أدرى شيئا عن هذا الموضوع ..

فلوح السيد بيده مستهزئا ، كأنما أراد أن يقول له : « ينبغى أن تتجمل بالصبر قبل أن تقطع برأى فيما ليس لك به علم » ، ثم قال بازدراء :

ـــ هى كما قلت لك ، ولذلك يندر أن تجذب أحدا من أولاد الناس الطيبين ، ثم أن مهنة المعلم .. أتدرى شيئا عن مهنة المعلم أم أن علمك بها لا يعدو علمك بمدرستها ؟ ، هى مهنة تعيسة لا تحوز احترام أحد من الناس ، إنى عليم بما يقال عن هذه الشئون ، أما أنت فغرّ صغير لا تدرى من أمور الدنيا شيئا ، هى مهنة يختلط فيها الأفندى بالمجاور ، خالية من كل معانى العظمة والجلال ، ولقد عرفت أناسا من الأعيان والموظفين المحترمين يأبون ـــ الإباء كله ـــ أن يزوجوا بناتهم من معلم مهما

تكن مكانته ..

ثم بعد أن تجشأ ونفخ طويلا :

ـــ فؤاد بن جميل الحمزاوى ، وهو من كنت تخلع عليه البالى من بذلك سيلتحق بمدرسة الحقوق ، ولد ذكى متفوق ولكنه ليس أذكى منك ، وقد وعدت أباه بالمعاونة فى تسديد مصروفاته حتى تتحقق له المجانية ، فكيف أنفق على أولاد الناس فى المدارس المحترمة وابنى يتعلم بالمجان فى المدارس الحقيرة ؟!..

كان هذا التقرير الخطير عن « المعلم ورسالته » مفاجأة مزعجة لكمال . لم هذا التحامل كله ؟. لا يمكن أن يرجع ذلك إلى علم المعلم الذى هو تلقين العلم ، فهل يرجع إلى مجانية المدرسة التى تخرجه ؟. لم يكن يتصور أن يكون للغنى أو للفقر دخل فى تقدير العلم أو أن يكون للعلم قيمة خارجة عن ذاته . كان يؤمن بذلك إيمانا عميقا لا يمكن أن يتزعزع ، كما يؤمن بكفالة الآراء السامية التى يطلع عليها فى مؤلفات رجال يحبهم ويعتز بهم ، مثل : المنفلوطى ، والمويلحى وغيرهما . كان يعيش بكل قلبه فى عالم « المثال » كما ينعكس على صفحات الكتب ، فلم يتردد فيما بينه وبين نفسه عن تخطئة رأى أبيه رغم جلاله ومكانته من نفسه ، معتذرا عن ذلك بجناية المجتمع المتأخر عليه ، وأثر « الجهلاء » من أصحابه فيه ، وهو ما أسف له كل الأسف ، بيد أنه لم يسعه إلا أن يقول ملتزما غاية ما يستطيع من الأدب والرقة ، وكان فى الواقع يردد نصا من مطالعاته :

ـــ العلم فوق الجاه والمال يا بابا ..

ردد السيد رأسه بين كمال وبين صوان الملابس ، كأنما يُشهد شخصا غير منظور على خرق الرأى الذى سمع ، ثم قال باستياء :

ـــ حقا ؟! عشت حتى أسمع هذا الكلام الفارغ ، كأن ثمة فرقا بين الجاه والعلم ! لا علم حقيقى بلا جاه ومال . ثم مالك تتكلم عن العلم كأنه علم واحد ! ألم أقل لك إنك غر صغير ؟ هنالك علوم لا علم واحد . للصعاليك علومهم ، وللباشوات علومهم . افهم يا جاهل قبل أن تندم !.

كان على يقين من احترام أبيه للدين ولأهله بالتالى ، فقال بمكر :

ـــ إن الأزهريين يتعلمون كذلك بالمجان ويشتغلون بالتدريس ، ولكن أحدا لا يستطيع أن يحتقر علومهم ..

فأومأ له بذقنه باحتقار ، وهو يقول :

ـــ الدين شيء ، ورجال الدين شيء آخر !

فقال مستمدا من اليأس قوة يستعين بها على مناقشة الرجل الذى لم يتعود إلا طاعته :

ـــ ولكنك يا بابا تحترم علماء الدين وتحبهم !

فقال السيد بلهجة لم تخل من حدة :

ـــ لا تخلط بين الأمور ، أنا أحترم الشيخ متولى عبد الصمد وأحبه كذلك ، ولكن أن أراك موظفا محترما أحب إلىَّ من أن أراك مثله ، ولو سرت بالبركة بين الناس ودفعت عنهم السوء بالأحجبة والتعاويذ .. لكل زمان رجال ، ولكنك لا تريد أن تفهم !

تفحص الرجل الشاب ليسبر أثر كلامه فيه ، فغض كمال بصره ، وعض على شفته السفلى ، وجعل يرمش ، ويحرك زاوية فيه اليسرى فى عصبية . يا عجبا !. ألهذا الحاضر يصر الناس على ما فيه ضرر محقق لهم ؟. وأوشك أن ينفجر غاضبا ، ولكنه تذكر أنه إنما يعالج أمرا خارجا عن نطاق سلطته المطلقة ، فكظم غيظه ، وساءله :

ـــ ولكن ما الذى جعلك تتحمس لمدرسة المعلمين وحدها كأنها استأثرت بالعلم كله ؟!. ما الذى لا يروقك فى مدرسة الحقوق مثلا ؟. أليست هى المدرسة التى تخرج الكبراء والوزراء ؟. أليست هى المدرسة التى تثقف بعلومها سعد باشا وأضرابه من الرجال ؟.

ثم بصوت منخفض ، وقد عكست عيناه نظرة واجمة :

ـــ وهى المدرسة التى وقع اختيار المرحوم فهمى عليها بعد روية وتفكير ، ولو لم يعاجله الأجل لكان اليوم من رجال النيابة أو القضاء ، أليس كذلك ؟

قال كمال بتأثر :

ـــ جميع قولك حق يا بابا ، ولكننى لا أحب دراسة القانون !.

ضرب الرجل كفا بكف ، وهو يقول :

ـــ لا يحب ! ، وما دخل الحب فى العلم والمدارس ؟!. قل لى ماذا تحب فى مدرسة المعلمين ؟ ، أريد أن أعرف أمارات الحسن التى فتنتك فيها ، أم أنت ممن

يحبون الرمامة ؟ ، تكلم ها أنا مصغ إليك ..

ندت عنه حركة ، كأنه يستجمع قواه لإيضاح ما غمض على أبيه من الرأى ، ولكنه كان مسلما بصعوبة مهمته ، ومقتنعا فى الوقت نفسه بأنها ستجر عليه مزيدا من السخريات التى ذاق أمثلة منها فيما سلف من النقاش ، وفضلا عن هذا كله ، فلم يكن يستبين هدفا واضحا محددا حتى يستطيع بدوره أن يوضحه لأبيه ، فما عسى أن يقول ؟. فى وسعه إذا تأمل قليلا أن يعرف ما لا يريد ، فليس القانون ببغيته ولا الاقتصاد ولا الجغرافيا ولا التاريخ ولا اللغة الإنجليزية وإن كان يقدر أهمية المادتين الأخيرتين لما يتطلع إليه ، هذا ما لا يريد ، فما الذى يريد ؟. إن فى نفسه أشواقا تحتاج إلى عناية وتأمل حتى تتضح أهدافها ، ولعله غير متوكد من أنه سيظفر بها فى مدرسة المعلمين ، وإن رجح عنده أن تكون ــ هذه المدرسة ــ أقصر سبيل إليها . أشواق تهزها مطالعات شتى لا تكاد تجمعها صفة واحدة : مقالات أدبية ، واجتماعية ، ودينية ، وملحمة عنتر ، وألف ليلة ، والحماسة ، والمنفلوطى ، ومبادىء الفلسفة ، إلى أنها ربما لم تكن مقطوعة الصلة بالأحلام التى كاشفه بها ياسين قديما ، بل والأساطير التى سكبتها فى روحه أمه من قبل ذلك .. كان يحلو له أن يطلق على هذا العالم الغامض اسم « الفكر » ، وعلى نفسه اسم « المفكر » ، فيؤمن بأن حياة الفكر أسمى غاية للإنسان تتعالى بطبعها النورانى على المادة والجاه والألقاب وسائر ألوان العظمة الزائفة .. هى كذلك !! وضحت معالمها أم لم تتضح ، فاز بها فى مدرسة المعلمين أم لم تكن هذ المدرسة إلا وسيلة إليها ، لا يملك عقله أن يتحول عن هذه الغاية أبداً ، ولكن من الحق كذلك أن يقر بأن ثمة صلة قوية تربطها بقلبه أو بالحرى بحبه !. كيف كان ذلك ؟. ليس بين « معبودته » وبين القانون أو الاقتصاد من سبب ، ولكن ثمة أسباب وإن دقت وخفيت بينها وبين الدين والروح والخلق والفلسفة وما شاكل ذلك من المعارف التى يستهويه النهل من منابعها ، على نحو يشبه ما بينها وبين الغناء والموسيقى من أسرار يتشوف إليها فى هزة الطرب وأريحية النشوة . إنه يجد هذا كله فى نفسه ويؤمن به كل الإيمان ، ولكن ما عسى أن يقول لأبيه ؟. لجأ مرة أخرى إلى المكر ، وهو يقول :

ــ إن مدرسة المعلمين تدرس علوما جليلة ، كتاريخ الإنسان الحافل بالعظات ، وكاللغة الإنجليزية !.

كان السيد يتفحصه وهو يتكلم ، وإذا بمشاعر الاستياء والحنق تزايله فجأة . تأمل ـــ وكأنه يراه لأول مرة ـــ نحافته وضخامة رأسه وكبر أنفه وطول عنقه ، فوجد فى منظره غرابة تضاهى ما فى آرائه من شذوذ ، وأوشكت روحه الساخرة أن تضحك فى باطنه ، ولكن عطفه وحبه أبيا عليه ذلك ، غير أنه تساءل فيما بينه وبين نفسه : النحافة ظاهرة مؤقتة ، الأنف عندى مصدره ، ولكن من أين له هذا الرأس العجيب ؟، أليس من المحتمل أن يعرض له شخص ـــ مثلى ـــ ممن ينقبون عن العيوب صيدا لمزاحهم ؟ ضايقته هه الفكرة مضايقة ضاعفت من عطفه عليه ، فعندما تكلم جاء صوته أهدأ نبرة وأدنى إلى الحلم والنصح ، قال :

ـــ العلم فى ذاته لا شىء ، والعبرة بالنتيجة ، القانون يفضى بك إلى وظيفة القضاء ، أما التاريخ والعظات فمؤداها أن تكون معلما بائسا ، عند هذه النتيجة قف طويلا وتأمل (ثم ونبرات صوته تعلو قليلا فى شىء من الحدة) لا حول ولا قوة إلا بالله ، عظات وتاريخ وسخام ، هلا حدثتنى بكلام معقول ؟!

تورد وجه كمال حياء وألما وهو يستمع إلى رأى أبيه فى المعارف والقيم السامية التى يقدسها ، وكيف استنزلها إلى مستوى السخام وقرنها به ، غير أنه لم يعدم عزاء فيما ورد ذهنه ـــ فى لحظته تلك ـــ جليل دون شك ، إلا أنه ضحية زمان ومكان ورفاق . ترى هل يجدى معه النقاش ؟ هل يجرب حظه مرة أخرى مستعينا بمكر جديد ؟

ـــ الواقع يا بابا أن هذه العلوم تحوز أكبر التقدير فى الأمم الراقية ؟ إن الأوروبيين يقدسونها ، ويقيمون التماثيل للنابغين فيها !

حوّل السيد وجهه عنه ، ولسان حاله يقول : « اللهم طوّلك يا روح » ، بيد أنه لم يكن غاضبا حقا ، ولعله رأى الأمر كله مفاجأة مضحكة لم تخطر له ببال ، ثم أعاد إليه وجهه ، وهو يقول :

ـــ بصفتى والدك ! أريد أن أطمئن على مستقبلك ، أريد لك وظيفة محترمة ، هل يختلف اثنان فى هذا ؟ ، الذى يهمنى حقا أن أراك موظفا مهابا لا مدرسا بائسا وإن أقاموا له تمثالا كإبراهيم باشا أبى أصبع ! يا سبحان الله !. عشنا وشفنا وسمعنا العجب ! ما لنا نحن وأوربا ؟! أنت تعيش فى هذا البلد ، فهل هو يقيم التماثيل للمعلمين ؟.. دلنى على تمثال واحد لمعلم ؟! (ثم بلهجة استنكارية) خبرنى

يا بني : أتريد وظيفة أم تمثالا ؟!

ولما لم يجد إلا الصمت والارتباك ، قال فيما يشبه الحزن :

ـــ فى رأسك أفكار لا أدرى كيف اندست إليه ، إنى أدعوك إلى أن تكون واحدا من الرجال العظماء الذين يهزون الدنيا بجلالهم ومراكزهم ، فهل عندك مثال تتطلع إليه لا أدريه ؟ ، صارحني بما فى نفسك حتى يرتاح بالى وأدرك غرضك ، الحق أنى فى حيرة من أمرك !!

فليتقدم خطوة جديدة يفصح بها عن بعض ما فى نفسه وأمره لله ، قال :

ـــ هل من العيب يا بابا أن أتطلع إلى أن أكون كالمنفلوطى يوما ما ؟

قال السيد بدهشة :

ـــ الشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى !؟. رحمة الله عليه رأيته أكثر من مرة فى سيدنا الحسين .. لكنه لم يكن معلما فيما أعلم ، كان أعظم من هذا بكثير ، كان من جلساء سعد وكتَّابه ، ثم إنه كان من الأزهر لا من المعلمين ، ولا شأن للأزهر نفسه بعظمته ، كان هبة من الله .. هكذا يقولون عنه !! نحن نبحث فى مستقبلك والمدرسة التى ينبغى أن تدخلها ولندع ما لله لله ، فإن كنت أنت الآخر هبة من الله أيضا ، فستكون فى عظمة المنفلوطى وأنت وكيل نيابة أو قاض ، لم لا ؟!

كال ، وهو يناضل فى استماتة :

ـــ لست أتطلع إلى شخص المنفلوطى فحسب ولكن إلى ثقافته أيضا ، ولا أجد مدرسة هى أقرب إلى تحقيق غرضى ، أو فى الأقل إلى تمهيد السبيل إليه من مدرسة المعلمين ، لذلك آثرتها ، ليس بى من رغبة خاصة فى أن أكون معلما ، بل لعلى لم أقبل هذا إلا لأنه السبيل المتاح إلى ثقافة الفكر ..

الفكر ؟!.. وردد مقطع أغنية الحامولى « الفكر تاه اسعفينى يا دموع العين » . الذى طالما أحبه واستعاده فيما مضى من زمانه ، أهذا هو الفكر الذى يسعى وراءه ابنه ؟، سأله بدهشة :

ـــ ما هى ثقافة الفكر ؟

لجَّت به الحيرة ، فازدرد ريقه ، وقال بصوت منخفض :

ـــ لعلى لا أعرفها ، (ثم يبتسم متوددا) لو كنت أعرفها لما كان بى حاجة إلى طلب تعلمها !

فسأله مستنكرا :

ـــ إذا كنت لا تعرفها فبأى حق اخترتها ؟.. هه .؟.. هل تهيم بالضعة لوجه الله ؟

تغلب على ارتباكه بجهد شديد ، وقال مدفوعا باستماتته فى الدفاع عن سعادته :

ـــ إنها أكبر من أن يحاط بها ، إنها تبحث فيما تبحث عن أصل الحياة ومآلها !

تأمله مليا فى ذهول قبل أن يقول :

ـــ أمن أجل هذا تريد أن تضحى بمستقبلك ؟. أصل الحياة ومآلها ؟! أصل الحياة آدم ، ومصيرنا إلى الجنة أو النار . أم جد جديد فى ذلك ؟

ـــ كلا ، أعلم هذا ، أريد أن أقول ..

فعاجله قائلا :

ـــ هل جننت ؟.. أسألك عن مستقبلك ، فتجيبنى بأنك تريد أن تعرف أصل الحياة ومآلها ؟!.. وماذا تعمل بعد ذلك ؟.. تفتح دكانا لاستطلاع الغيب ؟!

خاف كمال إن هو استسلم للارتباك والصمت أن يغلب على أمره أو يضطر إلى التسليم بوجهة نظر أبيه ، فقال مستنجداً شجاعته :

ـــ اعذرنى يا بابا إذا لم أكن أحسنت التعبير عن رأيى ، أريد أن أواصل دراستى الأدبية التى بدأتها بعد الكفاءة ، أن أدرس التاريخ واللغات والأخلاق والشعر ، أما المستقبل فأمره بيد الله !

فهتف السيد متهكما حانقا ، وكأنما يتم سرد ما سكت كمال عنه :

ـــ وأدرس أيضا فن الحواة والقره جوز وفتح المندل ونبين زين نبين . لم لا ، اللهم غفرانك ، أكنت حقا تدخر لى هذه المفاجأة ؟.. لا حول ولا قوة إلا بالله !

اقتنع السيد أحمد بأن الحال أخطر مما قدّر ، فحار فى أمره ، وجعل يسائل نفسه : أأخطأ فيما أباح لابنه من حرية القول والرأى ؟ ، كلما مد له فى حبل الصبر والتسامح لج الآخر فى العناد وتمادى فى الجدل .. وما لبث أن قام فى نفسه صراع بين نزعته الاستبدادية وبين تسليمه بحق « اختيار المدرسة » ، حرصا على مستقبل كمال من ناحية وكراهية للانهزام من ناحية أخرى ، ولكنه انتهى على غير عادته ـــ أو بالأحرى على غير عادته فى الزمن القديم ـــ بتغليب الحكمة ، فعاد إلى النقاش وهو يقول :

ـــ لا تكن غرا ، ثمة شيء فى عقلك لا أدريه أسأل الله لك منه النجاة ، ليس المستقبل لهوا ولعبا ، ولكنه حياتك التى لن تكون لك حياة غيرها ، فكر فى الأمر طويلا ، الحقوق خير مدرسة لك ، إنى أفهم الدنيا خير منك ، ولى أصدقاء من كافة الطبقات ولا خلاف بينهم فى ذلك ، أنت طُفل أحمق ، ألا تدرى ما هى النيابة وما هو القضاء ؟. هذه وظائف تهز الأرض هزاً وفى وسعك أن تتبوأ واحدة منها ، كيف تعرض عنها بكل بساطة وتختار أن تكون .. معلما ؟!

شد ما يتألم ـــ لا غضبا لكرامة المعلم فحسب ـــ ولكن غضبا لكرامة العلم أولا وأخيرا ، العلم الحقيقى فى نظره !. لم يكن حسن الظن بالوظائف التى تهز الأرض هزا ، فطالما وجد الكتّاب المسيطرين على روحه يطلقون عليها العظمة الزائفة والمجد الزائل وغير ذلك من نعوت الاستهانة والاستخفاف ، فآمن ـــ تبعا لأقوالهم ـــ بألا عظمة حقيقية إلا فى حياة العلم والحقيقة ، واقترنت من ثم كل مظاهر السلطان والجاه فى ذهنه بالزيف والتفاهة ، غير أنه تحاشى الإفصاح عن إيمانه هذا أن يستفحل غضب أبيه ، وقال برقة وتودد :

ـــ على أى حال مدرسة المعلمين مدرسة عليا !

تفكر السيد مليا ، ثم قال متبرما يائسا :

ـــ إذا لم تكن بك رغبة فى الحقوق ، وبعض الناس يعشقون التعاسة ، فاختر مدرسة محترمة : الحربية ، البوليس .. وشىء خير من لا شىء !

فقال كمال منزعجا :

ـــ أدخل الحربية أو البوليس وقد نلت البكالوريا ؟

ـــ ما حيلتى إذا لم يكن لك فى الطب نصيب ؟!

عند ذاك شعر بضوء آت من ناحية المرآة أقلق عينه اليسرى ، فمد بصره صوب الصوان ، فرأى أشعة شمس العصر المائلة المتسربة إلى الحجرة من النافذة المطلة على الفناء ، وقد زحفت من الجدار المواجه للفراش حتى غيبت جانب المرآة ، مؤذنة باقتراب موعد انصرافه إلى الدكان ، فتزحزح قليلا مبتعدا عن الضوء المنعكس ، ثم نفخ نفخة وشت بضيقه وأنذرت ـــ أو بشرت ـــ فى الوقت نفسه بوشك انتهاء الحديث ، وتساءل واجما :

ـــ ألا توجد مدرسة أخرى غير هذه المدارس المغضوب عليها ؟

فقال كمال وهو يغض بصره حرجا لعجزه عن إرضاء أبيه :

ــ لم يبق إلا مدرسة التجارة ولا أرب لى فيها !

ومع أن مبادرته إلى الرفض أحنقته ، إلا أنه لم يجد من نفسه نحو المدرسة الجديدة إلا الفتور ، لظنه أنها إنما تخرج « تجارا » ، ولم يكن يرضى لابنه أن يكون تاجرا . لم يغب عن علمه أول الأمر أن متجرا كمتجره ــ وإن هيأ له حياة صالحة ــ فإنه أعز من أن يهيىء هذه الحياة لمن يخلفه فيها من أبنائه إذا روعى ما سيفرق من دخله على بقية المستحقين ، فلن يعمل على إعداد أحد منهم ليحل محله ، على أن ذلك لم يكن السبب الجوهرى لفتوره ، كان فى الحق يكبر الوظيفة والموظفين ويدرك خطرهم ومنزلتهم فى الحياة العامة كما لمس ذلك بنفسه ، سواء فى أصدقائه من الموظفين أو فى بعض اتصالاته الحكومية المتعلقة بعمله ، فأراد أبناءه على أن يكونوا موظفين وأعدهم لذاك ، كذلك لم يكن يخفى عليه أن التجارة لا تحظى بربع ما تحظى به الوظيفة من التقدير فى نظر الناس وإن أخلفت أضعافها من المال . وهو نفسه شارك الناس شعورهم وإن لم يعترف بذلك بلسانه ، بل كان يعتز بإكبار الموظفين له فيعد نفسه من الناحية « العقلية » موظفا أو ندا للموظفين ، ولكن من غيره يسعه أن يكون تاجرا وندا للموظفين معا ؟ ، ومن أين لأبنائه بشخصية مثل شخصيته ؟!. آه يا لها من خيبة أمل !. كم تمنى قديما أن يرى ابنا من أبنائه طبيبا ، وكم ناط بفهمى أمنيته حتى قيل له إن البكالوريا الآداب لا تؤدى إلى مدرسة الطب فرضى بالحقوق واستبشر بما بعدها خيرا ، ثم علق أمله بكمال فاختار قسم الآداب فعاد الرجل يحلم بما بعد الحقوق ، ولكنه لم يتصور قط أن تنجلى المعركة بين آماله وبين الأقدار بوفاة « نابغة » الأسرة ، وبإصرار كمال على أن يكون معلما !، أى خيبة أمل .! وبدا السيد حزينا حقا ، وهو يقول :

ــ لقد أخلصت لك النصيحة وأنت حر فيما تختار لنفسك ، ولكن ينبغى أن تذكر دائما أننى لم أوافقك على رأيك ، فكر فى الأمر طويلا ، لا تتعجل ، فما يزال أمامك فسحة من الوقت وإلا ندمت على سوء اختيارك مدى الحياة ، أعوذ بالله من الحمق والجهل والسخف !!

وطرح الرجل رجله على الأرض آتيا حركة دلت على شروعه فى القيام ليأخذ أهبته لمغادرة البيت ، فنهض كمال فى أدب وحياء ، وانصرف .

عاد إلى الصالة فوجد أمه وياسين جالسين يتحادثان ، وكان موزع النفس كاسف البال لمعارضته لأبيه ولإصراره على معارضته رغم ما أبدى الرجل من حلم ولين ، ثم لما بدا عليه أخيرا من ضيق وحزن ، فقص على ياسين خلاصة ما دار فى الحجرة من نقاش ، وأنصت إليه الشاب وعلى جبهته علامة احتجاج وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة ، وسرعان ما صارحه بأنه من رأى السيد وأنه يعجب لجهله للقيم الجليلة فى هذه الحياة ، وتطلعه لأخرى وهمية أو سخيفة . تريد أن تجود بحياتك للعلم ؟ ما معنى هذا ؟! إنه سلوك رائع كما يبدو فى فصل من فصول المنفلوطى أو فى نظرة من نظراته ، أما فى الحياة فما هو إلا عبث لا يقدم ولا يؤخر ، وأنت تعيش فى الحياة لا فى كتب المنفلوطى .. أليس كذلك ؟ الكتب تقرر أمورا غريبة وخارقة ، مثال ذلك ، أنك تقرأ فيها أحيانا « كاد المعلم أن يكون رسولا » ، ولكن هل صادفت مرة معلما يكاد أن يكون رسولا ؟ تعال معى إلى مدرسة النحاسين أو تذكر من تشاء من معلميك ، ودلنى على واحد منهم يستحق أن يكون آدميا لا رسولا ! وما هذا العلم الذى تريد ؟. أخلاق وتاريخ وشعر ؟ كل أولئك جميل للتسلية ، حاذر من أن تفلت من يديك فرصة الحياة الرفيعة ، كم أتحسر أحيانا على معاكسة الظروف التى حالت بينى وبين مواصلة الدراسة !.

تساءل عندما خلا إلى أمه على أثر ذهاب الأب وياسين ، ترى ما رأيها ؟.. لم تكن ممن يؤخذ رأيهم فى مثل هذا الأمر ، بيد أنها تابعت أكثر حديثه مع ياسين ، إلى أنها كانت على علم برغبة السيد فى إلحاقه بمدرسة الحقوق ، الأمر الذى باتت تتطير منه فلم ترتح إليه ، على أن كمال كان يعرف كيف يظفر بموافقتها من أقصر سبيل ، قال لها :

ــــ إن العلم الذى أرغب فى دراسته وثيق الصلة بالدين ، ومن فروعه : الحكمة والأخلاق ، وتأمل صفات الله وكنه آياته ومخلوقاته !

فتطلق وجه أمينة ، وقالت بحماس :

ــــ هذا هو العلم حقا ، علم أبى ، علم جدك ، إنه أجلّ العلوم !

وفكرت قليلا وهو ينظر إليها من طرف خفى باسما ، ثم عادت تقول بنفس الحماس :

ـ منذا الذى يحتقر المعلم يا بنى ؟. ألم يقولوا فى الأمثال « من علمنى حرفا صرت له عبدا » ؟

فقال مرددا حجة أبيه الذى هاجم بها اختياره ، وكأنما يستوهبها رأيا يؤكد به موقفه :

ـــ ولكنهم يقولون ، إن المعلم لا حظ له فى المناصب الرفيعة !

فلوحت بيدها باستهانة قائلة :

ـــ المعلم موفور الرزق . أليس كذلك ؟، حسبك هذا ، إنى أسأل الله لك الصحة وطول العمر وصالح العلم ، كان جدك يقول : « إن العلم أعز من المال » !

أليس عجيبا أن يكون رأى أمه خيرا من رأى أبيه ؟. ولكنه ليس برأى ، إنه شعور سليم ، لم تفسده ممارسة الحياة الواقعة التى أفسدت رأى أبيه . ولعل جهلها بشئون العالم هو الذى صان شعورها عن الفساد ، ترى ما قيمة شعور ـــ وإن سما ـــ إذا كان مصدره الجهل ؟ وألا يكون لهذا الجهل نفسه أثره فى تكوين آرائه ؟.. ثار على هذا المنطق ، وقال يحاوره : إنه عرف الدنيا خيرها وشرها فى الكتب وآثر الخير عن إيمان وتفكير ، وقد يلتقى الشعور الفطرى الساذج بالرأى الحكيم دون أن تهوى سذاجة الفطرة من أصالة الحكمة . أجل ! إنه لا يشك لحظة فى صدق رأيه وجلاله ، ولكن هل يدرى ماذا يريد ؟، ليست مهنة المعلم بالتى تجذبه ، إنه يحلم أن يؤلف كتابا ، هذه هى الحقيقة ، أى كتاب ؟، لن يكون شعرا ، إذا كانت كراسة أسراره تحوى شعرا ، فمرجع ذلك إلى أن عايدة تحيل النثر شعرا لا إلى شاعرية أصيلة فيه ، فالكتاب سيكون نثرا ، وسيكون مجلدا ضخما فى حجم القرآن الكريم وشكله ، وستحدق بصفحاته هوامش الشرح والتفسير كذلك ، ولكن عم يكتب ؟. ألم يحو القرآن كل شىء ؟ لا ينبغى أن ييأس ، ليجدن موضوعه يوما ما ، حسبه الآن أنه عرف حجم الكتاب وشكله وهوامشه ، أليس كتاب يهز الأرض خيرا من وظيفة وإن هزت الأرض ؟! كل المتعلمين يعرفون سقراط ، ولكن من منهم يعرف القضاة الذين حاكموه ؟!

٥

ـــ مساء النور !..

لا تجيب ! ، هذا ما قدرته وما أنا به عليم . هى البداية دائما .. منذ قديم وإلى الأبد ، ها هى توليك ظهرها ، ابتعدت عن الحائط نحو حبل الغسيل ، تحبك المشابك ، ألم تحبكيها من قبل ؟../ بلى ولكنك تدارين موقفك ، إنى أفهم كل الفهم ، عشرة أعوام فى المجون ليست بالخبرة القليلة ، متع عينيك بمنظرها قبل أن يستقر الظلام الزاحف فلا تبدو إلا شبحا ، سمنت واكتنزت ، زادت حسنا عما كانت أيام صباها . كالغزال كانت ولكنها لم تكن تملك هذه الأرداف العبلة ، رويدا .. لم يزل لها من رشاقة البكارة نصيب محترم ، ما عمرك يا شاطرة ؟ زعم أهلك قديما أنك فى سن خديجة . رأى خديجة أنك تكبرينها بسنوات وسنوات . امرأة أبي تؤكد هذه الأيام أنك فى الثلاثين مستشهدة بذكريات قديمة من نوع : أيام كنت حبلى فى خديجة كانت صبية فى الخامسة الخ ، ما قيمة العمر ؟. هل أنت ستعاشرها حتى الكبر ؟!، فى الأيام القصيرة تستوى الشابة والنصف ، جميلة وجذابة ومشبعة دسمة ، آه ، نظرت صوب الطريق ولحظتك ، أرأيت مقلتها وهى تلحظك كالدجاجة ؟ ، لن أبرح موقفى يا مليحة ، فتى تعرفين الشيء الكثير عن جماله وقوته وماله ، أليس هو خيرا من ذلك الإنجليزى القديم ..؟

ـــ هل التحية عندكم لا تستحق ردا ولو بمثلها ؟

ولّتك قذالها مرة أخرى ، مهلا .. ألم تبتسم ؟ ، بلى ومن سوّى جمالها فجعله فتنة ، لقد ابتسمت ، مهدت لهذه الخطوة الأخيرة فأحسنت التمهيد ، لا شك أنها تعلم بكل حركاتى ومناوراتى السابقة ، آن لى .. وآن لك .. من حسن حظى أنك لست من المصابات بداء الحشمة ، ذاك الإنجليزى .. جوليون ، الجواد الكريم القائم أمامك موطأ المتن ، ألا تسمعين حمحمته ؟

ـــ أليس للجار عندكم إكرام ؟.. إنى أشحذك تحية هى من صميم حقوقى !

جاءه صوت رقيق خافت ـــ بدا لتحول الوجه عنه كأنه آت من بعيد ـــ وهو يقول :

ـــ ليست من حقك .. على هذا النحو !

أجيب الطارق . رفعت سقاطة الباب . لن تظفر بالمناغاة حتى تلعق الزجر . اثبت ، الثبات .. الثبات .. كما يهتف به المجاورون :

ـــ إذا كان صدر منى ما أغضبك فلن أغتفره لنفسى ما حييت ؟

هى فى عتاب :

ـــ إن سطح بيت أم على ، الداية ، فى مستوى سطحنا وسطحكم ، ما عسى أن يظن الناظر إذا رأى موقفك منى وأنا أنشر الغسيل ؟..

ثم فى تساؤل هازىء :

ـــ أم تريد أن تجعل منى أحدوثة ؟!

بعد الشر عنك ؟ هل راعيت هذا الحذر فى موقفك مع جوليون فى الزمن القديم ؟ ، لكن مهلا ، إن جمال عينيك وعجيزتك يغفر ما تقدم وما تأخر من ذنبك !

ـــ لا أبقانى الله فى الحياة لحظة واحدة إن كنت قصدتك بسوء ، لقد تواريت تحت سقيفة الياسمين حتى غابت الشمس ، ولم أقترب من السور حتى ثبت عندى خلو سطح أم على الداية ..

ثم وهو يتنهد بصوت مسموع :

ـــ وعذرى بعد ذلك أنى واليت صعود السطح أبدا كى أظفر بهذه الخلوة .. فلما وجدتها الساعة استخفنى السرور ، وعلى أى حال ربنا يستر ..

ـــ عجيبة !.. لم هذا التعب كله ؟

سؤال لا يبعث عليه الجهل، يسألن عما يعرفن ، ارتضت أن تحاورك فاهنأ بحوارها ...

ـــ قلت لنفسى : أن تحييها وترد تحيتك ألذ من الصحة والعافية !

التفتت إليه برأس دلت حركته فى شبه الظلام على تكتم الضحك ، وقالت :

ـــ لسانك أطول من جسمك ، ترى ماذا وراء كلامك ؟

ـــ وراءه ؟!. هلا اقتربت من السور ؟ ، عندى حديث طويل ، منذ أيام وأنا أغادر البيت إلى الطريق ، لاحت منى التفاتة إلى الأرض فرأيت ظل يد تتحرك ، فنظرت إلى فوق فرأيتك مطلة من السور ، رأيت منظرا جميلا لا يمكن أن ينسى ..

دارت على عقبيها ولكنها لم تقترب خطوة ، ثم قالت فى لهجة تنم عن الاتهام :

ـــ كيف تنظر إلى فوق !؟.. ولو كنت جارا حقا كما تقول ما سمحت لنفسك بأن تجرح جارتك ، ولكنك سيىء النية فيما بدا منك باعترافك فيما يبدو منك الساعة !

حق إنه سيىء النية ، أليس الفسق من سوء النية ؟. سوء نية من النوع الذى تحبينه ، آه من النسوان ، يعد ساعة ستطالبين به كحق من حقوقك ، بعد ساعتين سأهرب وتجدين فى أثرى ، على أى حال ليلتنا فل ..

ـــ ربنا يعلم بحسن نيتى ، نظرت إلى فوق لأنى لا أستطيع أن أمنع النظر عن مكان تكونين فيه ، ألم تدركى هذا ؟. ألم تشعرى به ؟. جارك القديم يتكلم وإن تأخر به الزمن .

هازئة :

ـــ تكلم . أطلق الحرية للسانك الطويل ، ارفع صوتك ، ماذا تفعل لو اقتحمت عليك السطح امرأة أبيك فرأتك ورأتنى ؟

لا تزوغى يا بنت اللبؤة ، سيكون من المعجزات أن أطوى عقلك ، أتخافين امرأة أبى حقا ؟ ، آه .. إن ليلة فى حضنها تساوى العمر كله !

ـــ سأسمع وقع الأقدام قبل مجيئها ، خلينا فيما نحن فيه ..

ـــ ما هذا الذى نحن فيه ؟

ـــ إنه يجل عن الوصف !

ـــ لا أجد شيئا مما تقول ، لعل هذا ما أنت وحدك فيه !

ـــ لعله ، إنه لأمر مؤسف حقا ، أمر مؤسف أن يتكلم قلب فلا يجد من يستجيب له ، إنى أذكر أيام زياراتك لبيتنا . تلك ؟ الأيام التى كنا فيها وكأننا أسرة واحدة ، وأتحسر ...

غمغمت وهى تهز رأسها :

ـــ تلك الأيام !

لم عدت إلى الماضى ؟. أخطأت خطأ كبيرا ، احذر أن يفسد عليك الألم جهدك كله ، ركز إرادتك كى تنسى كل شىء إلا الحاضر ..

ـــ ثم رأيتك أخيرا فرأيت شابة جميلة كالزهرة ، تتطلع فى ظلام الليل فتنوره ، فكأنما أراك لأول مرة ، ساءلت نفسى أتكون هذه جارتنا مريم التى كانت تلعب مع

خديجة وعائشة ؟. كلا .. هذه فتاة اكتمل لها الحسن ونضج ، وشعرت بأن الدنيا تتغير من حولى ..

قالت ، وقد عاود صوتها عبثه :

ـــ فى تلك الأيام لم تكن عيناك تستبيحان التطلع إلى أحد !! كنت جارا بمعنى الكلمة ، ولكن ماذا بقى من تلك الأيام ؟ ، تغير كل شىء ، عدنا كالأغراب ، وكأننا لم نتبادل كلمة ، ولم ننشأ معا نشأة الأسرة الواحدة . هذا ما أراده أهلك .

ـــ دعينا من هذا ، لا تحمليني هما إلى هم .

ـــ اليوم تتطلع بعينيك .. فى النافذة ، وفى الطريق ، وها أنت تقطع علىَّ السطح !

ماذا يمنعك من الذهاب إن كنت حقا تريدينه ؟. كذبك ألذ من الشهد يا نور الظلام ..

ـــ هذا قليل من كثير ، إنى أتطلع إليك أيضا من حيث لا تدرين ، وأراك فى الخيال أكثر مما تتصورين ، أقول لنفسى الآن وأنا على بينة مما أقول إما القرب وإما الموت !

هسيس ضحكة مكتومة اهتز لها قلبه ، ثم تساءلت :

ـــ من أين لك هذا الكلام ؟

أشار إلى صدره ، وهو يقول :

ـــ من قلبى !

مسحت بقدمها على أرض السطح محدثة بالشبشب حفيفا ينذر بالتحرك ولكنها لم تزايل موضعها ، وقالت :

ـــ ما دام الأمر قد بلغ القلب ، فينبغى أن أذهب !

بحماس علا به صوته أولا حتى انتبه إلى نفسه فخفضه :

ـــ بل يجب أن تأتى ، أن تأتى إلىّ ، الآن وإلى الأبد .. (ثم بمكر) إلى قلبى .. هو لك وما يملك !

وبلهجة وعظية عابثة :

ـــ لا تفرط فى نفسك على هذا النحو ، حرام على أن أحرمك قلبك وما

يملك ..

إلى أى مدى ذهب بك الفهم ؟ ، إنى أخاطب فيك اللبؤة التى أحبها ، لست بلهاء وحق ذكرى جوليون ، تعالى يا بنت القديمة ، أخاف أن أضيء فى الظلام من شدة النار التى تستعر فى جسدى ..

ـــ هو وما يملك لك عن طيب خاطر ، سعادته فى أن تقبليه وتملكيه ، وأن تكونى له وحده !

قالت ضاحكة :

ـــ أرأيت يا ماكر ؟.. تريد أن تأخذ لا أن تعطى ..

من أين لك بهذا اللسان ؟ ، ولا زنوبة فى زمانها ، ملعونة الدنيا من غيرك !..

ـــ أريد أن تكونى لى كما أكون لك .. أين الظلم فى هذا ؟.

صمت ، ونظر متبادل بين الشبحين ، حتى قالت :

ـــ لعلهم يتساءلون الآن عما أخرك !

فقال مستعطفا بمكر :

ـــ ليس ثمة فى الدنيا من يهتم بأمرى !

عند ذاك غيرت لهجتها متسائلة بجد :

ـــ كيف ابنك ؟.. لا يزال عند جده ؟

ماذا وراء هذا السؤال الغريب ؟

ـــ بلى ..

ـــ ما عمره الآن ؟

ـــ خمس سنوات ..

ـــ وما أخبار والدته ؟

ـــ أنها تزوجت أو ستتزوج فى القريب العاجل ..

ـــ خسارة !.. لم لم تردها ولو إكراما لرضوان ؟

يا بنت اللبؤة !.. أفصحى عما ترومين ..

ـــ أهذه رغبتك حقا ؟

وهى تضحك ضحكة خافتة :

ـــ يا بخت من وفق رأسين فى الحلال !

وفى الحرام ؟!.
ـــ لكنني لا أنظر إلى الوراء ..
ساد صمت بدا غريبا مليئا بالفكر .. حتى قالت بصوت جمع بين التحذير واللين :
ـــ إياك وأن تقطع علىَّ السطح مرة أخرى .
فقال بجرأة :
ـــ أمرك مطاع ، ليس السطح بالمكان المأمون ، ألم تعلمى بأن لى بيتا فى قصر الشوق ؟!
هتفت مستنكرة :
ـــ بيتك !. أهلا يا سى بيته !
فسكت قليلا ، كأنما يحاذر ، ثم تساءل :
ـــ خمني فيم أفكر ؟
ـــ لا شأن لى بهذا ..
صمت ، ظلام ، خلوة ، ما أفظع تأثير الظلام فى أعصابى ..
ـــ إنى أفكر فى سورَى سطحينا المتلاصقين ، بم يوحى منظرهما إليك ؟
ـــ لا شيء ..
ـــ منظر حبيبين متلاصقين ..
ـــ لا أحب سماع هذا الكلام ..
ـــ تلاصقهما يذكر أيضا بأنه ليس ثمة ما يفصل بينهما .
ـــ هيه !.
ندت عنها كاستدراج ملىء بالوعيد ، فقال ضاحكا :
ـــ كأنهما يقولان لى : اعبر !.
تراجعت خطوتين حتى التصق ظهرها بملاءة منشورة ، ثم همست فى تحذير جدى :
ـــ لا أسمح بهذا !
ـــ هذا ..! ما هذا ؟
ـــ هذا الكلام .

ـــ والفعل ؟
ـــ سأتركك غاضبة !
كلا وحياتك الغالية .. أتعنين ما تقولين ؟، أأنا أغبى مما أظن ؟، أم أنت أمكر مما أتصور ؟. لم تكلمت عن رضوان وأمه ؟. هل تلوّح بالزواج ؟. ما أشد رغبتك إليها ؟. رغبة جنونية ..
قالت مريم بغتة :
ـــ آه .. ما الذى يدعونى إلى البقاء ؟.
ودارت حول نفسها ، ثم تطامن رأسها لتمر من تحت الغسيل ، فأرسل صوته وراءها قائلا فى جزع :
ـــ تذهبين دون تحية !
اشرأب رأسها فوق حبل الغسيل ، ثم قالت :
ـــ البيوت من أبوابها ، هذه تحيتى ..
واتجهت مسرعة نحو باب السطح فمرقت منه .
عاد ياسين إلى الصالة فاعتذر لأمينة عن طول غيبته بحرارة الجو فى الداخل ، ثم ذهب إلى حجرته ليرتدى بذلته . كان كمال يتبعه عينيه فى دهشة وتفكير . ونظر إلى أمه فألفاها هادئة مطمئنة وكانت فرغت من احتساء قهوتها وقراءة الفنجان ، فتساءل ترى ماذا يحدث لها لو علمت بما دار فوق السطح ؟.. هو نفسه لم يزايله القلق منذ اطلع مصادفة على منظر المتناجيين حين مضى وراء أخيه مستطلعا غيبته ، فعل ياسين ذلك ، هل هانت عليه ذكرى فهمى ؟ ، لا يستطيع أن يتصور هذا ، كان ياسين يحب فهمى حبا صادقا ، وقد حزن عليه حزنا شديدا ، لا يجوز أن يرتاب فى إخلاصه ، إلى أن هذه « الحوادث » كثيرا ما تقع ، ثم إنه لم يدر لم يربطون دائما بين فهمى ومريم ؟! لقد علم المرحوم بواقعة جوليون فى حينها ، ثم مر زمن طويل بدا عليه أنه نسيها نسيا تاما وشغل عنها بما هو أجل وأخطر ، وما كانت تستحق غير ذلك وما كانت يوما كفئا له . إنه مما يدعو إلى النظر حقا أن يتساءل : هل يمكن أن ينسى الحب ؟. الحب لا ينسى ، هذا ما يؤمن به ، ولكن من أدراه أن فهمى أحب مريم بالمعنى الذى يفهمه ـــ أو يشعر به ـــ هو من الحب ؟ ، لعلها كانت رغبة قوية ، كهذه الرغبة التى

تستحوذ الساعة على ياسين ، بل كتلك الرغبة القديمة إلى مريم نفسها التي ناوشته هو على عهد البلوغ وعابثت أحلامه ، أجل وقع هذا أيضا ، وعانى منها ألمين : ألم الرغبة وألم الندم ، وكانا في القوة متعادلين فلم ينقذه من شرهما إلا زواج مريم واختفاؤها . يهمه أن يعلم الآن هل تألم ياسين وهل وخزه الندم ؟ ، وإلى أى مدى ؟ ، لا يتصور أن يكون الأمر جرى سهلا مهما يكن ظنه بحيوانية ياسين وفتور حماسه للمثل العليا ، وعلى رغم نظرته المتسامحة للأمر كله شعر بامتعاض وقلق كما ينبغى لإنسان لا يعدل بمثاليته شيئا فى الوجود .

رجع ياسين من الحجرة وقد ارتدى ملابسه وأخذ زينته ، فحياهما وانصرف ، وبعد قليل سمعا نقر استئذان على باب الصالة فدعا كمال القادم — وهو على يقين من هويته — فدخل شاب يماثله في السن . قصير القامة ، وسيم الطلعة ، مرتديا جلبابا وجاكتة ، فقصد أمينة وقبّل يدها، ثم صافح كمال وجلس إلى جانبه .. كان فى سلوكه — رغم ما أخذ به نفسه من التأدب — ألفة كأنما كان واحدا من أهل البيت ، وأكثر من هذا فقد أقبلت أمينة تحادثه وهى تدعوه بكل بساطة « يا فؤاد » ، وتسأله عن صحة أبيه جميل الحمزاوى ووالدته ، فيجيبها مستشعرا السرور ، والامتنان فى حسن استقبالها ، وترك كمال صديقه مع والدته ، ومضى إلى حجرته ليرتدى جاكتته ، ثم يعود إليه فينطلقا معا .

٦

سارا جنبا إلى جنب صوب درب قرمز ، متجنبين طريق النحاسين ، ليتفاديا من المرور بالدكان حيث يوجد والداهما .. كمال بقامته الطويلة النحيلة ، وفؤاد بقامته القصيرة ، تكاد صورتاهما تلفتان الأنظار بتناقضهما . تساءل فؤاد بصوت هادىء :

— أين تذهب هذا المساء ؟

فأجابه كمال بصوته الانفعالى :

— قهوة أحمد عبده ..

كان كمال — عادة — يقرر ، وفؤاد يوافق رغم ما عرف عن الأخير من رجاحة العقل . ورغم نزوات كمال التى كانت تبدو مضحكة فى عين رفيقه ،

مثل دعواته المتكررة له للذهاب إلى جبل المقطم والقلعة والخيمية لتسريح النظر — على حد تعبيره — فى مخلفات التاريخ وعجائب الحاضر ، ولكن الحق أن العلاقة بين الصديقين لم تخل من تأثر بفارق طبقتيهما ، وكون الأول ابن صاحب الدكان والآخر ابن وكيله ، وعمّق هذا التأثر أن فؤاد اعتاد فى صباه أن يؤدى ما يكلَّف به من شراء بعض حوائج لبيت السيد أحمد ، وأن يكون صنيعة لكرم أمينة التى لم تكن تضن عليه بأحسن ما عندها من مأكل — وكثيرا ما يصادف مجيئه أوقات الغداء — وأصلح ما يمكن استغناء عنه من ملابس كمال ، فربط بينهما منذ البدء شعور باستعلاء من ناحية وبالتبعية من ناحية أخرى .. وهو وإن مضى يزول بحلول شعور الصداقة محله ، إلا أن أثره النفسى لم يقتلع من الأعماق ، وقد قضت ظروف بألا يجد كمال من رفيق تقريبا طوال العطلة الصيفية إلا فؤاد الحمزاوى ، ذلك أن رفاق صباه من أهل الحى لم يواصلوا التعليم إلى النهاية : منهم من توظف بالابتدائية أو الكفاءة ، ومنهم من اضطر إلى مزاولة عمل من الأعمال البسيطة مثل صبى قهوة بين القصرين وصبى الكواء البلدى بخان جعفر . كان كلاهما من أقرانه فى الكتّاب ، وما زال ثلاثتهم يتبادلون تحية الزمالة القديمة كلما اتفق لهم اللقاء ، تحية مشربة بالاحترام من ناحيتهما لما يضفيه طلب العلم عليه من امتياز ، مشبعة من ناحيته بالمودة الصادرة عن نفس مطبوعة على التواضع والبساطة ، أما أصدقاؤه الجدد الذين اكتسب صداقتهم فى العباسية : حسن سليم ، وإسماعيل لطيف ، وحسين شداد فكانوا يقضون العطلة فى الإسكندرية ورأس البر ، فلم يبق له من رفيق إلا فؤاد .

بلغا مدخل قهوة أحمد عبده بعد مسيرة دقائق ، فهبطا إلى مستقرها الغريب فى جوف الأرض تحت حى خان الخليلى ، واتجها إلى مقصورة خالية ، وفيما هما يجلسان متقابلين حول المائدة تمتم فؤاد فى شىء من الحياء :

— ظننتك ستذهب هذا المساء إلى السينما !

وشى قوله برغبته فى الذهاب إلى السينما ، ولعلها راودته قبل أن يذهب إلى مقابلة كمال فى بيته ولكنه لم يفصح عنها ، لا لأنه لا يستطيع أن يثنى كمال عن رأى فحسب ، وإنما لأن كمال هو الذى يقوم بنفقات السينما إذا ذهبا إليها معا ، فلم تواته شجاعته على التلميح إلى رغبته حتى استقر بهما المجلس

بالقهوة .. حيث يمكن أن يؤخذ قوله مأخذ الملاحظة البريئة العابرة .

ـــ سنذهب يوم الخميس القادم إلى الكلوب المصرى لمشاهدة شارلى شابلن ، فلنلعب الآن عشرة دومينو ..

خلعا طربوشيهما ووضعاهما على مقعد ثالث ، ثم نادى كمال النادل ، طلب شايا أخضر ودومينو . بدا المقهى المدفون كجوف حيوان من الحيوانات المنقرضة طمر تحت ركام التاريخ إلا رأسه الكبير ، فقد تشبث بسطح الأرض فاغرا فاه عن أنياب بارزة على هيئة مدخل ذى سلم طويل ، وثمة فى الداخل صحن واسع مربع الشكل مبلط بالبلاط العصرانى تتوسطه فسقية رصت على حافتها أصص القرنفل ، وأحدقت بها من الجهات الأربع أرائك فرشت بالحصير المزركش والوسائد ، أما جدرانه فقد انتظمتها مقاصير صغيرة الحجم متجاورة ، كأن الواحد منها كهف منحوت فى الحائط ، لا نافذة بها ولا باب لها ، واقتصر أثاثها على مائدة خشبية وأربعة مقاعد ومصباح صغير يشتعل ليل نهار فى كوة بأعلى الجدار المواجه للمدخل . وكأن القهوة اكتسبت من موقعها الغريب بعض صفاته ، فهى تهوم فى هدوء غير مألوف لسائر المقاهى ، وضوء غير باهر ، وجو رطيب ، وقد انطوت كل جماعة على نفسها فى مقصورتها أو فوق أريكتها ، تدخن النارجيلة وتحسو الشاى وتهيم فى دردشة لا نهاية لها ، تكاد تشملها نغمة صيا وانية متصلة إلا أن تقطعها فى فترات متباعدة سعلة أو ضحكة أو قرقرة مدخن منهم .

كانت قهوة أحمد عبده فى نظر كمال مجتلى للمتأمل وتحفة للحالم ، أما فؤاد ـــ وإن لم تغب عنه طرافتها أول عهده بها ـــ فلم يعد يجد فيها إلا مجلسا كئيبا تغشاه الرطوبة والهواء الفاسد ، ولكنه لم يكن يملك إلا أن يلبى كلما دعى إليها !

ـــ أتذكر يوم أن رآنا أخوك سى ياسين ونحن فى مجلسنا هذا ؟

قال كمال باسما :

ـــ نعم ، سى ياسين متسامح ولطيف ولم يشعرنى أبدا بأنه أخى الأكبر ، بيد أنى رجوته يومذاك ألا يشير إلى مجلسنا فى البيت لا خوفا من أبى ، فإن أحدا عندنا لا يجرؤ على مكاشفته بمثل هذا الأمر ، ولكن إشفاقا من إزعاج والدتى ، تصور أنها ترتعب إذا علمت بترددنا على هذه القهوة أو غيرها ، وتظن أن أغلبية رواد المقاهى من الحشاشين وسيئى السمعة !

ـــ وسى ياسين ، ألم تعلم بأنه من رواد المقاهى ؟
ـــ إذا قلت لها هذا قالت لى : إن ياسين « كبير » ولا خوف عليه ، أما أنا صغير !. الظاهر أنى سأظل معدودا فى الصغار فى بيتنا حتى يدركنى المشيب !

جاء النادل بالدومينو ، وقدحين من الشاى على صينية فاقعة الاصفرار ، فتركها جميعا على المائدة وذهب ، تناول كمال قدحه من فوره وراح يحتسيه من قبل أن تخف حرارته ، ينفخ السائل ثم يتمززه ، وينفخ مرة أخرى ويمصمص شفتيه كلما لسعته الحرارة ، ولكن ذلك لا يردعه فيعاود المحاولة فى عناد وجزع كأنه محكوم عليه بالفراغ منه فى دقيقة أو دقيقتين ، على حين جعل فؤاد يراقبه صامتا أو يمد بصره إلى لا شىء وهو مستند إلى ظهر مقعده فى رزانة أكبر من سنه ، تلوح فى عينيه الواسعتين الجميلتين نظرة عميقة هادئة ، ولم يمد يده إلى قدحه حتى كان كمال قد فرغ من مغالبة قدحه ، وعند ذلك أقبل يتحسى الشاى فى تأن مستطعما مذاقه مستلذا نكهته ، وهو يغمغم بعد كل حسوة « الله .. ما أطيبه ! » ، والآخر يحثه على الفراغ منه بصبر نافد كى يأخذا فى اللعب ، وهو يقول منذرا :
ـــ لأهزمنك اليوم . لن يحالفك الحظ أبد الدهر ..
فيبتسم فؤاد مغمغما :
ـــ سنرى ..
وأخذا يلعبان ..

كان كمال يولى المباراة اهتماما عصبيا ، كأنه يخوض معركة تتوقف على نتائجها حياته أو كرامته ، بينا مضى فؤاد فى نظم قطعه بهدوء ومهارة فلم تفارق الابتسامة شفتيه ، أقبل الحظ أم أدبر ، هش كمال أم عبس ، وقد خرج كمال ـــ كعادته ـــ عن طوره ، فهتف به : « لعب سخيف ، وحظ سعيد » . فلم يزد الآخر عن أن ضحك ضحكة مهذبة لا تثير حنقا ولا توحى بتحد . طالما قال كمال لنفسه وهو يتميز غيظا « لن يبرح حظه راكبا حظى » ، ولم يكن يلقى اللعب بالتسامح الخليق باللهو والتسلية ، بل الحق لم يكن ثمة فارق ـــ فى اهتمامه وحماسه ـــ بين جده ولهوه . على أن تفوق فؤاد فى المدرسة لم يكن دون تفوقه فى الدومينو ، كان أول فرقته بينا كان هو فى الخمسة الأوائل ، فهل ثمة دور للحظ فى ذلك أيضا ؟ ، كيف يعلل تفوق الشاب الذى ينطوى له فى الأعماق على شعور بالاستعلاء ظن أنه ينبغى

أن يمتد إلى المواهب العقلية على السواء ؟. لم يعدم رأيا يهون به من تفوق صاحبه ، فهو يقول إنه يكرس وقته كله للمذاكرة وإنه لو كان عقله بالتفوق الذى يزعمون لأغنى عنه بعض هذا الوقت ، ويقول أيضا : إنه يتجنب الألعاب الرياضية وقد برز هو فى أكثر من نوع منها ، ويقول أخيرا : إن فؤاد يقتصر فى مطالعاته على الكتب المدرسية ، وإذا تراءى له أن يقرأ كتابا غير مدرسى فى العطلة لاحظ فى اختياره أن يكون مفيدا لدراسته اللاحقة ، أما هو فلا تحد مطالعته حدود ولا توجهها منفعة ، فما وجه الغرابة فى ذلك فى أن يسبقه الشاب فى الترتيب ؟. غير أن سخطه هذا لم يعرض صداقتهما للوهن ، كان يحبه ويجد فى رفقته مؤانسة ومسرة إلى أنه لم يضن ـــ على الأقل فيما بينه وبين نفسه ـــ بالإقرار بفضائله ومزاياه .

تواصل اللعب وانتهت العشرة ـــ على غير ما أنذر به مطلعها ـــ بانتصار كمال ! ، فتطلق وجهه ، وضحك ضحكة عالية ، ثم سأل غريمه : « عشرة أخرى ؟ » ، ولكن فؤاد قال باسما : « حسبنا اليوم ما كان » لعله كان مل اللعب ، أو لعله أشفق من أن تجىء نتيجة العشرة المقترحة مخيبة لآمال كمال فينقلب سروره غما ، فهز كمال رأسه كالمتعجب وقال :

ـــ إنك كالسمك من ذوى الدم البارد !

ثم بلهجة المنتقد ، وهو يدلك أرنبة أنفه العظيم بإبهامه وسبابته :

ـــ إنى أعجب لك ، إذا غُلبت لم تأبه للأخذ بثأرك ، وتحب سعد ولكنك تنكص عن الاشتراك فى مظاهرة أريد بها تحيته يوم ولى الوزارة ، وتتبارك بسيدنا الحسين ولكن لم تهتز لك شعرة يوم ثبت لنا من تاريخه أن جثمانه غير ثاو فى ضريحه القريب ! إنى أعجب لك ..

شد ما يخنقه البرود ، إن ما يسمونه « العقل » لا يطيقه ، وكأنه يحب الجنون ويهيم به ، إنه يذكر يوم قيل لهما فى المدرسة : « إن ضريح الحسين رمز له ولا شىء غير ذلك » . عادا يومذاك معا وفؤاد يردد ما قاله مدرس التاريخ الإسلامى ، وكان كمال يتساءل منزعجا : كيف أوتى صاحبه تلك القوة التى تحمَّل بها الخبر كأنه شأن لا يعنيه ؟!. أما هو فلم يستسلم لتفكير ، لم يستطع أن يفكر ألبتة ، وكيف لثائر أن يفكر ؟ ، سار كالمترنح من هول الطعنة التى نفذت إلى صميم قلبه ، كان يبكى خيالا نضب وحلما تبدد ، لم يعد الحسين بجارهم ، بل لم يكن بجارهم يوما من

الأيام ، أين ذهبت القبلات التى طبعت على باب الضريح فى صدق وحرارة ؟ ، أين يذهب الاعتزاز بالقرب والإدلال بالجوار ؟ ، لا شىء من هذا كله ، لم يبق إلا رمز فى الجامع ووحشة وخيبة فى القلب ، وبكى ليلتذاك حتى بلل وسادته ، تلك كانت الصدمة التى لم تحرك فى صديقه العاقل إلا لسانه حين علق عليها مرددا أقوال مدرس التاريخ ، ألا ما أبشع العقل !

ــــ هل علم والدك برغبتك فى دخول مدرسة المعلمين ؟

قال كمال بحدة جاءت معبرة عن ضيقه ببرود صاحبه وألمه المتخلف عن مناقشة أبيه معا :

ــــ نعم !..

ــــ وماذا قال لك ؟

فقال يروِّح عن صدره بمهاجمة محدثه عن طريق غير مباشر :

ــــ وا أسفاه !.. إن والدى كأكثر الناس ــــ من يهيمون بالمظاهر الزائفة ، الوظيفة .. النيابة .. القضاء .. هذا كل ما يهمه ، لم أدر كيف أقنعه بجلال الفكر والقيم السامية الحقيقة بالنشدان فى هذه الحياة ! غير أنه ترك لى حرية التصرف ..

جعلت أصابع فؤاد تعبث بقطعة من الدومينو ، وهو يقول فى حذر وإشفاق :

ــــ قيم جليلة بلا شك ، ولكن أين البيئة التى ترفعها إلى المنزلة اللائقة بها ؟

ــــ لا يمكن أن أنبذ عقيدة سامية لا لشىء إلا أن من حولى لا يؤمنون بها ..

فعاد يقول فى هدوء مسكن :

ــــ روح جديرة بالإعجاب !.. ولكن ألا يحسن بك أن تقدر مستقبلك فى ضوء الواقع ؟.

فتساءل كمال بازدراء :

ــــ ترى لو كان زعيمنا قد أخذ بهذه النصيحة ، أكان يفكر جديا فى أن يذهب إلى دار الحماية للمطالبة بالاستقلال ؟

ابتسم فؤاد ابتسامة كأنها تقول « رغم ما فى حجتك من وجاهة فهى لا تصلح قاعدة عامة فى الحياة » ، ثم قال :

ــــ ادخل الحقوق حتى تضمن عملا محترما ، ولك بعد ذلك أن تواصل ثقافتك كما تشاء !

ـــ لم يجعل الله لامرىء من قلبين فى جوفه ، ثم دعنى أحتج على ربطك العمل المحترم بالحقوق ! كأن التدريس ليس عملا محترما !!

فبادر فؤاد يقول بتوكيد يدفع به عن نفسه الشبهة :

ـــ لم أقصد هذا مطلقا ، ومنذا الذى يقول إن حفظ العلم ونشره ليس عملا محترما ؟.. لعلى كنت أردد رأى الناس وأنا لا أدرى ، والناس كما أشرت إلى شىء من هذا تبهرهم أضواء القوة والنفوذ !

فهز كمال منكبيه استهانة ، وقال بإصرار :

ـــ إن حياة تكرس للفكر لهى أجل حياة ..

هز فؤاد رأسه كالموافق دون أن ينبس ، وظل لائذا بالصمت حتى سأله كمال :

ـــ ما الذى دعاك إلى اختيار الحقوق ؟

ففكر قليلا ثم أجابه :

ـــ لم أكن مثلك واقعا فى غرام الفكر ، فكان علىَّ أن أختار دراسة عالية على ضوء المستقبل وحده ، فاخترت الحقوق ..

أليس هذا هو صوت العقل ؟. بلى إنه هو ، شد ما يثير حنقه وتمرده ، أليس من الظلم أن يمضى العطلة الطويلة وهو حبيس هذا الحى ولا رفيق له إلا هذا « العاقل » ؟، ثمة حياة أخرى تعارض حياة الحى العتيق معارضة الضد للضد ، وثمة رفاق آخرون يخالفون فؤاد مخالفة النقيض للنقيض ، إلى تلك الحياة وإلى أولئك الرفاق تهفو نفسه ، إلى العباسية ، إلى الطراز الطريف من الشباب ، وقبل كل شىء إلى الأناقة الرفيعة والنغمة الباريسية والحلم البديع .. إلى معبودته ، آه .. إن نفسه تنازعه إلى البيت ، إلى حجرته كى يخلو إلى نفسه فيدعو كراسته ، يراجع تاريخا أو يستعيد ذكرى أو يسجل نفثة . ألم يئن له أن يقوض هذا المجلس ويذهب ؟

ـــ قابلت أناسا فسألونى عنك ..!

تساءل كمال ، وهو ينزع نفسه بمشقة من تيار الوجد :

ـــ من ؟

فؤاد ضاحكا :

ـــ قمر ونرجس !

قمر ونرجس ابنتا أبو سريع صاحب المقلى ، قبو قرمز ، الأزقة المظلمة بعد

الغروب ، العبث المشوب بالسذاجة الدنسة أو الدنس الساذج ، المراهقة المحمومة ، ألا يذكر هذا كله ؟، ما لشفتيه تتقلصان تقززا ؟، ذلك التاريخ قديم نسبيا ، قبل حلول الروح القدس ، لا يذكره إلا ويثور قلبه سخطا وألما وخجلا كما ينبغي لقلب أترع بشراب الحب الطهور :

ــ كيف قابلتهما ؟

ــ في زحمة مولد الحسين ، فسرت إلى جانبهما دون تردد أو ارتباك ، كأننا أسرة واحدة جاءت لتطوف بالمولد !

ــ يا لك من جريء !

ــ أحيانا ، سلمت فسلما ، وتحادثنا مليا ، ثم سألتني قمر عنك !

تورد وجهه قليلا ، وهو يسأل :

ــ ثم ؟

ــ اتفقنا مبدئيا على أن أخبرك ، ثم نتقابل جميعا !

هز كمال رأسه في نفور ، ثم قال باقتضاب :

ــ كلا ..

فقال فؤاد في دهش :

ــ كلا ؟، ظننتك ترحب بلقاء تحت القبو أو في فناء البيت المهجور . نضج جسماهما ، وعما قليل تصيران امرأتين بكل معنى الكلمة ، وعلى فكرة كانت قمر مرتدية الملاءة اللف ولكنها كانت سافرة فقلت لها ضاحكا : لو لبست البرقع ما تجرأت على محادثتك !

قال كمال بإصرار :

ــ كلا ..

ــ لم ؟

ــ لم أعد أطيق القذارة !

ثم بحدة نمت عن ألم دفين :

ــ لا أستطيع أن ألقى الله في صلاتي وثيابي الداخلية ملوثة !

فقال فؤاد بسذاجة :

ــ تطهر واغتسل قبل الصلاة !

فقال كمال ، وهو يهز رأسه للاستعارة الضائعة :

ـــ إن الماء لا يطهر من الدنس ..

ذلك الصراع القديم ، كان يمضي فى لقاء قمر مضطربا بالشهوة والقلق ويعود بضمير معذب وقلب باك ، ثم عقب الصلاة يستغفر استغفارا حارا طويلا ، لكنه يمضى مرة أخرى مغلوبا على أمره ثم يعود بالعذاب ليستغفر من جديد .. يا لها من أيام نضحت بالشهوة والمرارة والعذاب ، ثم انبثق النور ، هناك وسعه أن يحب وأن يصلي معا ، كيف لا ؟! والحب من منبع الدين يقطر صافيا !. قال فؤاد فى شيء من الحسرة :

ـــ انقطعت علاقتى بنرجس منذ مُنعَت من اللعب فى الحارة !

فسأله كمال باهتمام :

ـــ ألم تكن ـــ وأنت المؤمن ـــ تتعذب بتلك العلاقة ؟

فقال فؤاد ، وهو يغض البصر حياء :

ـــ هنالك أمور ما منها بد ..

ثم متسائلا وكأنه يدارى حياءه :

ـــ أترفض حقا انتهاز هذه الفرصة ؟

ـــ بكل تأكيد !!

ـــ لوجه الدين وحده ؟

ـــ أليس هذا كافيا ؟

ابتسم فؤاد ابتسامة عريضة ، وقال :

ـــ كم تحمل نفسك ما لا يُحتمل ..

فقال كمال بإصرار :

ـــ إنى لكذلك وما ينبغي لى أن أكون غير ذلك ..

وتبادلا نظرة طويلة ، أفصحت فى عينى كمال عن الإصرار والتحدى ، فانعكست فى عينى فؤاد مهادنة وابتسامة كأشعة الشمس الجهنمية التى تنعكس على سطح الماء لألاء ضاحكا ، ثم واصل كمال حديثه :

ـــ إنى أرى الشهوة غريزة حقيرة ، وأمقت فكرة الاستسلام لها ، لعلها لم تخلق فينا إلا كى تلهمنا الشعور بالمقاومة والتسامى حتى تعلو عن جدارة إلى مرتبة

الإنسانية الحقة ، إما أن أكون إنسانا وإما أن أكون حيوانا ..

فتريث فؤاد قليلا ، ثم قال بهدوء :

ــ أظن أنها ليست شرا خالصا ، فهى الدافع إلى الزواج ، فالذرية !!

خفق قلب كمال خفقة عنيفة لم تجر لفؤاد فى خاطر ، أهذا هو الزواج فى النهاية ؟ ، لكنه لم يكن يجهل هذه الحقيقة فى جملتها وإن كان فى حيرة لا يدرى كيف يوفق الناس بين الحب والزواج ، إنها مشكلة لم يرتطم بها فى حبه ، لأن الزواج بدا دائما ــ ولأكثر من سبب ــ فوق مرتقى أمانيه ــ ولكن ذلك لم يمنع من قيامه مشكلة تتطلب الحل . ما كان يتصور أن يكون اتصال سعيد بينه وبين معبودته إلا عن طريق العطف الروحى من ناحيتها والتطلع الهيمان من ناحيته ، طريق بالعبادة أشبه ، بل هو العبادة نفسها، فأى شأن للزواج فى هذا ؟

ــ الذين يحبون حقا لا يتزوجون .

تساءل فؤاد بدهش :

ــ ماذا قلت ؟..

فطن حتى قبل تساؤل فؤاد إلى أن لسانه خان إرادته ، فبدا عليه الارتباك لحظة حرجة ، وراح يتذكر آخر أقوال فؤاد قبل ندود هذه الجملة الغريبة عنه حتى اهتدى بشىء من الجهد ــ على حداثة العهد بسماعها ــ إلى كلماته عن الزواج والذرية ، فصمم على مداراة هفوته وعلى تصحيح معناها ما أمكن ، فقال :

ــ الذين يحبون ما فوق الحياة لا يتزوجون ، هذا ما عنيت .

ابتسم فؤاد ابتسامة خفيفة أو لعله كان يقاوم ضحكة ، غير أن عينيه العميقتين لم تنبا عما وراءهما ، واكتفى بأن قال :

ــ هذه أمور خطيرة ، والحديث عنها الآن سابق لأوانه ، فلندعها مرهونة بأوقاتها ..

فرفع كمال منكبيه استهانة وثقة ، وقال :

ــ فلندعها ولننتظر ..

فؤاد فى واد وهو فى واد ، على ذلك فهما صديقان ، لا يسعه أن ينكر أن الخلاف فى نفسه يجذبه إليه على ما فى ذلك من جهد تعانيه أعصابه المرة بعد المرة ، ألم يئن له أن يعود إلى البيت ؟ ، الوحدة ومناجاة النفس تتجاذبانه ، الكراسة

النائمة فى درج مكتبه تهيج جيشان صدره ، لا بد للمكدود فى مكابدة الواقع من انتجاع بعض الراحة فى الانطواء ..

ـــ آن أن نعود ...

٧

كان الحنطور يتابع سيره على شاطىء النيل حتى وقف أمام عوامة فى نهاية المثلث الأول من طريق امبابة ، وما لبث أن غادره السيد أحمد عبد الجواد ثم تبعه على الأثر السيد على عبد الرحيم .

كان الليل قد جثم فى تجثمه وغشيت الظلمة كل شىء إلا أضواء متباعدة تطل من نوافذ العوامات والذهبيات التى ينتظمها الشاطئان من جسر الزمالك فهابطا ، وأنوار خافتة لاحت عند موقع القرية فى نهاية الطريق كالسحابة الناضحة بوهج الشمس فى سماء ملبدة بالغيوم الدكن .

كان السيد أحمد يجىء للعوامة للمرة الأولى على رغم اكتراء محمد عفت لها منذ أربع سنوات ـــ ذلك أن صاحبها خصصها لمجالس الغرام وقد حرمها السيد أحمد على نفسه منذ مصرع فهمى ـــ فتقدمه على عبد الرحيم ليدله على المعبر ، حتى إذا قارب السلم ، قال محذرا :

ـــ السلم ضيق ودرجاته مرتفعة ولا درابزين له ، ضع يدك على كتفى وانزل على مهل ..

هبطا بحذر شديد ، وخرير الماء المتلاطم على الشاطىء ومقدم العوامة يداعب آذانهما ، وقد فغمت أنفيهما رائحة نباتية مازجها عرف الطمى الذى جاد به الفيضان فى ذلك الوقت من أول سبتمبر ، قال على عبد الرحيم وهو يتحسس زر الجرس على جدار المدخل :

ـــ هذه ليلة تاريخية فى حياتك وحياتنا ، ينبغى أن نطلق عليها اسما مناسبا احتفالا بها . ليلة رجوع الشيخ ؟.. ما رأيك ؟..

قال السيد أحمد ، وهو يشد قبضته على منكبه :

ـــ لكننى لست شيخا ، الشيخ الحقيقى كان أبوك !..

على عبد الرحيم وهو يضحك :

ــ سترى الآن وجوها لم ترها منذ خمس سنوات ..
قال السيد كالمتردد :
ــ لا يعنى هذا أننى أغير من سلوكى أو أحيد عن خطتى (ثم بعد لحظة سكوت) قد .. قد ..
ــ تصور كلبا يعد بألا يقرب اللحم إذا ترك فى المطبخ !
ــ الكلب الحقيقى كان أبوك يا بن الكلب ..
رن الجرس ، فتح الباب بعد نصف دقيقة عن وجه نوبى عجوز ، تنحى جانبا وهو يرفع يديه إلى رأسه تحية للقادمين ، فدخل الرجلان ومالا إلى باب على يسار الداخل فجازاه إلى دهليز قصير مضاء بمصباح كهربائى يتدلى من السقف ، وقد حلى جداراه المتقابلان بمرآتين قام تحت كل منهما مقعد جلدى كبير وخوان ، وكان فى نهاية الدهليز المواجه لمدخله باب آخر موارب وشى بأصوات السمّار التى اهتز لها صدر أحمد عبد الجواد ، فدفعه على عبد الرحيم ودخل ، فتبعه السيد ، ولكنه ما كاد يعبر عتبته حتى وجد نفسه حيال الحاضرين وهم وقوف ، وقد أقبلوا نحوه مرحبين مهللين يكاد يطفر البشر من وجوههم ، وكان محمد عفت أسرعهم إليه فعانقه ، وهو يقول :
ــ طلع البدر علينا ..
ثم عانقه إبراهيم الفار ، قائلا :
ــ أتانى زمانى بما أرتضى ..
وتنحى الرجال جانبا ، فرأى جليلة ، وزبيدة ، وامرأة ثالثة وقفت متأخرة عنهما خطوتين ما لبث أن تذكر فيها زنوبة العوادة . آه .. الماضى كله قد جمع فى إطار واحد ، وتطلقت أساريره وإن بدا عليه شىء من الارتباك ، ولكن جليلة ضحكت ضحكة طويلة ، ثم فتحت ذراعيها وعانقته ، وهى تقول بنبرات غنائية :
ــ كنت فين يا حلو غايب ..
ولما أطلقته رأى زبيدة على بعد ذراع كالمترددة وإن أضاء وجهها نور الترحيب والسرور ، فمد نحوها ذراعه فشدت عليها ، وعند ذاك زوت ما بين حاجبيها المزججين فى عتاب ، قائلة بلهجة لم تخل من تهكم :
ــ من بعد تلتاشر سنة ..

فما تمالك أن ضحك من أعماق صدره ، وأخيرا رأى زنوبة بموقفها لم تبرحه ، وقد ارتسمت على ثغرها ابتسامة حياء كأنها لم تجد من ماضيها ما يعطيها حقا فى رفع الكلفة بينهما ، فمد لها يده مصافحا ، وهو يقول مشجعا ومجاملا :

ــ أهلا بأميرة العوادات ..

ورجعوا إلى مجالسهم ، فشبك محمد عفت ذراعه بذراع أحمد ومضى به إلى مجلسه ، فأجلسه إلى جانبه ، وهو يتساءل ضاحكا :

ــ وقعت أم الهوى رماك ؟

فغمغم السيد أحمد :

ــ رمانى الهوى فوقعت ..

أخذ المكان يستبين لعينيه اللتين غابتا عنه أول الأمر فى حرارة اللقاء ومزاح المرحبين ، فوجد نفسه فى حجرة متوسطة الحجم ، طليت جدرانها وسقفها بلون زمردى ، تطل على النيل بنافذتين وعلى الطريق بنافذتين ، وقد أغلق خصاص نوافذها وفتح زجاجها ، يتدلى من سقفها مصباح كهربائى ذو غطاء مخروطى من البللور يركز نوره على سطح خوان توسط الحجرة حاملا الأقداح وقوارير الويسكى ، وقد فرشت الأرض ببساط متجانس اللون مع الجدران والسقف ، وقامت فى كل جانب من الحجرة كنبة كبيرة شطرت بنمرقة وغشيت بغطاء مزركش ، أما الزوايا فقد احتلت بشلت ووسائد . جلست جليلة وزبيدة وزنوبة على الكنبة المجاورة للنيل ، واقتعد الرجال الثلاثة الكنبة المواجهة لها ، بينا انتشرت على الشلت آلات الطرب كالعود والدف والدربكة والصنج . أجال بصره فى المكان مليا ، ثم تنهد بارتياح ، وقال بتلذذ :

ــ الله .. الله ، كل شىء جميل ، لم لا تفتحون النافذتين المطلتين على النيل ؟

فأجابه محمد عفت :

ــ يفتحان عندما ينقطع مرور السفن الشراعية ، وإذا بليتم فاستتروا ..

فبادره السيد أحمد باسما :

ــ وإذا استترتم فابتلوا !

فهتفت جليلة كالمتحدية :

ــ أرنا شطارة زمان !

لم يقصد يقوله إلا المزاح ، والحق أن إقدامه على هذه الخطوة الثورية — مجيئه إلى العوامة — بعد طول الإحجام أورثه قلقا وترددا ، لكن ثمة شيء آخر ، تغيير من نوع ما عليه أن يكتشفه بنفسه ولنفسه ، فليسدد بصره وليمعن النظر ، ماذا يرى ؟، هاك جليلة وزبيدة ، كلتاهما كالجمل — كما كان يقول قديما — أو لعلهما ازدادتا شحما و لحما ، ولكن ثمة شيء يكتنفهما ، لعله إلى متناول الشعور أقرب منه إلى متناول الحس ، إلا أنه وجه من وجوه الكبر بلا مراء ، لعل أصحابه لم يفطنوا إليه لأنهم لم ينقطعوا عن المرأتين مثل ما انقطع ، ترى ألم يطرأ عليه هو أيضا مثل الذى طرأ عليهما ؟. انقبض قلبه وفتر حماسه ، الصديق العائد بعد غيبة طويلة هو أفصح مرآة للإنسان ، لكن كيف السبيل إلى هذا التغيير حتى يقبض عليه ؟. ليست هنالك شعرة بيضاء واحدة فى رأسيهما .. ولكن ما للشيب ورءوس الغوانى ؟. وليس ثمة تجعدات كذلك . هل غلبت على أمرك ؟. كلا ، إليك نظرة هاتين العينين ، إنها تعكس روحا خابيا رغم ما يكتنفه من لألاء براق يستخفى حينا وراء الابتسام واللعب ثم يبين على حقيقته فيما بين ذلك فتقرأ فيه نعى الشباب ، إنه الرثاء الصامت ، أليست زبيدة فى الخمسين من عمرها ؟ وجليلة جاوزتها بأعوام ، إنها لدته ولن تكابر فى هذا مهما أنكره لسانها ، ثمة تغيير فى قلبه أيضا ينذر بالنفور والتقلص ، لم يكن كذلك حين جاء ، جاء يجرى لاهثا وراء صورة لم يعد لها من وجود ، ليكن ، حاشا أن يستسلم للهزيمة .. اشرب ، واطرب ، واضحك ، لن يدفعك أحد على رغمك إلى ما لا تود ..

قالت جليلة :

— لم أكن أصدق أن عينى ستقعان عليك فى هذه الدنيا !

وجد إغراء شديدا فى أن يسألها :

— كيف ترينني ؟

فتدخلت زبيدة بينهما قائلة :

— كالعهد بك ، جمل ولا كل الجمال ، شعرة بيضاء تلمع تحت طربوشك ولا شيء خلاف ذلك !

فقالت لها جليلة محتجة :

ـــ دعيني أجب أنا ، لأن سؤاله كان لي (ثم مخاطبة السيد) أراك كما كنت ، لا غرابة في ذلك ، ما « نحن » إلا أبناء الأمس القريب !

فطن السيد إلى ما رمت إليه ، فقال متكلفا الجد والصدق :

ـــ أما أنتما فقد ازددتما حسنا ورواء ، لم أكن أنتظر هذا كله .

زبيدة ، وهي تتفحصه باهتمام :

ـــ ما الذي غيبك عنا ذلك العمر كله ؟ (ثم ضاحكة) كان بوسعك ، لو كان فيك خير ، أن تلقانا لقاء بريئا ، ألا يكون لقاء بيننا إلا إذا كان الفراش تحتنا ؟

قال السيد إبراهيم الفار ، وهو يرعش ذراعه في الهواء ليحسر كم القفطان عنه :

ـــ لا علم له و لنا بأن ثمة لقاء بريئا يمكن أن يجمع بيننا وبينكن !

زبيدة متأففة :

ـــ أعوذ بالله منكم يا رجال ، لا تودون المرأة إلا مطية !

فقهقهت جليلة قائلة :

ـــ يا ست امك احمدى ربنا على ذلك ، أكنت تكتنزين هذا الشحم كله لو لم تضمرى في نفسك أن تكونى مطية أو حشية ؟

فقالت لها زبيدة معاتبة :

ـــ خلي بيني وبين المتهم كي أحقق معه ..

قال السيد أحمد باسما :

ـــ كنت محكوما عليَّ بخمس سنوات بريئة بدون شغل ..

فعادت زبيدة تهاجمه قائلة في تهكم :

ـــ يا ولداه ! ، حرمت على نفسك اللذات كلها ، كلها يا ولداه ، حتى لم يبق لك منها إلّا الطعام والخمر والطرب والمزاح والسهر حتى مطلع الفجر كل ليلة !

فقال السيد كالمعتذر :

ـــ هذه أشياء لا بد منها للقلب الحزين ، أما الأخرى ..!

زبيدة وهي تلوح له بيدها كأنما تقول له « آه منك آه » :

ـــ علمت الآن أنك تعدنا شرا من كافة الذنوب والخطايا ..

محمد عفت هاتفا مقاطعا ، كأنما تذكر أمرا هاما كاد يفلت منه :

ـــ هل جئنا من أقصى الأرض كي نتكلم ، على حين تطل علينا الأقداح ولا نجد

من يعني بها ! ، املأ الأقداح يا على ، اربطى الأوتار يا زنوبة ؟، اخلع ملابسك يا حضرة المحترم ، انت حاسب نفسك فى مدرسة ؟، انزع الجبة والطربوش ، لا تظن أنك أعفيت من التحقيق ، ولكن يجب أولا أن تسكر المحكمة وأن تسكر النيابة ثم تعود إلى التحقيق ، جليلة أصرت على تأجيل السكر حتى يحضر سلطان الفرفشة أو كما قالت ، هذه الولية تعزك إعزاز الشيطان للضال المزمن ، بارك الله لك فيها وبارك لها فيك ..

نهض السيد أحمد ليخلع الجبة ، قام على عبد الرحيم ليتولى — كعادته — مهمة الساقى ، صدرت عن أوتار العود همسات غير مؤتلفة للاختبار ، دندنت زبيدة فى غمغمة ، سوّت جليلة بأناملها خصلات شعرها وطوق الفستان فيما بين ثدييها ، تابعت أعين بتشوق يدى على عبد الرحيم وهو يملأ الأقداح ، تربع السيد أحمد فى مجلسه وهو يجيل بصره فى المكان والناس حتى التقت عيناه اتفاقا بعينى زنوبة فابتسمت الأعين تحية ، قدّم على عبد الرحيم الدفعة الأولى من الكئوس . قال محمد عفت : صحتكم ومحبتك ، قالت جليلة : نخب العودة يا سى أحمد ، قالت زبيدة : نخب الهداية بعد الضلال ، قال أحمد : نخب الأحباب الذين فرق الحزن بيني وبينهم .. شربوا عندما رفع السيد أحمد كأسه إلى شفتيه ، رأى من فوق سفح الكأس وجه زنوبة مرفوعا كذلك إلى كأسه فهزته نضارته ، قال محمد عفت لعلى عبد الرحيم : املأ الثانى ، وقال له إبراهيم الفار : والثالث فى أثره حتى نثبت الأساس ، قال على عبد الرحيم وهو يشمر : خادم القوم سيدهم . وجد أحمد عبد الجواد نفسه يتابع أنامل زنوبة وهى تربط الأوتار ، فتساءل عن عمرها ثم قدّره بين الخامسة والعشرين وبين الثلاثين ، ساءل نفسه مرة أخرى عما جاء بها .. العود ؟!.. أم أن خالتها زبيدة تهيىء لها سبيل الرزق ؟. قال السيد إبراهيم الفار : إن النظر إلى ماء النيل يدوخه . فهتفت به جليلة : ياابن الدايخة !. سأل على عبد الرحيم : إذا رميت امرأة فى حجم جليلة أو زبيدة إلى الماء فهل تغرق أم تطفو ؟ فأجابه السيد أحمد بأنها تطفو إلا إذا كان بها ثقب ، ساءل السيد أحمد نفسه عما يحدث لو نزعت به نفسه إلى زنوبة ، فأجابت نفسه بأن ذلك يكون فضيحة لو أراده الآن ، أما بعد خمس كئوس فلن يخلو من حرج ، وأما بعد زجاجة فيكون واجبا .. اقترح محمد عفت أن يشربوا كأسا فى صحة سعد زغلول ومصطفى

النحاس اللذين سيسافران فى نهاية الشهر من باريس إلى لندن للمفاوضة ، اقترح إبراهيم الفار أن يشربوا كأسا آخر فى صحة مكدونالد صديق المصريين ، تساءل على عبد الرحيم عما عناه مكدونالد بقوله : « إنه يستطيع أن يحل القضية المصرية قبل أن يفرغ من فنجان القهوة الذى كان بين يديه » . فأجابه أحمد عبد الجواد بأن ذلك يعنى أن الإنجليزى يشرب فنجان القهوة — فى المتوسط — فى نصف قرن ، تذكر السيد أحمد كيف ثار على الثورة عقب مصرع فهمى وكيف ثاب رويدا إلى مشاعره الوطنية الأولى لما أسبغه الناس عليه من تقدير وإكبار بصفته والد لشهيد نبيل ، ثم كيف انقلبت مأساة فهمى مع الزمن مفخرة يباهى بها وهو لا يدرى !

رفعت جليلة كأسها صوب السيد أحمد وهى تقول :

— صحتك يا جملى ، طالما كنت أسائل نفسى هل نسينا حقا السيد أحمد ؟، ولكنى علم الله عذرتك ودعوت الله أن يلهمك الصبر والعزاء ، لا تعجب فأنا أختك وأنت أخى ..

فسألها محمد عفت بخبث :

— إذا كنت أخته وكان أخاك كما تدعين ، فهل يفعل الأخوان ما فعلتما فى زمانكما ؟

فأطلقت ضحكة أعادت إلى الأذهان ذكريات عام ١٩١٨ وما قبله ، وقالت :

— سل أخوالك يا روح أمك ..

قالت زبيدة وهى تلحظ أحمد عبد الجواد بمكر :

— بدا لى رأى آخر فى تفسير غيبته الطويلة ..

سألها أكثر من صوت عما بدا لها ، على حين تمتم السيد أحمد بصوت المستعيذ :

— يا ساتر استر ..

— بدا لى أنه ربما كان حصل عنده ضعف مما يدرك الكهول أمثاله ، فاعتل بالحزن واختفى ..

قالت جليلة معترضة وهى تهز رأسها على أسلوب العوالم :

— إنه آخر من يدركه الكبر !

فسأل السيد محمد عفت السيد أحمد :

ــ أى الرأيين أصح ؟

فقال السيد أحمد بلهجة ذات معنى :

ــ الرأى الأول يعبر عن الخوف والآخر يعبر عن الرجاء ؟

قالت جليلة بظفر وارتياح :

ــ لست ممن يخيب عندهم الرجاء :

هم بأن يقول « عند الامتحان يكرم المرء أو يهان ، ولكنه خاف أن يدعى للامتحان أو أن يفهم قوله على أنه تقديم فى الامتحان ، على حين كان كلما أنعم النظر تمكن منه شعور بالنفور وبالزهد لم يجر له فى خاطر قبل المجيء . أجل ثمة تغير لا ينكر ، مضى الأمس ، وليس اليوم كالأمس ، لا زبيدة بزبيدة ولا جليلة بجليلة ، وليس ثمة ما يستحق المغامرة ، ليقنع بالأخوة التى نوّهت بها جليلة ، وليمدها حتى تظلل زبيدة نفسها ، قال برقة :

ــ من أين للكبر أن يدرك آدميا وهو بينكن !

تساءلت زبيدة وهى تقلب عينيها فى الرجال الثلاثة :

ــ أيكم الأكبر ؟

فقال السيد أحمد ببراءة :

ــ أنا ولدت فى أعقاب ثورة عرابى ..!

فقال محمد عفت محتجا :

ــ قل كلاما غير هذا ، لقد بلغنى أنك كنت من جنود عرابى ..!

فقال السيد أحمد :

ــ كنت جنديا من بطونهم ، كما يقال الآن : تلميذ من منازلهم ..

فتساءل على عبد الرحيم كالداهش :

ــ وماذا صنعت المرحومة والدتك وأنت داخل خارج إلى المعركة ؟!

صاحت زبيدة بعد أن أفرغت الكأس فى فيها :

ــ لا تهربوا بالهزار ، إنى أسألكم عن أعماركم ..

قال إبراهيم الفار بتحد :

ــ ثلاثتنا بين الخمسين والخمسة والخمسين ، فهل تكاشفاننا بعمركما ؟..

هزت زبيدة كتفيها استهانة ، وقالت :

ــــ أنا ولدت ..

ثم ضاقت عيناها المكحولتان وهما ترفعان إلى المصباح فى حال تذكر ، غير أن السيد أحمد عاجلها متمما ما توقفت عن إتمامه :

ــــ عقب ثورة سعد باشا ؟!

ضحكوا طويلا حتى ألعبت لهم الوسطى ، ولكن جليلة لم ترحب بالحديث فيما بدا ، فصاحت بهم :

ــــ دعونا من هذه السيرة المقطرنة ! ، ما لنا نحن والأعمار !. ليسأل عنها صاحب الأمر فى سماواته ، أما نحن فالمرأة منا شابة ما وجدت من يرغب فيها ، والرجل منكم شاب ما وجد من ترغب فيه ..

هتف على عبد الرحيم بغتة :

ــــ هنئونى !

وسئل عما يهنأ عليه ، فواصل الهتاف قائلا :

ــــ سكرت ..

قال أحمد عبد الجواد : إنهم ينبغى أن يلحقوا به قبل أن يضل وحده فى عالم السكر ، حثتهم جليلة على أن يتركوه وحده جزاء تعجله ، آوى على عبد الرحيم فى ركن وفى يده كأس مترعة وهو يقول لهم : ابحثوا عن ساق غيرى . قامت زبيدة إلى حيث تركت ملابسها الخارجية وفحصت فى حقيبتها عن حُق الكوكايين حتى اطمأنت إلى أنه فى مكانه ، اغتنم إبراهيم الفار فرصة خلو مكان زبيدة فجلس فيه ثم أسند رأسه إلى كتف جليلة وهو يتنهد بصوت مسموع ، نهض محمد عفت إلى النافذتين المطلتين على النيل وأزاح الخصاص عنهما جانبا فلاح سطح الماء ظلمات متحركة عدا خطوط من الضياء الهادىء رسمتها على الأمواج الأشعة المرسلة من مصابيح الذهبيات الساهرة ، لعبت زنوبة بأوتار العود محدثة نغمة راقصة فاتجهت عينا السيد إليها مليا ثم قام ليملأ كأسه لنفسه ، عادت زبيدة فجلست بين محمد عفت وأحمد عبد الجواد وهى تضرب الأخير على سلسلة ظهره ، علا صوت جليلة وهى تغنى :

« يوم ما عضتنى العضة ..» .

هتف إبراهيم الفار بدوره : هنئونى .. اشترك محمد عفت وزبيدة فى غناء جليلة عند جملة : « وجابولى طاسة الخضة » ، اشتركت زنوبة فى الأغنية ، فعاود السيد أحمد النظر إليها وما يدرى إلا وهو ينضم إلى المغنين . جاء صوت على عبد الرحيم من ركن الحجرة مؤيدا . هتف إبراهيم الفار ورأسه لا يزال مسندا إلى كتف جليلة : مغنون ستة وسميع واحد هو أنا . قال السيد أحمد لنفسه دون أن يتوقف عن الغناء : سوف تلبى وهى من الرضى والسرور فى نهاية ، ثم ساءل نفسه أيضا : أليلة عابرة أم معاشرة طويلة ؟. قام إبراهيم الفار فجأة واندفع يرقص ، جعل الجميع يصفقون على الواحدة ثم غنوا معا :

« خدنى فى جيبك بقه .. بين الحزام والمنطقة » .

ساءل السيد أحمد نفسه : ترى أتقبل زبيدة أن يكون اللقاء فى بيتها ؟.. انتهت الأغنية والرقص فاستبقوا إلى التراشق بالدعابات دون توقف ، جعل أحمد عبد الجواد كلما أطلق دعابة يسترق النظر إلى وجه زنوبة ليرى أثرها فيه ، اشتد الهرج والمرج ، ومضى الوقت منسرقا ..

ـــ آن لى أن أذهب ..

قال على عبد الرحيم ذلك ، وهو ينهض متجها إلى ملابسه . فصاح به محمد عفت ساخطا :

ـــ قلت لك أن أحضرها معك حتى لا نقطع السهرة !

تساءلت زبيدة وهى ترفع حاجبيها :

ـــ من هى المحروسة ؟

فقال إبراهيم الفار :

ـــ رفيقة جديدة ، معلمة قد الدنيا وصاحبة بيت بوجه البركة ..

فسأله السيد أحمد باهتمام :

ـــ من .. ؟

أجاب على عبد الرحيم ، وهو يحبك الجبة ضاحكا :

ـــ صاحبتك القديمة سنية القللى ..

فاتسعت عينا السيد الزرقاوان ، وتجلت فيهما نظرة حالمة ، ثم قال باسما :

ـــ اذكرنى عندها وأقرئها السلام ..

قال على عبد الرحيم ، وهو يفتل شاربه ويتأهب للذهاب :

ـــ سألت عنك واقترحت علىَّ أن أدعوك إلى قضاء سهرة فى بيتها بعد مواعيد العمل ، فقلت لها إن بكره اسم النبى حارسه قد بلغ السن التى تعد فى أسرتهم موجبة للدخول فى وجه البركة وغيرها من وجوه الفسق ، فلا يأمن أبوه إن جاء أن يلتقى به فى إحدى جولاته ..!

وضحك الرجل ملء شدقيه ، ثم سلم وغادر الحجرة إلى الدهليز ، فتبعه على الأثر محمد عفت وأحمد عبد الجواد ليوصلاه إلى الباب الخارجى . واستمروا يتحادثون ويتضاحكون حتى غادر السيد على العوامة ، وعند ذاك غمز محمد عفت ذراع أحمد عبد الجواد ، وهو يتساءل :

ـــ زبيدة أم جليلة ؟

فقال السيد أحمد ببساطة :

ـــ لا هذه ولا تلك !.

ـــ لم ؟ كفى الله الشر !!

فقال بلهجة القانع :

ـــ خطوة خطوة ، سوف أكتفى ما بقى من هذه الليلة بالشراب وسماع العود ..!

ألح عليه أن يقدم رجله خطوة أخرى ، ولكنه اعتذر فلم يثقل عليه ، عادا إلى الحجرة المبعثرة الفاقدة الوعى فاستردا مجلسيهما . قام إبراهيم الفار مقام الساقى ، افتضحت أمارات السكر فى وهج العيون وسلس الحديث وتحرر الأعضاء ، غنوا جميعا وراء زبيدة :

« البحر بيضحك ليه .. » .

لوحظ أن صوت السيد أحمد عبد الجواد علا حتى كاد يغطى على صوت زبيدة ، روت جليلة تناتيش من مغامراتها . مذ وقع بصرى عليك شعرت بأن الليلة لن تمر بلا مغامرة ، ما أملح الصغيرة ، الصغيرة ؟، هى كذلك ما دمت تكبرها بربع قرن . تحسر إبراهيم الفار على العصر الذهبى للنحاس على أيام الحرب ، فقال لهم بلسان ثقيل « كنتم تقبلون يدى من أجل رطل نحاس » فقال له السيد أحمد : « إن كان لك عند الكلب حاجة قل له يا سيدى » . اشتكت زبيدة شدة السكر

فقامت تتمشى ذهابا وجيئة ، وعند ذاك جعلوا يصفقون على إيقاع مشيتها المترنحة ويهتفون بها :

« تاتا خطى العتبة .. تاتا خطى العتبة » .

الخمر تشل العضو الذى يفرز الحزن ، غمغمت جليلة قائلة : « حسبنا » ، ونهضت فغادرت الحجرة إلى ردهة تفضى إلى مخدعين متقابلين ، فمالت إلى المخدع المجاور للنيل ودخلت ، وما لبث أن ترامت إليهم طقطقة الفراش وهو يتلقى جسمها العظيم ، راق زبيدة تصرف جليلة فاتبعت أثرها إلى المخدع الآخر باعثة وراءها طقطقة أعنف ، قال إبراهيم الفار : « إن لسان السرير قد نطق » . تناهى إليهم من المخدع الأول صوت وان يترنم محاكيا بحة منيرة : « يا حبيبى تعالى » ، فقام محمد عفت وهو يجيب مترنما كذلك : « آدينى جى » . نظر إبراهيم الفار إلى أحمد عبد الجواد متسائلا ، فقال له السيد : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » ، فقام وهو يقول : « لا حياء فى العوامة ! » .. خلا الجو ، ها هى الساعة التى رصدتها طويلا ، نحت الصغيرة العود جانبا وتربعت وهى تسبل حاشية الفستان على ساقيها المتشابكتين . ساد صمت وتبودل نظر ثم مدت بصرها إلى لا شىء ، تكهرب الصمت فلم يعد يحتمل ، نهضت فجأة فسألها : إلى أين ؟ فغمغمت وهى تمرق من الباب : « الحمام » ، قام بدوره إلى مجلسها فجلس وتناول العود وراح يعبث بأوتاره ، وهو يتساءل : « أليس ثمة حجرة ثالثة ؟ » لا ينبغى لقلبك أن يدق هكذا كأنما الجندى الإنجليزى يسوقك أمامه فى الظلام ، ليلة أم مريم هل تذكر ؟ لا تعد إلى ذكراها فهى ألم ، عادت من الحمام .. ما أنضرها ! ..

ــــ أتضرب العود ؟

أجاب باسما :

ــــ علمينى ..

ــــ حسبك الدف فإنك من رجاله !

وهو يتنهد :

ــــ تلك أيام خلت ، ما ألطفها ، كنت طفلة ! ، ما لك لا تجلسين ؟

تكاد تلمسك ، ما أحلى أول الصيد !

ــــ خذى العود وأسمعينى ..

ـــ شبعنا غناء وعزفا وضحكا ، عرفت الليلة أكثر من ذى قبل لماذا يفتقدونك فى كل سهرة !

فابتسم ابتسامة وشت بسروره ، ثم قال بمكر :

ـــ ولكنك لم تشبعى شربا ؟

فأجابت بالإيجاب وهي تضحك ، فوثب كالجواد إلى المائدة ، ثم عاد بزجاجة مملوءة حتى النصف ، وكأسين ، وجلس وهو يقول : « لنشرب معا » . الشرهة اللذيذة تنفث عيناها شيطنة وسحرا ، سلها عن الحجرة الثالثة .. سل نفسك : ليلة أم معاشرة .. وعن العواقب لا تسل ، أحمد عبد الجواد بجلالة قدره يفتح ذراعيه لزنوبة العوادة .. بصحاف الفاكهة كانت تقف بين يديك .. لكن لتحل بك السعادة جزاء نضارتك ، أما الكبر فلم يكن أبدا من شيمى .. رأى كفها القابضة على الكأس قريبة من ركبته ، فمد راحته وربت عليها بلطف ، ولكنها سحبتها فى صمت إلى حجرها دون أن تلتفت إليه ، فساءل نفسه ترى هل يحلو التدلل فى هذا الوقت المتأخر خاصة إذا كان الداعى مثله وكانت المدعوة مثلها ؟، غير أنه لم يحد عن سنن الملاينة والملاطفة ، فسألها بلهجة ذات معنى :

ـــ أليس ثمة حجرة ثالثة فى العوامة ؟

قالت تجيب على ظاهر السؤال متجاهلة مغزاه وهى تشير صوب باب الدهليز :

ـــ فى الناحية الأخرى ..

تساءل وهو يفتل شاربه مبتسما :

ـــ أليست تسع كلينا ؟

فقالت بصوت لا أثر للدلال فيه ، وإن لم يجاوز حدود الأدب :

ـــ تسعك وحدك إن طاب لك النوم !

فسألها كالداهش :

ـــ وأنت ؟

فقالت بنفس اللهجة :

ـــ مستريحة كما أنا ..

تزحزح قليلا مقتربا منها ، ولكنها قامت فوضعت كأسها على المائدة ، ثم

مضت إلى الكنبة المقابلة له ، فجلست راسمة على وجهها صورة الجد والاحتجاج الصامت حتى عجب الرجل لشأنها فباخ حماسه ووجد وخزة فى كبريائه ، ثم جعل ينظر إليها وعلى شفتيه ابتسامة متكلفة حتى سألها :

ـــ ماذا أغضبك ؟

فلازمت الصمت مليا ، ثم شبكت ذراعيها على صدرها :

ـــ إنى أتساءل عما أغضبك ؟

قالت باقتضاب :

ـــ لا تسل عما تعلم ..

ضحك فجأة ضحكة عالية معلنا بها عن استهانته وعدم تصديقه ، وقام بدوره فملأ الكأسين ثم قدم لها كأسها ، وهو يقول :

ـــ روق مزاجك ..

فتناولت الكأس تأدبا ثم أعادتها إلى المائدة ، وهى تغمغم « أشكرك » فتراجع إلى مجلسه وقعد ، ثم رفع كأسه إلى شفتيه وتجرعها دفعة واحدة وقهقه ضاحكا :

أكان فى وسعك أن تتوقع هذه المفاجأة ؟، لو أستطيع أن أرجع فى الزمن ربع ساعة إلى الوراء ، زنوبة .. زنوبة .. ولا شيء غير زنوبة فهل تصدق ذلك ؟، لا تتشتت حيال الصدمة ، من يدرى لعله دلال موضة ١٩٢٤ يا حمصانى ١٩٠٠ ، ماذا تغير فى ؟.. لا شيء .. لكنها زنوبة .. أليس ذلك هو اسمها ؟، لكل رجل حتما من امرأة تعرض عنه ، وما دامت زبيدة وجليلة وأم مريم يسعين إليك فمن غير زنوبة ـــ هذه الخنفساء ـــ تعرض عنك ؟!. تحمل حتى تحتمل ، ليس الأمر على أى حال بكارثة ، آه ، انظر انظر ، ساقها مليحة مدملجة ، أساسها متين ، لم تظن أنها أعرضت عنك حقا ؟ ..

ـــ اشربى يا حلوة ..

قالت بصوت يجمع بين الأدب والحزم :

ـــ عندما يروق لى الشراب ..

فسدد نحوها بصره ، ثم تساءل بلهجة ذات معنى :

ـــ ومتى يروق لك ..؟

فقطبت معلنة عن مدى فهمها لإشارته ولم تجب ..

تساءل السيد ، وكان يشعر فى تلك اللحظة أنه يتدهور :

ـــ ألم يصادف توددى القبول ؟

فطامنت من رأسها لتخفى وجهها عن عينيه ، وقالت برجاء حازم :

ـــ هلا كففت عن هذا ؟

تملكه غضب فجائى فجاء كرد فعل لإحساسه بالتدهور ، فتساءل داهشا :

ـــ لم تجيئين إلى هنا ؟

قالت باحتجاج ، وهى تشير إلى العود المستلقى على الكنبة غير بعيد عنه :

ـــ أجىء من أجل هذا ..

ـــ فقط ؟ .. لا تناقض بين هذا وبين ما أدعوك إليه ..!

تساءلت باستياء :

ـــ بالقوة ؟

فقال وهو يعانى سكرات الخيبة والحنق :

ـــ كلا ، ولكنى لا أجد سببا للرفض !

فقالت ببرود :

ـــ لعل عندى أسبابا ..

ضحك ضحكة عالية فاضية ، ثم غلبه الحنق ، فقال هازئا :

ـــ لعلك تخافين على بكارتك !

رنت إليه بنظرة طويلة قاسية ، ثم قالت بحنق وتشفٍ :

ـــ أنا لا أرضى إلا بمن أحبه ..

هم بأن يضحك مرة أخرى ، ولكنه أمسك بعد أن ضاق صدره بهذه الضحكات الآلية المحزنة ، ومد يده إلى القارورة فصب منها فى كأسه بلا تدبر حتى امتلأت إلى النصف ، ولكنه تركها على المائدة ، وراح ينظر إلى المرأة فى حيرة لا يدرى كيف يخرج من المأزق الذى دفع نفسه إليه .. الأفعى بنت الأفعى لا ترضى إلا بمن تحبه ، هل يعنى هذا إلا أنها تحب كل ليلة رجلا !، هيهات أن تمحى من صفحتك فضيحة الليلة !. السادة هناك فى الداخل ، وأنت هنا تحت رحمة عوادة متدللة .. اسلخها بلسانك .. اركلها بقدمك .. ادفعها أمامك إلى الحجرة قهرا . الأجدر أن تشيح عنها بوجهك وتغادر المكان فورا ، فى أعيننا لعنة تذل

الأعناق ، ما ألطف جيدها ، لا تمار فى حلاوتها ، طاش الرأى ووجب الألم ..

ـــ لم أكن أتوقع هذا الجفاء ..

وقطب مصمما وقد تجهم وجهه ، فنهض رافعا كتفيه فى استهانة ، وهو يقول :

ـــ ظننتك مثل خالتك لطافة وذوقا فخاب ظنى ، ولن ألوم إلا نفسى ..

سمع وسوسة شفتيها وهى تمتص ريقها مصة الاحتجاج والانتقاد . ولكنه مضى إلى ملابسه فأخذ يلبسها على عجل حتى انتهى منها فى أقل من نصف المدة التى تتطلبها عادة أناقته . كان مصمما غاضبا ، ولكن اليأس لم يبلغ به نهايته ، ظل جزء من نفسه متمردا يأبى أن يصدق ما وقع أو يعز عليه أن يسلم به ، فتناول عصاه وهو يترقب بين لحظة وأخرى أن يحدث شىء فيكذب ظنه ويصدق أمانى كبريائه الجريح ، كأن تضحك فجأة حاسرة عن وجهها قناع الجد الزائف ، أو أن تهرع إليه مستنكرة غضبه ، أو أن تثب أمامه لتحول بينه وبين الذهاب ، أجل كثيرا ما تكون مصة الريق التى ندت عنها مناورة يعقبها الاستسلام ، غير أن شيئا من ذلك لم يحدث .

ولبثت وهى بمجلسها تنظر إلى لا شىء ، متجاهلة إياه كأنها لا تراه ، فغادر الحجرة إلى الدهليز ومنه إلى الباب الخارجى ثم إلى الطريق وهو يتنهد فى حزن وأسف وغيظ . قطع الطريق المظلم مشيا على الأقدام حتى بلغ جسر الزمالك وجو الخريف الرطيب يتسلل فى لطف إلى داخل ملابسه ، ومن هناك استقل تاكسى ، فطوى به الأرض طيا وهو ذاهل من السكر والفكر ، حتى انتبه إلى ما حوله فى ميدان الأوبرا والسيارة تدور به فى طريقها إلى العتبة الخضراء ، فى أثناء دورانها حانت منه التفاتة فلمح على ضوء المصابيح سور حديقة الأزبكية فعلق به بصره حتى غيبه عنه منعطف الطريق ، ثم أغمض عينيه وهو يشعر بشكة تنفذ إلى أعماق قلبه ، ووجد فى باطنه صوتا كالأنين يهتف فى عالمه الصامت داعيا بالرحمة للفقيد العزيز ، فلم يجرؤ على ترديد الدعاء بلسانه أن يذكر اسم الله بلسان مشبع بالخمر ، وعندما رفع جفنيه ، ذرفت عيناه دمعتين غزيرتين ..

٨

لم يدر ماذا ركبه !! شيطان رجيم أم داء وبيل ؟! نام وهو يأمل أن يكون انتهى من سخف الليلة الماضية ، بسخف السكر دعاه ، وللسكر سخف لا ريب فيه يفسد لذاته ويقلب مسراته ، وعندما ألقى عليه الصباح نوره وجده من قلق يتقلب ، ورشاش الدش يترشش على جسده العارى تشتت فكره وخفق قلبه ، تخايل لعينيه وجهها وطنت فى أذنيه وسوسة شفتيها ورجع قلبه صدى الألم ، ثم تجتر أفكارك الظامئة كفتى مراهق والطريق من حولك يحييك تحية الإجلال . يحيون فيك الوقار والورع وحسن الجوار ، ولو علموا أنك ترد تحياتهم فى آلية وفكرك عنهم غائب مهموم فى حلم جارية عالمة .. عوادة .. امرأة تعرض جسدها كل ليلة فى سوق المضاجع .. لو علموا ذلك ، لأولوك بدل التحية ابتسامة هزء ورثاء . فلتقل الأفعى « نعم » وعند ذلك أعرض عنها بكل ازدراء وارتياح ، ماذا دهانى وماذا أروم ، هل أدركك الكبر ؟ أتذكر ما ابتلى جليلة وزبيدة من عاديات الزمن ؟ تلك آثار بغيضة يجدها القلب ولا يدركها الحس ، لكن مهلا ، حذار أن تسلم للوهم فيسلمك الوهم لقمة سائغة للانهيار .. ما هى إلا شعرة بيضاء ، لغير ذلك من البواعث أعرضت عنك العوادة الحقيرة .. الفظها كما تلفظ ذبابة اندست فى فيك وأنت تتثاءب ، وا أسفاه !! أنت تعلم أنك لن تلفظها ، لعلها الرغبة فى الانتقام ولا شىء سوى ذلك . رد اعتبار ليس إلا . ينبغى أن تقول الجارية « نعم » ، ولك أن تهجرها بعد ذلك قرير العين . لا شىء فيها يستحق النضال . أتذكر ساقيها وجيدها وشهوة عينيها ؟ . لو داويت كبريائك بلعقة من الصبر لفزت — من ليلتك — بالمتعة والبهجة ، ماذا وراء هذا القلق كله ؟! . إنى أتألم ، أجل ! إنى أتألم ، إنى مكروب بما نزل بى من مهانة ، أتوعدها بالازدراء ثم تخطر منها على القلب خطرة فتستعر عروقى .. استبق الحياء ولا تجعل من نفسك أضحوكة ، إنى أستحلفك بالأولاد من بقى منهم ومن ذهب .. هنية كانت المرأة الوحيدة التى هجرتك فجريت وراءها ، ماذا لقيت منها ؟ ألا تذكر !! فتوة الزفة يرقص ويسكر ويصول ويجول ، ثم يعمل عصاه فى المصابيح وطاقات الورد والمزامير والمدعوين ، حتى يغطى الصوات على الزغاريد .. ذاك رجل ؟! كن فتوة العوامة واقتل أعداءك بالتجاهل والإعراض . ما

أضعف أعداءك وما أقواهم ، ساق مسترخية لا تكاد تقوى على المشى غير أنها تهد الجبال الرواسى ، ما أفظع سبتمبر إذا ارتفعت حرارته المشبعة بالرطوبة ، ما ألطف أماسيه خاصة ما يكون منها فى العوامة . إن بعد العسر يسرا ..

فكر فى أمرك وانظر فى أى اتجاه تسير ، المكتوب لازم تشوفه العين ، الإقدام مر والنكوص مرعب ، كم كنت تراها وهى فى ميعة الصبا فلم توقظ فيك نائما ومررت بها كأنها شىء لم يكن ، ماذا جد حتى زهدت فيمن أحببت وأحببت من كنت تزهد ، ليست أجمل من زبيدة ولا جليلة ولو كان بها جمال ينافس جمال خالتها ما اصطحبتها ، على ذلك فأنت تريدها وتريدها بكل قوة نفسك .. آه !! ما جدوى المكابرة ؟! لا أرضى إلا بمن أحبه !! أحبك برص يا بنت اللبؤة .. تألم حتى تختنق ، ما أذل الإنسان مثل نفسه ، هل تذهب إلى العوامة ؟. ليست خير مكان لإذاعة الفضائح ، البيت ؟. هناك زبيدة !! أهلا أهلا !! أعدت أخيرا إلى عرينك ؟ بم تجيبها ؟ لم أعد لذاك ، ولكنى أريد بنت أختك ! يا له من سخف ! دع الهذر . هل فقدت صوابك !؟ استعن بالفار أو بمحمد عفت . السيد أحمد عبد الجواد يبحث لنفسه عن شفيع إلى .. زنوبة !.. أليس من الأفضل أن تفصد نفسك حتى يتفصد الدم الخبيث الذى يسيمك الذل !.

كان الليل قد غشى الغورية وأغلقت أبواب حوانيتها ، حين أقبل أحمد عبد الجواد من دكانه عقب إغلاقها ، يسير فى خطوات وئيدة وعيناه تتفحصان الطريق والنوافذ ، لاح وراء نافذتى زبيدة ضوء ، ولكنه لم يدر ماذا كان يدور وراءهما ، أوغل فى الطريق وقتا ثم عاد من حيث أتى ، فوصل مسيره إلى بيت محمد عفت بالجمالية حيث يلتقى الأصدقاء الأربعة قبل انطلاقهم إلى السهرة معا . قال السيد مخاطبا محمد عفت :

ـــ ما ألطف ليالى العوامة ، لا يزال قلبى يحن إليها !.

فقال محمد عفت ضاحكا فى ظفر :

ـــ هى رهن إشارتك فى أى وقت تشاء ..

وعقب على عبد الرحيم على ذلك بقوله :

ـــ حننت إلى زبيدة ، يا عكروت ..

فبادر السيد قائلا فى جد :

ــ كلا ..

ــ جليلة ؟

ــ العوامة ولا شيء عداها ..

فسأله محمد عفت بمكر :

ــ أتريدها سهرة قاصرة علينا ، أم ندعو إليها صديقات الزمان الأول ؟

فضحك السيد ضحكا أعلن بها هزيمته ، ثم قال :

ــ بل تدعوهن يابن الماكرة ، وليكن ذلك مساء الغد ، لأن الوقت تأخر بنا الليلة ، ولكنى لن أجاوز الاستمتاع بالمجالسة والمؤانسة ..

قال إبراهيم الفار « إحم » ، وقال على عبد الرحيم : « على روحى أنا الجانى » ، وقال محمد عفت ساخرا : « سمه كما تشاء ، تعددت الأسماء والفعل واحد » .

ثم كان اليوم التالى كأنما اكتشف قهوة سي على لأول مرة . انجذب إليها قبيل الأصيل ، وجلس على الأريكة تحت الكوة ، فأقبل عليه صاحب القهوة مرحبا ، فقال له السيد وكأنه يبرر مجيئه إلى القهوة لأول مرة :

ــ كنت راجعا من بعض الأعمال ، فنازعتنى النفس إلى احتساء شايك العذب .

زيارة لا يبدو أنها من السهل أن تتكرر .. رويدا رويدا !! ستفضح نفسك أمام الناس ، ما جدوى هذا كله ؟!. هل يسرك حقا أن تراك من وراء الخصاص لتهزأ من تدهورك ؟. إنك لا تدرى ماذا تصنع بنفسك ، أتعبت عينيك فى محجريهما ودوخت دماغك ، لن تبدو لك ، والأدهى من هذا أن تتفرج عليك ساخرة من وراء خصاص ، ماذا جاء بك ؟ تريد أن تملأ عينيك منها . اعترف ، تريد أن تقيس أبعاد جسمها اللدن .. أن ترى ابتسامتها وإغضاءتها .. أن تتابع أناملها المخضبة ، فيم هذا كله ؟ لم يسلف لك شيء كهذا مع من فقنها حسنا ورواء وشهرة ، أقضى عليك أن تتعذب وتهون فى سبيل الشيء الحقير !. لن تبدو .. تطلع كيفما شئت .. ألفت إليك الأنظار .. السيد أحمد عبد الجواد فى قهوة سى على يسترق النظر من الكوة ، لشد ما تدهورت !! من أدراك أنها لم تفش سرك ؟. لعل التخت يدرى ، ولعل زبيدة نفسها تدرى ، ولعل الجميع يدرون !! مد يده المحلاة بالخاتم

الماسى إلى فصددته ثم توسل إلى فأصررت على صده .. هذا هو السيد أحمد عبد الجواد الذى تشيدون به !.. لشد ما تدهورت !! أقصى التدهور ما تنحدر إليه ، بل ما تصرّ على الانحدار إليه وأنت أعلم الناس بما ينطوى عليه فعلك المشين من مذلة وهوان ، إذا عرف السر أصحابك وزبيدة وجليلة ، فماذا أنت صانع ؟! حقا أنت ماهر فى مداراة الحرج بالنكتة ، ولكن سوف تنحسر موجات الضحك والقهقهة عن الحقيقة المرة .. هذا مؤلم وآلم منه أنك تريدها . لا تكذب على نفسك ، فأنت تريدها حتى الممات . ماذا أرى ؟.. تساءل وهو ينظر إلى عربة كارو جاءت فوقفت أمام بيت العالمة ، ثم ما لبث أن فتح الباب فخرجت عيوشة الدفافة ساحبة وراءها عبده القانونجى ، ثم تبعتها بقية الجوقة ، فأدرك أنهم ذاهبون إلى فرح من الأفراح . وشعر الرجل شعورا عنيفا بخفقان قلبه وهو يتطلع إلى الباب فى ترقب مشوق محزن . اشرأب بعنقه فى غير ما حيطة متجاهلا ما حوله من الناس ، ثم رنت ضحكة وراء الباب ، ثم برز العود فى جراب بمبى يسبق صاحبته التى خرجت فى نشاط ثورى ضاحكة ثم وضعت العود على مقدم العربة ، وصعدت إليها بمعونة عيوشة ، وجلست فى الوسط حتى لم يعد يرى منها إلا منكبا يبدو خلال زاوية انفرجت ما بين عيوشة وعبده الضرير . أصرّ السيد على أسنانه حنينا وحنقا معا . أتبع العربة عينيه وهى تتمايل ذات اليمين وذات الشمال موغلة فى الطريق ، مخلفة فى صدره إحساسا عميقا بالكآبة والهوان ، وتساءل : هل يقوم فيتبعها ؟ غير أنه لم يحرك ساكنا ولم يزد على أن قال لنفسه : « كان المجىء إلى هنا حماقة جنونية » .

ذهب فى المساء الموعود إلى العوامة بإمبابة ، لم يكن استقر على رأى فيما ينبغى أن يفعل على كثرة ما أدار الأمر فى ذهنه . ثم أخيرا ، رهن حل مشاكله بيد الظروف والفرص .. حسبه أنه ضمن رؤيتها ومجالستها والانفراد بها فى آخر الليل ، سوف يجس النبض من جديد وربما أعاد الكرة مستعينا هذه المرة بكافة ضروب الإغراء ، دخل العوامة كالوجل ، وعلى حال لو رآها على غيره وحدس بواعثها لأغرقه ضحكا وسخرية . هنالك وجد الإخوان وجليلة وزبيدة ولكنه لم يعثر للعوادة على أثر !! وقد استقبل استقبالا حارا ، وما كاد يخلع جبته وطربوشه ويتخذ مجلسه حتى انفجرت القهقهات من حوله فاندمج فى جوها بقوة مرونته . حدَّث ونكَّت ومازح وداعب مغالبا قلقه محاورا همه ، غير أن مخاوفه كمنت تحت تيار المرح دون أن تتبدد كما

يكمن الألم إلى حين تحت تأثير المخدر ، وما برح يأمل أن ينفتح باب فتأتى منه أو أن يشير أحد إليها بكلمة تفسر غيابها أو تعد بقرب حضورها ، وكلما مضى الوقت متثاقلا متثائبا شحب أمله وفتر حماسه وغيم المأمول من صفوه .

ترى أيهما كان الطارىء : حضورها أول أمس ، أم تخلفها اليوم ؟، لن أسأل أحدا ، الظواهر تنم على أن سرك لا يزال مصونا ، لو علمت به زبيدة ما تورعت أن تجعل منه فضيحة وجرسة . ضحك كثيرا وشرب أكثر ، سأل زبيدة أن تغنيه « أضحك من الفم وابكى من صميم قلبى » ، أوشك مرة أن يخلو بمحمد عفت ليكاشفه بما يريد ، أوشك مرة أخرى أن يجس نبض زبيدة نفسها بيد أنه ضبط نفسه فخرج من أزمته مصون السر والكرامة .

ولما قام على عبد الرحيم عند منتصف الليل ليذهب إلى رفيقته بوجه البركة ، قام معه على غير توقع من أحد ليعود إلى بيته ، وعبثا حاولوا أن يثنوه عن عزمه أو أن يستنظروه ساعة ، فذهب مخلفا وراءه دهشة ، وخيبة للذين حدسوا وراء مجيئه المرسوم ظنونا لم تقع .

ثم كان يوم الجمعة فخرج إلى جامع الحسين قبيل الصلاة بقليل ، وإنه ليسير فى شارع خان جعفر ، إذ رآها عابرة من حارة الوطاويط فى طريق الجامع !.. آه .. لم يخفق قلبه مثل تلك الخفقة من قبل ، وأعقبها على الأثر جمود شمل حركته النفسية كلها ، حتى خيل إليه ــ فيما يشبه الغيبوبة ، وخلافا للواقع ــ أنه توقف عن السير ، وأن العالم من حوله صمَت صمْت القبوز ، كمثل السيارت التى تتوقف محركاتها عن الدفع فيخرس أزيزها ولكنها تسير بقوة القصور الذاتى فى سكون شامل ، ولما أفاق إلى نفسه وجدها تتقدمه بمسافة غير قصيرة ، فتبعها على الأثر دون تدبر أو روية ، فمر بالجامع دون أن يعرج إليه ، ثم مال وراءها عن بعد إلى السكة الجديدة . ماذا يبغى ؟. إنه لا يدرى !! كان يطيع رد الفعل طاعة عمياء ، لم يكن سبق له أن تعقب امرأة فى الطريق ولا فى أيام شبابه الأول فأخذ ينتابه الحرج والحذر ، ثم دهمته فكرة ساخرة مفزعة معا : أن يهتك سر المطاردة الخفية ، ياسين أو كمال !. على أنه حرص على ألا تقصر المسافة بينه وبينها عما كانت عليه مذ بدأت المطاردة ، وراحت عيناه ترتويان من هيئة جسمها اللطيف بنهم وظمأ وهو يستقبل موجات متتابعة من الأشواق والآلام ، حتى رآها تعدل عن الطريق إلى دكان صائغ

من معارفه يدعى يعقوب ، تباطأت قدماه كي يتيح لنفسه فرصة للتدبر وتضاعف شعوره بالحرج والحذر : ألا يعود من حيث أتى ؟، أم يمر بالدكان دون أن يلتفت نحوها ؟. أم ينظر إلى الداخل وينتظر ما يحدث ؟.

كان يقترب من الدكان رويدا ، حتى إذا لم يبق بينه وبينها إلا أقدام خطرت له خاطرة جريئة ، فاندفع إلى تنفيذها بلا تردد متجاهلا خطورتها ، وهى أن ينتقل إلى الطوار ثم يسير متمهلا أمام الدكان على أمل أن يراه صاحبه فيدعوه كعادته إلى الجلوس فيلبى دعوته !.. مضى متمهلا فوق الطوار حتى بلغ الدكان ، فنظر إلى الداخل كأنما ينظر عفوا ، فالتقت عيناه بعينى يعقوب .. وإذا بالخواجا يهتف به :

ـــ أهلا بالسيد أحمد ، تفضل ..

ابتسم السيد متوددا ثم عرج إلى الداخل فتصافحا بحرارة ودعاه الخواجا إلى كوب خروب ، فقبل الدعوة قبول الكرام ، وجلس على طرف كنبة جلدية من قبل الخوان المنصوب عليه الميزان . لم يبد عليه أنه فطن إلى وجود ثالث فى الدكان حتى جلس فتراءت أمام عينيه زنوبة وهى واقفة حيال الخواجا تقلب بين يديها قرطا فتظاهر بالدهش ، والتقت عيناهما وهو على تلك الحال .. ابتسمت فابتسم ، ثم بسط راحته على صدره محييا ، وهو يقول :

ـــ صباح الخير .. كيف حالك ؟

فقالت وهى تعاود النظر إلى القرط :

ـــ بخير ربنا يكرمك ..

كان الخواجا يعقوب يعرض استبدال القرط بأسورة مع دفع فرق اختلفا عليه ، فانتهز السيد فرصة انشغالها ليملأ عينيه من صفحة خدها ، ولم يغب عليه ما فى المساومة والاستبدال من فرص تتيح له التدخل بالحسنى ، لعل وعسى .. غير أنها قطعت عليه سبيله وإن لم تدر بما أضمر ، فردت القرط إلى صاحبه وهى تعلنه بأنها عدلت نهائيا عن المبادلة ، وطلبت إليه إصلاح الأسورة ، ثم حيته ، وحيت السيد بإحناءة من رأسها وغادرت الدكان !. حدث هذا كله بسرعة لم يكن ثمة داع إليها فيما بدا له ، فأخذ وانزعج واستحوذ عليه الفتور والضيق . ولبث مع الخواجا يعقوب يتبادلان حديث المجاملات المألوف حتى شرب كوب الخروب ، ثم استأذن فى الانصراف وذهب .

ذكر — فى خجل شديد — صلاة الجمعة التى أوشكت أن تفوته ، ولكنه تردد فى المضى إلى الجامع ، لم تواته الشجاعة على الانتقال المباشر من تعقب امرأة وقت الصلاة إلى الجامع ، ألم ينقض نزقه وضوءه ؟، بل ألم يجعله غير أهل للوقوف بين يدى الرحمن ؟. عدل عن الصلاة محزونا متألما فسار فى الطرقات ساعة على غير هدى ، ثم عاد إلى البيت معاودا التفكير فى ذنبه ، على أن رأسه — حتى فى تلك اللحظات الحساسة المليئة بالندم — لم يغلق بابه دون زنوبة !. قال مخاطبا محمد عفت ، وكان قد سبق إلى بيته مساء ليخلو إليه قبل توافد الأصدقاء :

— أريد منك خدمة ، أن تدعو مساء الغد زبيدة إلى العوامة !.

ضحك محمد عفت ، وقال له :

— إن كنت تريدها فلم هذا اللف والدوران !. لو طلبتها أول ليلة لفتحت لك ذراعيها على الرحب والسعة ..

فقال أحمد عبد الجواد فى شىء من الحرج :

— أريد أن تدعوها وحدها ..!

— وحدها ؟!. يا لك من رجل أنانى لا تفكر إلا فى نفسك ، والفار وأنا !؟.. بل لنجعلها ليلة من ليالى العمر ، ولندع زبيدة وجليلة وزنوبة أيضا !..

تساءل أحمد عبد الجواد فيما يشبه الاستنكار :

— زنوبة ؟!..

— لم لا ؟!. إنها احتياطى لا بأس به، يرجع إليه عند الضرورة ..

ما آلمنى !.. كيف تمنعت بنت القديمة ولم ؟!.

— أنت لم تدرك بعد غايتى ، الحق أنى لا أنوى المجىء غدا !.

قال محمد عفت فى استغراب :

— تطلب أن أدعو زبيدة!. وتقول إنك لن تجىء غدا !. ما هذه الألغاز !!

ضحك أحمد ضحكة عالية يدارى بها ارتباكه ، ثم لم يجد بدا من أن يقول كاليائس :

— لا تكن بغلا ، سألتك أن تدعو زبيدة وحدها ، كى تبقى زنوبة فى البيت وحدها !

— زنوبة يابن أم أحمد !؟.

ثم وهو يسترسل فى الضحك :

ــ لم كل هذا التعب ؟، لم لم تطلبها أول ليلة فى العوامة ؟! ولو أشرت إليها بأصبعك لطارت إليك ، ولزقت فيك بالغراء !.

ابتسم ابتسامة فارغة ، رغم شعوره الأليم بالامتعاض ، ثم قال :

ــ نفذ ما أمرت به ، هذا ما أريد ..

قال محمد عفت وهو يفتل شاربه :

ــ ضعُف الطالب والمطلوب !.

فقال أحمد عبد الجواد جادًّا جدا :

ــ ليكن هذا سرًّا بيننا ..

٩

طرق الباب فى ظلام دامس وفى خلاء من المارة ، وكانت الساعة تدور فى التاسعة ، فتح الباب بعد حين دون أن يبدو الفاتح ، ثم جاءه صوت ارتج له فؤاده ارتجاجا يتساءل قائلا : « من ؟ » فقال بهدوء « أنا » ، وهو يدخل بغير استئذان ، ثم رد الباب وراءه فوجد نفسه قبالتها وهى واقفة على آخر درجة من السلم مادة ذراعها بالمصباح ، حدجته بنظرة داهشة ، ثم غمغمت :

ــ أنت !

فوقف صامتا مليا ، وعلى فيه ابتسامة خفيفة تنم عن الإشفاق والقلق ، ولما لم يأنس منها اعتراضا أو غضبا تشجع قائلا :

ــ أهذا هو استقبالك لصديق قديم ؟!

فولته كشحها ، ومضت ترقى فى الدرج ، وهى تقول :

ــ تفضل ..

تبعها صامتا ، وقد استنتج من فتحها الباب بنفسها أنها بمفردها فى البيت ، وأن مكان الجارية جلجل التى ماتت منذ عامين لا يزال شاغرا .. تبعها حتى دخلا إلى الدهليز ، فعلقت المصباح بمسمار مثبت فى الجدار على كثب من الباب ، ثم دخلت وحدها حجرة الاستقبال ، فأوقدت المصباح الكبير المدلى من السقف ــ

زادته هذه الحركة اطمئنانا إلى استنتاجه ـــ ثم خرجت فأومأت له بالدخول وذهبت ..

مضى إلى الحجرة ثم جلس فى الموضع الذى كان يجلس فيه فى العهد القديم على الكنبة الوسطى ، فنزع طربوشه وحطّه على النمرقة التى تشطر الكنبة ، ومد ساقه وهو يلقى نظرة فاحصة على ما حوله .. إنه يذكر المكان كما لو كان لم يغادره إلا أمس القريب ، هذه الكنبات الثلاث ، وهذه المقاعد ، وهذا البساط الفارسى ، وهذه الأخونة الثلاثة المطعمة بالصدف ، كل شيء كان بصفة عامة كما كان !! هل يذكر متى جلس آخر مرة فى هذا المكان ؟، إن ذكرياته عن بهو الطرب وحجرة النوم أوضح وأثبت ، بيد أنه لا يمكن أن ينسى أول لقاء تم بينه وبين زبيدة فى هذه الحجرة ، فى هذا الموضع بالذات !! وجملة ما دار فيه ، لم يكن أحد يومذاك مثله خلو بال وثقة بالنفس ؟ ترى متى تعود ؟ ماذا أحدثت زيارته فى نفسها ؟ إلى أى درجة سيرتفع غرورها ؟ ، وهل أدركت أنه جاء من أجلها هى لا من أجل خالتها ؟، إن أخفق هذه المرة فقل عليه السلام !.

سمع وقع شبشب خفيف ، ثم بدت زنوبة عند الباب فى فستان أبيض منمنم بورد أحمر ، ملتفعة بوشاح مرصع بالترتر ، أما رأسها فحاسر ، وأما شعرها فمجدول فى ضفيرتين غليظتين استرسلتا على ظهرها .. استقبلها واقفا باسما متفائلا بالزينة التى تبدت فيها ، فحيّته بابتسامة ، وأشارت إليه أن يجلس ، ثم جلست على الكنبة التى تتوسط الجدار الذى إلى يمينه ، وهى تقول بصوت لم يخل من دهش :

ـــ أهلا وسهلا ، أى مفاجأة !

فابتسم السيد متسائلا :

ـــ من أى نوع يا ترى هذه المفاجأة ؟

قالت وهى ترفع حاجبيها فى حركة غامضة لم تنم عما إذا كانت ستتكلم جادة أم ساخرة :

ـ سارة طبعا !

ما دمنا قد أطعنا أقدامنا حتى جاءت بنا إلى هنا فعلينا أن نتحمل الدلال بكافة أنواعه : ثقيله وخفيفه ..

تفحص جسمها ووجهها ـــ فى هدوء ـــ كأنما ينقب فيهما عما لوَّعه وعبث بوقاره ، فساد الصمت حتى رفعت إليه وجهها دون أن ينبس ، ولكن فى حركة نمت غن تساؤل مشرب بأدب ، كأنما تقول له : « نحن فى الخدمة » .

فتساءل السيد فى مكر :

ـــ هل يطول انتظارنا للسلطانة ؟. ألم تفرغ بعد من ارتداء ملابسها ؟.

فحدجته بنظرة غريبة وهى تضيق عينيها ، ثم قالت :

ـــ السلطانة ليست فى البيت ..

فتساءل متظاهرا بالدهشة :

ـــ أين هى يا ترى ؟

فقالت وهى تهز رأسها ، راسمة على شفتيها ابتسامة غامضة :

ـــ علمى علمك ..

فكر فى إجابتها قليلا ، ثم قال :

ـــ ظننتها تطلعك على خط سيرها ؟.

فلوّحت بيدها كالمستنكرة ، وقالت :

ـــ إنك حسن الظن بنا (ثم ضاحكة) السلطة العسكرية زمانها انتهى !، وإن شئت فأنت أحق منى بالاطلاع على خط سيرها !

ـــ أنا ؟!.

ـــ لم لا ، ألست صديقها القديم ؟

قال ، وهو يحدجها بنظرة باسمة عميقة ناطقة :

ـــ الصديق القديم والغريب سواء ، ترى هل يطّلع أصدقاؤك القدماء على خط سيرك ؟

رفعت منكبها الأيمن وهى تمط بوزها ، قائلة :

ـــ ليس لى أصدقاء ، لا قدماء ولا حديثون ..

فراح يعبث بفردة شاربه وهو يقول :

ـــ هذا كلام لمن لا عقل له ، أمّا من له ولو شىء من العقل فلا يتصور كيف يمكن أن تكونى بين قوم يبصرون ولا يستبقوا إلى صداقتك ...

ـــ إن هى إلا تصورات الكرماء أمثالك !، ولكنها لا تعدو التصورات الخيالية ،

الدليل على هذا أنك صديق قديم لهذا البيت ، فهل راق لك يوما أن تهبنى قسطا من صداقتك ؟

قطب فى ارتباك ، ثم قال بعد تردد :

ــ كنت وقتذاك ، أعنى أنه كانت ثمة ظروف ..

ففرقعت بأصابعها ، وقالت ساخرة :

ــ لعلها نفس الظروف التى حالت بينى ــ يا عينى ــ وبين الآخرين !

ألقى بظهره إلى مسند الكنبة فى حركة سريعة تمثيلية ثم مد نظره إليها من فوق أنفه العظيم ، وهو يهز رأسه كالمستعيذ بالله منها ، ثم قال :

ــ أنت عقدة ، وها أنا أعترف بأننى لا قبل لى بك !

فدارت ابتسامة بعثها الثناء ، ثم تظاهرت بالدهشة ، وهى تقول :

ــ لا أفهم مما تعنى شيئا ، الظاهر أنك فى واد وأنى فى واد ، المهم أنك قلت إنك جئت لمقابلة خالتى ، فهل من رسالة أبلغها إياها عند عودتها ؟..

ضحك السيد ضحكة قصيرة ، ثم قال :

ــ قولى لها إن أحمد عبد الجواد جاء ليشكونى إليك ، فلم يجدك !

ــ تشكونى أنا !، ماذا صنعت ؟

ــ قولى لها إنى جئت أشكو إليها ما لقيت منك من قسوة ليست من شيم الحسان !

ــ يا له من قول خليق برجل يجعل من كل شىء مادة لمزاحه ودعابته !

فاعتدل فى جلسته ، وقال جادا :

ــ معاذ الله أن أجعل منك مادة للمزاح أو الدعابة ؟! إن شكواى صادقة ، ويخيل إلى أنك واقفة على سرها ، ولكنه دلال الحسان ، وللحسان الحق كل الحق فى التدلل ، ولكن عليهن مراعاة الرحمة أيضاً .

فمصمصت بشفتيها قائلة :

ــ عجب !..

ــ لا عجب ألبتة !! أتذكرين ما كان بالأمس فى دكان يعقوب الصائغ ؟ ، هل يستحق ذلك اللقاء الجاف من كان يعتز بمثل مودتى لكم وقدم عهدى بكم ، ؟ وددت لو استعنت بى مثلا فيما كان بينك وبين الصائغ ، ووددت لو أتحت لى

الفرصة كى أضع خبرتى فى خدمتك ، أو أن تتواضعى درجة أخرى فتسمحى لى بأن أنهض بالأمر كله كما لو كانت الأسورة أسورتى أو كانت صاحبتها صاحبتى !..

ابتسمت ، وهى ترفع حاجبيها فى شىء من الارتباك ، ثم قالت باقتضاب :

ـــ تشكر ..

تنفس الرجل تنفسا عميقا ملأ به صدره العريض ، ثم قال بحماس :

ـــ مثلى لا يقنع بالشكر ، ماذا يفيد الجائع إن أعرضت عنه ، وأنت تقولين له : « على الله ؟! » ، الجائع يريد الطعام ، الطعام الشهى اللذيذ .

شبكت ذراعيها على صدرها وهى تتظاهر بالدهش ، ثم قالت ساخرة :

ـــ أنت جائع يا سى السيد ؟! عندنا ملوخية وأرانب تستاهل فمك ..

وهو يضحك عاليا :

ـــ عال ، اتفقنا ، ملوخية وأرانب ، تضاف إليها زجاجة ويسكى ، ثم نحلى بشىء من العود والرقص ، ونتمدد ساعة معاً حتى نهضم ..

فلوحت له بيدها كأنما تهتف به « إلى الوراء » ، وقالت :

ـــ الله الله ، سكتنا له دخل بحماره .. بعدك !

ضم أصابع يمناه الخمس ، حتى صارت كفم مزموم ، وجعل يرفعها ويخفضها بتؤدة ، وهو يقول بلهجة وعظية :

ـــ يا بنت الحلال لا تضيعى الوقت الغالى فى الكلام ..

وهى تهز رأسها فى زهو ودلال :

ـــ بل قل لا تضيعى الوقت الغالى مع الكهول ..!

مسح السيد صدره العريض بكفه فى حركة توحى بالتحدى الباسم ، ولكنها هزت منكبيها ضاحكة ، وهى تقول :

ـــ ولو ...

ـــ ولو ؟ ، يا لك من طفلة ، حرام علىَّ النوم إن لم أعلمك ما ينبغى أن تعلميه ، هاتى الملوخية والأرانب والويسكى والعود وزنار الرقص ، هيا .. هيا ..

ثنت سبابة يسراها وألصقتها بحاجبها الأيسر ، ثم أرعشت حاجبها الأيمن ، وهى تتساءل :

ـــ ألا تخاف أن تكبسنا السلطانة على غفلة ؟

ـــ لا تخافى ، لن تعود السلطانة الليلة ...
فحدجته بنظرة حادة مريبة ، وتساءلت :
ـــ من أدراك بذلك ؟
انتبه إلى عثرة لسانه ، فأوشك لحظة أن يغلبه الارتباك ، ولكنه تخلص منه قائلا فى لباقة :
ـــ السلطانة لا تبقى فى الخارج حتى هذه الساعة إلا لضرورة تستدعى بقاءها حتى الصباح !
جعلت تحدق فى وجهه طويلا دون أن تنبس ، ثم هزت رأسها فى سخرية ظاهرة ، ثم قالت بصوت ملىء بالثقة :
ـــ يا لمكر الكهول ! ، يضعف فيهم كل شىء إلا مكرهم ! ، هل حسبتنى غفلانة ؟ ، كلا وحياتك ، إنى أعلم كل شىء ..
عاد إلى العبث بفردة شاربه فى شىء من الضيق ، ثم سألها :
ـــ ماذا تعلمين :
ـــ كل شىء !
وتريثت قليلا لتزيد من ارتباكه ، ثم استطردت :
ـــ أتذكر يوم جلست على قهوة سى على لتسترق النظر من نافذة القهوة ؟ ، يومها عيناك حفرت جدار بيتنا من شدة النظر !، ولما ركبت العربة الكارو مع أفراد التخت ساءلت نفسى : ترى هل يتبعنا مهللا وراءنا كما يفعل الصبية ؟، ولكنك عقلت وانتظرت فرصة أحسن !
قهقه الرجل حتى اشتدت حمرة وجهه ، ثم قال بتسليم :
ـــ اللهم اعف عنا ..
ـــ ولكنك نسيت عقلك أمس ، عندما رأيتنى أمام خان جعفر فتبعتنى حتى دخلت ورائى دكان يعقوب ..
ـــ عرفت هذا أيضا يا بنت أخت زبيدة ؟
ـــ نعم يا زين العشاق ، بيد أنى لم أكن أتصور أنك ستدخل ورائى الدكان ، ولكنى ما لبثت أن وجدتك جالسا فوق الكنبة ولا عفريت النسوان نفسه ، ولما تظاهرت بالدهشة لرؤيتى كدت أطلق لسانى فيك بما قسم ، ولكن الموقف أملى

عليَّ الأدب ..
تساءل ضاحكا ، وهو يضرب كفا بكف :
ـــ ألم أقل إنك عقدة ؟
فواصلت الحديث وهى فى نشوة من الفوز والسرور :
ـــ وما أدرى ليلة إلا والسلطانة تقول لى : استعدى ، إننا ذاهبان إلى عوامة محمد عفت ، فمضيت لأستعد ، ولكننى سمعتها تقول بعد ذلك : إن السيد أحمد هو الذى اقترح الدعوة ! لعب فى عبِّى الفار ، وقلت لنفسى : السيد أحمد لا يقترح شيئا لوجه الله ، وفهمت الفولة ، فلم أذهب معتلة بصداع !
ـــ يا لى من مسكين !، وقعت فى مخالب من لا يرحم ، هل عندك مزيد ؟..
ـــ لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع ...
ـــ ما أحلى هذا الكلام ! قلِّد الوعَّاظ ، يا أفسق خلق الله !
وهو يضحك عاليا :
ـــ الله يسامحك ...
ثم متسائلا فى سرور غير خاف :
ـــ فهمت الفولة هذه المرة أيضا ، ولكنك بقيت ، فلم تغادرى البيت أو تخفى نفسك ..
ونهض قبل أن يتم جملته فاتجه نحوها ، وجلس إلى جانبها ، ثم تناول طرف الوشاح المرصع بالترتر فقبَّله ، وهو يقول :
ـــ اللهم إنى أشهد بأن هذه المخلوقة الجميلة ألذ من أنغام عودها ، لسانها سوط ، وحبها نار ، وعاشقها شهيد ، وسوف يكون لهذه الليلة شأن فى التاريخ كله ..
أبعدته عنها بكفها قائلة :
ـــ لا تأخذنى فى دوكة ، هوه ! ، عد إلى مجلسك ..
ـــ لن يفصل بيننا شىء بعد الآن ...
جذبت وشاحها فجأة من يده ونهضت مبتعدة قليلا ، ثم وقفت على بعد ذراع منه تمعن فيه نظراً صامتا ، وكأنما تراجع نفسها فى أمور ذات شأن ، ثم قالت :
ـــ لم تسألنى عما جعلنى أتخلف عن الذهاب إلى العوامة ـــ يوم دعانا محمد

عفت ـــ بناء على اقتراحك ..
ـــ كي تزيدي النار اشتعالا !!
ضحكت ثلاث ضحكات متقطعة ، ثم صمتت مليا ، ثم قالت :
ـــ فكرة لا بأس بها ولكنها قديمة ، أليس كذلك يا زين الفسّاق ؟.. ستظل الحقيقة سرًّا حتى أرى أن أفشيه عندما يخلو لى ..
ـــ أقدم حياتى ثمنا له ..
ابتسمت ابتسامة صافية لأول مرة ، ولاحت فى عينيها نظرة رقيقة جاءت فى أعقاب سخرياتها ، كما يجىء الهدوء فى أعقاب زوبعة ، وبشّر حالها بسياسة جديدة ومعنى جديد ، فاقتربت منه خطوة ومدت يديها إلى شاربه برشاقة وراحت تجدله بعناية ، ثم قالت بنبرات لم يسمعها من قبل :
ـــ إذا قدمت حياتك ثمنا لهذا ، فماذا يبقى لى أنا ؟
وجد راحة عميقة لم يجد مثلها منذ تلك الليلة الخاسرة فى العوامة ، وكأنما كان يفوز بامرأة لأول مرة فى حياته ، تناول يديها من فوق شاربه وأودعهما بين راحتيه الكبيرتين ، ثم قال بحنان وامتنان :
ـــ أنا نشوان يا ست الكل نشوان لحد يعجزنى عن الوصف ، دمت لى إلى الأبد ، إلى الأبد ، لا عاش من رد لك رجاء أو طلبا ، أتمى نعمتك علىَّ وهيئى مجلسنا ، الليلة ليست كالليالى الأخريات ، وهى تستحق أن نحتفل بها حتى مطلع الفجر ..
قالت وهى تلعب بأناملها بين راحتيه :
ـــ ليست هذه الليلة كالليالى الأخريات حقا ، ولكن ينبغى أن نقنع منها بالقليل ..
القليل !، هل ثمة صد بعد هذا اللطف كله ؟ ، لم يعد بك صبر .
مضى يربت كفيها ، ثم بسط راحتيها ، ونظر بافتتان فى لون الحناء الوردى الذى يصبغهما ، وما يدرى إلا وهى تسأله بصوت ضاحك :
ـــ هل تقرأ الكف يا سيدنا الشيخ ؟
ابتسم ، وقال مداعبا :
ـــ أنا من المشهود لهم فى قراءته ، أتحبين أن أقرأ لك كفك ؟

أحنت رأسها بالإيجاب . فراح يتأمل راحتها اليمنى متظاهراً بالتفكير ، ثم قال باهتمام :

ــ فى طريقك رجل سيكون له شأن فى حياتك ..

تساءلت ضاحكة :

ــ فى الحلال يا ترى ؟

ارتفع حاجباه وهو يمعن النظر فى كفها ، ثم قال دون أن يبدو على وجهه أثر ولو خفيف للمزاح :

ــ بل فى الحرام !

ــ أعوذ بالله ! ، ما عمره ؟

نظر إليها من تحت حاجبيه ، ثم قال :

ــ غير واضح ولكن إذا قسته بمقياس مقدرته فهو فى عنفوان الشباب!..

فتساءلت بمكر :

ــ أهو كريم يا ترى ؟

آه ، لم يكن الكرم مما يزكيك عندهن قديما .

ــ لم يعرف البخل قلبه ..

فكرت قليلا ثم عادت تتساءل :

ــ هل يرضيه أن أبقى كالتابعة فى هذا البيت ؟

العجل وقع هاتوا السكاكين ..

ــ بل سيجعلك سيدة قد الدنيا !..

ــ أين يا ترى سأقيم فى كنفه ؟

زبيدة نفسها لم تكلفك شيئا من هذا ، سيقولون فيك ويعيدون ..

ــ شقة جميلة ..

ــ شقة ؟!..

عجب للهجتها المستنكرة ، فسألها داهشا :

ــ ألا يعجبك هذا ؟

قالت وهى تشير إلى راحتها :

ــ ألا ترى ماء يجرى ؟.. انظر جيدا ..

ـــ ماء يجرى !.. أتودين السكنى فى حمام ؟.
ـــ ألا ترى النيل .. عوامة أو ذهبية ..؟!
أربعة جنيهات أو خمسة شهريا دفعة واحدة ، غير النفقات الأخرى ، آه !، لا تعشقوا أولاد السفلة !..
ـــ لماذا تختارين مكانا بعيداً عن العمران ؟..
اقتربت منه حتى مست ركبتاها ركبتيه ، وقالت :
ـــ لست دون محمد عفت جاها ، ولست دون السلطانة حظا ما دمت تحبنى كما تقول ، وفى وسعك أن تسهر فيها أنت وأصحابك ، إنها حلمى فحققه لى ..!
أحاط وسطها بذراعيه ، ولبث صامتا ليستشعر فى هدوء مسها ولينها، ثم قال :
ـــ لك ما تشائين يا أملى ..
فكان الشكر أن ألصقت راحتيها بخديه ، ثم قالت :
ـــ لا تظن أنك تعطى دون أن تأخذ ، اذكر دائما أنه من أجلك سأغادر هذا البيت الذى عشت عمرى فيه إلى غير رجعة ، واذكر أننى إذ أطالبك بأن تجعلنى سيدة فما ذلك إلا لأنه لا يليق بمن كانت صاحبة لك أن تكون أقل من سيدة ... !
شدت ذراعاه حول وسطها حتى التصق صدرها بوجهه ، ثم قال :
ـــ إنى أدرك كل شىء يا نظرى ، سيكون لك ما تحبين وأكثر ، أحب أن أراك كما تحبين أن ترى نفسك ، والآن هيئى لنا مجلسنا ، أريد أن أبدأ حياتى من الليلة ..
أمسكت بساعديه ، ثم ابتسمت إليه ابتسامة اعتذار ، وقالت برقة :
ـــ عندما نجتمع فى عوامتنا على النيل ..
قال لها محذرا :
ـــ لا تثيرى جنونى ، هل تستطيعين أن تقاومى صولتى ؟
فتراجعت وهى تقول بلهجة تجمع بين التوسل والإصرار :
ـــ ليس فى البيت الذى عملت فيه وصيفة ، انتظر حتى يجمعنا المسكن الجديد ، مسكنك ومسكنى ، عند ذاك أكون لك إلى الأبد ، ليس قبل ذلك وحياتك عندى وحياتى عندك ..!

١٠

« خير إن شاء الله » ..

هذا ما ردده أحمد عبد الجواد فى نفسه وهو يطالع ياسين مقبلا نحوه فى الدكان ... كانت زيارة غريبة وغير متوقعة ، أعادت إلى ذاكرته زيارته القديمة لدكانه ، يوم جاءه ليشاوره فيما ترامى إليه من اعتزام المرحومة أمه الزواج للمرة الرابعة ، والحق أنه أيقن أنه لم يجئه لتبادل التحية والسلام ولا للحديث فى شأن عادى مما يمكن أن يحدثه به فى البيت ، أجل إن ياسين لا يجىء إلى مقابلته فى الدكان إلا لشأن خطير . صافحه ، ثم دعاه إلى الجلوس ، وهو يقول :

ـــ خير إن شاء الله ..

جلس ياسين على كرسى قريب من مجلس أبيه وراء مكتبه ، موليا بقية الدكان ظهره حيث وقف جميل الحمزاوى أمام الميزان يزن بضاعة لبعض الزبائن ، ونظر إلى أبيه فى شىء من ارتباك وكد حدسه ، فأغلق الرجل دفتراً كان يسجل فيه أرقاما واعتدل فى جلسته متأهبا لما يجىء ، وقد بدت إلى يمينه الخزينة نصف مفتوحة ، وفوق رأسه صورة سعد زغلول فى بدلة الرياسة معلقة فى الجدار تحت إطار البسملة القديم . ولم يكن قصد الدكان اعتباطا ولكن عن تدبر وتفكير باعتباره آمن مكان لمقابلة أبيه بما جاء من أجله ، إذ أن وجود جميل الحمزاوى به ومن يتفق وجودهم من الزبائن خليق بأن يهيىء له درعا واقيا من الغضب إذا جاءت دواعيه ، وكان يحسب ألف حساب لغضب أبيه رغم الحصانة التى اكتسبها بتقدم العمر والمعاملة الطيبة التى يحظى بها بوجه عام ..

قال ياسين بأدب بالغ :

ـــ اسمح لى بقليل من وقتك الغالى ، لولا الضرورة ما تجرأت على إزعاجك ، ولكنى لا يمكن أن أخطو خطوة دون استنارة برأيك ، واعتماد على رضاك ..

ابتسم باطن السيد أحمد هازئا من هذا الأدب الجم ، وجعل يتأمل فتاه الضخم الجميل الأنيق فى حذر ، ملقيا عليه نظرة إجمالية شملت شاربه المجدول على طريقته ـــ هو ـــ وبذلته الكحلية وقميصه ذا البنيقة المنشية والبابيون الأزرق والمنشة العاجية والحذاء الأسود اللامع ، ولم يكن ياسين قد مس مظهره

ـــ تأدبا فى محضر أبيه ـــ إلا فى نقطتين ، فأخفى طرف منديله الحريرى الذى يطل من جيب جاكتته الأعلى ، وعدل طربوشه الذى يعوجه عادة إلى اليمين . يقول : إنه لا يمكن أن يخطو خطوة دون استنارة برأيه !! مرحى .. هل استنار به وهو يسكر ؟، وهو يسبح على وجهه فى وجه البركة الذى حرَّمه عليه ؟. هل استنار به ليلة وثب على الجارية فوق السطح ؟. مرحى !! مرحى !! ماذا وراء هذه الخطبة المنبرية ؟

ـــ طبعا ، هذا أقل ما ينتظر من رجل عاقل مثلك ، خير إن شاء الله ؟.

التفت ياسين التفاتة سريعة لحظ بها جميل الحمزاوى ومن معه ، ثم قرَّب الكرسى من المكتب ، واستجمع شجاعته ، قائلا:

ـــ اعتزمت ـــ بعد موافقتك ورضاك ـــ أن أكمل نصف دينى ..

مفاجأة حقيقية !. غير أنها مفاجأة سارة على غير ما توقع ، ولكن مهلا !! لن تكون سارة حقا إلا بشروط ، فلينتظر حتى يسمع الأهم من الحديث !! أليس ثمة ما يدعو إلى القلق ؟، بلى ! تلك المقدمة البالغة فى الأدب والتودد ، إيثاره الدكان مكانا للحديث لدواع لا يمكن أن تخفى عن فطنة الفطن ، أما الزواج فى ذاته فطالما تمناه له ، تمناه حين ألح على محمد عفت ليرد إليه زوجته ، وتمناه حين دعا الله فى أعقاب صلواته أن يهديه إلى الرشاد وبنت الحلال ، بل لعله لولا إشفاقه من أن يحرجه مع أصدقائه كما أحرجه من قبل مع محمد عفت لما تردد من تزويجه مرة أخرى ، فلينتظر ! وعسى ألا يتحقق شيء من مخاوفه ..

ـــ اعتزام جميل أوافق عليه كل الموافقة ، فهل وقع اختيارك على أسرة معينة ؟

خفض ياسين عينيه لحظة ، ثم رفعهما قائلا :

ـــ وجدت بغيتى ، بيت كريم خبرناه بطول الجوار ، وكان ربه من معارفك المحمودين ..

رفع السيد حاجبيه متسائلا دون أن ينبس ، فقال ياسين :

ـــ المرحوم السيد محمد رضوان !

ـــ لا ... !

ندت عن السيد أحمد قبل أن يتمالك نفسه ، ندت عنه فى تأفف واحتجاج حتى شعر بأنه ينبغى أن يبرر تأففه واحتجاجه بسبب وجيه يدارى به حقيقة

مشاعره ، ولم يعوزه ذلك ، فقال :

ـــ أليست كريمته مطلقة ؟!. فهل ضاقت الدنيا حتى تتزوج من ثيب ؟!..

لم يفاجأ ياسين بهذا الاعتراض ، كان يتوقعه منذ اللحظة التى عزم فيها على الزواج من مريم ، غير أنه كان قوى الأمل فى التغلب على معارضة أبيه التى لم يتصور أن تكون إلا صدى لتفضيل البكر على الثيب أو تجنبا لامرأة عسية بأن تذكره بمأساة ابنه الراحل ، وكان يؤمن بحكمة أبيه ويرجو أن تستهين فى النهاية بهذين المأخذين الواهيين ، بل كان يعتمد كل الاعتماد على موافقته فى التغلب على المعارضة الحقيقية التى يتوقعها عند امرأة أبيه .. تلك المعارضة التى وقف أمام التفكير فيها حائرا حتى خطر له أن يغادر البيت مغادرة الهارب كى يتزوج كما يحلو له مواجها الجميع بالأمر الواقع ، ولولا أن إغضاب أبيه كان فوق طاقته لفعل ، إلا أنه عز عليه أن يتجاهل عواطف أمه الثانية ـــ بل أمه الأولى ـــ قبل أن يبذل قصاراه لاستمالتها واقتناعها برأيه ، قال :

ـــ لم تضق بى الدنيا ، ولكنها القسمة والنصيب .. أنا لا أبحث عن المال أو الجاه ، وحسبى الأصل الطيب والخلق القويم ..

إن كان ثمة عزاء وسط هذه الأمور المعقدة المؤسفة ، فهو صدق رأيه الذى لا يكذب أبدا . هذا هو ياسين بلا زيادة ولا نقصان ، إنسان ـــ أو حيوان ـــ تسير المتاعب بين يديه ومن خلفه ، ولو جاء بنبأ سعيد أو زف إليه بشرى سارة لما كان ياسين ولخاب تقديره ورأيه فيه ، لعله مما لا يعيبه ألا يبحث فى الزوجة عن المال أو الجاه أما الخلق فمسألة أخرى ، ولكن البغل معذور ويبدو ـــ وهذا طبيعى ـــ أنه لا يدرى شيئا عن سيرة أم الفتاة التى يرومها زوجة ، تلك سيرة يعرفها هو وحده معرفة الفاعل ، ولعل آخرين سبقوه إليها أو لحقوا به ، فما العمل ؟. أجل قد تكون الفتاة مهذبة ، ولكن من المؤكد أنها لم تظفر بأحسن أم ولا بأحسن بيئة ، ومن المؤسف أنه لا يستطيع أن يجهر برأيه ـــ ذاك ـــ ما دام لا يسعه أن يقرن القول بالدليل ، خاصة وأنه رأى خليق بأن يقابل ـــ ممن يسمعه لأول مرة ـــ بالإنكار والانزعاج ، والأدهى من ذلك أنه يخاف أن يلمح إليه . فيدفع ياسين إلى البحث والاستقصاء فيعثر آخر الأمر على أثر بصماته هو ـــ أبيه ـــ فتكون الفضيحة التى ليس وراءها فضيحة .

المسألة إذن دقيقة حرجة ، ثم إن ثمة شوكة حادة تكمن فى تضاعيفها — هى — تاريخ قديم يتصل بفهمى ، ألا يذكر ياسين ذلك ؟، كيف هان عليه أن يرغب فى فتاة تطلع إليها قديما أخوه الراحل ؟، أليس هذا سلوكا بغيضا ؟، بل إنه لكذلك وإن كان لا يشك فى إخلاص الشاب لأخيه الراحل ، إن منطق الحياة القاسى يقيم عذرا لأمثاله ، إن الرغبة طاغية أعمى لا يرحم وهو أخبر الناس بذلك !

قطب الرجل ليشعره بتضايقه ، ثم قال :

— إن قلبى لم يرتح لاختيارك ، لا أدرى لماذا ، كان المرحوم السيد محمد رضوان رجلا طيبا حقا ، ولكن الشلل حال بينه وبين رعاية بيته من زمن بعيد سابق لوفاته ، لم أقصد بهذه الملاحظة إساءة الظن بأحد ، كلا !! ولكنه كلام يقال ، ربما ردده بعض الناس ، هه ؟، الأهم عندى أن الفتاة مطلقة ، لماذا طلقت ؟، هذا سؤال من أسئلة كثيرة ينبغى أن تعلم جوابها ، لا يصح أن تأمن مطلقة حتى تستقصى كل شىء عنها ، لعل هذا ما أردت قوله ، والدنيا ملأى ببنات الناس الطيبين .

قال ياسين متشجعا بأسلوب أبيه ، الذى اقتصر على النقاش والنصح :

— بحثت بنفسى وبواسطة آخرين ، فتبين لى أن الحق كان على الزوج ، إذ كان متزوجا وأخفى عنهم ذلك ، فضلا عن عجزه عن الانفاق على بيتين فى وقت واحد وسوء خلقه !

سوء خلقه !، إنه يتكلم — بلا حياء — عن سوء الخلق ، البغل يمدك بمادة بكر لمزاح سهرة كاملة !. قال :

— إذن فرغت من البحث والتقصى !

قال ياسين بحياء ، وهو يتهرب من عينى أبيه الحادتين :

— تلك خطوة بديهية ..

فسأله الرجل وهو يخفض عينيه :

— ألم تدرك أن تلك الفتاة ترتبط بذكريات أليمة لنا ؟

اعتراه الارتباك حتى اختطف لونه ، وهو يقول :

— لم يكن من الممكن أن يغيب عنى هذا ، ولكنه وهم لا أصل له ، فإنى أعرف عن يقين أن المرحوم لم يهتم بالأمر كله إلا أياما معدودات ثم نسيه نسيانا تاما ، وأكاد أجزم بأنه ارتاح فيما بعد إلى فشل مسعاه إذ اقتنع بأن الفتاة لم تكن طلبته كما

توهم ..
ترى : أيقول ياسين الحق ، أم يدافع عن موقفه ؟، كان نجىّ المرحوم ولعله الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يزعم أنه مطّلع على ما لا علم للآخرين به من خاصة شئونه ، فليته كان صادقا !، أجل ، ليته كان صادقا إذن لأعفاه من عذاب يؤرقه كلما ذكر أنه وقف يوما عثرة فى سبيل سعادة الفقيد أو كلما خطر بباله أنه ربما مات تعيس القلب أو ناقما عليه استبداده وتعنته ، تلك الآلام التى نهشت قلبه ، هل يريد ياسين أن يعفيه منها ؟
سأل ياسين بلهفة لم يفطن الشاب إلى عمقها :
ـــ أأنت حقا على يقين مما تقول ؟، هل صارحك به ؟
ولثانى مرة فى حياته رأى ياسين أباه على حال من الانكسار لم يشهد مثلها إلا يوم مصرع فهمى ، وهو يقول له :
ـــ كاشفنى الحقيقة عارية عن كل تخفيف ، الحقيقة الكاملة ، هذا يهمنى فوق ما تتصور ، (وكاد يعترف له بألمه ، ولكنه أمسك الاعتراف وهو على طرف لسانه) .. الحقيقة الكاملة يا ياسين !
فقال ياسين دون تردد :
ـــ إنى على يقين مما أقول !، خبرته بنفسى وسمعته بأذنى ، لا شك فى ذلك مطلقا !..
فى ظروف أخرى لم يكن هذا القول ـــ ولا أبلغ منه ـــ كافيا لإقناعه بصدق ياسين ، لكنه كان فى الحق متعطشا إلى تصديقه ، فصدّقه وآمن به ، وامتلأ قلبه نحوه بامتنان عميق وسلام شامل . لم تعد مسألة الزواج ـــ فى تلك اللحظة على الأقل مما يكربه ، ولاذ بالصمت مليا هانئا بالسلام الذى غمر قلبه ، ورويدا رويدا !! مضى يسترد شعوره بالموقف ويرى ياسين بعد أن غيبه عن عينيه الانفعال ، فعاد يفكر فى مريم وأم مريم وزواج ياسين وواجبه وما يستطيع قوله وما لا يستطيع قوله ، قال :
ـــ مهما يكن من أمر فإنى أود أن تولى المسألة تفكيراً أعمق ، وحذراً أشد ، لا تتعجل ، مد لنفسك فسحة التدبر والمراجعة ، إنها مسألة مستقبل وكرامة وسعادة ، وإنى على استعداد لأن أختار لك بنفسى مرة أخرى إذا وعدتنى وعد رجل

صادق ألا تجعلنى أندم على تدخلى لما فيه صلاحك ، هه ؟، ما رأيك ؟.

صمت ياسين متفكراً ، مستاء من تحول الحديث إلى مجرى ضيق محفوف بالحرج ، حقا أن الرجل يتحدث بحلم عجيب ، ولكنه لم يخف قلقه وعدم ارتياحه . فإذا أصر على رأيه بعد ذلك فقد يجرهما النقاش إلى شقاق غير مستحب ، ولكن هل ينكص تفاديا من هذه العاقبة ؟ ، كلا ! لم يعد طفلا ! سيتزوج بمن يشاء كما يشاء ، ولكن فليعنه الله على الاحتفاظ بمودة أبيه !. قال :

ـــ لا أريد أن أجشمك تعبا جديداً ، شكراً لك يا بابا ، غاية ما أتمنى أن أحظى بموافقتك ورضاك ..

لوح السيد يده فى نفاد صبر ، وقال بلهجة لم تخل من حدة :

ـــ تأبى أن تفتح عينيك على ما فى رأيى من حكمة ..!

فقال ياسين برجاء حار :

ـــ لا تغضب يا بابا ، أستحلفك بالله ألا تغضب ، إن رضاك بركة ، ولا أطيق أن تضن على بها ، دعنى أجرب حظى وادع لى بالتوفيق ..

اقتنع أحمد عبد الجواد بأن عليه أن يسلم بالأمر الواقع ، فسلم به فى حزن ويأس .. أجل ! ربما كانت مريم ـــ رغم استهتار أمها ـــ فتاة شريفة وزوجة صالحة ، ولكن لا شك كذلك فى أن ياسين لم يوفق إلى اختيار أصلح الزوجات ولا أفضل البيوت .

الأمر لله ، مضى الزمن الذى كان يملى فيه إرادته املاء فلا يجد رادًّا لها ، وياسين اليوم رجل مسئول ولن يجنى من محاولة فرض رأيه عليه إلا العصيان .. فليسلم بالأمر الواقع ، وليسأل الله السلامة ..

عاود النصح والتبصير فلجأ ياسين كرة أخرى إلى الاعتذار والتودد حتى لم يعد ثمة زيادة لمستزيد .. غادر الدكان وهو يقنع نفسه بأنه نال موافقة أبيه ورضاه ، على أنه كان يعلم أن الأزمة الخطيرة حقا هى التى تنتظره فى البيت ، وكان يعلم أيضا أنه سيترك البيت حتما ، لأن مجرد التفكير فى إمكان ضم مريم إلى الأسرة ضرب من الجنون ، فرجا أن يتركه بسلام غير مخلف وراءه عداوة أو حقداً ، إذ لم يكن من اليسير عليه أن يستهين بامرأة أبيه أو يتنكر لعهدها وفضلها عليه ، لم يكن يتصور أن تدفعه الأيام إلى وقوف هذا الموقف الغريب من البيت وآله ، ولكن تعقدت الأمور

وضاقت السبل حتى لم يبق من منفذ إلا الزواج . والعجب أنه لم تغب عن فطنته السياسة النسائية التى رسمت للإيقاع به ، سياسة قديمة تتلخص فى كلمتين : التودد والتمنع . ولكن الرغبة فى الفتاة كانت قد تسربت إلى دمه ولم يعد بد من إروائها بأى سبيل ولو كان الزواج ، وأعجب من ذاك أنه كان يعلم من تاريخ مريم ما يعلمه أفراد أسرته جميعا ـــ عدا والده بطبيعة الحال ـــ ولكن رغبته طغت فلم يصده ذلك عن فكرته أو يزهده فيها ، وقال لنفسه : لم أكرب قلبى على ماض فات لست مسئولا عنه ، سنبدأ معا حياة جديدة ، ومن هنا تبدأ مسئوليتى ، وإن ثقتى بنفسى لا حد لها ، وإذا حدث أن خيبت ظنى نبذتها كما ينبذ الحذاء البالى .. والحق أنه لم يستلهم فيما عزم فكره ولكنه استخدمه فى تبرير رغبته الجامحة التى لا تزدجر ، فأقبل على الزواج هذه المرة كبديل من مخادنة امتنعت عليه ، غير أن ذلك لا يعنى أنه أضمر نحوه سوءاً أو أنه اتخذه ذريعة مؤقتة لقضاء لبانة ، فالحق أيضا أن نفسه ـــ رغم تقلباتها التى لا تنفك عنها ـــ كانت تهفو إلى حياة الزوجية والبيت المستقر ..

مر هذا كله بخاطره وهو متخذ مكانه ـــ إلى جنب كمال ـــ بمجلس القهوة ،ذلك المجلس الذى يبدو أنه يشهد آخر أيامه فيه ، ومضى يجيل طرفه بين كنباته وحصره الملونة والفانوس الكبير المدلى من سقفه فى كثير من الأسى ،. وكانت أمينة متربعة كعادتها على الكنبة القائمة بين بابى حجرة نوم السيد وحجرة المائدة ، عاكفة على المجمرة رغم دفء الجو لتصنع قهوتها ، وقد تلفعت بخمار أبيض فوق جلباب بنفسجى نم عن ضمورها ، واكتنفها هدوء يشاب عند الصمت بأمارات الحزن ، كماء الشاطىء إذا استكن شف عما فى باطنه . شد ما شعر بالأسف والحرج وهو يأخذ أهبته للإفصاح عما فى ضميره، ولكن لم يكن من الإفصاح بد ، فقال بعد أن فرغ من احتساء قهوته دون أن يذوق لها طعما :

ـــ والله يا نينة لدىَّ مسألة أريد أن أستشيرك فيها ..

وتبادل مع كمال نظرة دلت على أن الأخير على علم سابق بموضوع الحديث ، وأنه يترقب عواقبه باهتمام لا يقل عن اهتمام ياسين نفسه . قالت أمينة :

ـــ خير يا بنى ..

قال ياسين باقتضاب :

ـــ قررت أن أتزوج ..
فتجلى فى عينيها العسليتين الصغيرتين اهتمام باسم ، ثم قالت :
ـــ خير ما قررت يا بنى ، لا ينبغى أن يطول انتظارك أكثر مما طال .
ثم لاحت فى عينيها نظرة متسائلة ، ولكنها بدل أن تفصح عن تساؤلها ، قالت وكأنما تستدرجه إلى الاعتراف كأن ثمة سر :
ـــ خاطب والدك أو دعنى أخاطبه ، ولن يعجزه أن يجد لك زوجة جديدة خيراً من الأولى ..
قال ياسين فى رزانة بدت لها أكثر مما يستدعى الأمر :
ـــ خاطبت أبى بالفعل ، وليس هناك حاجة إلى تكليفه عناء جديداً لأنى اخترت بنفسى ، وقد وافق أبى ، فأرجو أن أحوز موافقتك أيضا .
تورد وجهها حياء وسروراً بما أولاها من أهمية ، فقالت :
ـــ ربنا يوفقك إلى ما فيه الخير ، عجّل حتى تعمر لنا الدور المهجور ، ولكن من بنت الحلال التى قررت أن تتخذها زوجة ؟
تبادل مع كمال نظرة أخرى ، ثم قال فى عناء :
ـــ جيران تعرفينهم !..
ارتسم بين حاجبيها تقطيب التذكر وهى تمد نظرها إلى لا شىء ، محركة سبابتها كأنما تحصى من فى مخيلتها من الجيران ، ثم قالت :
ـــ إنك تحيرنى يا ياسين ، هلا تكلمت وأرحتنى !
قال وهو يبتسم ابتسامة شاحبة :
ـــ جيراننا الأقربون !.
ـــ من ..؟!
ندت عنها فى إنكار وانزعاج وهى تحملق فى وجهه ، فخفض رأسه وأطبق شفتيه متجهم الوجه ، فعادت تقول بصوت متهدج ، وهى تشير بإبهامها إلى الوراء :
ـــ أولئك ؟!، مستحيل ، هل تعنى ما تقول يا ياسين ؟!
فأجاب بالصمت المتجهم حتى زعقت :
ـــ خبر أسود .. أولئك الذين شمتوا بنا فى أجل مصاب ؟!

فلم يتمالك أن هتف بها :

ـــ أستحلفك بالله ألا ترددى هذا القول ، إنه وهم باطل ، ولو اقتنع به قلبى لحظة واحدة ..

ـــ طبعا تدافع عنهم ، ولكنه دفاع لا ينطلى على أحد ، لا تتعب نفسك فى إقناعى بالمحال ، يا ربى !! أى ضرورة تدعو إلى هذه الفضيحة ؟! ، كلهم نقائص وعيوب ، فهل من فضيلة واحدة تبرر هذا الاختيار الجائر ؟، قلت إنك نلت موافقة أبيك ، الرجل لا يعلم عن هذه الأمور شيئا ، قل إنك خدعته ..

قال ياسين بتوسل :

ـــ هدئى روعك ، ليس أكره عندى من إغضابك ، هدئى روعك ولنتكلم فى هدوء ..

ـــ كيف أسمع لك وأنا أتلقى منك هذه اللطمة القاسية ؟! ، قل إن الأمر لا يعدو أن يكون مزاحا سخيفا ، مريم ؟! ، الفتاة المستهترة التى تعرف من أمرها ما نعرف جميعا ؟.. هل نسيت تاريخها الفاضح ؟.. هل نسيت حقا ؟ ، أتريد أن تجىء بهذه الفتاة إلى بيتنا ؟!

قال وهو يزفر كأنما يطرد من صدره الكرب والاضطراب :

ـــ لم أقل هذا قط ، هذا أمر لا أهمية له ، المهم عندى حقا أن تنظرى إلى المسألة كلها نظرة جديدة خالية من التحامل ..

ـــ أى تحامل يا هذا ؟! ، هل ادعيت عليها بالباطل ؟. تقول إن أباك وافق ، فهل أخبرته عن عبثها الفاضح مع الجنود الإنجليز ؟ ، ماذا جرى لأولاد الناس الطيبين يا ربى ؟!

ـــ هدئى روعك ، دعينا نتحدث فى هدوء ، ماذا يجدى هذا الهياج ؟!

صاحت بحدة لم تكن من طباعها فى الزمن الأول :

ـــ إن روعى لا يمكن أن يهدأ ما دام الأمر يتعلق بالكرامة :

ثم بصوت باك :

ـــ وأنت تسىء إلى ذكرى أخيك الغالى .

ياسين وهو يزدرد ريقه :

ـــ أخى ؟ ، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته ، إن هذا الأمر لا يمس ذكراه فى أى

شيء ، صدقيني فإني أدرى بما أقول ، لا تقلقي مرقده !

ـــ لست أنا التى أقلق مرقده ، إنما يقلق مرقده حقا أخوه الذى يتطلع إلى هذه الفتاة ، أنت تعلم هذا يا ياسين !! ولا تستطيع أن تنكره ..

ثم في انفعال شديد :

ـــ لعلك كنت تتطلع إليها حتى فى ذلك الزمن البعيد !

ـــ نينة !!

ـــ لم تعد لى ثقة فى شيء ، كيف تبقى لك ثقة فى شيء بعد هذا الغدر ؟!. هل ضاقت الدنيا وأقفرت حتى لم تجد من فتياتها زوجة إلا الفتاة التى أدمت قلب أخيك ؟ ، ألا تذكر ما أصابه من حزن وهو يستمع معنا إلى قصة الجندى الإنجليزى ؟!..

بسط ياسين ذراعيه فى توسل ، قائلا :

ـــ فلنؤجل هذا الحديث إلى وقت آخر ، سأثبت لك فيما بعد أن المرحوم لبَّى نداء ربه وليس فى قلبه أى أثر لهذه الفتاة ، أما الآن فلم يعد الجو صالحا للكلام ..

صاحت به غاضبة :

ـــ هيهات أن يصلح عندى جو لهذا الكلام ، إنك لا ترعى ذكرى فهمى .. !

ـــ ليتك تتصورين ما يحدثه فى كلامك من حزن !.

صاحت ، وقد بلغ بها الغضب منتهاه :

ـــ أى حزن ؟!، إنك لم تحزن على أخيك !، من الغرباء من حزن عليه أكثر منك !

ـــ نينة !..

وهمَّ كمال بالتدخل فى الحديث ، ولكنها أسكتته بإشارة من يدها ، وهتفت :

ـــ لا تدعنى نينة ، لقد كنت لك أما حقا ، ولكنك لم تكن لى ابنا ولم تكن لابنى أخا !.

لم يعد يحتمل البقاء ، فنهض محزونا مكتئبا ، وغادر الصالة إلى حجرته ، وما لبث كمال أن لحق به ولم يكن دونه حزنا وكآبة فقال له :

ـــ ألم أحذرك ؟..

فقال ياسين مقطبا :

ـــ لن أبقى فى هذا البيت دقيقة واحدة بعد الآن ..!
فقال كمال بجزع :
ـــ يجب أن تعذرها ، أنت تعلم أن والدتى لم تعد كما كانت ، إن أبى نفسه يغضى عن بعض هفواتها أحيانا ، ما هى إلا غضبة لا تلبث أن تسكت فلا تحاسبها على كلامها ، هذا رجائى إليك ..
قال ياسين ، وهو يتنهد :
ـــ لن أحاسبها يا كمال ، لن أبيع جميل الأعوام بإساءة ساعة ، إنها معذورة كما قلت ، ولكن كيف أطالعها بوجهى صباح مساء ، وهذا ظنها بى ؟
ثم بعد لحظات صمت مشحونة بالكآبة :
ـــ لا تصدق أن مريم أدمت قلب المرحوم ، لقد استأذن المرحوم يوما فى أن يخطبها فرفض أبوك ، وتناسى المرحوم الأمر حتى نسيه فانتهى كل شىء ، فما ذنب الفتاة فى ذلك ، وما ذنبى أنا إذا أردت أن أتزوجها بعد ست سنوات من ذلك التاريخ ؟!
قال كمال برجاء :
ـــ لم تعد الحق فيما قلت ، وسوف تقتنع نينة به عاجلا ، فأرجو أن يكون كلامك عن عدم البقاء فى البيت مجرد هفوة لسانية ..
فقال ياسين وهو يهز رأسه فى حزن :
ـــ أنا أول من يعز عليه هجر هذا البيت ، ولكنى سأتركه عاجلا أو آجلا ما دام انتقال مريم إليه مستحيلا ، فلا تنظر إلى مسألة ذهابى إلا من هذه الزاوية ، سأنتقل إلى بيتى بقصر الشوق ، ومن حسن الحظ أن شقة أمى لا تزال خالية ، وسأقابل والدى فى الدكان وأوضح له أسباب ذهابى متحاشيا كل ما يعكر صفوه ، لست غاضبا ، سأترك البيت آسفا عليه كل الأسف ، آسفا على فراق أهله وأولهم نينة ، لا تحزن ستعود المياه إلى مجاريها فى وقت قريب ، ليس فى هذه الأسرة قلب أسود ، وقلب والدتك أنصعها بياضا ..
ومضى إلى صوان ملابسه ففتحه ، وجعل ينظر إلى ملابسه ولوازمه ، وتردد قليلا قبل أن ينفذ ما عقد العزم عليه ، فالتفت إلى كمال ، وهو يقول :
ـــ سأتزوج من هذه الفتاة كما قضت بذلك المقادير ، ولكنى ـــ علم الله ـــ

مقتنع كل الاقتناع بأنى لم أسيء إلى ذكرى فهمى ، أنت أعلم يا كمال بما كان من حبى له ، كيف لا ؟، إذا كان هناك من سيساء بهذا الزواج ، فهو أنا ...!

١١

قادت خادم صغيرة ياسين إلى حجرة الاستقبال ثم انصرفت . كان يقوم بزيارة بيت المرحوم السيد محمد رضوان لأول مرة فى حياته ، وكانت الحجرة ــ على طراز الحجرات ببيت أبيه ــ واسعة الأركان ، مرتفعة السقف ، فيها مشربية تشرف على شارع بين القصرين ونافذتان تطلان على العطفة الجانبية التى يفتح عليها مدخل البيت ، وقد فرشت أرضها ببسط صغيرة ، واصطفت فى جوانبها الكنبات والمقاعد ، وأسدلت على الباب والمنافذ ستائر من مخمل رمادى باهت من القدم ، وعلى الجدار المواجه للباب علقت البسملة فى إطار أسود كبير ، بينما توسطت الجدار الأيمن ــ فوق الكنبة الرئيسية ــ صورة للمرحوم السيد محمد رضوان تمثله فى أوسط العمر ..

اختار ياسين أول كنبة صادفته إلى يمين المدخل ، فجلس وهو يتفحص المكان بعناية حتى ثبتت عيناه على وجه السيد محمد رضوان الذى بدا وكأنه يبادله النظر بعينى مريم !. ابتسم ابتسامة راضية وراح ينش لا شيء بمنشته العاجية ... ثمة مشكلة قد واجهته مذ فكر فى المجيء لخطبة مريم ، هى خلو البيت من جنس الرجال وعدم توفيقه إلى إنابة أحد من جنس النساء عنه .، فكانت النتيجة أن جاء وحده كأنه مقطوع من شجرة ــ على حد تعبيره ــ الأمر الذى أخجله بعض الشيء كرجل ورث عن وسطه الاعتزاز بالأهل والأسرة ، غير أنه كان مطمئنا من ناحية أخرى إلى أن مريم لا بد وأن تكون قد مهدت له السبيل عند أمها ، بحيث أن مجرد إعلان زيارته سيشى بما جاء من أجله ، ومن ثم يهيىء له جوًّا طيبا لإنجاز مهمته .

عادت الخادم إلى الظهور حاملة صينية القهوة ، فوضعتها على المنضدة أمامه ، وتراجعت وهى تخبره بأن ستها الكبيرة فى الطريق إليه .. وستها الصغيرة ترى هل علمت بحضوره ؟، وما صدى ذلك فى نفسها الرقيقة ؟، سوف يحملها بحسنها إلى قصر الشوق ، ولتفعل بنا القوة ما تشاء !، من كان يظن لأمينة هذه القدرة على

الغضب ؟، كانت فى وداعة الملاك . قاتل الله الحزن !! كذلك غضب أبوه وهو يعترف له فى الدكان بأنه هجر البيت ولكن غضب رحيم كشف عن تأثره وحزنه . ترى : هل تطلعه أمينة على تاريخ مريم ؟، غضب الثكلى شىء مخيف ، ولكن كمال وعد بأن يحملها على السكوت .. فى قصر الشوق صادفتك أول مفاجأة سعيدة فى هذا الجو العاصف !! هو موت الفكهانى وحلول ساعاتى محله ، إلى القبر ..! سمع نحنحة عند الباب ، فاتجه بصره إليه وهو ينهض ، وما لبث أن رأى ست بهيجة وهى تدخل بجنبها ، إذ أن مصراع الباب المفتوح لم يكن ليتسع لها إذا دخلت بعرضها ، ولمح عن غير قصد الخطوط التى تحد تفاصيل جسمها الجسيم ، فلم يتمالك من العجب عندما مرت أمام عينيه عجيزتها التى كادت قمتها تبلغ منتصف ظهرها ويفيض أسفلها على فخذيها ، فكأنها كرة منطاد !! وأقبلت نحوه فى خطوات متمهلة ناءت بقناطير اللحم والشحم ، ثم مدت له يداً بضَّة بيضاء برزت من كم فستانها الأبيض الفضفاض ، وهى تقول :

ــ أهلا وسهلا ، شرفت ونورت ..

فصافحها ياسين بأدب ، ولبث واقفا حتى جلست على الكنبة المجاورة فجلس .. كان يراها عن كثب لأول مرة ، إذ أن علاقتها القديمة بأسرته واكتسابها مع الأيام منزلة أشبه بمنزلة الأم فى السن والاحترام حملاه على تجنب تفحصها ــ كما يفعل مع غيرها من النساء ــ كلما لمحها عن بعد فى الطريق ، لذلك خيل إليه أنه عثر على كشف جديد . وكانت ترتدى فستانا قد غطى على جسمها من العنق إلى ما فوق القدمين ، وحتى القدمان وارتهما فى جورب أبيض رغم دفء الجو ، بينا امتد كمَّا الفستان على ذراعيها وساعديها حتى المعصمين ، ولفت رأسها وعنقها بخمار أبيض طرح ذيله العريض على أعلى الصدر والظهر فبدت فى احتشام يناسب المقام ويوافق العمر الذى قارب الخمسين ــ فيما علم ــ وإن تبدت فى صحة ريانة تنطق بصفاء المزاج وشباب القلب . ولاحظ فيما لاحظ أنها تطالعه بوجه طبيعى لم يمسه زخرف أو زواق رغم ما عرف عنها من حب التبرج وإتقان التزين ، الأمر الذى نصبها من قديم مرجعا لكل ما يتعلق بالذوق النسائى من ملبس وزواق فى الحى كله . وذكر بهذه المناسبة كيف كانت أمينة تدافع عن هذه المرأة كلما عنَّ لأحد أن ينتقد إفراطها فى التبرج ، ثم كيف انقلبت تحمل عليها لأتفه الأسباب فى

السنوات الأخيرة رامية إياها بقلة الحياء وتجاهل ما يستوجبه عمرها من احتشام .

ــ خطوة عزيزة يا ياسين أفندى ..

ــ الله يكرمك !!

كاد يختم جملته بقوله « يا تيزة » ولكن إحساسا غريزيا خوّفه فى اللحظة الأخيرة من النطق بها ، خاصة وأنه لاحظ أنها لم تدعه بيا « ابنى » كما كان المنتظر ، وعادت المرأة تسأل :

ــ كيف حالكم ؟، والدك وأم فهمى وخديجة وعائشة وكمال ؟

أجاب ، وهو يشعر بحياء لسؤالها عن الذين ناصبوها العداء بلا سبب وجيه :

ــ كلهم بخير ، سألت عنك العافية ..

لا شك أنها تفكر الآن فى الجفاء الذى قوبلت به فى بيت أبيه عقب وفاة فهمى فاضطرها إلى الانقطاع عن أسرته بعد معاشرة دامت العمر كله . يا له من جفاء !! بل يا لها من عداوة صامتة !! لم يكن إلا أن أعلنت امرأة أبيه يوما أن « شعورها » يحدثها بأن مريم وأمها لم يصدقا فى حزنهما على فهمى !. لم كفى الله الشر ؟. قالت إنه من غير المعقول أن يكون رفض السيد لخطبة مريم لم يبلغهما فى حينه عن طريق أو آخر أو حتى استنتاجا ، ومن غير المعقول أن يعلما به ولا يضطغناه عليهم !. ورددت كثيراً أنها سمعت أن مريم تندب فهمى فى المأتم فتقول : « أسفى على شبابك الذى لم تتمتع به » فترجمتها إلى « أسفى على شبابك الذى وقف أهلك فى سبيله فلم تتمتع به ! » . وزادت على ذلك ما شاء لها حزنها وقهرها ، ولم تنفع معها حيلة فى تحولها عن « شعورها » ، وسرعان ما تغير سلوكها نحو مريم وأمها حتى كانت القطيعة !.. قال وهو لم يزل تحت تأثير الحياء والحرج :

ــ لعن الله الشيطان !.

فقالت بهجة مؤمنة على قوله :

ــ ألف لعنة !.. طالما ساءلت نفسى عما جنيت حتى ألاقى ما لاقيت من الست أم فهمى ، ولكنى أعود فأدعو لها بالصبر .. المسكينة !

ــ جزاك الله كل خير على نبل خلقك وطيبة قلبك ، حقا إنها مسكينة وفى حاجة إلى الصبر !!

ــ ولكن ما ذنبى أنا ؟!

ـــ لا ذنب لك ، إنه الشيطان لعنة الله عليه ..

هزت المرأة رأسها هزة الضحية البريئة ، وصمتت قليلا ، حتى حانت منها التفاتة إلى فنجال القهوة الذى بدا كالمنسى على صينية القهوة ، فقالت وهى تومىء إليه :

ـــ ألم تشرب قهوتك بعد ؟

فرفع ياسين الفنجال إلى فيه ، وحسا الحسوة الأخيرة ، ثم أعاده إلى الصينية ، وتنحنح قليلا ، ثم أنشأ يقول :

ـــ شد ما ساءنى ما انتهت إليه صداقة الأسرتين ، ولكن ما باليد حيلة ، على أى حال ينبغى أن نتناسى ذلك تاركين أمره للزمن ، والواقع أننى لم أكن أحب أن أثير أسيف الذكريات ، فما لهذا جئت ، إنما جئت لغرض آخر هو أبعد ما يكون عن الذكريات الأسيفة ..

هزت المرأة رأسها هزة كأنما تطرد الذكريات الأسيفة ، ثم ابتسمت ابتسامة استعداد لسماع جديد ، كانت تهز رأسها وابتسامتها كالآلة الموسيقية المصاحبة للمغنى إذا غيرت عزفها تمهيداً لدخول المغنى فى طبقة جديدة من النغم ، قال ياسين مستمداً من ابتسامتها طلاقة :

ـــ أنا نفسى لا تخلو حياتى من ذكريات أسيفة تتصل بحياتى الماضية .. أعنى تجربتى الأولى فى الزواج الذى لم يوفقنى الله فيه إلى بنت الحلال !، ولكننى لا أريد أن أرجع إلى ذلك ، الواقع أننى جئت بعد أن عزمت ـــ متوكلا على الله ـــ على فتح صفحة جديدة مستبشراً الخير كله فيما اعتزمت ..

التقت عيناهما على الأثر فطالع فيهما الترحيب الجميل .. ترى : هل كان موفقا فى الإشارة إلى زواجه الأول ؟. ترى ألم يترام إلى سمع هذه المرأة شىء عن الأسباب الحقيقية لفشل ذلك الزواج ؟ لا تشغل بالك ، إن ملامحها الجميلة توحى بالتسامح إلى غير حد ، ملامحها الجميلة !! أليس كذلك ؟. بلى ، لولا فارق السن لكانت أجمل من مريم ، كانت بلا مراء أجمل من مريم فى شبابها الذاهب ... كلا ! إنها أجمل من مريم رغم فارق السن !.. إنها لكذلك !..

ـــ أظنك فطنت إلى مقصدى ، أعنى إلى أننى جئت طالبا يد كريمتك مريم هانم ..

أضاء الوجه الرقراق ابتسامة بثت فيه حيوية جديدة ، وقالت :

ــ لا يسعنى إلا أن أقول أهلا وسهلا ، نعم الأسرة ونعم الرجل ، أمس أوقعنا سوء الحظ فيمن لا خلاق له ، اليوم يسعى إلى مريم رجل جدير حقا بإسعادها ، وستكون بفضل الله جديرة بإسعاده ، ونحن ــ مهما فرق بيننا سوء التفاهم ــ أسرة واحدة من قديم الزمن ..

اغتبط ياسين حتى راحت أصابعه تسوى البابيون بلمسات سريعة غير مقصودة ، ثم قال وقد تورد وجهه الأسمر الجميل :

ــ أشكرك من صميم قلبى ، جزى الله عنى لسانك الحلو ، نحن أسرة واحدة كما قلت رغم أى شىء ، ومريم هانم فتاة يزدان بها حينا كله أصلا وخلقا ، أرجو أن يعوضها الله من صبرها خيرا وأن يعوضنى بها من صبرى خيرا .

غمغمت « آمين » وهى تنهض ، ثم أقبلت بجسمها المفتخر نحو المنضدة ، فتناولت صينية القهوة وهى تنادى ياسمينة ، ثم استدارت حاملة إياها فأعطتها الخادم التى جاءت على عجل ، ولفتت عنقها فجأة لتقول له « آنستنا » فباغتته وهو يحملق فى ردفيها الثقيلتين ! !. وشعر لتوه بأنه « ضبط فى حالة تلبس » فبادر بخفض عينيه ليوهمها بأنه كان ينظر إلى الأرض ، ولكن بعد فوات الأوان ! .. وارتبك وجعل يسأل نفسه عما عسى أن تظن به ، ثم اختلس منها نظرة بعد أن عادت إلى مجلسها فلمح على شفتيها ابتسامة خفيفة كأنما تقول له « رأيتك » . لعن عينيه اللتين لا تعرفان الحياء، وتساءل عما يمكن أن يكون قد دار فى رأسها .. أجل إنها تحاول أن تبدو كأنها لم تر شيئا ، ولكن هيئتها ــ بعد ابتسامتها ــ تقول له أيضا « رأيتك ! » . لينس الهفوة فهذا خير حل ، ولكن هل تصير مريم مثل أمها يوما ما ؟ متى يجىء هذا اليوم ؟! للأم مزايا لا يجود بها الزمان إلا فى النادر ، يا لها من امرأة !! إن خير وسيلة لتغيير أفكاره وتبديد سحابة الشك هى أن يمزق الصمت ، قال :

ــ إذا حاز طلبى القبول ، فستجدينى رهن إشارتك لمناقشة التفاصيل الهامة ..

ضحكت ضحكة قصيرة ، فبدا وجهها فى إشراقتها لطيفا شابا ، وقالت :

ــ كيف لا يحوز القبول يا ياسين أفندى ؟!. أصل وجوار على رأى المثل ..

قال ، وقد تورد وجهه :

ـــ إنك تأسرينني بلطفك !
ـــ ما عدوت الحق ، والله شهيد !.
ثم متسائلة بعد فاصل صمت قصير :
ـــ هل تمت موافقة البيت ؟
تجلت فى عينيه نظرة جد لحظة ، ثم ضحك ضحكة فاترة من أنفه ، وقال :
ـــ دعينا من البيت وسيرته !
ـــ لم كفى الله الشر ؟
ـــ ليس البيت على ما يرام !
ـــ ألم تشاور السيد أحمد ؟
ـــ أبى موافق ..
فضربت يدا على يد ، وقالت :
ـــ فهمت ، أم فهمى ؟! أليس كذلك ؟! إنها أول من تبادر إلى ذهني وأنت تفاتحني بالموضوع ، طبعا لم توافق ، هه ؟، سبحان الذى لا يتغير ، امرأة أبيك امرأة غريبة !
هز كتفيه استهانة ، وهو يقول :
ـــ لا يقدم هذا ولا يؤخر ..
قالت متشكية :
ـــ طالما ساءلت نفسى عما جنيت ؟، أى إساءة أسأت بها إليها !
ـــ لا أحب أن أقدم على حديثنا حديثا آخر لا يجنى منه الإنسان إلا وجع الدماغ ، ليكن ظنها ما يكون ، المهم أنى ماض إلى هدفى ، ولا يعنينى إلا موافقتك أنت ..
ـــ إذا لم يتسع لك بيتك فبيتنا تحت أمرك ..
ـــ شكراً .. لدى بيتى بقصر الشوق بعيدا عن الحى كله ، أما بيت أبى فقد غادرته من أيام ..
ضربت صدرها بيدها هاتفة :
ـــ طردتك !..
قال ضاحكا :

ـــ كلا لم يبلغ الأمر إلى هذا الحد ، المسألة وما فيها أن اختيارى آلمها لأسباب قديمة لها صلة بالمرحوم أخي (هنا نظر إليها نظرة ذات معني) ، ومع أننى لم أجد فى معارضتها وجه حق مقنع ، فإننى رأيت من اللياقة أن أعد للزوجية بيتا جديدا ..

سألته ، وهى ترفع حاجبيها وتهز رأسها فيما يشبه الشك :

ـــ لم لم تنتظر فى بيتك حتى يحين ميعاد الزواج ؟

فضحك ضحكة تسليم ، وقال :

ـــ آثرت الابتعاد خوفا من تفاقم الخلاف !

فقالت كالمتهكمة :

ـــ ربنا يصلح الحال ..

وقامت مرة أخرى قبل أن تتم جملتها ، فاتجهت إلى النافذة المطلة على العطفة الجانبية وفتحتها لتفتح لنور الأصيل بعد أن بات باب المشربية غير كاف لإضاءة الغرفة ، وجد نفسه على رغمه وحذره يسترق النظر إلى كنزها النفيس وهو يطالعه كالقبة . رآها وهى تعتمد على الكنبة بركبتها ثم تميل على حافة النافذة لتشبك مصراعيها فرأى منظرا عجبا ترك فى نفسه أثرا داميا . تساءل وهو يشعر بجفاف حلقه : لم لم تدع الخادم لتفتح النافذة ؟، كيف ارتضت أن تعرض أمام ناظريه ـــ اللذين باغتتهما منذ قليل فى حالة « تلبس » ـــ هذا المنظر الذى لا يخفى عنها مغزاه ؟، لم وكيف وكيف ولم ؟. كان فيما يتصل بالنساء مرهف الحس سيىء الظن ، فلاح له شىء كالشك يتردد على عتبة إدراكه لا يريد أن يدخل ولا يريد أن يختفى ، ولكنه بادر فأغمض عينيه متأثرا بخطورة الموقف . إما أن يكون مجنونا وإما أن تكون ـــ هى ـــ المجنونة ، أو لا هذا ولا ذاك ؟. من له بمن ينتشله من حيرته !. استقام جسمها المائل ، فوقفت ، ثم تحولت عن النافذة متجهة إلى مجلسها . فبادر إلى رفع عينيه صوب البسملة ـــ قبل تحولها ـــ متظاهرا بالاستغراق فى تفحصها ، ولم يلفت رأسه نحوها حتى صدرت عن الكنبة طقطقة تنبىء بجلوسها ، وعند ذاك التقت عيناهما ، فرأى فى عينيها نظرة باسمة ماكرة أشعرته بأنه لم تخف عنها خافية ، وكأنها تقول له بأفصح لسان « رأيتك ! » . لبث حينا مضطرب النفس والخاطر ، ولم يكن على بينة من شىء فخاف أن يكون ظلمها أو أن يكون عرَّض

نفسه أمامها للاتهام ، وبدا له أنه سيحاسب على كل حركة تبدر منه ، وأن أى هفوة قد تنقلب فضيحة .

ـــ ما زال الجو مائلا إلى الحرارة والرطوبة ..

جاء صوتها هادئا طبيعيا ، ودل ـــ إلى ذلك ـــ على رغبتها فى إزاحة الصمت ، فقال بارتياح :

ـــ أجل إنه كذلك ..

عاودته الطمأنينة ، غير أنه ما لبث أن تخايل لعينيه المنظر الذى رآه عند النافذة ، وجد نفسه على رغمه يجتره ويتيه فى جاذبيته ، ويتمنى لو كان عثر على مثله فى إحدى مغامراته . لو كان لمريم مثل هذا الجسم !. ألا فى مثله فليتنافس المتنافسون . ولعلها ظنته ـــ لصمته ـــ لا يزال مشغولا بما أثارته من حديث خلافه مع امرأة أبيه ، فقالت فيما يشبه الدعابة :

ـــ لا تشغل بالك ، لا شىء فى هذه الدنيا يستحق شغلة البال !

ثم لوحت بيديها ورأسها ـــ واهتز جسمها فيما بين ذلك اهتزازة خاصة ـــ كأنما لتحثه على الاستهانة بالهموم ، فابتسم مطاوعا وهو يغمغم : « نطقت بالحق » . غير أنه كان يبذل قصاراه ليملك نفسه . أجل فقد حدث أمر جلل . لم يكن فى ظاهره إلا تلك الحركة الشاملة التى أرادت بها الإفصاح عن الاستهانة وحثه عليها ، إلا أنها كانت حركة بالغة الخطورة من حيث دلالتها على الخلاعة والدلال والاستهتار ، وقد ندت عنها فى لحظة نسيان فخرجت بها عما التزمته طوال الجلسة من تأدب واحتشام وكشفت عن خبيئة طبيعتها وهى لا تدرى ، أو وهى تدرى ؟. لا يستطيع أن يقطع بهذا أو بذاك ولكنه لم يعد به شك فى أنه حيال امرأة جديرة حقا بأن تكون أم مريم ذات التاريخ القديم !. أبى أن يتراجع عن رأيه مهما يكن من أمر ، فهذه الحركة الراقصة المغناج لا يمكن أن تصدر عن سيدة مصون !، ولم يكن إزعاجه إلا لحظة عابرة ، فسرعان ما حل محله إحساس بسرور شهوانى ماكر ، وراح يتذكر أين ومتى رأى هذه الحركة من قبل ، على زنوبة ؟. جليلة ليلة اقتحمت على أبيه المنظرة ببيت آل شوكت ؟. آه .. هذه هى !. وخيل إليه أنها رغم سنها أشهى من مريم وألذ ، وغلبته فطرته فحدثته نفسه بأن يجس النبض وألا يقف إن أمكن عند حد !. وشعر برغبة فى الضحك من غرابة أفكاره ، وبأنه سيسلك طريقا وعرا لم

يطرق من قبل ، ولكنه لم يعتد يوما أن يزجر النفس عن هوى .. أين يتأدى به هذا المسلك ؟. هل يمكن أن يعدل عن مريم إلى أمها !. كلا ! إنه لا يضمر ذلك قط ، ولكن تصوروا كلبا قد عثر على عظمة وهو فى طريقه إلى المطبخ فهل يتعفف ؟.. بيد أنها مجرد أفكار وتخيلات وفروض ! فلأنتظر !.. وتبادلا ابتسامة فى الصمت الذى عاد فسحب ذيله بينهما ، أما ابتسامتها فكانت فيما بدا تحية مضيف لضيف ، وأما ابتسامته فقد انفغمت على فم حائر بهمسات الاعتداء المختنق .

ــ نورت بيتنا يا ياسين أفندى ..

ــ يا ستى بيتك لا ينقصه النور ، أنت تنورين البلد وما فيها ..

ضحكت ضحكة مالت برأسها إلى الوراء ، وهى تتمتم :

ــ الله يكرمك يا ياسين أفندى !..

كان ينبغى أن يعود إلى الحديث عن طلبه أو أن يستأذن فى الانصراف على أن يسمى موعدا آخر لمواصلة الحديث ، ولكنه لم يعد إلى الحديث ولم يستأذن فى الانصراف .. بل راح يخدجها بنظرات ريبة تطول حينا وتقصر حينا دون انقطاع وفى صمت مريب . النظرات معان لا تخفى على ذى عينين !! لا بد من إيصال أفكاره إليها بالنظرات وحدها حتى يرى رد الفعل .. اعرف لقدمك قبل الخطو موضعها وليسقط أللنبى ، خذى هذه النظرة النارية وخبرينى إن كنت صادقة عن أى مجنون يسعه أن يتجاهل سوء مقصدها أو يدعى براءتها ؟. انظر ها هى ترفع عينيها وتخفضهما كالشاردة وعلى حال بينة من الفهم المريب ، تستطيع الآن أن تقول إن الفيضان وصل إلى أسوان وأنه لا مناص من فتح الخزان ، وأنت تخطب إليها ابنتها ؟! مجنون من لا يؤمن بالجنون بعد اليوم ، أنت الآن أشهى شىء إلى نفسى ، وليكن بعد ذلك الطوفان .. منظرك لا يوحى باليأس أبدا !

ــ هل تقيم فى قصر الشوق بمفردك ؟

ــ نعم ..

ــ قلبى عندك ..

جملة قد تصدر عن شيطان ، وقد تصدر عن ملاك ، ترى هل تتصنت مريم الآن وراء الباب ؟

ــ أنت جربت الوحدة بنفسك فى بيتك هذا ، إنها شىء لا يحتمل !..

ـــ حقا لا يحتمل !

وفجأة امتدت يدها إلى خمارها فنزعته من حول رأسها وعنقها وهى تقول كالمعتذرة « لا تؤاخذنى الدنيا حارة » . فبدا رأسها فى منديل برتقالى وأسفر عنقها الوضىء . رنا إلى عنقها مليا فى قلق متزايد ، ثم لحظ الباب كالمتسائل عمن عسى أن يكون رابضا وراءه .. أغيثوا الذى جاء يخطب البنت فوقع فى الأم . وقال ردًّا على اعتذارها :

ـــ خذى راحتك ، أنت فى بيتك ، ولا غريب فى البيت ..

ـــ ليت أن مريم كانت فى البيت لأزف إليها الخبر !.

خفق قلبه خفقة حادة كإشارة الهجوم ، وتساءل :

ـــ وأين هى ؟

ـــ عند جماعة من معارفنا فى الدرب الأحمر .

وداعا يا عقلى !. خاطب بنتك يريدك وأنت تريدينه ، ليرحم الله من يحسنون الظن بالنساء ، لا يمكن أن يكون فى رأس هذه المرأة عقل ، جارة العمر ولا تعرفها إلا اليوم !.. مجنونة .. مراهقة فى الخمسين !..

ـــ متى تعود مريم هانم ؟

ـــ قبيل المساء ..

قال بخبث :

ـــ أشعر بأن زيارتى قد طالت ..

ـــ لم تطل زيارتك ، أنت فى بيتك ..

فسألها بخبث أيضا :

ـــ ترى هل أطمع فى أن تردى لى الزيارة ؟

فابتسمت ابتسامة عريضة ، كأنما تقول له « إنى أدرك ما وراء هذه الدعوة » ، ثم أطرقت فى حياء وإن لم يغب عنه ما فى حركتها من تمثيل ، ولكنه لم يبالها ، وراح يصف لها موقع بيته من الحارة وموضع شقته من البيت ، وهى مطرقة صامتة باسمة . ترى ألم تشعر بأنها تسىء إلى ابنتها أبلغ إساءة ، وأنها تعتدى عليها أنكر اعتداء ؟!

ـــ متى تتكرمين بالزيارة ؟

غمغمت وهى ترفع وجهها :

ـــ لا أدرى ماذا أقول !

فقال بتوكيد وثقة :

ـــ أقول أنا بالنيابة عنك ، مساء الغد ، ستجدينني فى انتظارك !

ـــ ثمة أمور يجب أن نعمل حسابها !.

ـــ سنعمل حسابها معا .. فى بيتى !

وقام من فوره وهم بأن يتقدم نحوها ، فأشارت إليه وهى تلتفت نحو الباب محذرة ، ثم قالت وكأنما لا تقصد إلا التفادى من صولته :

ـــ غدا مساء ..!

١٢

وعرف بيت قصر الشوق بهيجة زائرة مواظبة . كانت إذا نشر الظلام ستاره ، تتلفع بملاءتها ، وتمضى إلى الجمالية ، فإلى بيت هنية .. وهنالك تجد ياسين فى انتظارها بالحجرة الوحيدة المفروشة فى الشقة . ولم يجر لمريم ذكر بينهما إلا حين قالت له مرة :

ـــ لم أستطع أن أخفى عن مريم نبأ زيارتك ، لأن خادمتنا تعرفك ، ولكننى قلت لها : إنك فاتحتنى برغبتك فى خطبتها بعد تذليل العقبات التى تعترض سبيلك فى محيط الأسرة !

ووجد نفسه مذهولا عن مناقشتها ، فأبدى موافقته واستحسانه . واستقبلا معا حياة حافلة بالمتع ، وجد ياسين ذات « الكنز » ملبية بين يديه ، فانطلق انطلاق الجواد الجامح ، ولم تكن الحجرة التى أثثت على عجل واقتصاد بالمكان الصالح لمطارحة الغرام ، ولكنه لم يأل عن تهيئة الجو الخلاب بتوفير الطعام والشراب حتى يطيب له الوصال فيواصل صولاته بذلك النهم الغريزى الذى لا يعرف حدا أو اعتدالا . وما لبث أن أدركه الملال قبل أن يتم الأسبوع الأول دورته . هى نفس الحلقة التى تدور فيها شهوته حتى غدا الدواء نوعا من الداء بيد أنه لم يؤخذ على غرة ، كلا !. ولم يضمر نحو تلك العلاقة الغريبة من بادىء الأمر أى نية حسنة ولا قدر لها أى دوام ، بل لعله لم يبلغ من وراء المغازلة فى حجرة الاستقبال إلا ضجعة عابرة ، غير أنه وجد من المرأة تعلقا به وحرصا عليه وأملا فى أن يكون قنع بها راضيا

وعدل عن مشروع الزواج ، فلم ير بدا من مجاراتها كيلا يفسد على نفسه لذتها مؤمنا بأن الزمن وحده كفيل بإرجاع كل شيء إلى أصله !. وما أسرع أن رجع كل شيء إلى أصله بالنسبة إليه هو ، بل ربما أسرع مما قدر ، وكان جاراها وهو يظن أن جدة محاسنها خليقة بأن تحتفظ برونقها أسابيع أو شهرا ، ألا يا ربما كذب الظن !.. أما عن مظهرها الشهي فبحسبه أن جعله يرتكب أكبر حماقة في حياته العامرة بالحماقات ، ولكن الكهولة تكمن وراء ذلك كما تكمن الحمى وراء تورد الخدين الكاذب ، وإن القناطير المقنطرة من اللحم البشري المتحبكة تحت طيات الثياب — على حد قوله — غيرها إذا تجردت للعيان ، وليس كاللحم البشري مسجل لآثار العمر الحزينة ، حتى قال لنفسه « الآن أدرك لماذا تعبد النساء الملابس ! » لم يكن عجيبا بعد ذلك أن يقول عنها وقد ضاق باندلاقها عليه أنها « مرض » ، وأن يجمع العزم على قطع علاقته بها . وعادت مريم — بعد خمود النزوة الجنونية — إلى سابق مكانتها من نفسه ، كلا ، لم تكن بارحتها ، ولكن النزوة الطارئة غشيتها كما تغشى السحابة العجلى وجه القمر ، عجبا ! لم تعد رغبته في مريم مجرد استجابة لولعه الخالد بجنسها وإن غلب ذلك عليها ، ولكنها أرضت من ناحية أخرى حنينه إلى تكوين الأسرة التي كان يعتدها مصيرا محتوما ومرغوبا فيه أيضا !. واستوصى بالصبر — كارها — على أن تثوب بهيجة إلى رشدها ، أن تقول له يوما « حسبنا لعبا وهلم إلى عروسك » ولكنه لم يجد لأمله صدى في نفسها ، كانت تواظب على الزيارة ليلة بعد أخرى ، وما تزداد إلا إغراقا وتهالكا ، وشعر بأنها تمتلىء مع الزمن إيمانا بحقها عليه كأنه بات محور حياتها وملك يمينها .

أجل ! لم تكن تنظر إلى الأمر بعين الاستهانة أو اللهو ، وإلى هذا تكشفت نفسها له عن خفة وطيش ونزق أقنعته جميعا بأن سلوكها الشاذ معه في أول مقابلة لم يكن أمرا مستغربا ، فاستهان بها وازدراها وتضخمت عيوبها في عينيه الزاريتين حتى ضاق بها كل الضيق وصمم على التخلص منها في أول فرصة تسنح ، وإن حرص على تجنب الفظاظة أن تبعثر العراقيل في طريق مريم . قال لها مرة :

— ألا تتساءل مريم عن سر اختفائي ؟

فقالت وهي تطمئنه بحركة من رأسها :

— إنها على بينة من معارضة أسرتك .

فقال بعد تردد :

ــ أصارحك بأننا كنا نتحادث أحيانا فوق السطح ، وإنى ردَّدت لها مرات بأننى مصمم على الزواج منها مهما يكن من معارضة المعارضين .

فحدجته بنظرة نافذة، وهى تتساءل :

ــ ماذا تريد ؟

قال متظاهرا بالبراءة :

ــ أريد أن أقول إنها سمعت منى ذلك التوكيد ، وأنها علمت بعد ذلك بزيارتى لك ، فينبغى أن تقتنع بسبب وجيه لاختفائى !..

فقالت بغير مبالاة أدهشته :

ــ لن يضيرها ألا تقتنع ، فليس كل كلام بمفض إلى خطبة ولا كل خطبة بمفضية إلى زواج ، إنها تعلم علم اليقين ..

ثم بصوت منخفض :

ــ ولن يضيرها أن تفقدك ، إنها شابة فى عز جمالها ، ولن تعدم خاطبا اليوم أو غدا !..

كأنها تعتذر عن أنانيتها ، أو تلمح إلى أنها هى ــ لا ابنتها ــ التى يضيرها فقده ، فلم يزده قولها إلا ضيقا ومللا ، إلى أنه أخذ يتوجس خيفة من معاشرة امرأة تكبره بعشرين عاما ، متأثرا بما يتردد بين العامة من أن مخادنة الكهلات تذبل الشبان ، حتى شحنت ساعات اللقاء ــ من ناحيته ــ بالتوتر والحذر فمقتها مقتا .. وإنه لعلى ذاك إذ صادف مريم يوما فى السكة الجديدة ، فتقدم منها دون تردد ، وسلم عليها ، وسار إلى جانبها كأنه من ذوى قرباها ، كانت قلقة عابسة ، فأخبرها بأنه كان يقنع والده بالموافقة حتى ظفر بها ، وأنه يعد مسكنه بقصر الشوق ليكون صالحا لهما ، واعتذر عن طول غيبته بكثرة مشاغله ، ثم قال لها : « أخبرى والدتك بأننى سأجىء غدا لمقابلتها للاتفاق على عقد القران ! » ومضى سعيدا بانتهاز الفرصة التى سنحت على غير ميعاد ، غير عابىء ــ فى غمرة السعادة ــ بما سيكون موقف بهيجة منه . وفى مساء ذلك اليوم جاءت بهيجة فى ميعادها إلى قصر الشوق ، ولكنها جاءت هذه المرة منفعلة كسيرة النفس ، بادرته هاتفة قبل أن ترفع برقعها :

ـــ بعتني غيلة وغدرا ..
ثم انحطت على الفراش ، وهي تنزع برقعها في نرفزة ، وتقول :
ـــ لم يطف بخاطري أنك تضمر لي هذا الغدر كله ، ولكنك جبان غادر كسائر الرجال ..
قال ياسين برقة المعتذر :
ـــ ليس الأمر كما تتصورين ، الحق أني قابلتها صدفة ..
فصاحت بوجه مكفهر :
ـــ كذاب ! كذاب ! وحق من هو قادر على أن يريني فيك ما أشتهي . هل تظنني أصدقك ما حييت بعد ما كان (ثم وهي تحاكيه محاكاة كاريكاتورية) الحق أني قابلتها صدفة !، أي صدفة يا عمر ؟!، وهبها صدفة حقا ، فلم كلمتها في الطريق أمام الرائح والغادي ؟، أليس هذا فعل الغادر السيىء النية ؟ (ثم وهي تعود إلى المحاكاة الكاريكاتورية) الحق أني قابلتها صدفة ..!
فقال في شيء من الارتباك :
ـــ وجدتني معها فجأة ـــ وجها لوجه ـــ فامتدت يدي بالسلام عليها !، ما كان بوسعي تجاهلها بعد ما كان من تحادثنا فوق السطح .
فصاحت به بوجه مصفر من الغضب :
ـــ فامتدت يدي بالسلام عليها ! اليد لا تمتد إلا إذا مدَّها صاحبها ، قطعت اليد وصاحبها ، قل إنك مددت يدك إليها لتتخلص مني ..
ـــ لم يكن من السلام بد ،أنا إنسان وفي وجهي دم !
ـــ دم ؟!، أين هو ذاك ؟، دم يلطشك يا غادر يا ابن الغادر ..
ثم بعد أن ازدردت ريقها :
ـــ ووعدك إياها بالمجيء للاتفاق على عقد القران ، هل أفلت منك أيضا كما أفلتت يدك ؟.. تكلم يا سي دم ..
قال بهدوء عجيب :
ـــ إن كل الحي يعلم الآن بأني هجرت بيت أبي لأتزوج من ابنتك ، فلم يكن من المستطاع تجاهل ذلك وأنا أحدثها ..
فصاحت بحدة :

ـــ كان بوسعك أن تنتحل من الأعذار ما تشاء لو كانت بك رغبة إلى ذلك ، لست ممن يعيبهم الكذب ، ولكنك أردت التخلص منى ، هذه هى الحقيقة ..

قال وهو يتحاشى نظرتها :

ـــ ربنا يعلم بحسن نيتى !

فحدجته بنظرة طويلة ، ثم سألته فى تحد :

ـــ أتعنى أنك تورطت فى وعدك لها على غير رغبة منك ؟

أدرك خطورة التسليم بذلك ، فغض بصره ولاذ بالصمت ، فقالت وهى تزفر من الغيظ :

ـــ أرأيت أنك كذاب كما قلت لك ؟

ثم صارخة :

ـــ أرأيت ؟! أرأيت يا غادر يا ابن الغادر ؟!

قال بعد تردد :

ـــ إن سرا لا يمكن أن يخفى إلى الأبد ، تصورى ماذا يقول الناس لو كشفوا سر علاقتنا ، بل تصورى ماذا تقول مريم !

فصرفت بأسنانها من الحنق ، وقالت :

ـــ يا لك من خنزير ! لم لم تذكر هذه الاعتبارات يوم وقفت أمامى سائل اللعاب كالكلب ؟، آه يا جنس الرجال ، جهنم الحمراء عقوبة تافهة لكم !

ابتسم خفيفا ، وكان أوشك أن يضحك لولا فرملة الجبن ، ثم قال يتودد ورقة :

ـــ لقد قضينا وقتا طيبا سوف أذكره دائما بكل خير ، حسبك غضبا واستياء ، ما مريم إلا ابنتك ، وإنك أول من يروم سعادتها ..

وهي تهز رأسها بتهكم:

ـــ أأنت الذى ستسعدها ؟!، اسمعى يا حيطان ، المسكينة لا تدرى أى إبليس ستتزوج ، أنت داثر ابن داثرة ، وربنا يكفيها شر ما وقعت فيه ..

قال بهدوئه الذى التزمه من أول الأمر :

ـــ عند ربنا الصـــلاح ، إنى أرغب رغبة صادقة فى بيت مستقر ، وزوجة بنت حلال !!

قالت هازئة :

ـــ أقطع ذراعي إن صدقت ، سوف نرى ، لا تظن بأمومتي الظنون ، إن سعادة ابنتي مقدمة عندى على كل اعتبار ، ولولا أنك خدعتني وغدرت بى ما كان يهمني أن أهديك إليها على الحذاء !

ساءل ياسين نفسه : ترى هل مرت الأزمة بسلام ؟، وانتظر أن تلبس برقعها وتودعه ، ولكنها لم تحرك ساكنا ، ومضى الوقت ـــ وهى بمجلسها من الفراش ، وهو بمجلسه على الكرسى قبالتها ـــ لا يدرى كيف ، ولا متى تتقوض هذه الجلسة الغريبة المتوترة ، واسترق النظر إليها ، فوجدها ترنو إلى الأرض كالسارحة على حال من التسليم نزعت به إلى العطف عليها ، هل تعود مرة أخرى إلى المهاترة ؟، غير مستبعد !! ولكنها ـــ فيما يبدو ـــ تفكر فى موقفها الدقيق بينه وبين ابنتها وتنحنى أمام مقتضياته ، وما يدرى إلا وهى تنتزع الملاءة عن نصفها الأعلى وتغمغم « الجو حار » ثم تزحزحت حتى نهاية الفراش فاستندت إلى شباكه ، ومدت ساقيها غير عابئة بالحذاء الذى انغرز كعباه فى طيات اللحاف ، ثم واصلت شرودها ، ترى : ألا يزال لديها ما تقول ؟ سألها بلهجة بالغ فى رقتها :

ـــ هل تسمحين لى بأن أزوركم غدا ..؟

تجاهلت سؤاله دقيقة أو نحوها ، ثم حدجته بنظرة كاللعنة ، وقالت :

ـــ على الرحب والسعة يابن القديمة !

ابتسم قانعا وهو يشعر بنظراتها تلهب وجهه ، وعادت هى تقول بعد هنيهة :

ـــ لا تظنني بلهاء ، كنت موطنة النفس على توقع هذه النهاية عاجلا أو آجلا ، ولولا أنك تعجلتها بطريقة .. (ثم بتسليم وازدراء معا) .. ما علينا ..

لم يصدقها ، ولكنه تظاهر بتصديقها ، ومضى يقول : إنه كان واثقا من ذلك ، وأنه يرجو أن تعفو عنه وتشمله برضاها ، ولكنها لم تعن بالإصغاء إليه ، وتزحزحت ـــ مرة أخرى ـــ إلى حافة الفراش ، فطرحت ساقيها على الأرض ، وقامت فأخذت تحبك ملاءتها ، وهى تقول : « أستودعك الله » .. فقام صامتا وتقدمها إلى الباب وفتحه ، ثم تقدمها مرة أخرى إلى الخارج ، وما يدرى إلا وصفعة تهوى على قفاه ، على حين مرقت المرأة من جانبه إلى السلم وتركته وراءها كالذاهل وكفه منطرحة على موضع الصفعة ، التفتت نحوه ويدها عل الدرابزين ، وقالت :

ـــ تعيش وتأخذ غيرها ، آذيتني أكثر من هذا ، ألا يحق لى أن أشفى غليلى ولو بصفعة يا ابن الكلب ..؟!

١٣

ـــ يا سيد أحمد لا تؤاخذنى إذا صارحتك بأنك تبذر نقودك هذه الأيام بلا حساب ..

قال جميل الحمزاوى ذلك بلهجة جمعت بين أدب المستخدم وإدلال الصديق . وكان الرجل لا يزال قوى البنية جيد الصحة على بلوغه السابعة والخمسين من عمره ، أما رأسه فقد رصعه المشيب ، ولم تؤثر السنون فى نشاطه شيئا فلم يزل يومه ينقضى على حركة دائبة فى خدمة الدكان وعملائه كعهده منذ التحق به على أيام منشئه الأول . وقد اكتسب مع طول العهد حقوقا ثابتة واحتراما جديرا بنشاطه وأمانته ، فنزل من نفس أحمد عبد الجواد منزلة الصديق ، ولم يكن عطف الرجل عليه الذى تمثل أخيرا فى معاونته على إلحاق ابنه فؤاد بمدرسة الحقوق إلا مضاعفا لإخلاصه وموجبا عليه مصارحته عندما تجب المصارحة لدفع ضر أو تحقيق منفعة . على أن أحمد قال بلهجة مطمئنة ، ولعله كان يشير إلى الرواج الذى لم تزل تثمل السوق بسكرته :

ـــ الحال معدن ، والحمد لله ..

فقال جميل الحمزاوى باسما :

ـــ ربنا يزيد ويبارك ، غير أنى لا أزال أكرر القول عليك بأنك لو كنت اتخذت من التجار خلقهم كما اتخذت حرفتهم ، لكنت الآن من كبار الأغنياء ..

ابتسم أحمد ابتسامة الرضى والقناعة وهو يهز منكبيه استهانة . ربح كثيرا وأنفق كثيرا ، فكيف يأسف على ما جنى من لذات العيش ؟. لم يفقد يوما حاسة التوازن بين دخله ومنصرفه ، ولم يخل رصيده من الستر ، وقد تزوجت عائشة وتزوجت خديجة ، وطرق كمال باب المرحلة النهائية من حياته الدراسية ، فماذا عليه لو تمتع بعد ذلك بطيبات الحياة ؟ على أن الحمزاوى لم يعد الحق فى ملاحظته على تبذيره . فالحق أنه يبدو ـــ هذه الأيام ـــ أبعد ما يكون عن الاعتدال والقصد ، تشعبت وجوه نفقاته : فالهدايا تستنزف مالا لا يستهان به ، والعوامة تستحلب دسمه ، ومحظيته تستأديه القرابين ، وفى الجملة فإن زنوبة تدفعه إلى الإسراف دفعا ، وهو من ناحيته يدفع بلا مقاومة تذكر ، لم يكن كذلك فى الأيام الخالية ، حقا كان ينفق عن

سعة !! ولكن امرأة لم تستطع أن تخرجه عن حد الاعتدال أو تضطره إلى ركوب الإسراف . كان بالأمس مستشعرا قوته ، ولم يكن يبالى كثيرا أن تجاب كل مطالبه الحبيبة ، ولم يكن يبالى إن تدللت عليه أن يتدلل عليها تيّاهاً بفتوته وفحولته . اليوم أذل حرصه على حبيبته عنقه فهان عليه الغالى ، وكأنه لم يعد يروم من مطلب فى هذه الحياة وراء استبقاء مودتها واستمالة قلبها ، ويا لها من مودة متعززة ، ويا له من قلب عصى !!ولم يكن فى واقع حاله ليغيب عن فطنته ، شعر به شعور الألم والحزن ، وذكر به أيام عزته فى لهفة وأسى وإن لم يقر بأنها ذهبت وتولت ، ولكنه لم يحرك أصبعا للمقاومة الجدية ولم يكن ذلك فى طوقه !. وقال مخاطبا جميل الحمزاوى فيما يشبه السخرية :

ـــ لعله من الظلم أن تعدنى تاجرا !.. (ثم فى تسليم) .. الله هو الغنى ..

وجاء نفر من الناس فشغل بهم الحمزاوى ، وما كاد أحمد يخلو إلى نفسه حتى رأى قادما يزحم الباب على سعته ويتجه إليه متبخترا . كانت مفاجأة وذكر لتوه أنه لم تقع عيناه على القادم منذ أربع سنوات أو يزيد ، ثم نهض مرحبا مدفوعا بأدبه وحده ، وهو يقول :

ـــ أهلا وسهلا ، بجارتنا المكرمة ..

فمدت له أم مريم يدها ملفوفة فى طرف ملاءتها قائلة :

ـــ أهلا بك يا سيد أحمد ..

ودعاها إلى الجلوس فجلست على الكرسي الذى جلست عليه يوما يعتبر الآن من التاريخ ، ثم قعد وهو يتساءل .. لم يكن رآها منذ جاءت لمقابلته فى هذا الدكان بعد مرور عام على وفاة فهمى محاولة استدراجه إلى بيتها مرة أخرى . عجب يومئذ لجرأتها ـــ ولم يكن أفاق من الحزن ـــ فقابلها بجفاء وشيعها ببرود . ترى ما الذى جاء بها اليوم ؟! وألقى عليها نظرة شاملة فوجدها كالعهد بها : جسامة وأناقة ، يفوح من أعطافها الطيب ، وتتألق عيناها فوق البرقع . غير أن تبرجها لم يجد فى إخفاء دبيب الزمن ، فلاحت أمارات الكبر تحت عينيها ، وذكر بها جليلة وزبيدة ، شد ما يستبسل أولئك النسوة فى معركة الحياة والشباب ، أما أمينة فسرعان ما تهاوت فريسة للحزن والذبول !.. وقربت بهيجة الكرسى من المكتب ، ثم قالت بصوت خافت :

ـــ لا تؤاخذنى يا سى السيد على هذه الزيارة ، فللضرورة أحكام ..
فقال أحمد ـــ من فوره ـــ وقد كان يبدو رزينا جادا :
ـــ أهلا وسهلا ، إن زيارتك تشريف لنا وتكريم ..
فقالت باسمة ، وقد نمت نبرات صوتها على الامتنان :
ـــ تشكر ، والحمد لله على أنى وجدتك بخير وعافية !!
فشكرها بدوره ، ودعا لها بالصحة والعافية ، فعادت تشكر له شكره ودعاءه وتدعو له من جديد ، ثم سكتت لحظات ، وقالت باهتمام :
ـــ جئتك لأمر هام ، قيل لى : إنه بلغ إليك فى حينه ، وأنه نال موافقتك ، وأعنى طلب ياسين أفندى ليد ابنتى مريم ، فهل صحيح ما قيل لى ؟ هذا ما جئت من أجل التحقق منه ..
خفض أحمد عبد الجواد عينيه أن تقرأ فيهما الحنق الذى اشتعلت به جوانحه وهو يتابع كلامها ، ولم يخدع بتظاهرها بالاهتمام بموافقته ، فلتحاول خداع غيره ممن يجهلون خباياه ، أما هو فيعلم علم اليقين أن موافقته وعدمها عندها سواء ، بل ألم تدرك ما وراء تخلفه عن زيارتها مع ابنه ؟.. ولكنها جاءت لتحمله على الإقرار بالموافقة ، وربما لغرض آخر لا يلبث أن يستبينه ، رفع إليها عينين هادئتين ، وقال :
ـــ حدثنى ياسين عن رغبته فدعوت له بالتوفيق ، كانت مريم ولم تزل ابنتنا ..
ـــ الله يبارك لى فى عمرك يا سى السيد . هذه المصاهرة ستشرفنا بين الناس ..
ـــ أشكر حسن ظنك ..
فقالت بحماس :
ـــ ويسرنى أن أصارحك بأننى أجّلت إعلان موافقتى حتى أتأكد من موافقتك أنت !
قارحة !. لعلها أعلنت موافقتها حتى قبل أن ترى ياسين !
ـــ أكرر الشكر ، يا ست أم مريم ..
ـــ لذلك كان أول ما قلت لياسين أفندى ، دعنى أتأكد أولا من موافقة والدك ، فإن كل شىء يهون إلا سخطه !
الله .. الله !. لم تكد تسرق البغل حتى نشطت لرمى الأحابيل حول صاحبه ..
ـــ ليس بمستغرب أن يصدر عنك ذلك القول النبيل !

فواصلت حديثها فى حماس مظفر ، قائلة :

ـــ إنك يا سى السيد زجلنا ، وخير من يفخر به حينا كله !

مكر النساء ، ودلال النساء ، ما أضيقه بهما معا ، هل خطر لها ببال أنه يتمرغ فى التراب مناشدة لعطف عوادة زهد فيها السكارى ؟!.

قال فى تواضع :

ـــ أستغفر الله ..

فقالت بلهجة حزينة علا بها صوتها قليلا ، حتى خاف أن يبلغ الموجودين بالناحية الأخرى من الدكان ، فحرك رأسه نحوهم محذرا :

ـــ لشد ما حزنت عندما أنبأنى بأنه هجر بيت والده ..

فبادرها قائلا وقد تجهم وجهه :

ـــ الحق أن سلوكه أغضبنى . فعجبت كيف تأتى له أن يرتكب تلك الحماقة ، كان ينبغى أن يستشيرنى أولا . ولكنه حمل متاعه إلى قصر الشوق ، ثم جاء يعتذر إلى !! عبث صبيانى ياست أم مريم . وقد وبختـه ولم أكترث لخلافه المزعوم مع أمينة . ذلك تعلل سخيف حاول به أن يبرر حماقة أسخف منه !!

ـــ هذا ما قلته له وحياتك ، ولكن الشيطان شاطر ، وقلت له أيضا : إن ست أمينة معذورة ، ربنا يصبرها على ما ابتلاها به .. وعلى أى حال فمثلك يرجى منه الصفح ياسى السيد..

فأشار بيده إشارة قصيرة ، كأنما تقول «دعينا من هذا» فقالت متوددة :

ـــ لكننى لا أقنع إلا بالصفح والرضى..

أف ، ليته يستطيع أن يصارحها بمدى اشمئزازه منهم جميعا ، هى وابنتها والبغل الكبير..

ـــ ياسين ابنى على كل حال ، وفقه الله إلى الهداية..

أمالت رأسها إلى الوراء قليلا ، وأبقته على وضعه مليا ريثما تستمتع بلذة النجاح والارتياح ، ثم عادت تقول فى نبرات لطيفة :

ـــ ربنا يجبر خاطرك ياسيد أحمد ، ساءلت نفسى وأنا قادمة إليك . ترى : أيكسفنى ويردنى خائبة ، أم يعامل جارته القديمة بما تعود أن يعاملها به فى الأيام الخالية ؟. الحمدلله فأنت دائما عند حسن الظن بك ، مد الله فى عمرك ومتعك

بالصحة والعافية !!

تظن أنها ضحكت على ذقنه ، يحق لها هذا ، ما أنت إلا أب خائب مات خير أبنائه ، وخاب الإبن الثانى ، وركب الثالث رأسه ، كل هذا على رغمى يا قارحة..

ـــ إنى عاجز عن شكرك..

وهى تخفض رأسها :

ـــ مهما قلت فيك فهو دون ما تستحق ، طالما أقررت لك به فيما مضى..

آه ، ذلك الماضى !. أوصدى ذلك الباب وحياة البغل الذى جئت تسجلين حق ملكيته !. وبسط راحته على صدره آية على الشكر ، فراحت تقول بلهجة حالمة :

ـــ كيف لا ، ألم أعزك إعزازا لم يحظ به إنسان قبلك ولا بعدك ؟

هذا هو المطلوب ، كيف لم يفطن إليه من أول لحظة !؟. لم تجيئى من أجل ياسين ولا من أجل مريم ، ولكن من أجلى أنا ، بل من أجل نفسك ! أنت أنت لم يغير الزمن منك شيئا ، إلا شبابك ، ولكن رويدك !! هل تستطيعين أن تردى الأمس الذى ولى ؟. مر بقولها دون تعليق مكتفيا بابتسامة شكر ، فابتسمت ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانها من ثقوب البرقع ، وقالت فيما يشبه العتاب :

ـــ يبدو أنك لا تذكر شيئا..

أراد أن يعتذر عن فتوره دون أن يمس إحساسها فقال :

ـــ لم يبق فى الرأس عقل أتذكر به ..

فهتفت بإشفاق :

ـــ لشد ما أغرقت فى الحزن ، الحياة لا تحتمل هذا ولا تسيغه ، وأنت ـــ ولا تؤاخذنى على ما سأقول ـــ رجل ألف الحياة المليحة ، فالحزن إذا أثر فى الإنسان العادى قيراطا يؤثر فيك أربعة وعشرين قيراطا..

موعظة يراد بها منفعة الواعظ ، ليت أن ياسين كان يعتصم بمثل شبعى ، لماذا أتقزز منك ؟. أنت دون شك أطوع من زنوبة وأقل نفقة بما لا يقاس ، ولكن يبدو أن قلبى أصبح مولعا بالمتاعب . قال بدهاء ومسكنة معا :

ـــ من أين للقلب المحزون أن يضحك ؟

اندفعت تقول بحماس وكأنها شامت برق أمل :

ـــ اضحك يضحك قلبك ، لا تنتظر حتى يضحك هو ، هيهات أن يضحك وحده بعد ما عانى من طول الوجوم ، عد إلى حياتك القديمة تعد إليك بهجتها الغافية ، ابحث عن مسرات زمانك الأول وأحبابه ، من أدراك أن ليس ثمة قلوب تهفو إليك وتقيم على عهدك رغم إعراضك الطويل عنها ؟

طرب الفؤادعلى رغمه وتاههذا ما ينبغي أن يقال حقا لأحمد عبد الجواد ، وما كان يسكب فى أذنيه على قرع الكئوس فى ليالى الطرب ، أين العوادة لتسمع هذا المديح علها تخفف من غلوائها ؟!. لكن يردده من أنت عنه راغب !. قال بصوت لا أثر فيه للطرب :

ـــ ولى ذلك الزمان ..

مال نصفها الأعلى إلى الوراء استنكارا ، وقالت :

ـــ لم تزل شابا ورب الحسين !..(ثم وهى تبتسم فى حياء) جمل له طلعة البدر !. لم يول زمانك ولن يولى أبدا ، لا تكبر نفسك قبل الأوان ، أو دع الحكم على ذلك للآخرين فلعلهم يرونك بغير العين التى ترى بها نفسك..

قال بأدب ، ولكن بلهجة تعبر بلطف عن رغبته فى إنهاء الحديث :

ـــ اطمئنى ياست أم مريم إلى أننى لا أقتل نفسى حزنا ، فإننى أتسلى عن الهم بشتى ضروب التسلية..

تساءلت وقد فتر حماسها قليلا :

ـــ أيكفى هذا للترفيه عن رجل مثلك ؟

فقال بقناعة :

ـــ لا تتطلع النفس إلى شيء وراءه..

بدا أنه تنغص صفوها ، وإن تظاهرت بالارتياح وهى تقول :

ـــ أحمد الله على أننى وجدتك على ما أحب لك من راحة البال وصفائه..

لم يعد ثمة قول يقال ، فنهضت وهى تمد له يدها ملفوفة فى طرف الملاءة ، فتصافحا ، ثم قالت وهى تهم بالذهاب :

ـــ فتك بعافية..

وذهبت وهى تحول عنه عينين لم يجد التصنع فى إخفاء ما غشيهما من خيبة..

١٤

طوت سوارس شارع الحسينية ، ثم أخذ جواداها المهزولان يخبان فوق أسفلت العباسية والسائق يلهبهما بسوطه الطويل . كان كمال جالسا فى مقدمة العربة على طرف المقعد الطويل فيما يلى السائق ، فأمكنه أن يرى بلفتة من رأسه — فى غير جهد — شارع العباسية ممتدا أمام عينيه ، فى اتساع لا عهد للحى القديم به وطول لا يلوح له منتهى ، أرضه مستوية ملساء ، وبيوته على الجانبين ضخمة ذوات أفنية رحيبة بعضها يزدان بحدائق غناء :

كان يضمر للعباسية إعجابا كبيرا ويكن لها حبا وإجلالا يبلغان حد التقديس ، أما الإعجاب فمرده إلى نظافتها وهندستها والهدوء المريح المخيم على ربوعها ، وكل أولئك سمات لا يعرفها حيه العتيق الزيّاط . وأما الحب والإجلال فمرجعهما إلى أنها وطن قلبه ومنزل وحى حبه ومثوى قصر معبودته .

منذ أعوام أربعة وهو يتردد عليها بقلب مرهف وحواس مشحوذة حتى حفظها عن ظهر قلب ، فحيثما مد بصره ارتد إليه بصورة مألوفة كأنها وجه صديق قديم ، وجميع معالمها ومناظرها ودروبها وعدد من أهلها قد اقترن فى ذهنه بأفكار وعواطف وأخيلة أمست — فى جملتها — جوهر حياته ومعقد أحلامه ، فحيثما ولى وجهه فثمة مناد يدعو القلب للسجود .

وأخرج من جيبه خطابا تلقاه من البريد أول أمس ، وكان مرسله حسين شداد ينبئه فيه بعودته — وصديقيه حسن سليم وإسماعيل لطيف — من المصيف ، ويدعوه إلى مقابلتهم جميعا فى بيته الذى تسير به سوارس إليه .. نظر إلى الخطاب بعين حالمة شاكرة وامقة ساجدة عابدة متعبدة ، لا لأن مرسله شقيق معبودته فحسب ، ولكن لظنه أن الخطاب كان مودعا فى مكان ما بالبيت قبل أن يكتب حسين عليه رسالته ، وأنه والحال كذلك غير مستبعد أن تكون عينها الجميلة قد وقعت عليه فى ذهابها أو مجيئها أو أن تكون أناملها قد لمسته لسبب أو لآخر أو حتى عفوا ، بل حسبه أن يظن أنه كان مودعا فى نفس المكان الذى يحل فيه جسمها وتعمره روحها كي يستحيل الخطاب إلى رمز قدسى تهفو إليه روحه ويشتاق إليه قلبه . ومضى يقرأ الخطاب للمرة العاشرة حتى وقف عند هذه الجملة « عدنا إلى

القاهرة مساء أول أكتوبر » أى أنها شرفت العاصمة منذ أربعة أيام وهو لا يدرى ، كيف لم يدر ؟!. كيف لم يفطن إلى وجودها سواء بالغريزة أو بالشعور أو بالبصيرة ؟!. كيف جاز للوحشة التى غشيته طوال الصيف أن تمد ظلها الثقيل على هذه الأيام الأربعة المباركة ؟!. هل رانت الكآبة المتواصلة على حساسيته بطبقة من البلادة والجمود ؟. على أى حال فالساعة يرف قلبه وتحلق روحه فى أجواء من السحر والسعادة !! الساعة يشرف على الدنيا من ذروة رفيعة تبدو منها معالمها فى هالة من الشفافية والنورانية كأنها أطياف فى دنيا الملائكية !! الساعة يضطرم وجدانه بنشاط الحيوية ونشوة الحبور وسكرة الطرب !! الساعة ـــ أو حتى فى هذه الساعة ـــ يطوف به طائف الألم الذى يلازم مسرة الحب عنده ملازمة الصدى للصوت . قديما كانت تحمله سوارس فى هذا الطريق نفسه وقلبه من الحب خال لم يمس ، ماذا كان يجد من مشاعر وآمال وخوف ورجاء ؟. لا يذكر حياة ما قبل الحب إلا ذكرى مجردة ، ينكرها ما عرف للحب قدره ، ويحن إليها كلما نبا به ألم ، ولكنها لشدة إحساسه بخاطره كادت تلحق بالأساطير ، لذلك بات يؤرخ بالحب حياته ، فيقول : كان ذلك قبل الحب « ق. ح » ، وحدث ذلك بعد الحب « ب. ح » .

وقفت العربة عند الوايلية ، فأعاد الخطاب إلى جيبه ، وغادرها متجها إلى شارع السرايات وعيناه تتطلعان إلى أول قصر على اليمين فيما يلى صحراء العباسية . بدا القصر بدوريه من الخارج بناء ضخما عاليا ، يتصل مقدمه بشارع السرايات وينتهى مؤخره بحديقة رحيبة تراءت رءوس أشجارها العالية من وراء سور رمادى متوسط الارتفاع يحيط بالقصر والحديقة معا ويرسم مستطيلا هائلا ممتدا فى الصحراء التى تكتنفه من الجنوب والشرق . كان منظره مطبوعا على صفحة نفسه ، يستأسره جلاله وتفتنه آى فخامته ، ويرى فى عظمته تحية مزجاة عن جدارة بصاحبه ، وتلوح لعينيه نوافذ مغلقة وأخرى مرخاة الستائر ، فيلمح فى تحفظها وانطوائها ما يرمز إلى عزة محبوبه وعصمته وامتناعه وغموضه ، وهى معان تؤكدها الحديقة المترامية والصحراء الغارقة فى الأفق ، وتعرض هنا أو هناك نخلة سامقة أو لبلاب متسلق جدارا أو جدائل ياسمين مسترسلة فوق سور فتناوش قلبه بذكريات انعقدت فوق هاماتها كالثمار تساره بحديث الوجد والألم والعبادة وقد غدت ظلا

الحبيب ونفحة من روحه وانعكاسا لملامحه ، ناشرة بجملتها ـــ وبما عرف من أن باريس كانت لأهل القصر منفى ـــ جوًّا من الجمال والحلم تواءم مع حبه فى سموه وقداسته وبذخه وتطلعه إلى المجهول .

رأى وهو يقترب من مدخل القصر البواب والطاهى وسائق السيارة جالسين فوق أريكة على كثب من الباب كعادتهم فى العصارى ، فلما بلغ مجلسهم وقف البواب ، وقال له « حسين بك ينتظرك فى الكشك » فدخل مستقبلا مزيجا من عرف الفل والقرنفل والورد التى نضدت أصصها على جانبى السلم المفضى إلى الفراندا الكبيرة التى تطالع القادم على بعد يسير من الباب ، ثم مال يمنة إلى ممر جانبى يفصل القصر عن السور ويسير بينهما حتى مشارف الحديقة فيما يلى الفراندا الخلفية للقصر .

ليس من الهين على قلبه الخفاق أن يمشى فى هذا المحراب الكبير ، ولا أن يطأ أديما وطئته قدماها من قبل ، إنه يكاد من إجلال يتوقف ، أو يمد يده إلى جدار البيت تبركا ، كما كان يمدها إلى ضريح الحسين من قبل أن يعلم أنه لم يكن إلا رمزا ، ترى : فى أى مكان من القصر يمرح محبوبه الساعة ؟ وما عسى أن يفعل إذا طالعته بلفتتها الفاتنة ،؟ ليته يجدها فى الكشك كى تجزى عين عن طول التصبر والتشوق والتسهد !!

ألقى على الحديقة نظرة شاملة حتى سورها الخلفى الذى ترامت وراءه الصحراء ، وكانت الشمس المائلة فوق القصر صوب الشارع تجلو منها أعالى الأشجار والنخيل وسقائف الياسمين المبطنة للسور من كافة نواحيه ، ودوائر الأزهار والورود ومربعاتها وأهلتها تكتنفها ممرات الفسيفساء ، ثم سار فى ممشى وسيط يفضى إلى كشك قائم وسط الحديقة ، وقد تراءى فيه عن بعد حسين شداد ، وضيفاه : حسن سليم وإسماعيل لطيف جلوسا على كراسى خيزران حول مائدة مستديرة خشبية انتثرت عليها أكواب حول دورق ماء . سمع هتاف ترحيب صدر عن حسين فآذنه بانتباههم إلى مقدمه ، وما لبثوا أن قاموا للقائه فعانقهم واحدا واحدا بعد فراق دام الصيف كله ، حمدا لله على السلامة ، أنت أوحشتنا جدا ، شد ما اسمرت وجوهكم فلا خلاف الآن بينكما وبين إسماعيل ، بل أنت بيننا كأوروبى بين ملونين ، عما قليل يعود كل شىء إلى أصله ، كنا نتساءل لم لا تلوننا شمس

القاهرة ؟. منذا يجرؤ على التعرض لشمس القاهرة إلا من رام ضربة شمس !. ولكن ما سر هذه السمرة المكتسبة ؟.. أذكر أننا تلقينا تفسيرا لهذا فى بعض دروسنا ، أجل لعله فى الكيمياء ، لقد درسنا الشمس خلال علوم شتى كالجغرافيا الفلكية والكيمياء والطبيعة ، ففى أى من أولئك نجد تفسيرا لسمرة المصيف !. هذا سؤال متأخر عن أوانه لأننا انتهينا من الدراسة الثانوية !. إلينا إذن بأخبار القاهرة ، بل عليك أنت أن تحدثنا عن رأس البر ، وعلى حسن وإسماعيل أن يحدثانا بعدك عن الإسكندرية ، انتظروا فلكل وقت حديثه ..

لم يكن الكشك إلا مظلة خشبية مستديرة تقوم على عمود ضخم ، وأرضه رملية تحدق بها أصص الورد ، ويقتصر أثاثه على المائدة الخشبية والكراسى الخيزران ، وقد جلسوا وراء المائدة على هيئة نصف دائرة مولين وجوههم شطر الحديقة . بدوا سعداء باللقاء وكان الصيف يفرق بينهم فيما عدا حسن سليم وإسماعيل لطيف اللذين يصيفان عادة فى الإسكندرية ، ومضوا يتضاحكون لأقل سبب ، وأحيانا لمجرد تبادل النظر كأنما يجترون ذكريات مزاح ماضية . وكان الأصدقاء الثلاثة يرتدون قمصانا حريرية وبنطلونات رمادية . كمال وحده بدا فى بدلة رصاصية خفيفة ، إذ كان يعتبر رحلة العباسية ذات صفة رسمية على خلاف حيه الذى يجول فيه مكتفيا بلبس الجاكتة فوق الجلباب . كل شىء من حوله كان يخاطب قلبه فيهزه من الأعماق . هذا الكشك الذى تلقى فيه رسالة الحب ، وهذه الحديقة التى خصت وحدها بسره ، وهؤلاء الأصدقاء الذين يحبهم للصداقة ويحبهم مرة أخرى لاقترانهم بسيرة حبه ، كل شىء يخاطب حبه وقلبه ، يتساءل متى تجىء ؟، وهل يمكن أن تمضى الجلسة دون أن تقع عليها عيناه المشوقتان ؟، وعلى سبيل التعويض راح يطيل النظر إلى حسين شداد ما وسعه ذلك ، ولم يكن ينظر إليه بعين الصديق فحسب ، لأن أخوّته لمعبودته أضفت عليه سحرا من السحر وسرا من السر ، فبات يكن له — إلى الحب — إكبارا وتقديسا ودهشا . وكان حسين يشبه شقيقته إلى حد كبير بعينيه السوداوين وقامته الطويلة الرشيقة وشعره السبط العميق السواد ولفتاته وسكناته الجامعة بين السمو واللطافة ، فلم يكن ثمة فارق جوهرى بينهما إلا فى أنفه الأقنى الممتلىء وبشرته البيضاء التى غشيتها سمرة المصطاف . ولما كان كمال وحسين وإسماعيل من الناجحين فى امتحان البكالوريا ذلك العام — مع ملاحظة

أن الأولين كانا فى السابعة عشرة والأخير فى الحادية والعشرين ـــ فقد تحدثوا عن الامتحان وما تفرع عنه من شئون المستقبل ، وكان البادىء بالحديث إسماعيل لطيف ، وكان إذا تحدث تطاول بعنقه كأنما ليدارى قصر قامته وضآلة حجمه ـــ على الأقل بالقياس إلى أصدقائه الثلاثة ـــ غير أنه كان مدمج الخلق مفتول العضلات ، وفى نظرة عينيه الضيقتين الحادة الساخرة وأنفه المدبب الحاد وحاجبيه الكثيفين وفمه العريض القوى ما يكفى لتحذير من تحدثه نفسه بالتهجم عليه . قال :

ـــ نتيجتنا هذا العام مائة فى المائة ، لم يحصل شيء كهذا من قبل ـــ على الأقل ـــ فيما يخصنى أنا . كان ينبغى أن أكون فى السنة النهائية من التعليم العالى كحسن الذى دخل معى مدرسة فؤاد الأول فى يوم واحد وسن واحدة ، وقد سألنى أبى ساخرا لما رأى رقمى فى الجريدة بين الناجحين « ترى هل يمد الله فى عمرى حتى أراك من حملة الدبلوم !؟ » .

قال حسين شداد :

ـــ لست متأخرا إلى الحد الذى يبرر يأس والدك ..

قال إسماعيل ساخرا :

ـــ صدقت فقضاء عامين فى كل فصل ليس بالشيء الكثير ..

ثم موجها الخطاب إلى حسن سليم :

ـــ أما أنت فلعلك مشغول منذ الآن بما بعد الليسانس ؟

كان حسن سليم بالسنة النهائية بمدرسة الحقوق ، فأدرك أن إسماعيل لطيف يدعوه إلى إعلان رأيه فيما ينويه عقب الفراغ من الدراسة ، غير أن حسين شداد سبقه إلى الرد على إسماعيل قائلا :

ـــ لا داعى لأن يشغل نفسه ، سوف يحصل حقا على وظيفة فى النيابة أو فى السلك السياسى !

خرج حسن سليم عن هدوئه المتسم بالكبرياء ، ولاح فى وجهه الحسن الدقيق القسمات التحفز للنضال ، فتساءل متحديا :

ـــ من أين لى بما يجعلنى أطمئن إلى رأيك ؟!

وكان يعتز باجتهاده وذكائه ويريد الجميع أن يقروا له بهما ، ولم يكن أحد يمارى فى

ذلك ، ولكن لم يكن أحد كذلك ينسى أنه نجل سليم بك صبرى المستشار بمحكمة الاستئناف ، وإن تمتعه بهذه الأبوة ميزة يفوق أثرها كل ما للذكاء والاجتهاد من أثر ، بيد أن حسين شداد تحاشى ما يهيجه ، فقال :

ـــ فى تفوقك الضمان الذى تسأل عنه ..

ولم يتركه إسماعيل لطيف كى يستمتع بإطراء حسين له ، فقال :

ـــ وهناك والدك ، وهو فيما أعتقد أهم من التفوق بكثير ..!

ولكن حسن قابل الهجوم باستماتة غير متوقعة ، إما لأنه مل مناجزة إسماعيل الذى لم يكد يفترق عنه يوما طيلة اصطيافهما بالإسكندرية ، وإما لأنه بات يرى فى صاحبه مشاكسا « محترفا » لا يصلح أن يأخذ أقواله دائما مأخذ الجد . على أن رابطة الأصدقاء لم تكن تخلو من نقار جدلى يبلغ أحيانا حد الشغب دون أن يوهن من قوتها . تساءل حسن سليم وهو يرمق إسماعيل متهكما :

ـــ وأنت كيف انتهى سعى الساعين لك ؟

ضحك إسماعيل ضحكة عالية ، كشف عن أسنانه الحادة المصفرة من أثر التدخين الذى كان من أوائل رواده من تلاميذ الثانوى ، وقال :

ـــ نتيجة لا تسر ، لم تقبلنى الطب ولا الهندسة لنقص المجموع ، فلم يبق أمامى إلا التجارة والزراعة ، فاخترت أولاهما ..

لاحظ كمال فى تأثر كيف تجاهل صاحبه مدرسة المعلمين كأنما ليست فى الحسبان ، غير أنه وجد فى إيثاره لها ، مع قدرته على دخول الحقوق التى لا نزاع فى مكانتها ، وجد فى ذلك مثالية تعزَّى بها على حزنه ووحشته . ضحك حسين شداد ضحكته اللطيفة التى تجلو جمال ثغره وعينيه ، وقال :

ـــ آه لو اخترت الزراعة !، تصوروا إسماعيل فى حقل يقضى عمره بين الفلاحين ..!

قال إسماعيل بقناعة :

ـــ لا عليَّ من هذا لو كان الحقل فى عماد الدين ..

عند ذاك نظر كمال إلى حسين شداد متسائلا :

ـــ وأنت ؟

مد حسين بصره إلى بعيد متفكرا قبل أن يجيب ، فأتاح لكمال فرصة كى

يتوسمه ، شد ما تفتنه فكرة أنه شقيقها ، أى أن بينهما ما قام يوما بينه وبين خديجة وعائشة من مخالطة وألفة ، تصور يعز عليه أن يعتنقه ، لكنه يجالسها ويحادثها وينفرد بها ويلمسها ، يلمسها ؟! ويؤاكلها !. ترى كيف تتناول طعامها ؟، هل تتمطق ؟، هل تأكل الملوخية والمدمس مثلا ؟، ما أبعد هذا عن التصور أيضا !، المهم أنه شقيقها ، وأنه ـــ كمال ـــ يلمس يده التى تلمس يدها ، لو أتيح له أن يشم أنفاسه التى تماثل ولا شك أنفاسها ؟!، أجاب حسين شداد :

ـــ مدرسة الحقوق بصفة مؤقتة ..

ألا يحتمل أن يتخذ من فؤاد جميل الحمزاوى صديقا ؟، لم لا ؟،لا شك أن الحقوق مدرسة جليلة الشأن حقا ما دام حسين سيلتحق بها ، من المجازفة أن تحاول إقناع الناس بقيمة مثال معنوى ..

قال إسماعيل لطيف ساخرا :

ـــ لم أكن أعلم أن من الطلاب من يلتحق بمدرسة ما بصفة مؤقتة !، حدثنا عن هذا من فضلك ..

قال حسين شداد جادا :

ـــ جميع المدارس عندى سواء ، ليس فى هذه المدرسة أو تلك ما يجذبنى إليها ، حقا أريد أن أتعلم ، ولكننى لا أريد أن أعمل ، ولن أجد فى مدرسة من مدارسنا ما أبتغيه من علم لا يراد به عمل ، ولكننى لم أظفر فى بيتنا بشخص يوافقنى على رأيى ، ولا أرى مناصا من أن أجاريهم إلى حد ما ، وساءلتهم أى مدرسة تختارون ؟، فأجاب أبى : وهل يوجد غير الحقوق ؟، فقلت إذن لتكن الحقوق !

إسماعيل لطيف محاكيا لهجته وحركاته :

ـــ بصفة مؤقتة ..

ضحك عام ، ثم استطرد حسين شداد قائلا :

ـــ أجل بصفة مؤقتة أيها المشاكس ، فمن غير المستبعد إذا سارت الأمور على ما أشتهى أن أقطع دراستى المحلية كى أسافر إلى فرنسا ولو بحجة دراسة القانون فى معاهدها ، وهناك أنهل من منابع الثقافات بغير قيد ، وهنالك أفكر وأرى وأسمع ..

إسماعيل لطيف مصرًّا على محاكاة لهجته وحركاته ، وكأنما يتم ما ظن أن الآخر سكت عنه :

ـــ وأذوق وألمس وأشم ..!

واصل حسين شداد حديثه بعد فاصل ضحك قائلا :

ـــ ثق بأن مقصدى غير ما تحلم به !

صدقه كمال بكل قلبه بلا حاجة إلى دليل لا لأنه يكرمه عن شبهة الكذب فحسب ، ولكن لأنه يؤمن بأن الحياة التى يتطلع إلى الاستمتاع بها فى فرنسا خليقة « وحدها » باستهواء النفوس ، هيهات أن يدرك إسماعيل هذه الحقيقة على بساطتها ، لا هو ولا أضرابه ممن لا يؤمنون إلا بالأرقام والمظاهر . طالما أثار حسين أحلامه ، هذا حلم منها يمتاز بالرحابة والجمال ، حلم عامر بثمار الروح والفكر والسمع والبصر !! كم طاف بى فى نومى أو فى يقظتى ، ثم بعد شدة التطلع وطول السعى انتهى المطاف بى وبه إلى مدرسة المعلمين !! وسأل حسين :

ـــ أتعنى حقا ما قلت من أنك لا تريد أن تعمل ؟!

فقال حسين شداد وفى عينيه السوداوين الجميلتين نظرة حالمة :

ـــ لن أكون مضاربا فى البورصة كأبى ؛ لأنى لا أطيق حياة : العمل المتواصل جوهرها والمال غايتها ، ولن أكون موظفا ، لأن الوظيفة عبودية فى سبيل الرزق ، ورزقى موفور . أريد أن أحيا فى الدنيا سائحا ، أقرأ وأرى وأسمع وأفكر .، وأنتقل من جبل إلى سهل ومن سهل إلى جبل ..

قال حسن سليم معترضا ، وكان يرمقه طيلة الحديث بنظرة استخفاف داراها بتحفظه الأرستقراطى :

ـــ ليست الوظيفة وسيلة إلى الرزق دائما ، إنى مثلا فى غنى عن السعى إلى الرزق ، ولكن يهمنى بلا شك أن أشغل وظيفة سامية ، فإنه يجب على الإنسان أن يعمل ، وأن العمل السامى هدف يراد لذاته .

وقال إسماعيل لطيف ، مصدقا على قول حسن :

ـــ هذا حق ، الأعمال القضائية والدبلوماسية وظائف يتمناها أغنى الأغنياء (ثم ملتفتا إلى حسين شداد) لم لا تختار لنفسك وظيفة من هذه الوظائف وهى فى حدود طاقتك ..

وقال كمال مخاطبا حسين أيضا :

ـــ السلك السياسى حقيق بأن يهيىء لك العمل السامى والسياحى معا !

ولكن حسن سليم قال بلهجة ذات معنى :
ـــ إنه باب ضيق !
فقال حسين شداد :
ـــ للسلك السياسى مزايا رائعة بلا ريب ، إلا أنه فى الغالب وظيفة شرفية فلا يتعارض كثيرا مع رغبتى عن عبودية العمل ، وهو سياحة وفراغ يتيحان لى ما أحب من الحياة الروحية والجمالية ، ولكننى لا أظننى بالغه ، لا لأنه باب ضيق كما قال حسن ، ولكن لأنى أشك فى أنى سأواصل التعليم النظامى حتى نهايته ..
إسماعيل لطيف ، وهو يضحك متخابثا :
ـــ يغلب على ظنى أنك تريد فرنسا لأمور لا شأن لها بالثقافة ، وحسنا تفعل ..
ضحك حسين شداد وهو يهز رأسه سلبا ، ثم قال :
ـــ كلا أنت تفكر بأهوائك ، إن لرغبتى عن التعليم المدرسى أسبابا أخرى ، أولها : أننى غير مكترث لدراسة القانون ، ثانيا : أنه لا توجد مدرسة يمكن أن تمدنى بما أريد الإلمام به من شتى المعارف والفنون ، كالمسرح والتصوير والموسيقى والفلسفة . ما من مدرسة إلا وستشحن رأسك بالتراب كى تعثر فيه ـــ إن عثرت ـــ على ذرات من التبر ، فى باريس يتاح لك أن تشهد محاضرات فى شتى الفنون والمعارف دون تقيد بنظام أو امتحان ، إلى ما يتهيأ لك من الحياة السامية الجميلة ..
ثم مستطردا بصوت خافت ، وكأنه يخاطب نفسه :
ـــ وربما تزوجت هناك كى أقضى العمر سائحا فى عالمى الواقع والخيال !
لم يبد على وجه حسن سليم أنه يولى الحديث اهتماما جديا ، أما إسماعيل لطيف فرفع حاجبيه الكثيفين ، تاركا عينيه تفحصان عما يضطرب فى صدره من مكر وسخرية .. كمال وحده الذى بدا متأثرا متحمسا ، إنه يستشرف نفس الآمال مع شىء من تعديل لا يمس الجوهر ، لا تهمه السياحة ولا الزواج فى فرنسا ، ولكن من له بهذه المعارف التى لا تتقيد بنظام أو امتحان ؟. إنها أجدى بلا جدال من التراب الذى سيشحن به رأسه فى المعلمين كى يفوز فى النهاية بذرات من التبر ، باريس ؟!، غدت حلما جميلا منذ علم بأنها احتضنت عهدا غضا من عمر معبودته ، لا تزال تدعو حسين بسحرها ، وتفتن خياله هو بشتى وعودها ، كيف الشفاء من لوعة الآمال ؟.

قال بعد تردد وإشفاق :

ـــ يخيل إلى أن أقرب المدارس فى مصر إلى تحقيق ولو جزء يسير من رغبتك هى المعلمين العليا !

تحول إسماعيل لطيف نحوه فيما يشبه القلق ، وسأله :

ـــ ماذا اخترت أنت ؟، لا تقل مدرسة المعلمين !، رباه ، نسيت أن بك لوثة قريبة الشبه بلوثة حسين !.

ابتسم كمال ابتسامة عريضة كشفت عن مرونة منخريه العظيمين ، وقال :

ـــ التحقت بالمعلمين للسبب الذى ذكرت !..

فنظر حسين شداد إليه باهتمام ، ثم قال باسما :

ـــ لا شك أن ميولك الثقافية أتعبتك كثيرا قبل أن يقع اختيارك ..

فقال له إسماعيل لطيف بلهجة نمت عن الاتهام :

ـــ إنك مسئول لدرجة كبيرة عن توكيد ميوله هذه ، بل الحق أنك تتكلم كثيرا وتقرأ قليلا ، أما المسكين فيأخذ الأمر مأخذ الجد ويقرأ لحد العمى ، انظر إلى تأثيرك السيىء فيه كيف دفع به إلى المعلمين نهاية الأمر !..

استطرد حسين حديثه متجاهلا مقاطعة إسماعيل :

ـــ هل ثبت لديك أن فى المعلمين ما تود ؟!

قال كمال بحماس ، وقد انشرح صدره بأول صوت يتساءل عن مدرسته بلا احتقار أو استنكار :

ـــ حسبى أن تتاح لى دراسة الإنجليزية لأتخذ منها وسيلة ناجعة للاطلاع غير المحدود ، وإلى هذا فهناك فرصة طيبة ـــ فيما أظن ـــ لدراسة التاريخ والتربية وعلم النفس ..

فكر حسين شداد قليلا ، ثم قال :

ـــ عرفت كثيرا من المعلمين الذين خالطتهم عن كثب فى دروس الخصوصية ، لم يكونوا مثالا طيبا للرجل المثقف ، ولكن لعل النظام الدراسى العتيق هو المسئول عن ذلك ..

فقال كمال بحماس لم يفتر :

ـــ حسبى الوسيلة ، الثقافة الحقة تتوقف على الإنسان لا المدرسة !

وتساءل حسن سليم :
ـــ أتنوى أن تصير معلما ؟
ومع أن حسن طرح سؤاله بأدب ، فإن كمال لم يطمئن إليه كل الاطمئنان ، إذ أن التزامه الأدب كان طبعا مأثورا عنه فلا يزايله إلا عند الضرورة القصوى أو حيث يشرع غيره فى العراك ، وذلك نتيجة طبيعية لرزانته من ناحية ، ولتربيته الأرستقراطية النبيلة من ناحية أخرى ، فلم يكن من اليسير على كمال أن يعرف إن كان سؤال صاحبه يخلو حقا من الاستنكار أو الازدراء ، لذلك حرك منكبيه استهانة ، وقال :
ـــ لا مفر من ذلك ما دامت مصمما على تعلم ما أروم من العلم !
وكان إسماعيل لطيف يتفحص كمال من طرف خفى .. رأسه وأنفه ، وعنقه الطويل وقامته النحيلة ، وكأنما كان يتخيل أثر هذه الصورة فى التلاميذ عامة وفى أشقيائهم خاصة ، فما ملك أن غمغم :
ـــ تلك لعمرى كارثة !
أما حسين شداد ، فعاد يقول فى لطف وشى بميله إلى كمال :
ـــ الوظيفة شىء ثانوى عند ذوى الأهداف البعيدة ، على أنه لا ينبغى أن ننسى أن نخبة من نابهى مصر قد تخرجوا فى المدرسة ..
انقطع حديث المدرسة عند ذاك ، فساد الصمت ، وحاول كمال أن يلقى بروحه فى أحضان الحديقة ، غير أن الحديث ترك فى رأسه حرارة كان عليه أن ينتظر حتى تبترد ، وسنحت منه نظرة ، فرأى دورق الماء المثلوج على المائدة ، فخطرت له خاطرة قديمة طالما منته بالسعادة فى مثل ظرفه هذا ، أن يملأ كوبا ويشربه لعله يلمس بشفتيه موضعا منه يكون قد اتفق أن لمسته شفتاها وهى تشرب مرة ، فقام إلى المائدة ، وملأ من الدورق كوبا وشربه ، ثم عاد إلى مجلسه مركزا انتباهه فى نفسه وهو يترقب ، كأنما كان ينتظر ـــ فيما لو حالفه الحظ فأصاب الهدف ـــ أن يتغير شأنه ، أن تنبثق من روحه قوة سحرية لا عهد له بها ، أن ينتشى بنشوة إلهية يرقى بها فى معارج السماوات السعيدة ، ولكنه ، أجل !! ولكنه قنع فى النهاية بلذة المغامرة وبهجة الأمل ، ثم راح يتساءل فى قلق : متى تجىء ؟.. هل يمكن أن تلحق هذه الفترة الواعدة بأشهر الفراق الثلاثة الماضية ؟.. وعادت عيناه إلى الدورق ، فطافت

به ذكرى حديث قديم دار بينه وبين إسماعيل لطيف عن هذا الدورق أو بالحرى عن الماء المثلوج الذى لا يقدم شىء خلافه فى سراى شداد !. وكان إسماعيل قد أشار ـــ وهو بصدد الحديث عن ذلك ـــ إلى النظام الاقتصادى الدقيق الذى تخضع له السراى من السطح إلى البدروم ، وتساءل : أليس ذلك نوعا من البخل ؟، غير أن كمال أبى أن توصم أسرة معبودته بما يشين ، فدفع عنها التهمة مستشهدا ببذخها وخدمها وحشمها والسيارتين اللتين تملكهما : المنيرفا ، والفيات التى يكاد يختص بها حسين ، فكيف تتهم بعد ذلك بالبخل ؟!، هنالك قال إسماعيل ـــ ولم يكن يعوزه طول اللسان ـــ إن البخل أنواع ، وإنه لما كان شداد بك مليونيرا بكل معنى الكلمة ، فإنه رأى لزاما عليه أن يحيط نفسه بمظاهر الجاه ، ولكنه اكتفى بما يعد فى « بيئته » من الضروريات ، أما القاعدة المتبعة التى لا يحيد عنها فرد من الأسرة ، فهى ألا يتسامح فى إنفاق مليم واحد فى غير موضعه وبلا موجب .. الخدم يتناولون أدنى الأجور ويأكلون أقل الطعام ، وإن كسر أحدهم طبقا خصم ثمنه من مرتبه . حسين شداد نفسه فتى الأسرة الوحيد لا يعطى مصروفا أسوة بأمثاله من الأبناء أن يتعود بعثرة النقود بلا ضرورة ، أجل ربما ابتاع له أبوه كل عيد عددا من الأسهم أو السندات ، ولكنه لا يعطيه قرشا فى يده .. أما زوار النجل العزيز ، فلا يقدم لهم إلا الماء المثلوج !.. أليس هذا بخلا ، وإن يكن بخلا أرستقراطيا ؟!. ذكر كمال ذلك الحديث وهو ينظر إلى الدورق ، وتساءل كما تساءل قديما فى ارتياع : أمن الممكن أن ترتقى إلى أسرة معبودته هنة من الهنات ؟. أبى قلبه أن يصدق هذا إباء من ينزه الكمال عن المآخذ وإن هانت، بيد أنه خيل إليه أن ثمة شعورا بما يشبه الارتياح يعابثه هامسا فى أذنه « لا تفزع .. أليس هذا النقص إن صح مما ينزلها ولو درجة إليك ، أو يرفعك ولو درجة إليها ؟! » ، ومع أنه وقف من أقوال إسماعيل موقف التحفظ والارتياب ، فإنه وجد نفسه يعيد النظر وهو لا يدرى فى « رذيلة » البخل ، فيقسمها إلى نوع دنىء وآخر ليس إلا سياسة حكيمة تمد الحياة الاقتصادية بأسس بارعة من النظام والدقة ، فمن الإسراف كل الإسراف تسميته بخلا أو اعتباره رذيلة ، كيف لا ، وهو لا يتعارض مع تشييد القصور واقتناء السيارات واتخاذ كافة مظاهر البذخ والبلهنية ؟. كيف لا ، وهو يصدر عن نفوس سامية مطهرة من الخبائث والضعة ؟!.

استيقظ من أفكاره على يد إسماعيل لطيف وهى تقبض على ذراعه وتهزه ، ثم سمعه وهو يقول مخاطبا حسن سليم :

ـــ حذار ، ها هو مندوب الوفد يرد عليك !

أدرك من فوره أنهم طرقوا حديث السياسة وهو عنهم ساه ، حديث السياسة .. ما أشقه وما ألذه ، دعاه إسماعيل « مندوب الوفد » فلعله يتهكم ، فليتهكم ما شاء له أن يتهكم ، الوفد عقيدة تلقاها عن فهمى واقترنت فى قلبه باستشهاده وتضحيته . نظر إلى حسن سليم ، وقال باسما :

ـــ أيها الصديق الذى لا تبهره إلا العظمة ، ماذا قلت عن سعد ؟

لم يبد على حسن سليم أنه اكترث لحديث العظمة ، ولم يكن كمال يتوقع غير ذلك ، فطالما صاوله حتى وقف على رأيه العنيد المتعجرف ـــ ولعله رأى أبيه المستشار أيضا ـــ فى سعد زغلول الذى يكاد هو من حب وإخلاص أن يقدسه . لم يكن سعد زغلول إلا مهرجا شعبيا فى نظر حسن سليم ، وكان يردد هذا الوصف فى تقزز وازدراء مثيرين خارقا المعتاد من أدبه ودماثته ، ثم يمضى فى السخرية من سياسته ومأثوراته البلاغية ، منوها فى الوقت نفسه بعظمة عدلى وثروت ومحمد محمود وغيرهم من الأحرار الدستوريين الذين لم يكونوا فى نظر كمال إلا « خونة » أو إنجليز مطربشين !. أجاب حسن سليم بهدوء :

ـــ كنا نتحدث عن المفاوضات التى لم تستمر إلا ثلاثة أيام ، ثم قطعت !

فقال كمال بحماس :

ـــ يا له من موقف وطنى جدير بسعد حقا ، طالب بحقوقنا الوطنية مترفعا عن المساومة ، ثم قطع المفاوضة حين وجب قطعها ، وقال قولته الخالدة : « لقد دعونا إلى هنا لكى ننتحر ، ولكننا رفضنا الانتحار ، وهذا كل ما جرى » .

قال إسماعيل لطيف ، وكان يجد فى السياسة مادة للعبث :

ـــ لو قبل أن ينتحر لتوّج حياته بأجل خدمة يمكن أن يؤديها إلى بلاده !

انتظر حسن سليم حتى فرغ إسماعيل وحسين من الضحك ثم قال :

ـــ ماذا أفدنا من هذه المأثورة ؟. ليست الوطنية عند سعد إلا نوعا من البلاغة التى تستهوى العامة ، « لقد دعونا إلى هنا لكى ننتحر الخ » ، « يعجبنى الصدق فى القول الخ الخ » !.. كلام فى كلام ، هنالك رجال لا يتكلمون ولكنهم

يعملون فى صمت ، وقد حققوا للوطن الفائدة الوحيدة التى جناها فى تاريخه الحديث ..

احتدم الغيظ فى قلب كمال ، ولولا ما يكنّه لحسن من احترام لشخصيته وسنه لانفجر ، وعجب كيف يتابع « شاب » مثله أباه — وهو من جيل قديم على أى حال — فى انحرافه السياسى !

— أنت تقلل من شأن الكلام كأنه لا شىء ، الحق أن أخطر ما تمخض عنه تاريخ البشرية من جلائل الأمور يمكن إرجاعه فى النهاية إلى كلمات ، الكلمة العظيمة تتضمن الأمل والقوة والحقيقة ، نحن نسير فى الحياة على ضوء كلمات ، على أن سعد ليس صانع كلمات فحسب ، إن سجله حافل بالأعمال والمواقف !!

تخلل حسن شداد شعره الفاحم بأنامله الطويلة الرشيقة وهو يقول :

— أوافق على ما قلت عن قيمة الكلمة بصرف النظر عن سعد ..!

لم يعبأ حسن بمقاطعة حسين شداد ، فقال مخاطبا كمال :

— إن الأمم تحيا وتتقدم بالعقول والحكمة السياسية والسواعد ، لا بالخطب والتهريج الشعبى الرخيص ..

نظر إسماعيل لطيف إلى حسين شداد ، وهو يتساءل ساخرا :

— ألا ترى أن من يتعب نفسه فى الكلام عن إصلاح هذا البلد كالنافخ فى قربة مثقوبة ؟

التفت كمال إلى إسماعيل ليخاطب من وراء حسن بما تردد عن مخاطبته وجها لوجه ، قال منفسا عن غيظه :

— أنت لا تهمك السياسة فى شىء ، لكن مزاحك يفصح أحيانا عن موقف « قلة » من المحسوبين على المصريين كأنك ناطق بلسانهم ، تراهم يائسين من نهوض الوطن ، يأس الاحتقار والتعالى لا يأس الطموح والتطرف ، ولولا أن السياسة مطية لأطماعهم لاعتزلوها كما تفعل أنت !

ضحك حسين شداد ضحكته اللطيفة ، ومد يده إلى ذراع كمال ، فشد عليها قائلا :

— أنت مجادل عنيد ، يعجبنى حماسك وإن لم أشاركك الإيمان به ، على أننى كما تعلم محايد ، لا من الوفديين ولا من الدستوريين ، لا استهانة كإسماعيل لطيف ،

ولكن لاعتقادى بأن السياسة تفسد الفكر والقلب ، ينبغى أن تعلو عليها حتى تتراءى لك الحياة ميدانا لانهائيا للحكمة والجمال والتسامح ، لا معترك صراع وكيد ..

ارتاح إلى صوت حسين فسكنت فورته ، كان يطرب لموافقته إذا وافقه على رأى ، ويتسع صدره لمعارضته إذا عارضه فيه ، ومع أنه كان يشعر بأن تبريره للحياد ما هو إلا اعتذار عن ضعف وطنيته ، فإنه لم يحنق عليه لذلك ولم ير فيه نقيصة ولكن وسعها عفوه وحلمه وتسامحه ، قال يجاريه :

ــ الحياة هى هذا كله ، هى الصراع والكيد والحكمة والجمال ، فأى وجه تتجاهله من وجوهها تفقد به فرصة لاستكمال فهمك لها وقدرتك على التأثير فيها بما يوجهها نحو الأحسن ، لا تحتقر السياسة أبدا ، فالسياسة هى نصف الحياة ، أو هى الحياة كلها إذا عددت الحكمة والجمال مما فوق الحياة ..

حسين شداد كالمعتذر :

ــ فيما يتعلق بالسياسة ، أصارحك بأننى لا أثق فى جميع أولئك الرجال ..

سأله كمال كالمتودد :

ــ ماذا نزع ثقتك من سعد ؟

ــ بل دعنى أسألك عما يجعلنى أضع ثقتى فيه !.. سعد وعدلى وعدلى وسعد ، ما أسخف هذا كله ، على أنه إذا كان سعد وعدلى سيين عندى فى الناحية السياسية فإننى لا أراهما كذلك كرجلين ، إذ لا يمكن أن أتجاهل ما يمتاز به عدلى من كريم الأصل وعظيم الجاه والثقافة ، أما سعد ــ وإياك أن تغضب ــ فما هو إلا أزهرى قديم !..

آه ، شد ما يحز فى نفسه أن يند عن حسين أحيانا ما يشى بتعاليه عن الشعب فيشعر وهو من الحزن فى نهاية كأنه يتعالى عنه هو أو ــ وهو الأدهى والأمر ــ كأنه ينطق بلسان الأسرة جميعا ، أجل ، إنه إذا حادثه أشعره كأنما يتكلم عن شعب غريب « عنهما » معا ، ولكن أكان ذلك عن خطأ فى التصوير أم عن مجاملة ؟. ومن عجب أن موقف حسين هذا لم يغضبه من ناحية دلالته العامة بقدر ما أحزنه من ناحية دلالته الخاصة به ، فلم يستثر عداوته الطبقية ولا إحساسه الوطنى .. انهزمت هذه المشاعر حيال بشاشة وضيئة تنم عن الصراحة وحسن

الطوية ، وتراجعت أمام حب لا تنال منه الآراء والأحداث ، على الضد من هذا كان شعوره حيال موقف حسين شداد منه ، فكان ـــ رغم صداقتهما ـــ يهيج غضبه لوطنه ـــ ولم يشفع له عنده تأدبه فى الخطاب وتحفظه فى إظهار مشاعره ، بل لعله آنس فيهما « حكمة » تضاعف من مسئوليته وتؤكد تعصبه الأرستقراطى الموجه ضد الشعب ، قال مخاطبا حسين :

ـــ أفى حاجة أنا أن أذكرك بأن العظمة شىء غير العمامة والطربوش أو الفقر والغنى ،. يبدو لى أن السياسة تضطرنا أحيانا إلى مناقشة البديهيات !..

قال إسماعيل لطيف :

ـــ إن ما يعجبنى فى الوفديين ـــ أمثال كمال ـــ هو شدة تعصبهم !

ثم وهو يجيل بصره فى الجالسين :

ـــ أما ما يسوءنى منهم ، فهو شدة تعصبهم أيضا !

قال حسين شداد ضاحكا :

ـــ أنت سعيد الحظ ، لأنك مهما أبديت فى السياسة من رأى ، فلن يعترض سبيلك معقب ..!

هنا سأل حسن سليم حسين شداد قائلا :

ـــ تزعم أنك تربأ بنفسك عن السياسة ، فهل تصر على ذلك حتى إذا تعلق الأمر بالخديو السابق ؟

اتجهت الأعين نحو حسين فى تحد باسم لما هو معروف عن تشيع والده شداد بك للخديو السابق ، الأمر الذى أبعد من أجله أعواما قضاها فى باريس ، ولكن حسين قال فى غير مبالاة :

ـــ لا تعنينى هذه الأمور فى كثير أو قليل ، كان والدى ولا يزال من رجال الخديو ، ولكننى لست مطالبا باعتناق آرائه ..

سأله إسماعيل لطيف ، وفى عينيه الضيقتين بريق ضاحك :

ـــ أكان والدك من الذين يهتفون « الله حى .. عباس جى » ؟

فقال حسين شداد ضاحكا :

ـــ لم أسمع عن هذا الذكر إلا منكم ، والحق الذى لا ريب فيه ، أنه لم يعد بين أبى وبين الخديو إلا الصداقة والوفاء ، وفضلا عن ذلك فليس ثمة حزب ـــ كما

تعلمون ـــ يدعو اليوم إلى عودة الخديو ..

قال حسن سليم :

ـــ أمسى الرجل وعهده فى ذمة التاريخ ، الحاضر يمكن تلخيصه فى كلمتين ، وهما ، أن سعد يأبى أن يقوم فى مصر من يتكلم باسمها غيره ولو كان خير الرجال وأحكمهم !

لم يكد يتلقى الضربة كمال حتى جاوبه قائلا :

ـــ الحاضر فى كلمة واحدة ، أن ليس فى مصر من يتكلم باسمها إلا سعد ، وأن التفاف الأمة حوله جدير فى النهاية بأن يبلغ بها ما نرجو من الآمال ..

وشبك ذراعيه على صدره ، ومد ساقيه حتى مس طرف حذائه رجل المائدة ، وهم بالاسترسال فى حديثه لولا أن جاءهم من الوراء صوت غير بعيد يتساءل « ألا تريدين يا بدور أن تحيى أصدقاءك القدماء ؟ » فانعقد لسانه ، ووثب قلبه وثبة عنيفة رجت صدره ربما أفزعه أول الأمر وآلمه ، وفى أسرع من لمعان البرق استغرقته سكرة طاغية من السعادة كاد يغمض لها عينيه من شدة التأثر ، ثم وجد أن كل خاطرة تنبض بها نفسه قد اتجهت صوب السماء ، قام مع الأصدقاء كما قاموا ، واستدار معهم إلى الوراء ، فرأى على بعد خطوة من الكشك عايدة واقفة ممسكة بيد بدور شقيقتها الصغرى ذات الأعوام الثلاثة ، وهما يتطلعان إليهم بأعين هادئة باسمة .. ها هى ذى بعد انتظار ثلاثة أشهر أو يزيد ، ها هو « الأصل » الذى تملأ « صورته » روحه وجوارحه ويقظته ، ونومه ، ها هى قائمة أمام عينيه شاهدا على أن الألم الذى لا حد له والسرور الذى لا وصف له واليقظة المحرقة للنفس والحلم المدوم فى السماء ، إن كل أولئك ربما رجعت فى آخر الأمر إلى آدمى لطيف تترك قدماه انطباعاتهما على أرض الحديقة !. ورنا إليها فجذب مغناطيسها شعوره كله حتى سلبه الإحساس بالزمان والمكان والأناسى والنفس ، فعاد كأنه روح مجردة تسبح فى فراغ نحو معبودها .. على أن إدراكه لها هى نفسها لم يكن حسيا بقدر ما كان روحيا ، تمثل فى نشوة ساحرة وغبطة شادية وسبحة عالية ، بينا وهنت منه الرؤية أو تلاشت ، كأن قوة انفعاله الروحى استأثرت بكل حيويته فغودرت حواسه وقواه العاقلة والمدركة والملاحظة فى سبات أشرف به على نوع من الفناء ، لذلك كانت دائما أطوع لذاكرته منها إلى حواسه ، لا يكاد يرى منها وهو فى محضرها شيئا ،

ولكنها تتراءى فيما بعد فى ذاكرته بقامتها الهيفاء ووجهها البدرى الخمرى وشعر عميق السواد مقصوص « ألا جرسون » ذى قصة مسترسلة على الجبين كأسنان المشط وعينين ساجيتين تلوح فيهما نظرة لها هدوء الفجر ولطفه وعظمته ، كان يرى هذه الصورة بذاكرته لا بحواسه كالنغمة الساحرة نفنى فى سماعها فلا نذكر منها شيئا حتى تفاجئنا مفاجأة سعيدة فى اللحظات الأولى من الاستيقاظ أو فى ساعة انسجام ، فتتردد فى أعماق الشعور فى لحن متكامل . وتساءلت أحلامه وأمانيه :- ترى هل تغير من طريقتها المألوفة فتمد يدها للمصافحة فيلمسها ولو مرة فى الحياة ؟. لكنها حيتهم بابتسامة وتحنية من رأسها ، وهى تتساءل بذلك الصوت الذى يزرى بأحب الألحان إليه :

ـــ كيف حالكم جميعا ؟

فاستبقت الأصوات إليها بالتحية والشكر والتهنئة على سلامة العودة ، عند ذاك عبثت أناملها الرشيقة برأس بدور وهى تقول لها :

ـــ صافحى أصدقاءك !

فثنت بدور/شفتيها داخل فيها وعضت عليهما وهى تردد عينيها بينهم فى حياء حتى استقرتا على كمال ، فابتسمت وابتسم !. قال حسين شداد ، وكان على علم بما بين الطفلة وكمال من مودة :

ـــ إنها تبتسم لمن تحبه !

ـــ أتحبين هذا حقا ؟ (ثم وهى تدفعها نحوه) إذن سلمى عليه ..

مد لها كمال يديه متورد الوجه من السرور ، فأقبلت نحوه ، فرفعها بين يديه حتى أقرها فى حضنه ، وراح يقبل خديها فى حنان وتأثر شديدين ، كان بهذا الحب سعيدا فخورا ، ليست التى بين يديه إلا فلذة من جسد الأسرة ، فهو يضم الكل إذ يضم الجزء إلى صدره ، هل أمكن اتصال العبد بمعبوده إلا عن وساطة كهذه الوساطة ؟.. والسحر كل السحر فى هذا الشبه الغريب بين الطفلة وشقيقتها ، كأن المطمئنة إلى صدره عايدة نفسها فى طور من أطوار حياتها الماضية ، كانت يوما مثل بدور سنا وحجما وسجودا فتأمل !.. فليهنأه هذا الحب الطاهر .. ليسعد بعناق جسم تعانقه هى .. وبتقبيل وجنة تقبلها هى .. وليحلم حتى يشرد منه العقل والقلب . إنه يدرى لم يحب بدور ولم يحب حسين ولم يحب القصر وحديقته

وخدمه ، إنه يحبها جميعا إكراما لعايدة ، أما الذى لا يدريه فهو حب عايدة نفسها !.. رددت عايدة عينيها بين حسن سليم وإسماعيل لطيف ، ثم سألتهما :

ــ كيف وجدتما الإسكندرية ؟

فقال حسن :

ــ رائعة !..

على حين تساءل إسماعيل :

ــ ماذا يجذبكم إلى رأس البر دواما ؟

فقالت بصوت رخيم مشربة نبراته بعذوبة موسيقية :

ــ صيفنا مرات فى الإسكندرية ، ولكن الاصطياف لا يطيب لنا إلا فى رأس البر ، هنالك الهدوء والبساطة وألفة لا تجدها إلا فى بيتك !

فقال إسماعيل ضاحكا :

ــ من سوء الحظ أن الهدوء لا يطيب لنا ..

ما أسعده بهذا المنظر .. هذا الحديث .. هذا الصوت ، تأمل أليست هذه هى السعادة ؟!. فراشة كنسمة الفجر تقطر ألوانا بهيجة وترشف رحيق الأزاهر .. هذا أنا ، لو يدوم هذا الموقف إلى الأبد !..

قالت عايدة :

ــ كانت رحلة ممتعة ، ألم يحدثكم حسين عنها ؟

قال حسين بلهجة انتقادية :

ــ بل كانوا يتناقشون فى السياسة !

فالتفتت ناحية كمال قائلة :

ــ هنا شخص لا يحلو له إلا حديثها ..

من عينيها نظرة تلقى إليك كالرحمة ، صفاؤها يجلو روحا ملائكيا ، بعثت كما يبعث عبّاد الشمس فى ضوئها المشرق ، لو يدوم هذا الموقف إلى الأبد !..

ــ لم أكن المسئول عن إثارة المناقشة اليوم ..

فقالت باسمة :

ــ لكنك اغتنمت الفرصة ..

ابتسم فى تسليم ، وعند ذاك حولت عينيها إلى بدور هاتفة :

ـــ أتنوين أن تنامى بين ذراعيه !.. كفاك سلاما ..

غلب الحياء بدور ، فدفنت رأسها فى صدره ، فجعل يربت على ظهرها فى حنان ، غير أن عايدة توعدتها قائلة :

ـــ إذن سأتركك وأرجع وحدى ..

فرفعت بدور رأسها ومدت لها يدها وهى تغمغم « لا » ، فقبلها كمال وأنزلها إلى الأرض ، فجرت إلى عايدة وقبضت على يدها ، ألقت عايدة عليهم نظرة شاملة ثم لوحت بيدها تحية وذهبت من حيث أتت . عادوا إلى مقاعدهم فواصلوا الحديث كيفما اتفق ، هكذا كانت تقع زيارات عايدة فى كشك الحديقة ، مفاجأة سعيدة قصيرة ولكنه بدا قانعا ، وشعر بأن تصبره طيلة أشهر الصيف لم يذهب هدرا ، لم لا ينتحر الناس ضنا بالسعادة كما ينتحرون فرارا من الشقاء ؟، ليس من الضرورى أن تسيح كما يود حسين أن يسيح كى تلقى متع الحواس والعقل والروح ، فمن الجائز أن تفوز بكل أولئك فى لحظة خاطفة دون أن تبرح مكانك !، من أين لبشر أن يؤتى القدرة على إحداث هذا كله ؟! أين فورة السياسة وحرارة الجدل واحتدام الخصام وتصادم الطبقات ؟.. ذابت كلها وتوارت تحت نظرة من عينيك يا معبودتى ، ما الفاصل بين الحلم والحقيقة وفى أيهما ترانى أهيم الساعة ؟

ـــ موسم الكرة سيبدأ عما قريب ..

ـــ كان الموسم الماضى موسم الأهلى دون شريك !

ـــ هزم المختلط بالرغم من أن فريقه يضم أبطالا أفذاذا ..

انبرى كمال للدفاع عن المختلط ـــ كما دافع عن سعد ـــ صادًّا عنه هجمات حسن سليم . كان أربعتهم من لاعبى الكرة على تفاوت فى الحذق والحماس ، فكان إسماعيل أمهرهم إلى حد أنه برز بينهم كالمحترف بين الهواة ، على حين كان حسين شداد أضعفهم ، أما كمال وحسن فكانا بين ذلك ، وقد اشتدت المناظرة بين كمال وحسن ، ذاك يرجع هزيمة المختلط إلى سوء الحظ وهذا يردها إلى تفوق لاعبى الأهلى الجدد .. واستمر الجدل دون أن ينزل أحدهما عن رأيه . تساءل كمال : لم يجد نفسه دائما فى الجانب المضاد للجانب الذى يقف فيه حسن سليم ؟، الوفد الأحرار ، المختلط الأهلى ، حجازى مختار ، وفى السينما يفضل شارلى شابلن فيفضل الآخر ماكس لندر !

غادر المجلس قبيل المغيب ، وفيما هو يسير فى الممر الجانبى المفضى إلى الباب الخارجى إذ سمع صوتا يهتف :

ــ ها هو ذا ..

رفع رأسه مسحورا فرأى عايدة فى إحدى نوافذ الدور الأول ، مجلسة بدور على حافة النافذة بين يديها وهى تشير لها إليه ، وقف تحت النافذة مباشرة مرفوع الرأس ، يتطلع بوجه باسم إلى الطفلة التى لوحت له بيدها الصغيرة ، ويلمح بين لحظة وأخرى إلى الوجه الذى استقرت فى هيئته ورموزه آماله فى الحياة وما بعد الحياة ، وقلبه يتلاطم بين الضلوع سكرا ، لوحت له بدور بيدها مرة أخرى ، فسألتها عايدة :

ــ تذهبين إليه ؟

حنت الصغيرة رأسها بالإيجاب ، فضحكت عايدة من هذه الرغبة التى لن تتحقق ، على حين مضى هو يتوسمها متشجعا بضحكاتها ــ غارقا بروحه فى حور عينيها وملتقى حاجبيها مسترجعا صدى ضحكتها المترعة ونبرات صوتها الدافىء حتى اضطربت أنفاسه من وجد وهيام ، ولما كان الموقف يملى عليه أن يتكلم ، فقد سأل معبودته وهو يشير إلى محبوبته الصغيرة :

ــ هل ذكرتنى فى المصيف ؟

قالت عايدة وهى تتراجع برأسها قليلا :

ــ سلها هى ، لا شأن لى بما بينك وبينها !

ثم مستدركة قبل أن ينبس هو بكلمة :

ــ هل ذكرتها أنت ؟

آه ، موقفك فوق السطح بين مريم وفهمى ، قال بحرارة :

ــ لم تغب عن ذاكرتى يوما واحدا ..

نادى عند ذاك صوت من داخل القصر فاعتدلت عايدة فى وقفتها ورفعت بدور بين يديها ، ثم قالت معلقة على كلامه وهى تهم بالذهاب :

ــ يا له من حب عجيب !

وغابت عن النافذة ..

١٥

لم يبق من رواد مجلس القهوة إلا أمينة وكمال ، وحتى كمال كان يبرحه عند الأصيل إلى الخارج فتلبث الأم بمفردها أو تدعو أم حنفي إلى مؤانستها حتى يحين وقت النوم . وكان ياسين قد خلف وراءه فراغا ، ومع أن أمينة حرصت دائما على ألا تعود إلى ذكراه فإن كمال شعر لغيابه بوحشة غاضت أبهج ما كان يجد فى مجلس القهوة من متعة . وكانت القهوة ـــ قديما ـــ شراب المجلس الذى يجتمع حوله الأبناء للسمر . فانقلب اليوم ـــ عند الأم ـــ كل شيء فيه ، فأسرفت فى حسوها إسرافا وهى لا تدرى حتى صار صنع القهوة وحسوها سلوة وحدتها ، فربما احتست خمسة أو ستة ـــ وأحيانا عشرة ـــ فناجيل تباعا ، وكان كمال يتابع إفراطها بقلق ويحذرها من عواقبه ، فترد عليه بابتسامة كأنما تقول له « وماذا أفعل إذا لم أشرب ؟ » ثم تقول له بلهجة الواثق المطمئن « لا ضرر من القهوة » ... جلسا متقابلين ، هى على الكنبة الفاصلة بين حجرتى النوم والمائدة ، وهو على الكنبة المتوسطة لحجرتى نومه ومكتبه ، وكانت عاكفة على المجمرة التى دفنت الكنجة حتى نصفها فى جمراتها ، وكان صامتا شارد النظرة ، وفجأة سألته :

ـــ فيم تفكر يا ترى ؟. دائما ترى وكأنك مشغول الفكر بأمر ذى بال .

آنس من صوتها ما يشبه العتاب ، فقال :

ـــ العقل يجد دائما ما يشغله !

فرفعت إليه عينيها الصغيرتين العسليتين كالمتسائلة ، ثم قالت فى شيء من الحياء :

ـــ مضى زمن كنا لا نجد وقتا يتسع لحديثنا !

حقا ؟، ذلك ماض مضى ، عهد الدروس الدينية وقصص الأنبياء والشياطين ، عهد تعلقه بها لحد الجنون ، انقضى ذلك العهد ، فيم يتحدثان اليوم ؟، إلا تكن دردشة لا معنى لها فلا وجه للكلام على الإطلاق ، ابتسم كأنما يعتذر بابتسامته عن صمته السابق واللاحق معا ، ثم قال :

ـــ نحن نتكلم كلما وجدنا للكلام موضوعا .

فقالت برقة :

ـــ ليس للكلام حدود لمن أراد أن يتكلم ، ولكنك تبدو غائبا دائما أو كالغائب ..

ثم بعد تفكير :

ـــ أنت تقرأ كثيرا ، فى عطلتك تقرأ كما تقرأ فى وقت دراستك ، لم تستوف يوما حظك من الراحة ، أخاف أن تكون أتعبت نفسك أكثر مما ينبغى ..

فقال كمال بلهجة دلت على أنه لم يرحب بهذا التحقيق :

ـــ اليوم طويل جدا ، وقراءة ساعات لا يمكن أن تتعب إنسانا ، ليست إلا نوعا من التسلية وإن تكن تسلية مفيدة ..

فقالت بعد تردد :

ـــ أخاف أن تكون القراءة سبب ما يبدو عليك كثيرا من الصمت والشرود ...

كلا ليست القراءة ، القراءة ملاذ من التعب لو تعلمين ، شىء آخر يشغل عقله طيلة الوقت ولا يسلم منه وقت القراءة نفسه ، شىء لا علاج له لا عندها ولا عند غيرها من البشر ، إنه مرض قلب يتعبد حائرا ولا يدرى ماذا وراء عنائه يروم !.

قال بمكر :

ـــ القراءة كالقهوة لا ضرر منها !، ألا تحبين أن أصير « عالما » كجدى ؟

فشاعت البهجة والفخار فى الوجه المستطيل الشاحب ، وقالت :

ـــ بلى ، إنى أود ذلك بكل قلبى ، ولكننى أحب أن أراك دائما منشرح الصدر ..

قال باسما :

ـــ إنى منشرح الصدر كما تحبين ، فلا تشغلى البال بمحض أوهام .

كان يلاحظ أن رعايتها له ازدادت فى السنوات الأخيرة أكثر مما ينبغى ، وأكثر مما يود ، وأن تعلقها به وحدبها عليه وإشفاقها مما يضره ـــ أو مما تتوهم أنه يضره ـــ باتت شغلها الشاغل إلى حد ضايقه واستفزه للذود عن حريته وكرامته ، بيد أنه لم تغب عنه أسباب هذا التطور الذى بدأ عقب مصرع فهمى وابتلائها بفقده ، فلم يجاوز أبدا فى ذوده عن حريته حدود اللطف والأدب :

ـــ يسرنى أن أسمع هذا منك وأن يكون حقا وصدقا ، لست أبغى إلا

سعادتك ، ولقد دعوت لك اليوم فى سيدنا الحسين دعاء أرجو أن يمن الله باستجابته !

ـــ آمين ..

ونظر إليها وهى ترفع الكنبجة تملأ فنجانها للمرة الرابعة ، فانفرج ركنا فيه عن ابتسامة خفيفة .. ذكر كيف كانت زيارة الحسين لديها أمنية فى حكم المستحيل ، ها هى اليوم تزوره كلما زارت القرافة أو السكرية ، ولكن ما أفدح الثمن الذى دفعته نظير هذه الحرية الضئيلة !، هو نفسه له أمانيه التى فى حكم المستحيل فأى ثمن تقتضيه كى تتحقق ؟، ألا إن أى ثمن وإن جل ـــ يهون فى سبيل ذلك ، عاد يقول ضاحكا ضحكة مقتضبة :

ـــ إن لزيارة الحسين ذكريات لا تنسى ..

تحسست ترقوتها بيديها ، وهى تبتسم قائلة :

ـــ وأثر باق لا يزول ..

فقال كمال فى شىء من الحماس :

ـــ لست اليوم حبيسة البيت كما كنت قديما ، أصبح من حقك أن تزورى خديجة وعائشة أو سيدنا الحسين كلما أردت ، تصورى أى حرمان كنت تمنين به نفسك لو لم يفك أبى قيودك !

رفعت إليه عينيها فيما يشبه الارتباك أو الخجل ، كأنما كبر عليها أن تذكر بامتياز نالته نتيجة لشكلها ، ثم أطرقت فى وجوم ولسان حالها يقول « ليتنى بقيت كما كنت وبقى لى فقيدى » ، غير أنها تحاشت الإفصاح عما جاش به صدرها إشفاقا من تكدير صفوه ، وقنعت بأن تقول وكأنها تعتذر عما حظيت به من حرية :

ـــ ليس خروجى بين حين وآخر فرجة أستمتع بها ، إنى أزور الحسين لأدعو لك ، وأزور أختيك لأطمئن عليهما ولأحل مشكلات لا أدرى من كان غيرى يحلها !

فابتدره المشكلات التى تعنى ، ولما كان يعلم أنها زارت السكرية اليوم ، فقد تساءل :

ـــ هل من جديد فى السكرية ؟

قالت وهى تتنهد :

ـــ العادة ..!

هز رأسه أسفا ، وهو يبتسم قائلا :

ـــ مخلوقة للنقار ، هذه هى خديجة ..

قالت أمينة بحزن :

ـــ قالت لى حماتها : إن أى محادثة معها مخاطرة غير محمودة العواقب ..

ـــ الظاهر أن حماتها ـــ نفسها ـــ قد خرفت !.

ـــ لها من الكبر أعذار ، ولكن ما عذر أختك ؟

ـــ ترى آآثرتها على الحق أم آثرت الحق عليها ؟

وضحك ضحكة ذات مغزى ، فتنهدت أمينة مرة أخرى ، وقالت :

ـــ أختك حامية الطبع ، وسرعان ما تضيق حتى بالنصيحة الخالصة ، ويا ويلى إذا جاملت حماتها مراعاة لسنها ومكانتها ، هنالك تسألنى وعيناها تحمارّان « أنت معى أم عليّ ؟ » ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، معى أم عليّ !. هل نحن فى حرب ياابنى ؟. ومن الغريب أن يكون الحق أحيانا على حماتها ولكنها تتمادى فى الخصام حتى ينقلب الحق عليها هى ..!

هيهات أن يسخطه عليها شيء ، كانت ولا تزال أمه الثانية ومورد حنان لا ينضب ، أين منها عائشة الجميلة السادرة التى تشبعت بالشوكتية حتى ذؤابتها !

ـــ وعم أسفر التحقيق ؟

ـــ بدأ الشجار بالزوج هذه المرة وعلى غير المألوف ، دخلت الشقة وهما يتجادلان فى عنف حتى عجبت لما أهاج الرجل الطيب ، فتدخلت بينهما بالسلام ، ثم عرفت سبب هذا كله ، كانت معتزمة أن تنفض الشقة ، ولكنه ظل نائما حتى التاسعة فأصرت على إيقاظه حتى استيقظ غاضبا ، وركبه عناد مفاجىء فأبى أن يغادر الفراش ، وسمعت والدته الزعق ، فجاءت على عجل ، وما لبثت النار أن اشتعلت ، ولم يكد هذا الشجار أن ينتهى حتى شب آخر بسبب أحمد الذى عاد من الطريق مطين الجلباب ، فضربته وأرادت أن يستحم من جديد ، فاستغاث الولد بأبيه ، وتصدى الرجل لحمايته ، فكان الشجار الثانى فى نصف نهار !

وهو يضحك :

ـــ وماذا فعلت ؟

ـــ بذلت ما فى وسعى ولكنى لم أسلم ، فلامتنى طويلا على وقوف موقف الوسيط ، وقالت لى : كان ينبغى أن تنضمى إلى كما انضمت أمه إليه !

ثم وهى تتنهد لثالث مرة :

ـــ قلت لخديجة : ألا تذكرين كيف كنت تريننى أمام والدك ، فقالت بحدة : « هل تظنين أنه يوجد رجل مثل أبى فى هذه الدنيا !؟ » .

وردت مخيلته على غير ميعاد صورة عبد الحميد بك شداد وحرمه سنية هانم ، وهما يسيران جنبا إلى جنب ، من الفراندا إلى السيارة المنيرفا المنتظرة أمام باب القصر ، لا سيد ولا مسود ولكن صديقين متساويين ، يتحادثان فى غير كلفة وهى تتأبط ذراعه ، حتى إذا بلغا السيارة تنحى البك جانبا حتى تركب هى أولا !. هل يتأتى لك أن ترى والديك فى مثل هذه الصورة ؟! يا لها من خاطرة مضحكة !. يتحركان فى جلال خليق بالمعبودة التي أنجباها ، ولو أن الهانم لم تكن دون أمه كهولة إلا أنها كانت ترتدى معطفا نفيسا آية فى الذوق والأناقة والغندرة ، وتنطلق سافرة الوجه ، وجه مليح وإن يكن دون الوجه الملائكى بما لا يقاس ، وتنشر فيما حولها شذى عطرا وروعة آسرة ، ود لو يعلم كيف يتحادثان وكيف يأتلفان ، وكيف يتخاصمان إن كانا يتخاصمان . شغفا بمعرفة حياة تمت إلى حياة معبودته بأوثق الوشائج والصلات ، أتذكر كيف كنت تطالعهما بين المتعبد الرانى إلى كبار الكهنة والسدنة ؟. قال بهدوء :

ـــ لو تطبعت خديجة ببعض طباعك لضمنت حياة سعيدة ..

ابتسمت أساريرها فى سرور ، غير أن سرورها ارتطم بالحقيقة المرة ، وهى أن طباعها لم تستطع على دماثتها أن تضمن لها السعادة دواما ، ثم قالت والابتسامة لا تفارق شفتيها لتدارى بها أفكارها السوداء التى تشفق من إطلاعه عليها :

ـــ هو وحده الهادى ، ربنا يزيد طبعك حلاوة حتى تكون من الذين يحبون الناس ويحبهم الناس ..

فبادرها متسائلا :

ـــ كيف تجديننى ؟

فقالت بإيمان :

ـــ أنت كذلك ، وأكثر ..

لكن كيف يتأتى لك أن تحبك الملائكة ؟!، ادع صورتها السعيدة وتأمل قليلا ، هل يمكن أن تتخيلها مسهدة طريحة حب وجوى ؟، وما أبعد ذلك عن خوارق الظنون ، إنها فوق الحب ما دام الحب نقصا لا يدرك الكمال إلا بالحبيب ، اصبر ولا تلو قلبك من الألم ، حسبك أن تحب ، حسبك منظرها الذى يشعشع بالنور روحك ، وأنغام نبراتها التى تسكر بالتطريب جوارحك ، من المعبودة ينبثق نور تتبدى فيه الكائنات خلقا جديدا ، الياسمين واللبلاب من بعد صمت يتناجيان ، والمآذن والقباب تطير فوق بساط الشفق صوب السماء ، معالم الحي العتيق تنطق عن حكمة الأجيال ، أوركسترا الوجود تستأنف زفرات الصراصير ، الحنان يفيض من الجحور ، الأناقة تزخرف الأزقة والدروب ، عصافير الغبطة تزقزق فوق القبور ، الجمادات تتيه فى صمت التأملات ، قوس قزح يتجلى فى الحصيرة التى تطرح عليها قدميك ، هذه دنيا معبودتى !

ــ كنت مارة بالأزهر فى الطريق إلى الحسين ، فقابلتنى مظاهرة كبيرة تهتف بهتافات ذكرتنى بالماضى ، هل جد جديد يا بنى ؟

قال :

ــ الإنجليز لا يريدون أن يذهبوا بسلام !

قالت بحدة ، وفى عينيها نظرة غضب تبرق :

ــ الإنجليز .. الإنجليز !.. متى تنزل عليهم نقمة الله العادل ؟

انطوت دهرا لسعد نفسه عن مثل هذه الكراهية ، لولا أن أقنعها فى النهاية بأنه لا يجوز أن يبغضوا شخصا أحبه فهمي !. وعادت تتساءل فى قلق ظاهر :

ــ ماذا تعنى يا كمال ؟. هل نعود إلى أيام البلاء ؟

فقال بامتعاض :

ــ لا يعلم الغيب إلا الله !.

فاعتراها ضيق بدا فى تقلصات وجهها الشاحب ، وقالت :

ــ اللهم قنا العذاب فلنتركهم لغضب القهار ، هذه هى الخطة المثلى ، أما أن نلقى بأنفسنا إلى التهلكة فهو الجنون والعياذ بالله !.

ــ هدئى من روعك ، لا محيد من الموت ، الناس يموتون بسبب أو بآخر ، وبلا سبب على الإطلاق !

قالت فى استياء :

ـــ لا أنكر أن قولك حق ، ولكن لهجتك لا تعجبنى !

ـــ كيف تريدين أن أتكلم ؟

قالت بصوت مؤثر :

ـــ أريد أن تعلن موافقتك على أنه من الكفر أن يعرض الإنسان نفسه للتهلكة ..

قال فى تسليم ، وهو يدارى ابتسامة :

ـــ أوافق ..

فرمقته بارتياب ، وقالت بتوسل :

ـــ وأن تقول ذلك بالقلب لا باللسان ..

ـــ بالقلب أتكلم ..

ما أعظم الفارق بين الواقع والمثال ، أنت تتطلع بحماس إلى المثل الأعلى فى الدين والسياسة والفكر والحب ، الأمهات لا يفكرن إلا فى السلامة ، أى أم ترضى أن تدفن ابنا فى كل خمسة أعوام ، لا بد للحياة المثالية من قرابين وشهداء ، .. الجسم والعقل والروح قرابينها ، فهمى ضحى بحياة واعدة فى سبيل ميتة رائعة ، فهل تستطيع أن تلقى الموت كما لقيه ؟. قلبك لا يتردد عن الاختيار ولو حطم قلب هذه الأم التعيسة ، ميتة تستنزف جرحا وتضمد جروحا ، يا له من حب .. أجل ، ولكنه ليس الذى بينى وبين بدور وأنت تعلمين ، الحب العجيب حقا هو حبى لك ، هو شهادة للدنيا ضد المتشائمين من خصومها ، علمنى أن الموت ليس أفظع ما نخاف وأن الحياة ليست أبهج ما نبتغى ، وأن من الحياة ما يغلظ ويفر حتى يلتمس الموت ، ومنها ما يرق ويثرى حتى يهفو إلى الخلود ، ومناداتها لك ما أطربها ، بصوت لا تدرى كيف تصفه ، لا رفيع النبرة ولا غليظها ، مثل « فا » السلم الموسيقى المنبعثة من كمان ، رنينه فى صفاء النور ، ولونه لو تخيلت له لونا فى زرقة السماء العميقة ، دافىء الإيمان ، داعية إلى السماء ..

١٦

ـــ يوم الخميس القادم سأعقد زواجى متوكلا على الله ..

ـــ ربنا يوفقك !

ـــ سيكون التوفيق من نصيبى إذا رضى عنى أبى ..

ـــ إنه راض عنك ، والحمد لله ..

ـــ سيقتصر الحضور على الأهل ، ولن تلقى هنالك ما يضايق حضرتك .

ـــ عظيم عظيم !!

ـــ وددت لو كانت نينة فى الحاضرين ، ولكن ..

ـــ ما علينا ، المهم أن تمر الليلة فى هدوء ..

ـــ لم يغب عنى هذا بطبيعة الحال ، أنا أعرف الناس بطبعك ، ولن يعدو اليوم كتابة العقد وشرب الشربات ..

ـــ عظيم ، ربنا يهديك إلى سواء السبيل ..

ـــ كلفت كمال أن يبلغ والدته تحياتى وأن يرجوها عنى ألا تحرمنى من دعائها الطيب كما عودتنى من قديم ، وأن تعفو عما كان ..

ـــ طبعا .. طبعا !!

ـــ أرجو أن تكرر على سمعى أنك راض عنى .

ـــ إنى راض عنك ، والله أسأل أن يكتب لك التوفيق والفلاح إنه سميع الدعاء ..

هكذا سارت الأمور ضد مشيئة السيد أحمد ، واضطر إلى مجاراتها أن ينصدع ما بينه وبين ابنه ، وكان قلبه فى الحق أرق من أن يتصدى لياسين بخصام جدى فضلا عن القطيعة ، فقبل أن يسلم بيده ابنه البكر إلى بنت بهيجة ، وأن يبارك ـــ بنفسه ـــ العلاقة التى ستضم خليلته السابقة إلى صميم أسرته !. بل لم يقبل تدخل أمينة حين أعربت له عن رجائها فى أن يمتنع « إخوة فهمى » عن شهود زواج ياسين من مريم ، فقال لها بلهجة حاسمة « فكرة سخيفة ، من الناس من يتزوج من أرملة أخيه على حبه والوفاء له ، ومريم لم تكن زوجة فهمى ولا حتى خطيبته ، وذلك تاريخ قديم مضى عليه ستة أعوام ، لست أنكر أنه لم يوفق فى اختياره ولكنه حسن

النية بقدر ما هو بغل ، ولم يسىء إلى أحد كما أساء إلى نفسه ، أسرة كان بوسعه أن يصهر إلى خير منها ، وفتاة مطلقة ، الأمر لله وذنبه على جنبه » .. سكتت أمينة كأنما سلمت بحجته ، فإنها وإن كانت اكتسبت مع الأيام السود بعض جرأة تعينها على الإفصاح عن رأيها للسيد إلا أنها لم تكن من القوة بحيث تجعلها تراجعه أو تجادله ، ولذلك فعندما زارتها خديجة لتخبرها بأن ياسين دعاها إلى حضور زواجه ، وأنها تفكر فى ادعاء المرض لتتخلف عن الذهاب لم توافقها على رأيها ونصحتها بقبول دعوة أخيها .

وجاء يوم الخميس ، فذهب السيد أحمد عبد الجواد إلى بيت المرحوم محمد رضوان ، حيث وجد ياسين وكمال — الذى سبقه إليه — فى استقباله ، ثم لحق بهم بعد قليل إبراهيم شوكت وخليل شوكت مصحوبين بخديجة وعائشة ، ولم يكن فى البيت من آل مريم سوى بضع نساء ، فاطمأن السيد أحمد إلى مرور اليوم بسلام !. وكان فى طريقه إلى حجرة الاستقبال قد رأى معالم مألوفة فى البيت ، مر بها من قبل فى ظروف جد مختلفة ، فهجمت عليه ذكريات الماضى محدثة فى نفسه ألوانا من الاستياء والضجر لسخريتها الصامتة من الدور الجديد الذى جاء يمثله كوالد وقور للعريس ، وراح يلعن فى سره ياسين الذى أوقعه — وأوقع نفسه وهو لا يدرى — فى هذا المأزق ، غير أن الأمر الواقع حمله على أن يراجع نفسه ويمنيها قائلا : إنه ليس على الله بكثير أن يخلق البنت على غير مثال الأم ، وأن يجد ياسين فى مريم زوجا صالحة — بكل معنى الكلمة — وأن يقيه نزق أمها ، ثم سأل الله الستر !.

وكان ياسين آخذا زينته ، بادى السرور رغم تواضع الحفل المقام لزواجه ، وسره — على وجه الخصوص — أن لم يتخلف أحد من إخوته عن الحضور ، وكان يشفق من أن تؤثر الأم فى بعضهم فيتخلف !. أكان فى وسعه أن يستغنى عن مريم إكراما لهم ؟ كلا ، أحبها ، ولم تجعل هى من سبيل إليها إلا الزواج فلم يكن من الزواج بد ، لم لا ؟ ليست اعتراضات والده أو زوجه بعادلة أو مما يكترث لعواقبها ، ثم إن مريم أول امرأة يرغب الزواج منها عن معرفة ونظر ، وهو إلى هذا متفائل جدا بزواجه ويرجو أن تستقر به حياة زوجية دائمة ، أليس كذلك ؟. بلى وهو يشعر أنه سيكون زوجا طيبا وستكون زوجة طيبة وسيجد رضوان فى مقبل الأيام بيتا سعيدا ينمو فيه وينضج ، لقد دار كثيرا وآن له أن يستكن ، فى غير الظروف التى اكتنفت زواجه لم

يكن يتردد عن أن يحتفل به احتفالا شاملا لشتى ألوان البهجة والسرور ، ليس كهلا ولا فقيرا ولا هو ممن « يدّعون » كراهية الليالى الملاح حتى يرضى بهذا الحفل الموحش الصامت الذى هو بالمأتم أشبه ، ولكن مهلا ، فللضرورة أحكام ، وليزج تقشفه هذا تحية لذكرى فهمى .

وكان لقاء مريم بخديجة وعائشة ـــ بعد فراق طال أعواما ـــ مؤثرا على تحفظه ولم يخل من حرج بين . تبادلن القبلات والتهانى ، وتحادثن طويلا فشرقن وغربن ، ولكنهن تجنبن الماضى ما استطعن إلى ذلك سبيلا . وكانت اللحظات الأولى أحرجها جميعا . فتوقعت كل واحدة منهن ترديدا الذكرى ماضية على نحو يثير عتابا أو ملاما ، ماذا دعا إلى تقاطعهن أو لم تعكر الجو ، ولكنها مرت بسلام ، ثم وجهت مريم الحديث بلباقة إلى ثياب خديجة ورشاقة عائشة التى لا زالت تحافظ عليها رغم إنجابها ثلاثة ، ثم سألت مريم وأمها عن « الوالدة » ، فكان الجواب أنها بخير ولم يزدن حرفا . ونظرت عائشة إلى صديقتها القديمة بعين ملؤها المودة والحنان وقلب متعطش إلى حب الناس دواما ، ولولا إحساس بالإشفاق لساقت الكلام إلى الذكريات الماضية ولضحكت ملء فيها ، أما خديجة فجعلت تسترق إليها نظرات متفحصة ، ومع أن مريم ظلت سنوات لا تخطر لها على بال فإن أنباء زواجها من ياسين أطلقت لسانها بالملاحظات المرة ، وراحت تذكر عائشة بواقعة « الإنجليزى » وتتساءل عما أعمى ياسين وأصمه ! . على أن شعور خديجة العائلى المرهف الذى يتقدم سائر مزاياها ، لم يسمح لها بلوك شيء من ذلك على مسمع من آل شوكت غير مستثنية زوجها نفسه ، حتى نبهت أمها إلى ذلك قائلة « سواء رضينا أم لم نرض فستصبح مريم من أسرتنا ! » .. ولا عجب ، فما زالت خديجة حتى بعد إنجاب عبد المنعم شوكت وأحمد شوكت تعد آل شوكت « أغرابا » لدرجة ما .

وجاء المأذون فى مطلع المساء ، ثم عقد الزواج ، ودارت أكواب الشربات ، وانطلقت زغرودة واحدة ، وتلقى ياسين التهانى والدعوات الصالحات ، ودعيت العروس إلى مقابلة « سيدها الكبير » وآل زوجها ، فجاءت محاطة بأمها وخديجة وعائشة وقبلت يده وصافحت الآخرين وعند ذاك قدم السيد لها هدية الزواج ، أسورة ذهبية ذات فصوص دقيقة من الماس والزمرد ، واستمرت الجلسة العائلية وقتا غير قصير ، وحوالى التاسعة أخذ الحاضرون فى الانصراف تباعا ، ثم جاء حنطور

فحمل العروسين إلى بيت ياسين بقصر الشوق الذى جهز دوره الثالث لاستقبال العروس ، وظن الجميع أن الستار قد أسدل على الزواج الثانى لياسين بخيره وشره ؛ ولكن حدث بعد مرور أسبوعين من تاريخ الزواج أن شهد بيت المرحوم محمد رضوان حفلا آخر لزواج جديد ، عد بحق مفاجأة غريبة فى بيت السيد أحمد والسكرية وقصر الشوق بل فى حى بين القصرين جميعا !! فعلى حين غرة — ودون سابق إنذار — لم يدر الناس إلا وبهيجة تعقد زواجها على بيومى الشربتلى !.. عجب الناس لهذا الزواج كل العجب ، وكأنما كانوا يفطنون — لأول مرة — إلى أن دكان بيومى الشربتلى تقع على ناصية عطفة بيت آل رضوان تحت إحدى مشربيات البيت العتيدة مباشرة ، فوقفوا أمام هذه الحقيقة يتساءلون ، وحق للناس أن يعجبوا ، فالعروس أرملة رجل عرف فى حياته بينهم بالطيبة والتقوى ، وهى معدودة من « سيدات » الحى المحترمات رغم ولعها بالتبرج ، فضلا عن بلوغها الخمسين من عمرها ، بينا كان الزوج من العامة ذوى الجلابيب يبيع الخروب والتمرهندى فى دكان صغير ، ولم يجاوز الأربعين من عمره إلى كونه زوجا رسخت قدمه فى الحياة الزوجية عشرين عاما ، أنجب خلالها تسعا من الإناث والذكور !. كل ذلك أثار القيل والقال !! فخاض الناس — دون تورع — فى مقدمات الزواج التى لم يشعر بها أحد ، متى وكيف بدأت ثم كيف نضجت حتى انتهت بالزواج ؟! وأى الطرفين كان البادىء الداعى وأيهما كان المستجيب الملبى ؟!..

قال عم حسنين الحلاق ، وكان دكانه يقع فى الجانب الآخر من الطريق لصق سبيل بين القصرين إنه كثيرا ما كان يرى ست بهيجة واقفة أمام دكان بيومى تشرب الخروب ، ربما تبادلا حديثا قصيرا ، فلا يظن — لحسن نيته — إلا خيرا !.. وقال أبو سريع صاحب المقلى ، وكان دكانه يتأخر ميعاد إغلاقه عن بقية الدكاكين : بأنه — أستغفر الله — لاحظ مرات أن قوما يتسللون بليل إلى داخل البيت ، ولكنه لم يكن يعلم أن بيومى بينهم !. وتكلم درويش بائع الفول ، وتكلم الفولى اللبان ، ومع أنهم تظاهروا بالرثاء للأب المعيل وانتقدوا — بمرارة — الرجل الأخرق الذى تزوج امرأة فى سن أمه ، فإنهم فى قرارة النفس نفسوا عليه حظه ونقموا عليه ارتفاعه عن طبقتهم بهذه الحيلة « غير المناسبة » ، ثم طال الحديث بعد ذلك عن تقدير « ميراثه » المنتظر فى البيت ، وعن الغنائم المحتملة من نقود وحلى !.

أما بيت السيد وبيت السكرية بل وبيت قصر الشوق فقد زلزلوا زلزالا شديدا ، يا للفضيحة !.. هكذا هتفت ألسنتهم ، وغضب السيد أحمد غضبا أرعب آل بيته فتجنبوا مخاطبته أياما متتابعات ، أليس من حق بيومى الشربتلى أن يدعى قرابته من الآن فصاعدا ؟ ، ملعون ياسين وملعونة شهواته ، بيومى الشربتلى أصبح « عمه » وأنف الجميع فى الرغام ، وصاحت خديجة عندما تلقت النبأ « يا خبر أسود » ، ثم قالت لعائشة « منذا يلوم نينة بعد الآن ؟، إن قلبها لا يكذبها أبدا » ، وأقسم ياسين — بين يدى أبيه — على أن الأمر وقع على غير علم منه ولا من زوجه ، وأنه أحزنها حزنا فاق كل تصور ، ولكن ما حيلتها ؟!. ولم تقف الفضيحة عند هذا الحد ، فإنه ما كادت زوجة بيومى الأولى تعلم بالخبر حتى طاش عقلها ، فغادرت بيتها كالمجنونة سائقة أمامها ذريتها جميعا ، ثم انقضت على بيومى فى دكانه ، فنشب بينهما عراك عنيف استعمل فيه اللسان واليد والقدم والزعق والصراخ على مرأى ومسمع من الأطفال الذين جعلوا يعولون ويستنجدون بالمارة حتى تجمهر الناس أمام الدكان السابلة وأصحاب الدكاكين والنساء والأطفال ، فخلصوا بين الزوجين وجرُّوا المرأة جرًّا إلى الطريق ، فوقفت تحت مشربية بهيجة مشقوقة الجلباب ممزقة الملاءة منفوشة الشعر دامية الأنف ، ثم رفعت رأسها إلى النوافذ المغلقة وأطلقت لسانها كالسوط المحملة أطرافه بالرصاص المنقوع فى السم ، والأدهى من هذا كله أنها برحت موقفها رأسا إلى دكان السيد أحمد بصفته والد زوج بنت زوجها ، وتوسلت إليه بلهجة خطابية باكية أن يستعمل نفوذه لإقناع زوجها فى الرجوع عن غيه ، فاستمع السيد إليها وهو يكظم غيظه وحزنه على ما آل إليه أمره ، ثم أفهمها برقة — ما استطاع — أن هذا الأمر كله خارج عن دائرة نفوذه بخلاف ما تتصور ، وما زال بها حتى صرفها عن الدكان وهو يغلى من الحنق ، على أنه رغم حنقه فكر طويلا وهو بين الحيرة والتساؤل فيما دفع بهيجة إلى هذا الزواج الغريب ، خاصة وهو يعلم علم اليقين أنه لم يكن يعز عليها إرضاء قلبها لو كان به رغبة إلى بيومى الشربتلى دون حاجة إلى تعريض نفسها وآلها لشتى القلاقل بالاقتران منه ، لم أقدمت على هذه الحماقة غير مبالية بزوج الرجل وعياله ولا عابئة بعواطف ابنتها وآلها الجدد كأنما قد أصابها مس ؟. ألا يكون الإحساس المحزن بالكبر هو الذى جعلها تفزع إلى الزواج ، بل والتضحية بكثير مما تملك جريا وراء سعادة كان

يضمنها لها الشباب الذى تخلى عنها ؟. تأمل هذه الفكرة فى حزن واكتئاب ، وذكر مذلته بين يدى زنوبة العوادة التى أبت أن تجود عليه بنظرة عطف حتى حملها إلى العوامة ، تلك المذلة التى زعزعت ثقته بنفسه وحملته ـــ على طمأنينته الظاهرة ـــ على التجهم للزمان الذى سبق فتجهمه .

على أى حال لم تتمتع ببهجة بزواجها طويلا !!

مع نهاية الأسبوع الثالث منه شكت دملا فى ساقها ، ثم تبين بالكشف الطبى أنها مصابة بمرض السكر فنقلت إلى قصر العينى ، وترامت الأخبار عن خطورة حالها أياما ، ثم وافاها الأجل المحتوم .

١٧

أمام سراى آل شداد وقف كمال متأبطا حقيبة صغيرة ، فى بدلة رمادية أنيقة ، وحذاء أسود لامع ، وقد استقام طربوشه فوق رأسه الكبير .. بدا طويلا نحيفا ، وبرز عنقه من فوق بنيقة القميص غير عابىء بحمل الرأس الكبير والأنف العظيم . وكان الجو لطيفا تتخلله نسائم باردة تؤذن باقتراب ديسمبر ، وكان فى السماء سحاب متفرق ناصع البياض يتحرك وانيا فيحجب شمس الصباح حينا بعد حين . وقف كمال وقفة المنتظر وعيناه متجهتان نحو الجراج ، حتى خرجت منه الفيات يسوقها حسين شداد ثم دارت فى شارع السرايات ووقفت أمامه ، وأخرج حسين شداد رأسه من نافذتها وهو يسأل كمال :

ـــ ألم يجيئا بعد ؟

نفخ فى البوق ثلاثا ، ثم عاد يقول وهو يفتح الباب :

ـــ تعال اجلس إلى جانبى ..

ولكن كمال اكتفى بإدخال الحقيبة وهو يغمغم « صبرا » . وترامى إليه صوت بدور من ناحية الحديقة ، فالتفت صوبه فرآها مقبلة تركض وفى أثرها عايدة .. أجل المعبودة ، تخطر بقوامها البديع فى فستان سنجابى قصير على أحدث موضة ، توارى أعلاه تحت دراعة من الحرير كحلية اللون كشفت عن ساعديها الخمريتين الصافيتين ، وكانت هالة شعرها الأسود تحدق بقذالتها وعارضيها وتنوس بحركة مشيتها نوسانا تموجيا ، أما أسلاك قصتها الحريرية فاستكنت على الجبين كأسنان

المشعل ، وفى وسط هذه الهالة بدا الوجه البدرى فى طابع من الحسن أنيق ملائكى كأنه سفير سام لدولة الأحلام السعيدة . تسمر فى موضعه تحت تأثير التيار المغناطيسى ، على حال بين اليقظة والنوم ، ولم يبق من الدنيا فى وعيه إلا عاطفة امتنان وجيشة وجدان ، وجعلت هى تقترب فى خفة وتبختر كأنها نغمة حلوة مجسمة حتى سطعه من أعطافها عبير باريسى ، ولما التقت الأعين لمعت فى ناظريها وشفتيها المضمومتين ابتسامة موسومة بالبشاشة والهدوء والأرستقراطية معا فرد عليها كمال بابتسامة حائرة وسجدة من رأسه ، عند ذاك خاطبها حسين قائلا :

ـــ اجلسى أنت وبدور فى المقعد الخلفى ..

تأخر كمال خطوة ففتح باب السيارة الخلفى ووقف منتصب القامة كأحد الحاشية ، فكانت مكافأته ابتسامة وكلمة شكر بالفرنسية ، وانتظر حتى دخلت بدور فالمعبودة ، ثم أغلقه واندس إلى جانب حسين ، ونفخ حسين مرة أخرى وهو ينظر صوب القصر ، فما لبث أن جاء البواب حاملا سلة صغيرة فوضعها لصق حقيبة كمال فيما بينه وبين حسين ، فقال الأخير ضاحكا وهو ينقر بأصبعه على السلة والحقيبة :

ـــ ما جدوى رحلة بلا طعام ؟!

وزمجرت السيارة وهى تتحرك ، ثم انطلقت إلى شارع العباسية وحسين شداد يقول مخاطبا كمال :

ـــ عرفت عنك أشياء كثيرة ، اليوم يتاح لى أن أضيف إليها معلومات جديدة عن معدتك ، ويبدو لى أنك رغم نحافتك أكول ، فهل ترانى مخطئا ؟.

فقال كمال باسما ، وكان سعيدا منشرحا فوق مطمح البشر :

ـــ انتظر حتى تعرف بنفسك ..

سيارة واحدة تحملهما معا ، مشاركة من نوع ما تعز فيما عدا الأحلام ، تهمس الأمانى : لو جلست أنت فى المقعد الخلفى وجلست هى فى المقعد الأمامى لملأت عينيك منها طوال الطريق ولا رقيب ، لا تكن طماعا جحودا واسجد حمدا وشكرا ، استنقذ رأسك من شتى الفكر وخلص نفسك من تيار الوجد وعش بكل وعيك فى الساعة الراهنة ، أليست ساعة بالعمر أو أكثر ؟.

ـــ لم أستطع أن أدعو حسن وإسماعيل إلى رحلتنا هذه !

نظر كمال إليه كالمتسائل دون أن ينبس . بيد أن قلبه خفق فى سرور وحياء لهذا الامتياز الذى خص به وحده ، على حين استطرد حسين قائلا بلهجة المعتذر :

— السيارة كما ترى لا يمكن أن تتسع للجميع ..

فقال كمال بصوت خافت :

— هذا واضح ..

فعاد الآخر يقول باسما :

— وإذا لم يكن من الانتخاب بد فانتخب من يشابهك ، ولا شك أن ميولنا متقاربة فى هذه الحياة ، أليس كذلك ؟

فقال كمال بوجه وشت أساريره بالفرحة التى غمرت قلبه :

— بلى ..

ثم وهو يضحك :

— غير أنى قانع بالرحلة الروحية ، أما أنت فيبدو أنك لن تقنع حتى تصل الرحلة الروحية بالرحلة حول الأرض ..

— ألا تهفو نفسك إلى السياحة فى جنبات الأرض الواسعة ؟

فكر كمال قليلا ، ثم قال :

— يخيل إلىَّ أنى مطبوع على حب الاستقرار وكأنى أجفل من فكرة الرحلات ، أعنى من الحركة والاضطراب لا من الرؤية والاستطلاع ، وددت لو كان من الميسور أن يطوف بى العالم حيث أنا !

ضحك حسين شداد ضحكته اللطيفة المنبعثة من القلب ، وقال :

— قف فى منطاد ثابت إن استطعت ، وانظر إلى الأرض وهى تدور من تحتك !

تملى كمال ضحكة حسين اللطيفة الجذابة مليا ، فوردت ذهنه صورة حسن سليم وراح يقارن بين هذين اللونين من الأرستقراطية : أحدهما يمتاز باللطف والبشاشة ، والآخر يتسم بالتحفظ والكبرياء ، وكلاهما بعد ذلك جليل . وقال كمال :

— من حسن الحظ أن الرحلات الفكرية لا تقتضى التنقل حتما ..

فرفع حسين شداد حاجبيه فيما يشبه الشك ، غير أنه عدل عن متابعة الموضوع قائلا بابتهاج :

— المهم الآن أننا نقوم برحلة قصيرة معا ، وأن ميولنا متقاربة فى هذه الحياة ..

وما يدرى إلا والصوت العذب يجيء من الوراء قائلا :

ـــ وبالاختصار فإن حسين يحبك كما تحبك بدور ..!

نفذت هذه الجملة المعطرة بالحب الملحَّنة بالصوت الملائكى فى قلبه فطيَّرته نشوة وطربا ، كالنغمة الساحرة التى تند فجأة فى تضاعيف أغنية فوق المنتظر والمألوف والمتخيل من الأنغام ، فتترك السامع بين العقل والجنون . المعبود يعبث بألفاظ الحب سادرا ، يلقيها عليك غافلا عن أنه يلقى مغنسيوما على قلب يحترق ، استرجع صداها لتستعيد رنين الحب فى أوتار ثغره ، والحب لحن قديم غير أنه يضحى جديدا عجبا فى ترنيمة خالقة ، يا إلهى ؟! إننى أفنى من فرط السعادة . قال حسين معلقا على قول أخته :

ـــ عايدة تترجم أفكارى بلغتها النسائية الخاصة ..

انطلقت السيارة إلى السكاكينى فإلى شارع الملكة نازلى ثم إلى شارع فؤاد الأول ، ومنه مرقت إلى الزمالك فى سرعة عدها كمال جنونية :

ـــ فى السماء غيم ، ولكننا فى حاجة إلى مزيد منه لنضمن نهارا سعيدا فى سفح الهرم .

وعلا الصوت البديع وهو يخاطب بدور فيما بدا قائلا :

ـــ انتظرى حتى نصل إلى الهرم ، وهنالك اجلسى معه كيفما يحلو لك ..

فسألها حسين ضاحكا :

ـــ ماذا تريد بدور ؟

ـــ تريد يا سيدى أن تجلس مع صاحبك ..

صاحبك !، لم لم تقولى « كمال » ؟ هلا أسعدت الاسم بما لا يطمح إليه صاحبه ؟ ، وخاطبه حسين قائلا :

ـــ أمس سمعها بابا وهى تسألنى : هل يجيء معنا أنكل كمال إلى الهرم ؟، فسألنى من يكون كمال ؟ ولما أجبته سألها : « أتحبين أن تتزوجى أنكل كمال ؟ » فأجابته بكل بساطة « نعم ! » .

فالتفت كمال إلى الوراء ، ولكنها تراجعت حتى التصقت بمسند المقعد وأخفت وجهها فى كتف أختها ، فتزود كمال من الوجه البديع بنظرة خاطفة ثم أعاد رأسه ، وهو يقول بلهجة الرجاء :

ــ لعلها عند الجد لا تنسى كلمتها !

ولما بلغت السيارة طريق الجيزة ضاعف حسين من سرعتها فعلا أزيزها وساد الصمت ، رحب كمال بالصمت ليفرغ إلى نفسه ويتملى سعادته ، كان أمس حديث الأسرة فاختاره ربها زوجا للصغيرة ، يا أغاريد الزهور والسعادة ، احفظ عن ظهر قلب كل كلمة تقال .. املأ نفسك بعبير باريس ، زود أذنك بالهديل والبغام ، علك تعود إليها إذا عادت ليالى السهاد ، كلمات المعبودة عاطلة عن حكمة الحكماء ودرر الأدباء ، فما بالها تهزك حتى الأعماق وفى فؤادك تفجر ينابيع السعادة !. هذا الذى جعل السعادة سرا تتيه فيه العقول والأفهام . أيها المجدون اللاهثون وراء السعادة إلى وجدتها فى الكلمة الفارغة والرطانة الغامضة والصمت أيضا وفى لا شيء ، رباه ما أعظم هذه الأشجار الباسقة على الجانبين تتعانق أعاليها فوق الطريق فتنتشر سماء من الخضرة اليانعة ، وهذا النيل الجارى مكتسبا من وشى الشمس غلالة من اللآلىء ، متى رأيت هذا الطريق آخر مرة ؟، فى رحلة إلى الهرم وأنا فى السنة الثالثة ، فى كل رحلة عاهدت نفسى بالعودة إليه منفردا ، ووراءك تجلس من ترى بوحيها كل شيء جديدا وجميلا حتى مجرى الحياة الأثرية فى الحى العتيق ، هل لك أمنية فوق ما أنت فيه ؟.. نعم : أن تواصل السيارة انطلاقها على هذه الحال التى نحن عليها إلى الأبد ، رباه أهذا هو الجانب الذى طالما أعياك وأنت تتساءل عما تريد من هذا الحب ؟، هبط عليك من وحى الساعة يكتنفه المحال ، اسعد بالساعة المتاحة ، ها هو الهرم يلوح من بعيد صغيرا ، وعما قليل تقف عند قدميه كالنملة عند أصل الشجرة الفارعة ..

ــ نحن ذاهبون إلى زيارة قرافة جدنا الأول !

فقال كمال ضاحكا :

ــ لنقرأ الفاتحة بالهيروغليفية ..

فقال حسين ساخرا :

ــ وطن أجل مخلفاته قبور وجثث !.. (وهو يشير صوب الهرم) انظر إلى الجهد الضائع ..

قال كمال بحماس :

ــ ذلك الخلود !..

ـــ أوه .. سوف تنشط كعادتك للدفاع ، أنت وطنى لحد المرض ، لن نختلف فى هذا ، ربما كان أحب إلى أن أكون فى فرنسا من أن أكون فى مصر ..

فقال كمال وهو يوارى ألمه تحت ابتسامة رقيقة :

ـــ ستجد هنالك الفرنسيين أعظم أمم الأرض وطنية !..

ـــ نعم ، الوطنية مرض عالمى ، لكننى أحب فرنسا نفسها ، وأحب فى الفرنسيين مزايا لا تمت إلى الوطنية بسبب ..

هذا يحزن مؤسف حقا بيد أنه لا يثير حفيظته ، لأنه صادر عن حسين شداد .. إسماعيل لطيف يخنقه أحيانا باستهانته .. حسن سليم يغضبه أحيانا بتكبره .. أما حسين شداد فيحظى برضاه على أى حال من الأمر .

وقفت السيارة غير بعيد من سفح الهرم الأكبر منضمة إلى صف طويل من السيارات الفارغة ، ولاح خلق كثيرون هنا وهناك ، تفرقوا جماعات صغيرة ، ومنهم من امتطى حمارا أو جملا أو تسلق الهرم ، غير باعة ومكارين وجمالين ، أرض واسعة لا تحد إلا أن الهرم انطلق فى وسطها كمارد خرافى ، أما تحت المنحدر من الناحية الأخرى فقد ترامت المدينة ، رءوس أشجار وخط مياه وأسطح عمارات ، ترى أين يقع بين القصرين من هذا كله ؟، والبيت القديم ؟، أين أمه وهى تسقى الدجاج تحت سقيفة الياسمين ؟.

ـــ فلنترك كل شىء فى السيارة لنتجول أحرارا ..

غادروا السيارة ، ومضوا صفا واحدا بدأ من السيارة بعايدة فحسين ثم بدور ، وأخيرا كمال الذى أمسك بيد صديقته الصغيرة ، وطافوا بالهرم الأكبر متصفحين أركانه ثم أوغلوا فى الصحراء . وكانت الرمال تقاوم أقدامهم فتعرقل انطلاقهم ، غير أن الهواء هفا لطيفا منعشا ، وراوحت الشمس بين الظهور والاختفاء ، وانتشرت تجمعات السحب فى آفاق السماء ترسم فى اللوحة العلية صورا تلقائية تعبث بها يد الهواء كيفما اتفق . قال حسين وهو يملأ رئتيه بالهواء :

ـــ جميل .. جميل ..

ورطنت عايدة بالفرنسية ، فأدرك كمال بمعلوماته المحدودة فى تلك اللغة أنها تترجم قول أخيها ، وكانت الرطانة عادة مألوفة لديها ، فخففت من غلوائه فى التعصب للغته القومية من ناحية ، وفرضت نفسها على ذوقه كأمارة من أمارات

الحسن النسائى من ناحية أخرى . قال كمال بتأثر ، وهو يتأمل ما حوله :
ـــ جميل حقا ، سبحان الله العظيم !
فقال حسين ضاحكا :
ـــ إنك تجد دائما وراء الأمور إما الله وإما سعد زغلول ..
ـــ أظن أنه لا خلاف بيننا فيما يتعلق بالأول !
ـــ ولكن دأبك على ذكره يضفى عليك مسحة دينية خاصة كأنك من رجال الدين ، (ثم بلهجة تسليم) فيم العجب وأنت من حى الدين ؟!
أتكمن وراء هذه الجملة سخرية ما ؟، وهل يمكن أن تشاركه عايدة فى سخريته ؟، ترى ما رأيهما فى الحى القديم ؟، وبأى عين تنظر العباسية إلى بين القصرين والنحاسين ؟، هل مسَّك الخجل ؟، مهلا إن حسين لا يكاد يبدى أى اهتمام بالدين ، المعبودة فيما يبدو أقل اهتماما منه ، ألم تقل يوما إنها تحضر دروس الدين المسيحى فى المير دى دييه وأنها تشهد الصلاة وتترنم بأناشيدها ؟، ولكنها مسلمة !، مسلمة رغم أنها لا تعرف عن الإسلام شيئا يذكر !، ما رأيك فى هذا ؟، أحبها ، أحبها لحد العبادة ، وأحب دينها رغم وخز الضمير ، أعترف بهذا مستغفرا ربى !.
أشار حسين بيده إلى ما يحيط بهم من آى الجمال والجلال ، ثم قال :
ـــ هذا ما يستهوينى حقا ، أما أنت فمجنون بالوطنية ، قارن بين هذه الطبيعة الجليلة وبين المظاهرات وسعد وعدلى واللوريات المحملة بالجنود !
فقال كمال باسما :
ـــ الطبيعة والسياسة كلتاهما شيء جليل !..
تساءل حسين فجأة كأنما قد تذكر بتداعى المعانى أمرا هاما :
ـــ كدت أنسى ، لقد استقال زعيمك !
فابتسم كمال ابتسامة حزينة ولم يجب ، فقال الآخر بقصد إغاظته :
ـــ استقال بعد أن ضيع السودان والدستور ، هه ؟!
قال كمال بهدوء لم يكن ينتظر منه فى غير هذه الظروف :
ـــ كان قتل سير لى ستاك ضربة موجهة إلى وزارة سعد ..
ـــ دعنى أكرر على سمعك ما قاله حسن سليم ، قال : إن هذا الاعتداء مظهر

للكراهية التى يضمرها البعض ــ ومنهم القتلة ــ للإنجليز ، وسعد زغلول هو المسئول الأول عن تهييج هذه الكراهية !.

كظم كمال الغيظ الذى أثاره « رأى » حسن سليم فى نفسه ، وقال بالهدوء الواجب فى حضرة المعبودة :

ــ هذا هو رأى الإنجليز ، ألم تقرأ برقيات الأهرام ؟، فليس عجيبا أن يردده الأحرار الدستوريون ، إن من مفاخر سعد أن يثير العداوة ضد الإنجليز ..

تدخلت عايدة متسائلة ، وفى عينيها نظرة عتاب أو تحذير مازجتها ابتسامة جذابة :

ــ رحلة أم سياسة ؟

فأشار كمال إلى حسين ، وهو يقول معتذرا :

ــ إليك المسئول عن فتح هذا الموضوع ..

فقال حسين ضاحكا ، وهو يتخلل شعره الحريرى الأسود بأصابعه الرشيقة :

ــ رأيت أن أقدم تعزيتى فى استقالة الزعيم ، هذا كل ما هنالك !

ثم متسائلا بلهجة جدية :

ــ ألم تشترك فى المظاهرات الخطيرة التى كانت تقوم فى حيكم على عهد الثورة ؟

ــ كنت دون السن القانونية !

فقال حسين بلهجة لم تخل من سخرية لطيفة :

ــ على أى حال تعد واقعة دكان البسبوسة اشتراكا فى الثورة !

وضحكوا جميعا ، حتى بدور اشتركت فى الضحك محاكاة لهم ، فصدر عنهم أوركسترا رباعى مكون من بوقين وكمان وصفارة ، وبعد هنيهة صمت ، قالت عايدة كأنما لتدافع عنه :

ــ كفاية أنه فقد أخاه !..

فقال كمال مدفوعا بشعور الفخار الذى دب فى قلبه ، واستزادة من عطفهما :

ــ أجل ، فقدنا خير أسرتنا ..

فعادت تسائله باهتمام :

ــ كان فى الحقوق .. أليس كذلك ؟، كم كان يكون عمره لو عاش حتى

الآن ؟

ــ كان يكون فى الخامسة والعشرين .. (ثم بلهجة أسيفة) .. كان نابغة بكل معنى الكلمة ..

فقال حسين ، وهو يفرقع بأصبعيه :

ــ كان !.. هذه هى الوطنية ، كيف تتعلق بها بعد ذلك ؟!

فقال كمال باسما :

ــ سوف نكون جميعا فى خبر كان ، ولكن شتان بين ميتة وميتة !

فرقع حسين بأصبعه مرة أخرى دون تعليق ، يبدو أنه لا يرى فى قوله معنى ، ماذا أقحم حديث السياسة عليهم ؟، لم يعد به ما يسر ، شغل الشعب بعداوته الحزبية عن الإنجليز ، سحقا لهذا كله ، يخلق بمن يتنسم الفردوس ألا يكرب صدره بهموم الأرض ، ولو إلى حين ، أنت تمشى فى معية عايدة فى صحراء الهرم ، تأمل هذه الحقيقة الرائعة واهتف بها حتى تسمع بناة الهرم ، معبود وعابده يسيران معا فوق الرمال ، العابد من شدة الوله يكاد يذروه الهواء والمعبود يتسلى بعد الحصى ، لو كان مرض الحب معديا ، ما باليت بآلامه ، الهواء يهفو بأهداب فستانها ويتخلل هالة شعرها ويسرى فى أعماق صدرها .. ألا ما أسعد الهواء !، أرواح العاشقين فوق الهرم تبارك القافلة معجبة بالمعبود راثية للعابد مرددة بلسان الزمان : ليس أقوى من الموت إلا الهوى ، تراها على بعد أشبار منك ولكنها فى الحق كالأفق تخاله منطبقا على الأرض وهو فى ذروة السماء يحلق .. كم منيت النفس بأن تمس فى هذه الرحلة راحتها ، ولكن يبدو أنك سترحل عن هذه الدنيا قبل أن تعرف مسها ، لم لا تكون شجاعا فتهوى إلى انطباعة قدمها فتلثمها ؟.. أو تأخذ منها حفنة فتجعلها حجابا يقى من آلام الحب فى ليالى الفكر ؟، وا أسفاه !! كل الدلائل تشير إلى أنه لا اتصال بالمعبود إلا بالتراتيل أو الجنون ، فرتِّل أو جُنّ ..

شعر باليد الصغيرة تجذب يده ، فنظر إليها ، فرفعت نحوه ذراعيها داعية إياه إلى حملها ، فانحنى فوقها ثم رفعها بين يديه غير أن عايدة قالت معترضة :

ــ كلا ، بدأ التعب يساورنا ، فلنسترح قليلا ..

على صخرة عند رأس المنحدر المفضى إلى أبى الهول جلسوا على نفس الترتيب الذى ساروا عليه ، مد حسين ساقيه غارزا كعبيه فى الرمال ، جلس كمال واضعا

رجلا على رجل ضامًّا بدور إلى جنبه ، على حين قعدت عايدة إلى يسار أخيها فتناولت مشطها وراحت تسرح شعرها وتربت خصلاته بأناملها .

وحانت من حسين نظرة إلى طربوش كمال ، فسأله منتقدا :

ـــ لماذا تلبس الطربوش فى هذه الرحلة ؟

فنزع كمال طربوشه ووضعه فى حجره قائلا :

ـــ ليس من المألوف عندى أن أسير بدونه ..

فضحك حسين قائلا :

ـــ إنك مثال طيب للرجل المحافظ !

تساءل كمال : ترى هل يعنى بقوله مدحا أم ذما ؟ وأراد أن يستدرجه للإيضاح ، ولكن عايدة مالت إلى الأمام قليلا ملتفتة نحوه لتلقى نظرة على رأسه فنسى ما كان بسبيله ، وتحول انتباهه إلى منطقة الرأس فى قلق ، إن رأسه يبدو الآن حاسرا فيكشف عن ضخامته ويعرض شعره الأجرد العاطل عن الزينة ، وها هما العينان الجميلتان ترنوان إليه ، فأى أثر يعكسه عليهما ؟ تساءل الصوت الموسيقى :

ـــ لماذا لا تربى شعر رأسك ؟

سؤال لم يخطر له على بال من قبل ، هكذا رأس فؤاد جميل الحمزاوى وجميع الرفاق بالحى العتيق ، ياسين لم ير يطلق شعره وشاربه حتى توظف ، هل يتصور أن يلقى أباه كل صباح على مائدة الفطور بشعر مصفف ؟!

ـــ ولم أربيه ؟

فتساءل حسين مفكرا :

ـــ ألا يكون أجمل ؟

ـــ ليس هذا بذى بال ..

حسين ضاحكا :

ـــ يخيل إلى أنك خلقت لتكون معلما .

مدح أم ذم ، على أى حال ليهنأ رأسك بالرعاية السامية .

ـــ أنا خلقت لأكون طالبا ..

ـــ جواب جميل .. (ثم رفع طبقة صوته متسائلا) .. لم تحدثنى عن مدرسة المعلمين حديثا شافيا ، كيف وجدتها بعد مرور ما يقرب من الشهرين ؟

ـــ أرجو أن تكون مدخلا لا بأس به للدنيا التى أتطلع إليها ، وترانى أحاول الآن أن أعرف عن سبيل الأساتذة الإنجليز معانى للكلمات المحيرة مثل « أدب » و « فلسفة » و « فكر » ..

ـــ هذه هى الثقافة الإنسانية التى نتطلع إليها ..

فقال كمال بحيرة :

ـــ ولكنها خضم مضطرب فيما يبدو ، ينبغى أن نعرف الحدود ، ينبغى أن نعرف ما نريد على نحو أوضح ، إنها مشكلة ..

لاح الاهتمام فى عينى حسين الجميلتين وهو يقول :

ـــ الأمر بالنسبة إلى لا يعد مشكلة ، إنى أقرأ قصصا ومسرحيات فرنسية مستعينا بعايدة على فهم الصعب من نصوصها ، وأستمع معها أيضا إلى مختارات من الموسيقى الغربية تعزف هى بعضها بمهارة على البيانو ، وقد طالعت أخيرا كتابا يلخص الفلسفة الإغريقية فى يسر وسهولة ، لست أبغى إلا السياحة للعقل والجسم ، أما أنت فتريد أيضا أن تكتب ، وهذا يقتضيك أن تعرف الحدود والأهداف ..

ـــ الأدهى من ذلك أننى لا أدرى فيم أكتب على وجه التحديد .!

تساءلت عايدة بلهجة باسمة :

ـــ أتريد أن تكون مؤلفا ؟

فقال وهو يتلقى موجة عالية من السعادة التى عزت على البشر :

ـــ ربما !..

ـــ شاعرا أم ناثرا .. (وهى تميل إلى الأمام لتتمكن من رؤيته) .. دعنى أخمن بفراستى ..

استنفدت الشعر فى مناجاة طيفك ، الشعر لغتك المقدسة فلا أمتهنه ، غاضت دموعي ينابيعه فى سواد الليالى ، ما أسعدنى فى مرمى ناظريك وما أتعسنى ، إنى أحيا تحت نظرتك كما تحيا اليابسة بمقلة الشمس ..

ـــ شاعر ، أجل أنت شاعر ..

ـــ حقا ؟ كيف عرفت هذا ؟

اعتدلت فى جلستها ، فندت عنها ضحكة خافتة كأنها وسوسة الأمانى ، ثم

قالت :

ـــ الفراسة بداهة ، فكيف تطالب بتفسير لها ؟!

ـــ إنها تعبث !

قال حسين ذلك وهو يضحك ، فبادرت تقول :

ـــ كلا ، إذا كان الشاعر لا يعجبك فلا تكنه ..

النحلة فطرتها الطبيعة ملكة ، البستان مغناها ، رحيق الزهر شرابها ، الشهد نفثها ، وجزاء الآدمي الطائف بعرشها .. لسعة ، .. لكنها قالت « كلا » . عادت تسأله :

ـــ هل قرأت من القصص الفرنسية شيئا ؟

ـــ بعض ما ترجم عن ميشيل زيفاكو ، لا أستطيع أن أقرأ الفرنسية كما تعلمين ..

فقالت بحماس :

ـــ لن تكون مؤلفا حتى تتقن الفرنسية ، اقرأ بلزاك وجورج صاند ، ومدام دى ستال ولوتى ، واكتب بعد ذلك قصة ..

فقال كمال باستنكار :

ـــ قصة !؟ ، إنها فن على الهامش ، إنما أتطلع إلى عمل جدى ..

فقال حسين جادا :

ـــ القصة فى أوربا عمل جدى ، ثمة كتّاب يتفرغون لها دون غيرها من فنون الكتابة فترفعهم إلى درجة الخالدين ، لست أهرف بما لا أعرف ، ولكن أستاذ اللغة الفرنسية أكد لى ذلك ..

هز كمال رأسه الكبير فى شك ، فاستطرد حسين قائلا :

ـــ حاذر أن تغضب عايدة ، إنها قارئة معجبة بالقصة الفرنسية ، بل إنها بطلة من بطلاتها !

فمال كمال إلى الأمام قليلا ، ومد إليها بصره ليقرأ أثر قول حسين فيها مغتنما الفرصة المتاحة ليملأ عينيه من منظرها البهيج ، ثم تساءل :

ـــ كيف كان ذلك ؟

ـــ إن القصة تستغرقها استغراقا غريبا ، فرأسها مفعم بحياة خيالية ، مرة رأيتها

تختال أمام المرآة ، فسألتها عما بها ؟ فأجابتني « هكذا كانت تسير أفروديت على ساحل البحر بالإسكندرية ! » .

قالت عايدة وهى تقطب تقطيبة باسمة :

ـــ لا تصدقه ، إنه أغرق مني فى الخيال ، ولكنه لا يرتاح حتى يرميني بما ليس فى ..

أفروديت ؟.. ما أفروديت يا معبودتى ؟! ، يحزنني وحق كمالك أن تتخيلى نفسك فى صورة غير ذاتك !

قال بإخلاص:

ـــ لا عليك من هذا ، إن أبطال المنفلوطى ورايدر هجارد يستأثرون بخيالى ..!

فضحك حسين ضحكة رائعة ، وهو يهتف :

ـــ ما أحرى أن يجمعنا كتاب واحد !، لماذا نبقى على الأرض ما دمنا نهفو هكذا إلى الخيال ؟، عليك أنت أن تحقق هذا الحلم ، لست كاتبا ولا أريد أن أكون كاتبا ، ولكن فى وسعك أنت أن تجمعنا إذا شئت فى كتاب واحد .

عايدة فى كتاب تكون أنت مؤلفه !، صلاة أم تصوف أم جنون ؟!

ـــ وأنا ؟!

علا صوت بدور فجأة متسائلا فى احتجاج فضج ثلاثتهم بالضحك ، وقال حسين فى لهجة تنبيه :

ـــ لا تنس أن تحجز مكانا لبدور !.

فقال كمال وهو يضم الصغيرة بساعده فى حنان :

ـــ ستكونين فى الصفحة الأولى ..

تساءلت عايدة وهى ترمى بناظريها إلى الأفق :

ـــ ماذا تكتب عنا ؟

.لم يدر ماذا يقول ، فدارى ارتباكه بضحكة وانية ، ولكن حسين أجاب عنه قائلا :

ـــ كما يكتب المؤلفون ، قصة غرامية عنيفة تنتهى بالموت أو الانتحار .!

يقذفون كرة قلبك بالأقدام وهم يلعبون .

ـــ أرجو أن تكون هذه النهاية من نصيب البطل وحده ؟

قالت عايدة ذلك ضاحكة .

البطل أعجز من أن يتصور معبوده فانيا ، وتساءل :

ـــ هل حتم أن تنتهى بالموت أو الانتحار ؟

فأجاب حسين ضاحكا :

ـــ هى النهاية الطبيعية لقصة غرام عنيف !.

فرارا من الألم أو ضنًّا بالسعادة تراءى الموت أمنية . قال كالساخر :

ـــ شيء مؤسف حقا ..

ـــ ألم تكن تعرف هذا ؟، يبدو أنك لم تجرب الغرام بعد ..!

من لحظات الحياة الحية لحظة يقوم البكاء فيها مقام البنج فى العملية الجراحية ، وعاد حسين يقول :

ـــ المهم عندى ألا تنسى أن تحجز لى مكانا أيضا فى كتابك ولو كنت بعيدا عن الوطن ..

حدجه كمال بنظرة طويلة ، ثم سأله :

ـــ ألا تزال تراودك فكرة السفر ؟

فانساب الجد فى لهجة حسين شداد ، وهو يقول :

ـــ كل ساعة ، أريد أن أحيا ، أريد أن أسيح على وجهى طولا وعرضا وارتفاعا وعمقا ، ثم ليأت الموت بعد ذلك ..

وإن جاء قبل ذلك ؟، هل يمكن أن يحدث هذا ؟، ما للحزن يكاد أن يقتلك ؟، أنسيت فهمى ؟، الحياة لا تقاس بالطول والعرض دائما ، كانت حياتك لمحة ولكنها كانت كاملة ، أو فما جدوى الفضيلة والخلود ؟، لكنك حزين لسبب آخر ، كأنما عز عليك أن يهون فراقك على الصديق المتشوق إلى السفر ، كيف تكون دنياك من بعده ؟، كيف تكون إذا حال رحيله بينك وبين القصر الحبيب ؟، ما أكذب ابتسامة اليوم ، إنها الآن قريبة ، صوتها فى أذنك وعبيرها فى أنفك فهل تستطيع أن توقف عجلة الزمن ؟، هل تعيش بقية العمر حائما من بعيد حول القصر كالمجانين ..

ـــ إن أردت رأيى فأجّل سفرك حتى تتم دراستك ..

فقالت عايدة بحماس :

ــ هذا ما قاله له بابا مرارا ..

ــ هو الرأى الصواب ..

فتساءل حسين متهكما :

ــ أمن الضرورى أن أحفظ المدنى والرومانى كى أتذوق جمال دنياى ؟

عادت عايدة تخاطب كمال قائلة :

ــ شد ما يسخر أبى من أحلامه ، إنه يتمنى أن يراه قضائيا أو عاملا معه فى دنيا المال ..

ــ القضاء .. المال !. لن أكون قضائيا ، حتى إذا نلت الليسانس وفكرت جديا فى اختيار وظيفة فسيكون السلك السياسى وجهتى ، أما المال فهل تطمعون فى مزيد منه ؟، إننا أغنى مما يطيق الإنسان ..

ما أعجب أن تكون ثروة الإنسان أعظم مما يطيق ، قديما تخيلت أن تكون تاجرا كأبيك وأن تملك خزانة كخزانته ، لم تعد الثروة من أحلامك ، ولكن ألا تتمنى أن تكون قادرا على تجريد نفسك للمغامرات الروحية ؟، ما أتعس حياة تستغرقها مطالب الرزق .

ــ إن أسرتى جميعا لا تفهم آمالى ، يروننى طفلا مدللا ، قال خالى مرة متهكما على مسمع منى « لا ينتظر أن يكون الذكر الوحيد فى الأسرة خيرا من هذا » ، لم هذا كله ؟، لأنى لا أعبد المال ولأننى أوثر الحياة عليه ، أرأيت ؟!، إن أسرتنا تؤمن بأن أى نشاط لا يؤدى إلى أى زيادة فى الثروة ضرب من العبث الباطل ، وتراهم يحلمون بالألقاب كأنها الفردوس المفقود ، أتدرى لم يحبون الخديو ؟، طالما قالت لى ماما : « لو بقى أفندينا على العرش لنال أبوك الباشوية من زمن بعيد » ، والمال العزيز يهون وينفق بلا حساب فى استقبال أمير إذا شرفنا بزيارته .. (ثم وهو يضحك) .. لا تنس أن تسجل هذه الغرائب إذا فرغت يوما لتأليف الكتاب الذى اقترحته عليك .

لم يكد يفرغ من حديثه حتى بادرت عايدة تخاطب كمال قائلة :

ــ أرجو ألا تتأثر فى تأليفك بتحامل هذا الأخ العاق حتى لا تظلم أسرتنا !

فقال كمال بلهجة ساجدة :

ـــ معاذ الله أن ينال أسرتك ظلم على يدى !، وفضلا عن ذلك فليس فيما قال ما يشين ..

فضحكت عايدة فى ظفر ، على حين ارتسمت على شفتى حسين ابتسامة ارتياح رغم ارتفاع حاجبيه كالداهش . وكان الأثر الذى تركه حديث حسين فى نفسه أنه لم يكن صادقا كل الصدق فى حملته على أسرته ، أجل لم يشك فى قوله أنه لا يعبد المال وأنه يؤثر الحياة عليه ، وأبى ـــ إلى ذلك ـــ أن يرجع هذا الخلق إلى وفرة المال وحدها ولكن إلى اتساع أفق صاحبه أولا ما دام الثراء لا يحول دون عبادة المال عند الكثيرين ولكنه خيل إليه أن ما ورد فى حديثه عن الخديو والألقاب واستقبال الأمراء إنما ورد على سبيل الفخر المدغم فى الانتقاد ، لا الفخر وحده ولا الانتقاد وحده ، كأنما كان يفاخر بها بقلبه وينتقدها بعقله ، أو لعله كان يسخر منها حقا ، ولكنه لم يجد غضاضة فى التشهير بها أمام شخص لا يشك فى أنها تبهره وتفتنه مهما يكن من مجاراته له فى انتقادها . عاد حسين يتساءل فى هدوء باسم :

ـــ أينا سيكون بطل الكتاب ، أنا أم عايدة أم بدور ؟

هتفت بدور « أنا ! » ، فقال لها كمال وهو يشد عليها « اتفقنا » .. ثم أجاب حسين :

ـــ سيبقى هذا سرا حتى يولد الكتاب !

ـــ وأى عنوان ستختار له ؟

ـــ حسين حول العالم !

فضج ثلاثتهم بالضحك بما ذكرهم هذا العنوان المفتوح باسم تمثيلية « البربرى حول العالم » التى كانت تمثل فى الماجستيك ، وسأله حسين بالمناسبة قائلا :

ـــ ألم تعرف الطريق إلى المسرح بعد ؟

ـــ كلا ، فى السينما الكفاية الآن ..

قال حسين مخاطبا عايدة :

ـــ إن مؤلف كتابنا غير مسموح له بالسهر خارج البيت إلى ما بعد التاسعة مساء !

فقالت له عايدة متهكمة :

ـــ على أى حال فهو خير من الذين يسمح لهم بالطواف حول العالم !

ثم التفتت صوب كمال ، وسألته برقة خليقة بجذبه إلى رأيها سلفا :
ــ أمن العيب حقا أن يتمنى أب أن ينشأ ابنه على مثاله فى النشاط والجاه ؟!،
أمن العيب أن نسعى فى الحياة إلى المال والجاه والألقاب والقيم العالية ؟
ابقى حيث أنت يسعى إليك المال والجاه والألقاب والقيم العالية كى تسمو جميعا بلثم موطىء قدميك ، كيف أجيب وفى الجواب الذى تودين انتحارى ؟، يا ويح قلبك من مرام لا يرام !
ــ لا عيب فى هذا أبدا .. (ثم بعد انقطاع قصير) على شرط أن يوافق مزاج الشخص !
فاستطردت قائلة :
ــ وأى مزاج لا يوافقه هذا !؟، والعجيب أن حسين لا يزهد فى هذه الحياة الرفيعة طموحا إلى ما هو أرفع منها ، كلا يا سيدى ، إنه يحلم بأن يحيا بلا عمل ، فى فراغ وبطالة !، أليس هذا بعجيب !؟..
تساءل حسين ضاحكا فى سخرية :
ــ ألا يعيش هكذا الأمراء الذين تعبدونهم ؟
ــ لأنه ليس فوق حياتهم حياة يتطلع إليها ، أين أنت من أولئك يا تنبل ؟
التفت حسين ناحية كمال قائلا بصوت لم يخل من أثر للغيظ :
ــ القاعدة المتبعة فى أسرتنا هى العمل على زيادة الثروة ومصادقة ذوى النفوذ فتأمل من وراء ذلك فى رتبة البكوية ، وعليك بعد ذلك مضاعفة الجهد لإنماء الثروة ومصادقة النخبة الممتازة حتى تنال الباشوية ، وأخيرا أن تجعل غايتك العليا فى الحياة التودد إلى الأمراء والقناعة بذلك ما دامت الإمارة لا تنال بالعمل أو اللباقة ، أتدرى كم كلفتنا زيارة الأمير الأخيرة ؟.. عشرات الألوف من الجنيهات ضاعت فى ابتياع أثاث جديد وتحف نادرة من باريس !
فعارضته عايدة قائلة :
ــ لم ينفق ذلك المال توددا لأمير من حيث هو أمير فحسب ، ولكن لكونه شقيق الخديو ، فالدافع إلى المجاملة كان الوفاء والصداقة لا التودد والزلفى ، وهو بعد شرف لا يمارى فيه عاقل .
ولكن حسين تمادى فى عناده قائلا :

ـــ ولكن بابا لا يفتأ يوطد علاقته بعدلى وثروت ورشدى وغيرهم ممن لا يمكن أن يتهموا بالإخلاص للخديو !.. أليس فى ذلك تسليم بالحكمة القائلة بأن الغاية تبرر الواسطة ؟..

ـــ حسين !..

هتفت به بصوت لم يسمعه من قبل ، بصوت نم عن الكبرياء والاستياء والتأنيب ، كأنما أرادت أن تنبهه إلى أن هذا الكلام لا يجوز أن يقال أو فى الأقل أن يجهر به على مسمع من « غريب » فاحمر وجهه خجلا وألما وفترت السعادة التى حلق فى أجوائها ساعة بالاندماج فى هذه الأسرة الحبيبة ، وكانت هامتها مرفوعة وشفتاها مضمومتين وفى عينيها نظرة موحية بالتقطيب وإن لم يلمح له أثر فى جبينها ، كانت بالجملة غضبى ولكن كما يخلق بالملكة العريقة أن تغضب ، ولم يكن رآها من قبل منفعلة ، ولم يكن يتصور أنها تنفعل ، فرنا إلى وجهها فى دهش وارتياع ، وامتلأ إحساسا بالحرج حتى ود لو ينتحل عذرا يتنحى به عن متابعة الحديث ، ولكن لم يمض على ذلك ثوان حتى أفاق من غشيته وراح يتملى جمال الغضب الملكى فى الوجه الملائكى ، ويتذوق لفحة الكبرياء واستعلاء الإباء وتجهم السماء ، ثم عادت كأنما لتسمعه هو :

ـــ إن صداقة بابا لمن ذكرت تعود إلى تاريخ قديم سابق على خلع الخديو ..

عند ذلك رغب كمال صادقا فى أن يبدد هذه السحابة ، فسأل حسين مداعبا :

ـــ إذا كان هذا رأيك فكيف تحتقر سعد لأنه كان أزهريا ؟

فضحك حسين ضحكته الصافية وهو يقول :

ـــ إنى أكره التودد إلى الكبراء ، ولكن لا يعنى هذا أن أحترم العامة .. إنى أحب الجمال وأزدرى القبح ، ومن المؤسف أن الجمال قل أن يوجد فى العامة !..

ولكن عايدة تدخلت فى الحديث قائلة بصوت معتدل :

ـــ ماذا تعنى بالتودد إلى الكبراء ؟ إنه سلوك يعاب على من ليس منهم ، ولكن أظننا من الكبراء أيضا ، وليس توددنا إليهم دون توددهم إلينا ..

فتطوع كمال للإجابة عن حسين قائلا بإيمان :

ـــ هذا حق لا مراء فيه ..

وما لبث أن نهض حسين وهو يقول :

ــ حسبنا جلوسا ، هلموا نواصل السير ..

نهضوا فاستأنفوا السير متجهين نحو أبي الهول في جو ظليل انتشرت تجمعات السحب في آفاقه حتى تعانقت وحجبت الشمس بستار شفاف فاكتسى منها لونا أبيض ناصعا يقطر صفاء وملاحة ، والتقوا في طريقهم بجماعات من الطلبة والأوربيين نساء ورجالا ، فقال حسين مخاطبا عايدة ، ولعله أراد أن يسترضيها بطريق غير مباشر :

ــ إن الأوربيات يتفرسن في فستانك باهتمام ، مبسوطة ؟

فافتر ثغرها عن ابتسامة عجب وارتياح ، وقالت بلهجة تنم عن ثقة مكينة بالنفس وهي ترفع رأسها في كبرياء لطيف :

ــ طبيعي ..!

فضحك حسين وابتسم كمال ، ثم قال الأول يخاطب الآخر :

ــ عايدة تعد مرجعا للذوق الباريسي في حينا جميعه ..

فقال كمال وهو لا يزال يبتسم :

ــ طبيعي ..

فكافأته عايدة بضحكة رقيقة خافتة كسجع الحمام ، مسحت عن قلبه الأثر الخفيف الذي تركه النزاع الأرستقراطي البديع !.. العاقل من يعرف لقدمه قبل الخطو موضعها . فاعرف أين أنت من هؤلاء الملائكة ، المعبود الذي يشرف عليك من فوق السحاب يتعالى حتى على أهله المقربين ، فما وجه العجب في هذا ؟!. ما كان ينبغي أن يكون له أهل أو أسرة ، فلعله اتخذهم ليكونوا وسطاء بين ذاته وبين عابديه ، أعجب به في هدوئه وحدته وتواضعه وتكبره وإقباله وإدباره ورضاه وغضبه ، كل أولئك صفاته فارو بالعشق قلبك الظامىء . انظر إليها ، إن الرمال تعوق مشيتها فتوانت خفتها واتسعت خطواتها وتمايل أعلاها كالغصن الثمل بالنسيم الواني ولكنها وهبت الأبصار صورة جديدة من محاسن المشي تضارع في جمالها مشيتها المعروفة فوق فسيفساء الحديقة ، وإذا التفت إلى الوراء فرأيت آثار القدمين اللطيفتين مطبوعة فوق الرمال ، فاعلم أنها تقيم معالم للطريق المجهول يهتدى بها السالكون إلى سبحات الوجد وإشراقات السعادة ، في زياراتك السالفة لهذه

الصحراء كان نهارك ينقضي فى اللعب والوثب سادرا عن نفحات المعانى لأن برعمة قلبك لم تكن تفتحت .. أما اليوم فأوراقها ندية برضاب الهوى تقطر بهجة وتنز ألما فإن تكن سلبت طمأنينة الجهالة فقد وهبت القلق السامي .. حياة القلب وأنشودة النور ..

ـــ جعت ..

ندت الشكوى عن ثغر بدور ، فقال حسين :

ـــ آن لنا أن نعود ، ما رأيكم ؟! على أى حال أمامنا مسافة طويلة سيجوع فى نهايتها من لم يجع ..

ولما بلغوا السيارة أخرج حسين الحقيبة والسلة المملوءتين بالطعام ، فوضعهما على مقدمة السيارة وراح يزيح الغطاء عن سلته ، غير أن عايدة اقترحت أن يتناولوا الطعام على درجة من درجات الهرم ، فمضوا إليه وارتقوا درجة من درجات الأساس فحطوا الحقيبة والسلة فى وسطها ، وجلسوا على حافتها تاركين أرجلهم تتدلى . بسط كمال جريدة كانت فى حقيبته وطرح عليها الطعام الذى جاء به ، دجاجتين وبطاطس وجبنا وموزا وبرتقالا ، ثم تابع يدى حسين وهو يستخرج من السلة طعام « الملائكة » ، فإذا به : سندويتشات أنيقة ، وأكواب أربع ، وترموث .. ومع أن طعامه كان أدسم فإنه بدا ـــ فى ناظريه على الأقل ـــ عاطلا عن حلية الأناقة فساوره قلق وحياء ، وتساءل حسين وهو يرمق الدجاجتين بنظرة ترحاب عما إذا كان صاحبه قد أحضر أدوات مائدة ، فأخرج كمال من الحقيبة سكاكين وشوكا وشرع يقطع الدجاجتين شرائح ، وهنا نزعت عايدة سدادة الترموث وراحت تملأ الأكواب الأربع ، فإذا بها تمتلىء بسائر أصفر كالذهب ، فلم يملك كمال أن يسأل داهشا :

ـــ ما هذا ؟

فضحكت عايدة ولم تجب ، أما حسين فقال ببساطة وهو يغمز أخته بعينه :

ـــ بيرة ..!

ـــ بيرة ؟

هتف كمال كالخائف ، فقال حسين بتحد وهو يشير إلى السندوتشات :

ـــ ولحم خنزير !..

ـــ أنت تعبث بي !. لا أصدق هذا ..

ـــ بل صدّق وكل ، يا لك من جحود !، جئناك بأنفس ما يؤكل وألذ ما يشرب !.

أفصحت عينا كمال عن دهش وانزعاج ، وانعقد لسانه فلم يدر ماذا يقول ، وكان أشد ما يزعجه أن هذا الطعام والشراب جهز فى البيت ، وبالتالى عن علم أهله ورضاهم !

ـــ ألم تذق شيئا من هذا من قبل ؟

ـــ سؤال فى غير حاجة إلى جواب .

ـــ إذن ستذوقه لأول مرة ، والفضل لنا !

ـــ هذا محال ..

ـــ لِمَه ؟

ـــ لمه ؟!. سؤال فى غير حاجة إلى جواب أيضا ..

رفع حسين وعايدة وبدور أكوابهم وشربوا جرعات ثم أعادوها ، ونظر الأولان إلى كمال مبتسمين كأنما يقولان له « أرأيت أنه لم يحدث لنا شيء ! » ، ثم قال حسين :

ـــ الدين !. هه ؟. كوب البيرة لا يسكر ، ولحم الخنزير كله لذة وفوائد ، لست أدرى ما حكمة الدين فى شئون الطعام !

تقلص قلب كمال لوقع هذا الكلام ، بيد أنه لم يخرج عن رقته وهو يقول معاتبا :

ـــ حسين . لا تجدف ..

ولأول مرة مذ افتتحت المأدبة تكلمت عايدة فقالت :

ـــ لا تسيء بنا الظن ، نحن نشرب البيرة لفتح النفس ليس إلا ، ولعل مشاركة بدور لنا تقنعك بحسن نيتنا ، أما لحم الخنزير فلذيذ جدا ، جرّبه ولا تكن حنبليا ، لا تزال أمامك فرصة كبيرة كى تطيع الدين فيما هو أهم من هذا كله ..

ومع أن كلامها لم يختلف فى جوهره عن كلام حسين ، فإنه نزل على قلبه المتألم بردا وسلاما ، وإلى هذا فقد صادف منه نفسا حريصة كل الحرص على ألا تكدر لهم صفوا أو تخدش لهم شعورا ، فابتسم فى تسامح رقيق ، ومضى يتناول طعامه وهو يقول :

ـــ دعونى آكل الطعام الذى آلفه ، وأكرمونى بالمشاركة فيه .

ضحك حسين ، ثم قال مخاطبا كمال وهو يشير إلى أخته :

ــ اتفقنا فى البيت على أن نقاطع طعامك إذا قاطعت طعامنا ، ولكن يخيل إلىَّ أننا لم نحسن تقدير ظروفك ، على هذا فإننى سأتحلل من ذلك الاتفاق إكراما لك ، ولعل عايدة أن تقتدى بى ..

فنظر كمال نحوها برجاء ، فقالت باسمة :

ــ إذا وعدتنى بألا تسىء الظن بنا ..!

فقال كمال بابتهاج :

ــ لا عاش من أساء بكم الظن ..

أكلوا بشهوة عظيمة ، حسين وعايدة أولا ثم تشجع كمال بهما فتابعهما ، وكان يقدم الطعام بنفسه إلى بدور التى اكتفت بسندوتش وقطعة من صدر الدجاجة ثم أقبلت على الفاكهة ، ولم يستطع كمال أن يقاوم الرغبة فى استراق النظر إلى حسين وعايدة وهما يأكلان ليرى كيف يتناولان طعامهما ، أما حسين فكان يلتهم الطعام دون مبالاة كأنه منفرد ، غير أنه لم يفقد طابعه الممتاز الذى يمثل فى عينى كمال الأرستقراطية المحبوبة المنطلقة على سجيتها ، وأما عايدة فقد كشفت عن أسلوب جديد من الرشاقة والأناقة والتهذيب فى طبيعتها الملائكية سواء فى قطع اللحم أو القبض بأطراف الأنامل على السندوتش أو حركات الثغر عند المضغ ، ومضى هذا كله يسيرا هينا لا أثر للتكلف أو القلق فيه ، الحق أنه انتظر هذه الساعة بتشوف وإنكار كأنما كان فى شك من أنها تأكل الطعام كسائر البشر .. ومع أن معرفته لنوع الطعام أزعجت ضميره الدينى أيما إزعاج فإنه وجد فى « غرابته » وخروجه عن مألوف ما يتناوله الناس الذين عهدهم مشابهة تربطه بآكله ، فارتاح لها خياله الحائر المتسائل ، وتناوبه شعوران متناقضان ، قلق بادىء الأمر وهو يراها تقوم بهذه الوظيفة التى يشترك فيها الإنسان والحيوان ، ثم داخله شىء من الارتياح لما قربت هذه الوظيفة بينه وبينها ولو درجة واحدة !. على أن نفسه لم تعفه من علامات الاستفهام عند هذا الحد ، فوجدها تدفعه إلى التساؤل عما إذا كانت تؤدى سائر الوظائف الطبيعية الأخرى ؟، لم يسعه أن يقول لا ، ولم يهن عليه أن يقول نعم ، فأضرب عن الإجابة وهو يعانى إحساسا لم يعرفه من قبل تضمن ــ فيما تضمن ــ احتجاجا صامتا على نواميس الطبيعة !.

ـــ إنى معجب بشعورك الدينى ومثاليتك الأخلاقية ..
نظر كمال إليه فى حذر المرتاب ، فقال حسين بتوكيد :
ـــ عن صدق تكلمت لا عن دعابة ..
ابتسم كمال فى حياء ، ثم أشار إلى ما تبقى من السندوتشات والبيرة قائلا :
ـــ بالرغم من هذا ، فإن احتفالكم بشهر رمضان يفوق كل وصف ، أنوار تضاء ، قرآن يتلى فى بهو الاستقبال ، المؤذنون يؤذنون فى السلاملك ، هه ؟
ـــ إن أبى يحيى ليالى رمضان حبا وكرامة واستمساكا بالتقاليد التى اتبعها جدى ، وإلى هذا فهو وماما يواظبان على الصوم ..
قالت عايدة باسمة :
ـــ وأنا ..
فقال حسين بجد أريد به السخرية :
ـــ عايدة تصوم يوما واحدا من الشهر ، وربما أفلست قبيل العصر !
فقالت عايدة على سبيل الانتقام :
ـــ وحسين يأكل فى رمضان أربع وجبات يوميا ، الوجبات الثلاث المعتادة ووجبة السحور !
فقال حسين ضاحكا ، وقد كاد الطعام يسقط من فيه لولا أن رفع رأسه بحركة سريعة :
ـــ أليس غريبا ألا نعرف عن ديننا شيئا ذا بال ؟!، لم يكن عند بابا وماما معلومات تستحق الذكر ، وكانت مربيتنا يونانية ، وعايدة تعرف عن المسيحية وطقوسها أكثر مما تعرف عن الإسلام ، نحن بالقياس إليك فى حكم الوثنيين .. (ثم مخاطبا عايدة) .. إنه يقرأ القرآن والسيرة ..!
فقالت بلهجة ربما دلت على شيء من الإعجاب :
ـــ حقا ؟!. برافو ، ولكن أرجو ألا تسيء بى الظن أكثر مما ينبغى ، فإنى أحفظ أكثر من سورة ..
فغمغم كمال كالحالم :
ـــ بديع ، بديع جدا ، مثل ماذا ؟
فكفت عن الأكل حتى تتذكر ، ثم قالت باسمة :

ـــ أعني أني كنت أحفظ بعض السور ، لا أدرى ماذا تبقى منها .. (ثم رفعت صوتها فجأة شأن من تذكر شيئا أعياه طلابه) مثل السورة التى يقول فيها إن ربنا واحد الخ ..

ابتسم كمال ، وقدم لها شريحة من صدر الدجاجة فتناولتها شاكرة ، ولكنها اعترفت بأنها أكلت أكثر مما تأكل عادة ، ثم قالت :

ـــ لو كان الناس يتناولون الطعام عادة كما فى الرحلات لاختفت الرشاقة من الوجود ..

فقال كمال بعد تردد :

ـــ إن نساءنا لا تستهويهن النحافة ..

فوافقه حسين على رأيه قائلا :

ـــ ماما نفسها من هذا الرأى ، ولكن عايدة تعد نفسها باريسية ..

عفا الله عن استهانة معبودتى ، شد ما أزعجت نفسك المؤمنة ، كما أزعجتها من قبل خطرات الشك التى صادفتها فى مطالعتك ، هل تستطيع أن تلقى استهانة المعبود بما لقيت به من خطرات الشك من نقد وغضب ؟. هيهات ، نفسك لا تنطوى لها إلا على الحب الخالص ، حتى عيوبها فأنت تحبها ، عيوبها ؟!، لا عيب لها ولو كان ما بها خفة فى الدين واجتراء على المحرمات ، تلك عيوب لو وجدت فى غيرها ، أخشى ما أخشاه ألا تروق فى عينى حسناء بعد اليوم إذا لم يكن بها خفة فى الدين واجتراء على المحرمات ، هل مسك القلق ؟، استغفر الله لنفسك ولها ، وقل إن هذا كله عجيب ، عجيب كأبى الهول ، ما أشبه حبك به أو ما أشبهه بحبك ، كلاهما لغز وخلود !!

أفرغت عايدة آخر ما فى الترموث فى الكوب الرابع ، ثم قالت لكمال بإغراء :

ـــ هلا غيرت رأيك ؟. ما هى إلا شراب منعش ..

فابتسم ابتسامة اعتذار وشكر ، وعند ذاك خطف حسين الكوب ورفعه إلى فيه ، وهو يقول :

ـــ أنا بدل كمال .. (ثم وهو يتأوه) .. يجب أن نمسك وإلا متنا امتلاء ..

فرغوا من الطعام ، ولكن فضل منه نصف دجاجة وثلاثة سندوتشات ، فخطر لكمال أن يوزعها على الغلمان الذين يتجولون فى المكان ، غير أنه رأى عايدة وهى

تعيد السندوتشات مع الأكواب والترموث إلى السلة ، فلم ير بدا من أن يعيد بقية طعامه إلى الحقيبة وقد وردته ذكرى حديث إسماعيل لطيف عن الروح الاقتصادية لآل شداد !. ووثب حسين إلى الأرض وهو يقول :

ــ لدينا مفاجأة سارة لك ، أحضرنا معنا فونوغرافا وبعض الأسطوانات لتساعدنا على الهضم ، ستسمع أسطوانات أوربية من مختارات عايدة وأخرى مصرية مثل « حزر فزر » ، و « بعد العشى » ، و « حوِّد من هنا » .. ما رأيك فى هذه المفاجأة ؟..

١٨

انتصف ديسمبر ، غير أن الجو لم يجاوز حد الاعتدال إلا قليلا على رغم أن الشهر هلَّ بعاصفة من الرياح والأمطار والبرد القارص . وكان كمال يقترب من سراى آل شداد فى خطوات متئدة سعيدة طارحا معطفه المطوى على ساعده الأيسر وقد دل مظهره الأنيق ــ خاصة مع ملاحظة ميل الجو إلى الاعتدال ــ على أنه جاء بمعطفه استكمالا لمظاهر الأناقة والوجاهة أكثر منه حيطة لتقلب الجو ، وكانت شمس الضحى ساطعة / فرجح عنده أن مجلس الأصدقاء سينعقد فى كشك الحديقة ــ لا فى الثوى حيث يجتمعون فى الأيام الباردة ــ وأن الفرص بالتالى ستسنح لرؤية عايدة التى لا يتاح لقاؤها إلا فى الحديقة ، على أن الشتاء إذا كان يحرمه من لقائها فى الحديقة ، فإنه لم يحل دون رؤيتها فى النافذة المشرفة على الممر الجانبى للحديقة أو فى الشرفة المطلة على مدخل القصر ، فى هذه أو تلك ، وعند مقدمه أو حال منصرفه ، ربما لمحها وهى معتمدة الحافة بمرفقيها أو مفترشة راحتها بذقنها ، فيرفع نحوها عينيه حانيا رأسه فى ولاء العابد ، فترد تحيته بابتسامة رقيقة ذات وميض يضىء له أحلام اليقظة وأحلام المنام . على أمل رؤيتها اختلس من الشرفة نظرة وهو يدخل القصر ، ثم من النافذة وهو يقطع الممر الجانبى ولكنه لم يجدها لا فى هذه ولا فى تلك ، فاتجه ــ وهو يمنى النفس باللقاء فى الحديقة ــ نحو الكشك حيث رأى حسين جالسا بمفرده على غير العادة . تصافحا وقلبه يشرق ببهجة المودة التى تبعثها فى نفسه مطالعة هذا الوجه الصبيح ، أليف روحه وعقله ، واستمع إليه وهو يرحب به فى لهجته المرحة الصافية قائلا :

ـــ أهلا بالمعلم !. الطربوش والمعطف !، لا تنس فى المرة القادمة الكوفية والعصا ، أهلا .. أهلا ..

خلع كمال طربوشه ووضعه على المنضدة ، وطرح المعطف على كرسى وهو يتساءل :

ـــ أين إسماعيل وحسن ؟

ـــ إسماعيل سافر إلى البلد مع والده فلن تراه اليوم ، أما حسن فقد تلفن لى صباحا بأنه سيتأخر ساعة أو أكثر لكتابة بعض المحاضرات .. أنت تعلم أنه طالب مثالى مثل حضرتك ، وهو مصمم على نيل الليسانس هذا العام ..

جلسا على كرسيين متقابلين موليين القصر ظهريهما وقد وعد انفرادهما كمال بجلسة هادئة لا شقاق فيها ، جلسة يرحب صدرها بالتأملات غير أنها ستخلو فى الوقت نفسه من النضال المتعب اللذيذ معا الذى يدعو إليه حسن سليم ، والملاحظات التهكمية اللاذعة التى يبعثرها إسماعيل لطيف دون حساب ، استطرد حسين قائلا :

ـــ أنا على العكس منكما طالب ردىء ، أجل إنى أستمع إلى المحاضرات مفيدا من قدرتى على تركيز الانتباه ، غير أنى لا أكاد أطيق مراجعة كتبى المدرسية ، قالوا لى كثيرا : إن دراسة القانون تتطلب ذكاء نادرا ، الأحرى أن يقولوا : إنها تتطلب غباء وصبرا . حسن سليم طالب مجد شأن الذين يحدوهم الطموح ، طالما تساءلت عما يجعله يحمل نفسه فوق ما تطيق من العمل والسهر ، وهو لو شاء ـــ كأمثاله من أبناء المستشارين ـــ لقنع من العمل بما يكفل له النجاح اعتمادا على نفوذ أبيه الذى سيضمن له فى النهاية نيل الوظيفة التى يتطلع إليها ، فلم أجد تفسيرا لذلك إلا كبرياءه الذى يحبب إليه التفوق ويدفعه إليه دفعا لا هوادة فيه ، أليس كذلك ؟، ما رأيك فيه ؟

قال كمال فى صدق :

ـــ حسن شاب جدير بالإعجاب لخلقه وذكائه ..

ـــ سمعت أبى يقول مرة عن أبيه سليم بك صبرى : إنه مستشار فذ عادل ، فيما عدا القضايا السياسية ..

صادف هذا الرأى هوى فى نفس كمال ، لما سبق إلى علمه من تشيع سليم بك

صبرى إلى الأحرار الدستوريين ، فقال ساخرا :

ــ معنى هذا أنه قانونى بارع ، ولكنه غير أهل للقضاء .

فضحك حسين ضحكة عالية ، وقال :

ــ نسيت أننى أخاطب وفديا ..

فقال كمال وهو يرفع منكبيه :

ــ لكن والدك ليس وفديا !. تصور أن يجلس سليم بك صبرى للفصل فى قضية عبد الرحمن فهمى والنقراشى !

هل صادف قوله عن سليم بك صبرى ارتياحا فى نفس حسين ؟ نعم هذا يبدو جليا فى العينين الجميلتين اللتين لم تألفا الكذب أو الرياء ، ولعله راجع إلى المنافسة التى تقوم عادة ــ مهما اتسمت بالتهذيب وآداب اللياقة ــ بين الأنداد ، وقد كان شداد بك مليونيرا ومن رجال المال ذوى المكانة والجاه فضلا عن صلته التاريخية بالخديو عباس ، غير أن سليم بك صبرى مستشار فى أكبر هيئة قضائية وفى بلد تفتنها المناصب إلى حد التقديس ، فلم يكن بد من أن يتبادل المنصب الرفيع والمال الوفير نظرات الشزر أحيانا . ألقى حسين على الحديقة المترامية أمام ناظريه نظرات هادئة يشوبها شىء من الأسف ، فقد تجردت جدائل النخيل وتعرّت شجيرات الورد ، وشحبت الخضرة اليانعة واختفت ابتسامات الزهور من ثغور البراعم ، وبدت الحديقة غارقة فى الحزن حيال زحف الشتاء ، ثم قال وهو يشير أمامه :

ــ انظر إلى فعل الشتاء ، هذه آخر جلسة لنا فى الحديقة ، ولكنك من هواة الشتاء ..

إنه يهوى الشتاء حقا ، ولكن عايدة أحب إليه من الشتاء والصيف والخريف والربيع معا ، فلن يغفر للشتاء حرمانه من مقابلات الكشك السعيدة ، غير أنه قال موافقا :

ــ الشتاء فصل جميل وقصير ، وفى البرد والغيم والرذاذ حياة يستجيب لها القلب ..

ــ يخيل إلى أن هواة الشتاء يكونون عادة من ذوى النشاط والاجتهاد ، فهكذا أنت ، وهكذا حسن سليم ..

ارتاح كمال إلى هذا الثناء ولكنه أراد أن يخص ــ من دون حسن سليم ــ

بأكثره ، فقال :

ـــ ولكنني لا أعطى واجباتى المدرسية إلا نصف نشاطى فحسب ، الحق أن حياة العقل أوسع من المدرسة بكثير ..

هز حسين رأسه مستحسنا ، وقال :

ـــ لا أظن أن ثمة مدرسة يمكن أن تستهلك الوقت الطويل الذى تكرسه للعمل يوميا .. على فكرة : أنا لا أوافقك على هذا الإسراف وإن أكن أغبطك أحيانا ، خبرنى ماذا تقرأ الآن ..؟

ابتهج كمال بهذا الحديث الذى كان ـــ بعد عايدة ـــ أحب شيء إلى نفسه وأجاب قائلا :

ـــ أستطيع أن أقول لك الآن : إن مطالعاتى أخذت تتبع نوعا من النظام ، لم تعد قراءة حرة كيفما اتفق ما بين قصص مترجمة ومختارات شعرية ومقالات نقدية ، أصبحت أتلمس سبيلى على قدر من الضوء لا بأس به ، فعمدت أخيرا إلى تخصيص ساعتين كل مساء للقراءة فى دار الكتب وهنالك أنظر فى دائرة المعارف باحثا عن معانى الكلمات الغامضة الساحرة ، كالأدب والفلسفة والفكر والثقافة ، مسجلا فى الوقت نفسه أسماء الكتب التى تصادفنى ، إنه عالم بديع تذوب فيه النفس شغفا واستطلاعا ..!

كان حسين يصغى إليه بانتباه واهتمام طارحا ظهره على مسند الكرسى الخيزران ، واضعا يديه فى جيبى جاكتته الكحلية الإنجليزية ، وعلى شفتيه العميقتين ابتسامة مشاركة وجدانية صافية ، قال :

ـــ جميل جدا ، بالأمس كنت أحيانا تسألنى عما ينبغى أن يقرأ ، اليوم جاءت نوبتى لأسألك أنا ، هل وضح لك الطريق ؟

ـــ رويدا .. رويدا ، يغلب على ظنى أنى سأتجه نحو الفلسفة !

ارتفع حاجبا حسين كالمتسائل ، ثم قال باسما :

ـــ الفلسفة ؟. إنها كلمة مثيرة ، حذار أن تذكرها على مسمع من إسماعيل !. طالما اعتقدت أنك ستتجه نحو الأدب ..

ـــ لا لوم عليك ، الأدب متعة سامية بيد أنه لا يملأ عينى ، إن مطلبى الأول الحقيقة ، ما الله ، ما الإنسان ، ما الروح ، ما المادة ؟! الفلسفة هى التى تجمع

كل أولئك فى وحدة منطقية مضيئة كما عرفت أخيرا ، هذا ما أروم معرفته من كل قلبى ، وهذه هي الرحلة الحقيقية التى تعد رحلتك حول العالم بالقياس إليها مطلبا ثانويا ، تصور أنه سيمكننى أن أجد أجوبة شافية لهذه المسائل جميعا !..

نوّر الشوق والحماس وجه حسين وهو يقول :

ـــ هذا بديع حقا ، لن أتوانى عن مرافقتك فى هذا العالم الساحر ، بل لقد طالعت بالفعل فصولا عن الفلسفة الإغريقية وإن لم أخرج منها بشىء يعتد به ، لست أحب الاندفاع مثلك ، ولكنى أقطف زهرة من هنا وزهرة من هناك وأسلك بين هذا وذاك سبيلا ، والآن دعنى أصارحك بأنى أخاف أن تقطع الفلسفة ما كان بينك وبين الأدب من أسباب ، فأنت لا تقنع بالاطلاع ولكنك تريد أن تفكر وأن تكتب ، ولن يتاح لك ـــ فيما أعتقد ـــ أن تكون فيلسوفا وأديبا فى آن ..!

ـــ لن ينقطع ما بينى وبين الأدب ، إن حب الحقيقة لا يناقض تذوق الجمال ، ولكن العمل شىء والراحة شىء آخر ، وقد عزمت على أن أجعل الفلسفة عملى والأدب راحتى ..

فضحك حسين فجأة ، ثم قال :

ـــ هكذا تتملص من تعهدك لنا بأن تكتب عنا قصة جامعة !

فلم يملك كمال أن يضحك قائلا :

ـــ ولكنى آمل أن أكتب يوما عن « الإنسان » فيشملكم ضمنا !

ـــ لا يهمنى الإنسان بقدر ما يهمنى أشخاصنا ، انتظر حتى أشكوك إلى عايدة !

خفق قلبه لدى سماع الاسم خفقة تحية وحنان وشوق ، فانقلب نشوان كأنما قد ثمل روحه بلحن معربد بالطرب ، هل يرى حسين حقا أنه أتى من الأمر ما يستأهل عليه مؤاخذة عايدة ؟، ما أجهل حسين !، كيف غاب عنه أنه ما من شعور يستشعره أو فكرة يتأملها أو شوق يستشرفه إلا وآفاقها تترقرق ببهاء عايدة وروحها !

ـــ انتظر أنت ، وسوف تثبت لك الأيام أننى لن أتخلى عن عهدى ما حييت ..

ثم متسائلا بعد قليل بلهجة جدية :

ـــ لم لا تفكر فى أن تكون كاتبا ؟. كل الظروف الراهنة والآتية تهيىء لك التفرغ لهذا الفن !

فهز حسين كتفيه استهانة ، وقال :

ـــ أأكتب ليقرأ الناس ؟، ولم لا يكتب الناس لأقرأ أنا ؟

ـــ أيهما أعظم شأنا ؟

ـــ لا تسألنى أيهما أعظم شأنا ، ولكن سلنى أيهما أسعد حالا ، إنى أعد العمل لعنة البشرية ، لا لأنى كسول ، كلا ، ولكن لأن العمل مضيعة للوقت وسجن للفرد وحائل منيع دون الحياة ، الحياة السعيدة هى الفراغ السعيد ..

حدجه كمال بنظرة دلت على أنه لم يأخذ قوله مأخذ الجد ، ثم قال :

ـــ لا أدرى ماذا كانت تكون حياة الإنسان لولا العمل ؟. إن ساعة من الفراغ المطلق تنقضى أثقل من عام حافل بالعمل ..

ـــ يا للتعاسة !، إن صدق قولك نفسه هو ما يؤكد هذه التعاسة ، هل حسبتني أطيق الفراغ المطلق ؟، كلا وأسفاه ، لا أزال أشغل وقتى بالنافع والضار ، ولكنى آمل يوما أن أعاشر الفراغ المطلق معاشرة سعيدة ..

هم بالتعليق على قوله ، ولكن جاء صوت من ورائهما يتساءل « فيم تتحدثان يا ترى » ، صوت أو بالحرى نغمة حلوة ما إن تتردد فى مسمعيه حتى تعزف أوتار قلبه مجاوبة إياها من الأعماق كأنها عناصر مؤتلفة فى لحن واحد وسرعان ما خلت نفسه من متواثب الفكر فغمرها فراغ مطلق ـــ ترى أهو الفراغ المطلق الذى يحلم به حسين ـــ هو ذاته لا شيء ؟ ولكنه السعادة كلها ..

والتفت إلى الوراء ، فرأى عايدة قادمة على بعد خطوات تتقدمها بدور حتى وقفتا أمامهما ، كانت ترتدى فستانا كمونيا وسترة صوفية زرقاء ذات أزرار مذهبة ، وقد تجلت بشرتها السمراء فى عمق السماء الصافية وصفاء الماء المقطر . وهرعت بدور إليه فتلقفها بين ذراعيه وضمها إلى صدره كأنما ليوارى فى عناقها ما اعتراه من هيمان ، وعند ذاك جاء خادم مسرعا فوقف أمام حسين وهو يقول بأدب « التليفون » . فقام حسين مستأذنا ، ومضى نحو السلاملك والخادم يتبعه ..

وهكذا وجد نفسه معها على انفراد ـــ وجود بدور لم يكن ليغير من هذا المعنى ـــ لأول مرة فى حياته ، تساءل فى إشفاق : ترى أتبقى أم تذهب ؟ ولكنها تقدمت خطوتين حتى صارت تحت مظلة الكشك جاعلة المنضدة بينها وبينه ، فدعاها إلى الجلوس بإشارة من يده ، ولكنها هزت رأسها بالرفض باسمة ، فقام واقفا

ورفع بدور بين يديه فأجلسها على المنضدة ، ولبث يربت رأس الصغيرة فى ارتباك وهو يبذل كل قوته كى يملك عواطفه ويتغلب على انفعاله .. مضت فترة صمت لم يسمع خلالها إلا حفيف الغصون وخشخشة أوراق جافة متناثرة وزقزقة عصفور ، فبدا المكان فيما لمحت عيناه من أرضه وسمائه وأشجاره وسوره البعيد الفاصل بين الحديقة والصحراء وقصة المعبودة المسبلة على جبينها والنور البديع المنبثق من حور مقلتيها ، بدا كل أولئك كأنه منظر بهيج من حلم سعيد ، لم يدر — على وجه اليقين — إن كان حقيقة ماثلة أمام ناظريه أم خيالة ملوحة حيال ذاكرته ، حتى سجع الصوت الرخيم وهو يقول مخاطبا بدور فيما يشبه التحذير : « لا تضايقيه يا بدور ! » فكان جوابه أن ضم بدور إلى صدره قائلا : « إن تكن هذه هى المضايقة فما أحبها إلى نفسى ! » ، ورنا إليها وفى عينيه أشواق ، وراح يتملى منظرها آمنا هذه المرة من الرقباء منعما فيها التأمل كأنما يستكنه أسرارها ويطبع على صفحة مخيلته ملامحها ورموزها ، فتاه فى سحر المنظر حتى بدا ذاهلا أو غائبا ، وما يدرى إلا وهى تتساءل :

— ما لك تنظر إلى هكذا ..؟!

فأفاق من غشيته ، وتجلى فى عينيه الارتباك فابتسمت متسائلة :

— هل تريد أن تقول شيئا ؟

هل يريد أن يقول شيئا ؟، إنه لا يدرى ماذا يريد ، حقا إنه لا يدرى ماذا يريد ، وتساءل بدوره :

— هل قرأت فى عينى هذا ؟

أجابت وثغرها يفتر عن ابتسامة غامضة :

— نعم ..

— ماذا قرأت فيهما ؟

فرفعت حاجبيها كالمتعجبة ، وهى تقول :

— هذا ما أردت معرفته ..

أيبوح لها بسره المكنون قائلا بكل بساطة « أحبك » وليكن ما يكون ! لكن ما جدوى البوح ؟، وماذا يكون من أمره لو قطع الاعتراف ما بينه وبينها من صداقة ومودة — كما هو الراجح — إلى الأبد ؟!. وانتبه — وهو يتأمل — إلى النظرة التى

تلوح فى عينيها الجميلتين ، نظرة مطمئنة شديدة الثقة بنفسها جريئة لا يعتورها ارتباك أو خجل ، نظرة كأنما تهبط عليه من عل بالرغم من أنها فى مستوى نظره ، فلم يرتح لها وزادته ترددا ، ماذا وراءها يا ترى ؟. وراءها فيما رأى شعور بالاستهانة ، وربما العبث كأنما هى بالغ ينظر إلى طفل ، ولعلها لم تخل كذلك من تعال لا يمكن أن يبرره فارق السن وحده إذ لم تكن تكبره إلا بعامين على أكثر تقدير ، أفلا تكون هذه النظرة الخليقة بأن يلقيها هذا القصر الشامخ بشارع السرايات على البيت القديم ببين القصرين ؟، ولكن لم لم يلمحها فى عينيها من قبل ذلك ؟، ربما لأنها لم تنفرد به من قبل أو لأنه لم يتح له أن ينعم فيها النظر إلا هذه الساعة ، وآلمه ذلك وأحزنه حتى فترت نشوته أو كادت . ورفعت بدور نحوه يديها داعية إياه لحملها ، فتناولها فى حضنه ، وإذا بعايدة تقول :

ـــ يا للعجب !، لماذا تحبك بدور كل هذا الحب ؟

فقال وهو ينظر فى عينيها :

ـــ لأنى أكن لها مثله وأكثر ..

فتساءلت كالمرتابة :

ـــ أهذا قانون يركن إليه ؟

ـــ الحكمة السائرة تقول « من القلب للقلب رسول » ..

فجعلت تنقر المنضدة بأناملها وهى تتساءل :

ـــ هب فتاة جميلة أحبها كثيرون ، فهل تحبهم جميعا ؟، أرنى كيف يصدق قانونك فى هذه الحال ..

فقال وقد أذهله سحر الحوار عن كل شىء حتى أحزانه :

ـــ يكون من أمرها أن تحب أصدقهم حبا لها !..

ـــ وكيف تميزه من الآخرين ؟..

لو يدوم هذا الحوار إلى الأبد !

ـــ أحيلك مرة أخرى إلى الحكمة السائرة « من القلب للقلب رسول » !

فضحكت ضحكة مقتضبة مثل رنة الوتر ، وقالت فى تحد :

ـــ لو صح هذا ما خاب محب صادق فى حبه !، فهل هذا صحيح ؟!

صدمه قولها كما تصدم حقائق الحياة المستنيم إلى المنطق وحده ، فلو صح منطقه

لوجب أن يكون أسعد الناس بحبه ومحبوبه ، ولكن أين هو من ذلك ؟!، الحق أن تاريخ حبه الطويل لم يعدم لحظات أمل خلت كان يضيء ظلمات قلبه بسعادة وهمية على أثر ابتسامة حلوة يجود بها المحبوب أو كلمة عابرة قابلة للتأويل أو حلم سعيد عقب ليلة فكر وسهاد ولواذا بقول سائر له احترامه فى نفسه مثل « من القلب للقلب رسول » ، فكان يتعلق بالأمل الخلب فى إصرار اليائس حتى تعيده الحقيقة إلى وعيه ، ها هو الساعة يتلقى هذه الجملة الساخرة الحاسمة كالدواء المر ليتداوى بها مستقبلا من كواذب الآمال ، وليعرف على وجه اليقين موضعه أين يكون ، ولما لم يحر جوابا على سؤالها الذى تحدته به ، هتفت معبودته ومعذبته بلهجة المنتصر :

ـــ غلبت ..!

واستحكم الصمت مرة أخرى ، فعاود مسمعيه حفيف الغصون وخشخشة الأوراق الجافة وزقزقة العصفور ، غير أنه تلقاها هذه المرة بوجد فاتر وقلب خائب ، ولاحظ أن عينيها تتفحصانه بإمعان لا داعى له ، وأن نظرتها تزداد جرأة وثقة وما يوحى بالعبث ، وأنها أبعد ما يكون عن منظر أنثى تصدت لذكر ، فشعر بغمز فى قلبه وبرودة ، وتساءل هل قدر له أن ينفرد بها لتتقوض أحلامه دفعة واحدة ؟!، ولاحظت قلقه ، فضحكت ضحكة لاهية ، وقالت فى دعابة وهى تومىء إلى رأسه :

ـــ لا يبدو أنك شرعت فى تربية شعرك ؟

فقال باقتضاب :

ـــ كلا ..

ـــ ألا يروقك ذلك ؟

وهو يمط بوزه باستخفاف :

ـــ كلا ..

ـــ قلنا لك إنه أجمل ..

ـــ هل ينبغى للرجل أن يكون جميلا ..؟

فقالت باستغراب :

ـــ طبعا الجمال محبوب ، سواء فى الرجال والنساء ..؟

هم بأن يردد بعض محفوظاته مثل « جمال الرجل فى أخلاقه » الخ ، ولكن غريزة

من غرائزه أوحت إليه بأن مثل هذا القول ـــ مع صدوره عن شخص فى صورته ـــ أن يلقى عند معبودته إلا الهزء والسخرية ، فقال وهو يعانى وخزا فى قلبه داراه بضحكة مصطنعة :

ـــ لست من رأيك ...

ـــ أو لعلك تنفر من الجمال كما تنفر من البيرة ولحم الخنزير !

فضحك ضحكة يعالج بها يأسه وقهره ، فعادت تقول :

ـــ الشعر الطبيعى غطاء طبيعى أعتقد أن رأسك فى حاجة إليه ، ألا تعلم أن رأسك كبير جدا ؟.

ذو الرأسين!. أنسيت ذلك النداء القديم ؟.. يا للتعاسة !

ـــ هو كذلك ...

ـــ لم ؟..

أجاب وهو يهز رأسه فى إنكار :

ـــ سليه بنفسك فإننى لا أدرى ..

ضحكت ضحكة خافتة ، أعقبها صمت ، معبودك جميل فاتن ساحر ، ولكنه ذو جبروت كما ينبغى له ، ذق جبروته وتلقن شتى أنواع الألم . ولم ترحمه فيما بدا ، لم تزل عيناها الجميلتان تصعدان البصر فى وجهه وتصوبان حتى تبتتا على .. ، أجل على أنفه !.. هنالك وجد قشعريرة فى أعماقه حتى قف شعره وغض البصر وهو خائف يترقب ، وسمعها تضحك ، فرفع عينيه وهو يتساءل :

ـــ ماذا يضحكك ؟

ـــ ذكرت أمورا مثيرة طالعتها فى مسرحية فرنسية معروفة ، ألم تقرأ « سيرانو دى برجراك ؟ » .

أنسب الأوقات للاستخفاف بالألم وقت يزيد فيه الألم عن حده ، قال بهدوء واستهانة :

ـــ لا داعى للمداراة ، أنا أعرف أن أنفى أكبر من رأسى ، ولكن أرجو ألا تسألى مرة أخرى « لم ؟ » سليه بنفسك إن شئت ..!

وإذا ببدور تمد يدها فجأة فتقبض على أنفه ، فأغرقت عايدة فى الضحك وهى تميل برأسها إلى الوراء ، ولم يملك هو أيضا إلا أن يضحك ، ثم سأل بدور مداراة

لارتباكه :

ــ وأنت يا بدور ، هل هالك أنفى ؟!..

وترامى إليهم صوت حسين وهو يهبط سلم الفراندا ، فغيرت عايدة من لهجتها فجأة ، وقالت له بصوت جمع بين الرجاء والتحذير :

ــ إياك أن تزعل من مزاحى !..

عاد حسين إلى الكشك ، فجلس على كرسيه داعيا كمال إلى الجلوس فاقتدى به ــ بعد تردد ــ واضعا بدور على حجره ، غير أن عايدة لم تلبث بعد ذلك إلا قليلا فأخذت بدور وحييهما ، ثم انصرفت وهى تلحظ كمال بنظرة ذات معنى خاص ، وكأنما تكرر تحذيره من الزعل ، لم يجد من نفسه أى رغبة فى استئناف الحديث فاكتفى بالإصغاء أو بالتظاهر بالإصغاء مع المشاركة فيه بين حين وآخر بسؤال أو تعجب أو استحسان أو استهجان لإثبات وجوده ليس إلا ، وكان من حسن حظه أن عاد حسين إلى طرق موضوع قديم لا يتطلب انتباها أكثر مما عنده ، وهو رغبته فى السفر إلى فرنسا ومعارضة أبيه التى يأمل فى التغلب عليها قريبا ،. أما الذى كان يشغل قلبه وفكره معا فهو ذلك المظهر الجديد الذى تبدت به عايدة فى الدقائق التى جمعت بينهما على انفراد أو على شبه انفراد ، ذلك المظهر الموسوم بالاستخفاف والسخرية والقسوة ، أجل القسوة !. فقد عبثت به بدون رحمة وأعملت فيه دعابتها كما يعمل المصور ريشته فى الخلقة الآدمية ليستخرج منها صورة كاريكاتورية فذة فى قبحها وصدقها معا !. ذكر ذلك المظهر ذاهلا ، ومع أن الألم كان يسرى فى روحه كما يسرى السم فى الدم ناشرا فيها ظلا ثقيلا من القنوط والكآبة ، فإنه لم يجد فى نفسه سخطا أو غضبا أو احتقارا له ، أليس هو صفة جديدة من صفاتها ؟. بلى ، لعله أن يكون غريبا كولعها بالرطانة وشرب البيرة وأكل لحم الخنزير ، ولكنه ككل أولئك صفة منسوبة إلى ذاتها ، خليقة بأن تتشرف بهذا الانتساب وإن عدت فى غيرها نقيصة أو استهتارا أو معصية ، ولا ذنب لها هى أن نشأ عن صفة من صفاتها ألم فى قلبه أو يأس فى نفسه ما دام العيب عيبه هو لا عيبها هى ، وهل كانت هى التى كبّرت رأسه أو غلّظت أنفه ؟. أو هل تراها جارت بدعاباتها على الصدق والواقع ؟. لم يحدث شىء من هذا فانتفى عنها الملام وحق عليه الألم ، وعليه أن يتقبله بتسليم صوفى كما يتقبل العابد القضاء وهو أصدق ما يكون

إيمانا بأنه قضاء عادل مهما يكن من قسوته ، وأنه صادر عن معبود كامل لا مظنة فى صفة من صفاته أو إرادة من إراداته.. هكذا خرج من التجربة القصيرة العنيفة التى صهرته منذ دقائق وهو أشد ما يكون ألما وعذابا ولكن دون أن ينال ذلك من قوة حبه وافتنانه بالحبيب !.. الساعة يحظى بمعرفة ألم جديد ، ألم الرضى بحكم قاس قضى عليه بعدم الأهلية ، كما عرف من قبل ـــ عن طريق الحب أيضا ـــ ألم الفراق وألم الإغضاء وألم الوداع وألم الشك وألم اليأس ، وكما عرف أيضا ألما يحتمل وألما يستلذ وألما لا يسكن مهما قدم له من قرابين التأوهات والدموع ، كأنما أحب ليتفقه فى معجم الألم ، ولكنه على التماع الشرر المتطاير من ارتطام الامه يرى نفسه ويعرف أشياء ، ليس الله والروح والمادة ـــ فحسب ـــ ما يجب أن تعرفه ، ما الحب ؟.. ما البغض ؟.. ما الجمال ؟.. ما القبح ؟.. ما المرأة ؟.. ما الرجل ؟.. كل أولئك يجب أن تعرف أيضا ، أقصى درجات الهلاك تماس أولى درجات النجاة ، اذكر ضاحكا أو اضحك ذاكرا أنك هممت بالإفضاء إليها بمكنون سرك !. اذكر باكيا أن أحدب نوتردام ملأ حبيبته رعبا وهو يحنو عليها مواسيا ، وأنه ـــ أحدب نوتردام ـــ لم يستثر عطفها البرىء إلا وهو يلفظ آخر أنفاسه الأخيرة ، « إياك أن تزعل من مزاحى » !.. حتى راحة اليأس تضن بها عليك ، فليفصح المعبود عن ذات نفسه علنا نخرج من جحيم الحيرة ونطمئن فى قبر اليأس ، هيهات أن يقتلع اليأس جذور الحب من قلبى ، ولكنه على أى حال مناجاة من كواذب الآمال !..

والتفت حسين نحوه ليسأله عن سر صمته ، ولكنه لمح ـــ فيما بدا ـــ شخصا قادما ، فأدار رأسه ثم هتف :

ـــ ها هو حسن سليم قد أقبل ، كم الساعة الآن ؟

فالتفت كمال إلى الوراء ، فرأى حسن مقبلا نحو الكشك ..

١٩

غادر حسن وكمال سراى آل شداد والساعة تدور فى الواحدة ، وهمّ كمال بافتراق عن صاحبه أمام باب القصر ، ولكن الآخر قال له برجاء :

ـــ هلا تمشيت معى قليلا من الوقت ..!

فلبّى كمال الدعوة عن طيب خاطر ، وسارا فى شارع السرايات جنبا إلى

جنب .. كمال بقامته الطويلة ، وحسن لا يكاد يبلغ رأسه منكب صاحبه ، لم يكن يخلو من تساؤل !! خاصة وأن الوقت لم يكن أنسب الأوقات للمشى الذى ليس وراءه هدف ، وما يدرى إلا وحسن يلتفت إليه متسائلا :

ــ فيم كنتما تتحدثان ؟

فأجاب كمال وهو يزداد تساؤلا :

ــ فى أمور شتى كالعادة ، سياسة .. ثقافة الخ ..

فكانت مفاجأة حقا أن يقول له بصوته الهادىء المتزن :

ــ أعنى أنت وعايدة ..!

فاستولت الدهشة على كمال ، حتى لبث ثوانى لا يتكلم ، ثم تمالك نفسه فسأله :

ــ كيف عرفت هذا ولم تكن معنا ؟

فقال حسن سليم دون أن يلوح فى وجهه أى تغيير :

ــ جئت فى أثناء حديثكما ، فتراءى لى أن أذهب إلى حين حتى لا أقطعه عليكما ..

ترى أكان يسلك مسلكه لو وجد نفسه فى موقفه ؟. واشتدت به الحيرة وخالطه شعور بأنه مقبل على حديث مثير ذى شجون ، قال :

ــ لا أدرى ماذا حملك على ذلك التصرف ، ولو لمحتك ما تركتك تذهب ..

ــ للياقة أحكام !. أعترف بأننى شديد الحساسية فى هذه الناحية ..

آداب أرستقراطية !.. أين أنت من إدراكها .

ــ لا تؤاخذنى إذا صارحتك بأنك تدقق أكثر مما ينبغى ..

ابتسم حسين ابتسامة خفيفة لم تمكث على شفتيه ، ثم بدا كالمنتظر ، ولما طال به الانتظار عاد يتساءل :

ــ نعم ؟.. فيم كنتما تتحدثان ؟

كيف إذن ارتضت آداب اللياقة مثل هذا الاستجواب ؟!. وفكر لحظات فى توجيه هذه الملاحظة إليه ، غير أنه دقق فى اختيار الصياغة الجديرة بالاحترام الذى يكنه له ــ احترام يرجع إلى شخصيته أكثر مما يرجع إلى سنه ــ حتى

قال :

ـــ المسألة أبسط من أن تحتاج إلى هذا كله ، غير أنى أتساءل عن مدى التزامي بالإجابة !

فبادره حسن قائلا بلهجة المعتذر :

ـــ أرجو ألا ترمينى بلهجة المتطفل أو بدس أنفى فى خاص شئونك ، فإن لدىّ من الأسباب ما يبرر هذا السؤال ، وسوف أحدثك عن أمور لم تعرض مناسبة تجعلنى أحدثك عنها من قبل ، غير أنى اعتقدت ـــ اعتمادا على ما بيننا من صداقة ـــ أنك لن تضيق بسؤالى ، أرجو ألا تفهم الأمر على غير هذا الوجه . . !

خف التوتر ، ولعله سر لتلقى هذا الكلام الرقيق عن حسن سليم بالذات ، الشخص الذى طالما رآه مثالا للأرستقراطية والنبل والكبرياء ، فضلا عن أنه كان أرغب منه فى استنفاد أوجه الحديث عن أمر يتعلق بمعبودته . لو كان إسماعيل لطيف هو صاحب السؤال ما احتاج الأمر إلى شىء من هذا اللف والدوران حول ما يجب وما لا يجب وما يليق وما لا يليق ، وربما كان أفضى إليه بكل شىء وهما يتضاحكان ، ولكن حسن سليم لا يخرج عن تحفظه أبدا ولا يخلط بين الصداقة ورفع الكلفة ، فلا بأس من أن يؤدى تمس تحفظه !. قال :

ـــ أشكرك على حسن ظنك ، وثق بأنه لو كان ثمة ما يستحق أن أخبرك به ما كتمته عنك ، ليس إلا أننا تكلمنا بعض الوقت فى شئون عادية وهذا كل ما هنالك ، غير أنك أيقظت حب الاستطلاع فى نفسى فهل لى أن أسألك ـــ ولو من باب العلم بالشىء ـــ عن الأسباب التى تراها مبررة لسؤالك ؟.. لست ألح بطبيعة الحال ، بل إنى على أتم الاستعداد للنزول عن سؤالى إذا لم يصادف منك قبولا . . !

قال حسن سليم بهدوئه واتزانه المألوفين :

ـــ سأحدثك عما تسأل عنه ، ولكن أرجو أن تنتظر قليلا ، يبدو أنك لا تود إخبارى عما دار بينكما من حديث ، وهذا حقك لا ريب فيه ، بل لا أجد فيه إخلالا بواجب الصداقة ، ولكنى أود أن ألفت نظرك إلى أن كثيرين يخدعون بحديث عادى ويفسرونه تفسيرا لا يمت للواقع بسبب ، وربما أحدثوا لأنفسهم

بسبب ذلك متاعب لا داعى لها ..!

أفصح عما تريد قوله ، فى الجو نذر تجهم لا يلبث أن ينقلب إعصارا فيعصف بقلبك المطعون ، كأن به موضعا سليما لم يطعن !. أنت أنت المخدوع يا صاح ، ألا تدرى أنه الحياء وحده الذى يمنعنى من أن أفضى إليك بما كان ؟!. فلتصعقنى الصواعق إن أرحت لك بالا !.

ـــ لم أفهم مما قلت حرفا ..!

علا صوت حسن قليلا ، وهو يقول :

ـــ لسانها يجود فى يسر بألطف الكلام ، فيحسبه السامع ذا مغزى أو أن وراءه عاطفة ما ، ولكنه محض كلام لطيف تخاطب به كل من يحادثها سرا أو جهرا !. وكم خدع كثيرين ..!

برح الخفاء ، صاحبك مصاب بالداء الذى هصرك !. من يكون حتى يدعى العلم بالبواطن ؟!، شد ما يثير حنقى !. قال باسما وهو يتظاهر بعدم الاكتراث :

ـــ يبدو أنك واثق مما تقول !؟

ـــ إنى أعرف عايدة حق المعرفة ، نحن جيران منذ بعيد ..

الاسم الذى يهاب النطق به فى السر فضلا عن الجهر ينطق به هذا الشاب المفتون بلا مبالاة ، كأنه اسم فرد من غمار الملايين !. هذه الجرأة فيه تخفضه فى قلبه درجات وترفعه فى خياله درجات ، وجملة « نحن جيران منذ بعيد » حزّت فى قلبه كالخنجر فأطاحت به كما تطيح النوى بالغريب . سأله بلهجة مؤدبة وإن لم يخل مدلولها من سخرية :

ـــ ألا يجوز أن تكون خدعت أيضا كالآخرين ؟..

فتراجع رأس حسن فى كبرياء ، وهو يقول فى يقين :

ـــ لست كالآخرين ..!

شد ما أحنقه غطرسته ، شد ما أحنقه جماله وثقته بنفسه ، هذا الابن المدلل للمستشار الخطير الذى ترتقى الشبهات إلى أحكامه السياسية .! وندت عن حسن « هه » كأنه ذيل ضحكة وإن لم تضحك أساريره ، أراد أن يمهد بها للانتقال من طبقة صوتية متغطرسة إلى طبقة أخرى لطيفة ، ثم قال :

ـــ إنها فتاة ممتازة لا تشوبها شائبة ، ولو أن مظهرها وحديثها وأنسها تجر

عليها الظنون أحيانا !

فبادره كمال قائلا بحماس :

ـــ إن مظهرها ومخبرها على السواء لفوق كل ظن !.

فحنى حسن رأسه بامتنان كأنما يقول له « أحسنت » ، ثم قال :

ـــ هذا ما ينبغى أن تراه عين بصيرة سليمة ، غير أن ثمة أمورا تحير بعض الأفهام ، سأضرب لك أمثلة على سبيل التوضيح : إن البعض يسىء فهم اختلاطها فى الحديقة بأصدقاء أخيها حسين ، نابذة ما جرت به التقاليد الشرقية ، والبعض الآخر يقف متسائلا حيال محادثتها لهذا وملاطفتها لذاك ، وآخرون يتوهمون وراء الدعابة اللطيفة ـــ تصدر عنها عفوا ـــ سرا خطيرا ، هل أدركت ما أعنى ؟!

فقال كمال بنفس الحماس السابق :

ـــ إنى أدرك ما تعنى طبعا ، ولكنى أخشى أن تكون مغاليا فى ظنونك ، عنى أنا شخصيا لم يساورنى شك قط فى أى تصرف من تصرفاتها ، لأن أحاديثها ودعابتها ظاهرة البراءة ، ولأنها من ناحية أخرى لم تتلق تربية شرقية خالصة حتى تطالب بالمحافظة على التقاليد أو تؤاخذ على الخروج عليها ، وأظن أن هذا هو رأى الآخرين أيضا ..

هز حسن رأسه كأنما يتمنى لو يستطيع أن يؤمن برأيه فى « الآخرين » ، غير أن كمال لم يعن بالتعليق على ملاحظته الصامتة ، كان سعيدا بالدفاع عن معبودته ، سعيدا بالفرصة التى تهيأت له لإعلان رأيه فى طهارتها وبراءتها ، أجل لم يكن صادقا فى حماسه ـــ لا لأنه كان يبطن غير ما يعلن ، فطالما آمن بأن معبودته فوق منال الشبهات ـــ ولكن حزنا على الأحلام السعيدة التى قامت على افتراض وجود « سر » وراء دعابات المعبودة وتلميحاتها الرقيقة ، إن حسن يبدد تلك الأحلام كما بددها حديث اليوم تحت الكشك ، ومع أن قلبه المكلوم كان يجاهد سرا للاستمساك ولو بخيط واه من خيوط الأمل ، فإنه جارى حسن سليم مجاراة المؤمن برأيه تغطية لموقفه ومداراة لهزيمته وإبطالا لادعاء الآخر بأنه « العارف » وحده لحقيقة المعبودة !. عاد حسن يقول :

ـــ لا غرابة فى أن تدرك هذا فإنك شاب لبيب ، الواقع كما قلت إن عايدة

بريئة ولكن .. معذرة إذا صارحتك بخصلة فيها ربما بدت غريبة في عينيك ، وربما كانت مسئولة لحد كبير عن سوء فهم الكثيرين لها ، أعنى شغفها بأن تكون « فتاة أحلام » كل من يتصل بها من الشباب !.. لا تنس أنه شغف برىء ، فإننى أشهد بأننى لم أصادف فتاة أحفظ لكرامتها منها ، ولكنها مولعة بقراءة الروايات الفرنسية كثيرة التحدث عن بطلاتها مفعمة الرأس بالخيال !

ابتسم كمال ابتسامة مطمئنة أراد أن يعبر بها عن أنه لم يسمع جديدا فيما قال صاحبه ، ثم قال مدفوعا برغبة فى إغاظته :

ـــ عرفت هذا كله من قبل ، دار حديثنا يوما ـــ أنا وحسين وهى ـــ عن الموضوع ذاته !

تمكن أخيرا أن يخرجه عن وقاره الأرستقراطى ، فنطقت أساريره بالدهش وتساءل كالمنزعج :

ـــ متى كان ذلك ؟. لا أذكر أننى حضرت هذا الحديث !. هل قيل أمام عايدة أنها تود أن تكون « فتاة أحلام » كل شاب ؟..

رمق كمال ما طرأ عليه من تغير بعين الظفر والارتياح ، غير أنه أشفق من التمادى ، فقال بحذر :

ـــ لم يرد ذكر هذا بلفظه ولكن بالمعنى الذى يؤدى إليه خلال حديث دار حول ولعها بالروايات الفرنسية وإغراقها فى الخيال !.

استرد حسن هدوءه واتزانه ، ولزم الصمت مليا كأنه يحاول أن يستجمع فكره الذى نجح كمال فى تشتيته إلى حين ، وبدا كالمتردد لحظات حتى شعر كمال بأنه يود أن يعرف كل شىء عن الحديث الذى دار بينه وبين عايدة وحسين ، متى وقع ؟!. ماذا جعلهم يطرقون هذه الشئون الحساسة ؟! وما تفصيل ما قيل فيه ؟! لولا أن كبرياءه كان يمنعه من السؤال ، وأخيرا قال :

ـــ ها أنت نفسك تشهد لصدق رأيى ، ولكن من سوء الحظ أن كثيرين لم يفهموا سلوك عايدة كما فهمته أنت ، فلم يفطنوا إلى حقيقة هامة وهى أنها تحب حب الشخص لها لا الشخص نفسه !.

لو اطلع الأحمق على الواقع ما تجشم كل هذا التعب الضائع ، ألا يعلم بأننى لا أطمع حتى فى أن تحب حبى ؟. انظر إلى رأسى وأنفى وانعم بالا !. قال

بصوت لم يخل من تهكم :
ـــ تحب حب الشخص لها لا الشخص نفسه !. يا لها من فلسفة !.
ـــ هي حقيقة أنا بها عليم !
ـــ ولكنك لا تستطيع أن تضمن صدقها فى جميع الأحوال !؟
ـــ بلى أستطيع وأنا مغمض العينين .
غالب كمال حزنه وهو يتساءل متظاهرا بالدهش :
ـــ أتستطيع أن تؤكد عن يقين أنها لا تحب هذا الشخص أو ذاك ؟
فقال حسن بثقة واطمئنان :
ـــ أستطيع أن أؤكد أنها لم تحب أحدا ممن يتوهمون أحيانا أنها تحبهم !
اثنان يحق لهما أن يتكلما بهذه الثقة : المؤمن والأحمق ، وهو ليس بالأحمق ، ترى لم يتحرك الألم ولا جديد فيما سمعت ؟!. الحق أنى تألمت اليوم تألم عام من أعوام الحب .
ـــ ولكنك لا تستطيع أن تؤكد أنها لا تحب إطلاقا ؟!
ـــ لم أقل هذا ..
فرمقه بالعين التى يتطلع بها الإنسان إلى العرَّاف ، ثم سأله :
ـــ أتدرى إذن أنها تحب ؟
فحنى رأسه بالإيجاب ، وقال :
ـــ إنما دعوتك إلى المشى لأحدثك عن هذا ..!
غاص قلبه فى أعماق صدره كأنما يحاول الفرار من الألم ولكنه غرق فى عباب الألم ، كان قبل ذلك يتألم لأنها لا يمكن أن تحبه ، ها هو معذبه يؤكد له أنها تحب .. إن المعبودة تحب !.. إن قلبها الملائكى يخضع لنواميس الشوق والحنين والرغبة واللهفة الموجهة جميعا إلى شخص معين !. أجل كان عقله ـــ لا شعوره ـــ يسلم أحيانا بإمكان ذلك ، ولكن كما يسلم بالموت كفكرة مجردة لا كحقيقة باردة ناشبة فى جسد عزيز أو فى جسده هو بالذات ، لذلك فاجأه الخبر كأنه يتحقق لأول مرة فى الوجود والفكر معا ، تأمل هذه الحقائق جميعا واعترف بأن ثمة آلاما فى هذه الدنيا لم تخطر لك على بال رغم خبرتك العميقة بالألم ، استطرد حسن قائلا :

ـــ قلت لك من بادىء الأمر إن لدىَّ من الأسباب ما يبرر هذا الحديث معك ، وإلا ما سمحت لنفسى بالتدخل فى خاص شئونك ..

ينبغى أن تلتهمه النار المقدسة حتى آخر ذرة من رماد .

ـــ إنى مقتنع بما تقول ، وها أنا مصغ إليك ..

ابتسم حسن ابتسامة خفيفة أوحت بتردده حيال الكلمة الأخيرة الفاصلة ، فصبر كمال ، ثم تعجله ـــ رغم أن قلبه استشف الحقيقة المفجعة ـــ قائلا :

ـــ قلت إنك تدرى أنها تحب ..!؟

فنبذ حسن التردد قائلا :

ـــ نعم ، يوجد بيننا ما يجعل لى الحق فى ادعاء ما قلت ..!

عايدة تحب أيتها السماوات !، أوتار قلبك تنقبض باعثة لحنا جنائزيا ، هل يكن قلبها لهذا الشاب السعيد مثل ما يكنه لها قلبك ، إن صح أن هذا من الممكنات فأحرى بالعالم أن يتصدع ، ليس صاحبك بكاذب، لأن النبيل الجميل لا يكذب ، قصارى أملك أن يكون حبها من جنس خلاف حبك ، وإذا لم يكن من الفاجعة بد فمن العزاء أن يكون حسن هو المحبوب ، من العزاء أيضا أن الحزن والغيرة لا يطمسان الحقيقة أمام عينيك ، هذا الغنى الساحر العجيب !.

قال كالذى يضغط على زناد المسدس وهو يعلم أنه فارغ :

ـــ يبدو أنك مطمئن إلى أنها تحب ـــ هذه المرة ـــ الشخص نفسه لا حب الشخص لها !

فندت عنه « هه » مرة أخرى ليعرب بها عن ثقته . ولمحه بنظرة سريعة ليرى مدى إيمانه بما يقول ، ثم قال :

ـــ لم يكن حديثنا قط ـــ أنا وهى ـــ من النوع الذى يحتمل معنيين !

أى نوع من الحديث هو ؟. حياتى كلها أهبها ثمنا لكلمة منه ، أعرف الحقيقة كلها وأتجرع العذاب حتى الثمالة ، ترى هل سمع الصوت المطرب وهو يقول له « أحبك » ؟، بالفرنسية قالها أم بالعربية ؟، بمثل هذا العذاب تشتعل النيران ، قال بهدوء :

ـــ أهنئك ، كلاكما فيما أرى جدير بصاحبه !.

ـــ شكرا ..

ـــ غير أني أتساءل عما دعاك إلى الإفضاء إليّ بهذا السر الثمين ؟

فرفع حاجبيه حسن ، وهو يقول :

ـــ لما وجدتكما تتحدثان على انفراد أشفقت أن تخدع ببعض القول كما تخدع كثيرون ، فصممت على مصارحتك بالحقيقة ، لأنى كرهت فكرة انخداعك أنت بالذات ..!

غمغم كمال قائلا « شكرا » تأثرا بالعطف السامى ، عطف الشاب الموهوب الذى تحبه عايدة ، الذى كره له الانخداع فقتله بالحقيقة ، ترى ألم تكن أوهام الغيرة بين البواعث التى أغرته بمصارحته بسره ؟ ، ولكن أليس له عينان يرى بهما رأسه وأنفه ؟!. استطرد حسن قائلا :

ـــ إنها ووالدتها كثيرا ما يزوران بيتنا ، وهناك تسنح لنا فرص للحديث ..

ـــ على انفراد ؟

أفلتت العبارة منه بلا وعى ، فارتبك نادما وتورد وجهه ، ولكن الآخر قال ببساطة :

ـــ أحيانا ..

كم يود أن يراها فى هذا الدور ـــ دور المحبة ـــ الذى لم يخطر له فى خيال ، كيف تتجلى فى العين الساجية التى تلقى إليه بنظرتها من عل لمعة الوجد والحنان ؟، منظر يضيء العقل بقبس من الحقيقة المقدسة ويقتل القلب قتلا ، بهذا تستباح لعنة الكفر الأبدية ، روحك يتململ كطائر سجين يود أن ينطلق ، العالم ملتقى خرابات يستعذب عنه الرحيل ، لكنك حتى إذا صح عندك أن الشفاه تلاقت فى قبلة وردية فلن تعدم فى دوامة الجنون لذة الحرية المطلقة ، وسأله مدفوعا برغبة انتحارية لم يستطع مقاومتها فضلا عن فهمها :

ـــ كيف إذن توافق على اختلاطها بأصدقاء حسين ؟

تريث حسن قليلا قبل أن يجيب قائلا :

ـــ لعلى لا أرتاح إلى ذلك كل الارتياح ، ولكننى لا أجد فيه مأخذا وهى تمارسه على مرأى من أخيها ومن الجميع وبحكم تربيتها الأوربية ، ولا أخفى عليك أنى فكرت أحيانا فى مكاشفتها بامتعاضى ولكننى كرهت أن ترمينى بالغيرة ، وكم تود لو تثير غيرتى !، أنت تعرف طبعا هذه الحيل النسائية وأعترف لك بأنى لا

أستسيغها ..

لا عجب أن إثبات دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس قد أطاح بأوهام ودوَّخ رءوسا .

ـــ كأنها تتعمد مضايقتك !.

فقال حسن بلهجته الناطقة بالثقة :

ـــ على أنه فى وسعى دائما أن أحملها على الإذعان لمشيئتى إذا أردت !

أثارته هذه الجملة واللهجة التى قيلت بها إلى حد الجنون ، وتمنى لو يجد سببا يعتل به على ضربه ليمرغه ـــ وإنه لقادر ـــ فى التراب ، ولخفله من عل فلاح له الفارق بين طوليهما أكثر من الواقع بكثير ، لم لم تحب أيضا الذى دونها سنا ؟، وامن قلبه بأنه خسر الدنيا .

ودعاه حسن إلى تناول الغداء على مائدته ، فاعتذر شاكرا ، ثم تصافحا وافترقا .

عاد فاتر النفس مثقل القلب بالقنوط ، وكان يود أن يخلو إلى نفسه ليحتضن أحداث يومه متأملا حتى يستصفى معانيها كلها ، بدت الحياة متلفعة بثوب حداد ، ولكن ألم يكن يعلم من أول الأمر أن هذا الحب ضائع ؟ فأى جديد جلجلت به الحوادث ؟، على أى حال ليكن عزاؤه أن الآخرين يتكلمون عن الحب ، أما هو فيحب ملء قلبه . إن الحب الذى ينور روحه لا يستطيعه أحد سواه ، فهذا هو امتيازه وتفوقه ، ولن يتخلى عن حلمه القديم بأن يظفر بمعبودته فى السماء ، فى السماء حيث لا فوارق مصطنعة ولا رأس كبير ولا أنف غليظ ، فى السماء ستكون عايدة لى وحدى بحكم قوانين السماء ..

٢٠

كأنه لم يعد له وجود ، تجاهلته بحال لا يمكن أن يتأتى إلا عن تعمد ، فطن إلى ذلك أول ما فطن إليه صباح الجمعة التالى ـــ بعد مضى أسبوع على حديث حسن سليم بشارع السرايات ـــ فى اجتماع الأصدقاء بكشك الحديقة بسراى آل شداد . كانوا يتحادثون فجاءت عايدة كعادتها مصطحبة بدور ، لبثت عندهم قليلا تخاطب هذا وتداعب ذاك دون أن تعيره التفاتا ، فظن أول وهلة أن

دوره سيجيء . ولكن طال به الترقب ، ولاحظ إلى هذا أن عينيها لا تريدان أن تلتقيا بعينيه أو لعلهما تجتنبانه فخرج عن موقفه السلبي واعترض حديثها بملاحظة عابرة ليحملها على مخاطبته ، ولكنها واصلت الحديث متجاهلة إياه ، ومع أن أحدا لم يتنبه فيما بدا إلى مناوراته الفاشلة — لانهماكهم فى الحديث المحبوب — فإن ذلك لم يخفف من وقع اللطمة التي تلقاها من غير أن يدرك لها سببا ، غير أنه مال إلى تكذيب ما قام بنفسه ودارى شكوكه ، وجعل يتحين الفرص لتجربة حظه من جديد وهو من الإشفاق فى غاية ، وإذا ببدور تحاول الإفلات من يد عايدة ملوحة له بيدها المطلقة ، فتقدم منها ليأخذها بين ذراعيه ، ولكن عايدة جذبتها نحوها وهي تقول : « آن لنا أن نذهب » ، ثم حيتهم ومضت إلى حال سبيلها !

آه ما معنى هذا ؟ إن عايدة غضبانة عليه وما أرادت بمجيئها إلا أن تعالنه بغضبها ، ولكن فيم آخذته ؟. أى ذنب جنى ؟. أى هفوة كبيرة أو صغيرة أتى ؟. يا لها من حيرة هزئت بمنطقه وشتتت يقينه ، بيد أنه قبض على زمام نفسه بيد قوية أن تفضحه شجونه ، وكان على ضبط النفس قادرا ، فمثل دوره المألوف تمثيلا حسنا ووارى أثر الضربة القاصمة عن أعين الصحاب ، وقال لنفسه بعد تقوض المجلس : إنه يحسن به أن يواجه الحقيقة مهما تكن قاسية ، وأن يسلم بأن عايدة حرمته — اليوم على الأقل — من نعمة صداقتها .. إن فى قلبه العاشق مسجلا كهربائيا دقيقا لا يترك للحبيب همسة أو خطرة أو لمحة إلا سجلها . حتى النوايا يطلع عليها وحتى الآتى البعيد يبتدهه ، ليكن السبب ما يكون أو ليكن الأمر بلا سبب كمرض استعصى على الطب سره ، فإنه فى الحالين يرى كأنه ورقة شجر انتزعتها ريح عاتية من فنن غصن وألقت بها فى غث النفايات .

ووجد فكره يحوم حول حسن سليم ، ألم يختم حديثه معه بقوله « على أنه فى وسعى دائما أن أحملها على الإذعان لمشيئتى إذا أردت » ؟!. ولكنها جاءت اليوم كعادتها ، إن بلواه من تجاهلها إياه لا من غيابها ، ثم إنه وحسن افترقا على صفاء ، وليس ثمة ما يدعو حسن إلى مطالبتها بتجاهله ، وليست هى بالتى تمتثل أمر إنسان مهما يكن شأنه ، وليس هو بالمذنب ، فما سر التجنى يا رب السماوات ؟!، إن لقاء الكشك — بينه وبينها — على قسوته وعبثه الجارح برأسه وأنفه وكرامته لم يخل من مودة ودعابة ثم ختم بما يشبه الاعتذار ، ربما يكون قد قضى على أمله فى الحب

ولكنه لم يكن فى حبه أمل ، أما لقاء اليوم فابتلاه بالتجاهل . بالنبذ . بالصمت . بالموت ، ولأن يجفو الحبيب أو يقسو خير على أى حال من أن يمر بعابده وكأنه شيء لم يكن ، يا للتعاسة !، ألم جديد يضاف إلى معجم الآلام الذى يحمله على صدره ، ضريبة جديدة للحب ، وما أفدح ضرائبه ، يؤدى بها ثمن النور الذى يضيئه ويحرقه .

واحتقن بالغضب صدره ، عز عليه جدا ألا يحظى على حبه العظيم إلا بهذا الإعراض البارد المتعجرف ، وحز فى نفسه ألا يتمخض غضبه إلا عن الحب والولاء ، وإلا يرد اللطمة إلا بالابتهال والدعاء ، ولو كان المتجنى عليها شخصا آخر ولو كان حسين شداد نفسه لقطعه دون تردد ، أما وهو المعبود فقد ردت شظايا الغضب إلى نحره ، وانصبت العداوة على هدف واحد هو نفسه ، فنزعت به الرغبة فى الانتقام إلى إنزال العقاب بالجانى ــ الذى هو نفسه ــ قضى عليها بالحرمان من الدنيا ، وامتلأ بشعور عنيد محزون أملى عليه الإعراض عنها إلى الأبد !. رضى فيما رضى بصداقتها ، بل اعتبرها فوق أحلام مطمعه بالرغم من أن قوة حبه تضيق عنها السماوات والأرض ، ورضى أكثر من هذا باليأس من حبها قانعا من عربدة الأمانى بابتسامة حلوة أو كلمة رقيقة ولو تكون ابتسامة الوداع وكلمته ، غير أن التجاهل أحزنه وأذهله وخبله ثم من الدنيا جميعا نبذه ، ولعله أتاح له أن يشعر بشعور الميت لو كان ميت يشعر ، لم ترحمه الفكر ساعة من ساعات يقظته طول الأسبوع الذى قضاه بعيدا عن قصر آل شداد ، وتهالك شعوره فى اجترار الخيبة التى قرعته لحظة بعد أخرى ، وهو فى البيت صباحا يفطر على مائدة أبيه ، وهو فى الطريق يسير بحواس زائفة ، وهو فى مدرسة المعلمين يسمع بعقل غائب ، وهو يقرأ مساء بانتباه مشتت ، وهو يتذلل للنوم كى يقبله فى ملكوته ، ثم وهو يفتح عينيه فى الصباح الباكر فإذا بالفكر تتخاطفه كأنما كانت على عتبة الوعى ترصده أو كأنما هى التى طرقته بجزع النهم كى تواصل التهامه كرة أخرى ، ألا ما أفظع النفس إذا خانت صاحبها !..

ويوم الجمعة ذهب إلى قصر الحب والعذاب ، فبلغه قبل الميعاد المعتاد بقليل . لماذا ترقب هذا اليوم بصبر نافد ؟، ماذا يرجو عنده ؟. هل يطمع أن يجد ولو نبضا بطيئا ضعيفا ليوهم نفسه بأن جثة الأمل لم تفارقها الحياة بعد ؟، هل يحلم بمعجزة

ترد معبوده إلى الرضى على غير انتظار وبلا سبب كما غضب على غير انتظار وبلا سبب ؟. أو أنه يستزيد من الجحيم ناراً ظمأً إلى برودة الرماد ؟!، سار فى ممر الذكريات إلى الحديقة ، وإذا به يرى عايدة جالسة على كرسى واضعة بدور على حافة المائدة أمامها ، وليس فى الكشك سواها أحد !. توقف عن المسير وفكر فى العودة إلى الخارج قبل أن تلتفت ناحيته ، ولكنه نبذ هذه الفكرة بتحد وازدراء ، وتقدم صوب الكشك تدفعه رغبة شديدة فى مواجهة العذاب وكشف النقاب عن اللغز الذى فتك بأمنه وسلامه ، هذا الكائن اللطيف الجميل ، هذا الروح الشفاف المتنكر فى فستان امرأة ، هل يدرى ماذا فعل به جفاه ؟ ، هل ينام ضميره قرير العين لو شكا إليه ما عاناه ، ما أشبه استبداده باستبداد الشمس بالأرض الذى قضى عليها بأن تدور حولها فى دائرة مرسومة — لا تقترب منها فتندمج ولا تبتعد عنها فتنتهى — إلى الأبد !. لو تجود بابتسامة فيتداوى بها من آلامه جميعا !؟، وكان يقترب منها متعمدا أن يحدث فى مشيته صوتا لتنبيهها ، فأدارت رأسها نحوه كالمتسائلة ، ثم لم تفصح أساريرها عن شىء ، فوقف على بعد ذراعين من مجلسها ، وحنى رأسه فى خشوع ، وقال باسما :

— صباح الخير ..

فحنت رأسها حنوة صغيرة ، ولكنها لم تنبس ، ثم نظرت فيما أمامها .

لم يعد ثمة شك فى أن الأمل جثة هامدة ، وخيل إليه أنها ستصيح به « اذهب عنى برأسك وأنفك حتى لا يحجبا عنى ضوء الشمس ! » ، غير أن بدور لوحت له بيدها ، فمالت عيناه إلى وجهها الجميل المشرق ومضى نحوها ليدارى فى عطفها البرىء هزيمته فتعلقت بذراعيه ، فهوى رأسه إليها وقبّل خدها قبلة حنان وامتنان ، وإذا بالصوت الذى فتح له فيما مضى أبواب الموسيقى الإلهية يقول بجفاء :

— من فضلك لا تقبلها ، القبلة تحية غير صحية ..!

ندت عنه ضحكة حائرة لم يدر كيف ولا لم ندت ، ثم امتقع لونه ، وبعد دقيقة واجمة ذاهلة قال منكرا :

— إنها ليست القبلة الأولى فيما أذكر !

فرفعت كتفيها كأنما تقول « هذا لا يغير من الحقيقة شيئا » آه ، أيمضى إلى أسبوع جديد من العذاب دون أن ينطق بكلمة دفاعا عن نفسه ؟

ـــ اسمحى لى أن أتساءل عن سر هذا التغير الغريب ، فقد جعلت أتساءل عنه طوال الأسبوع الماضى دون أن أظفر بجواب !؟

لم يبد عليها أنها سمعته ، وبالتالى لم تعن بالرد عليه ، فعاد يقول وقد وشى صوته بحيرته وألمه :

ـــ إن ما يحزننى حقا هو أنى برىء لم أجن ما أستحق عليه العقاب !

ولم تزل مصرة على الصمت ، فخاف أن يجىء حسين قبل أن يستدرجها إلى الكلام ، فبادر يقول بلهجة جمعت بين التشكى والترجى :

ـــ ألا يستحق صديق قديم مثلى أن يكاشف على الأقل بذنبه ؟

فرفعت نحوه جانب رأسها ، ولحظته بنظرة مكفهرة اكفهرار السحاب المنذر بالمطر ، ثم قالت بلهجة غاضبة :

ـــ لا تدع البراءة الكاذبة ..!

يا رب السماوات هل ترتكب الذنوب بلا وعى من الجانى ؟!. قال فى نبرات متدافعة ، وهو يربت بحركة آلية يدى بدور التى حاولت أن تجذبه إليها وهى لا تدرك مما يدور شيئا :

ـــ صدقت ظنونى وا أسفاه !، هذا ما حدثنى به قلبى فكذبته ، إنى مذنب فى نظرك ، أليس كذلك ؟، ولكن بأى ذنب تتهميننى ؟!، خبرينى وحياتك ، لا تنتظرى أن أكون البادىء بالاعتراف لسبب بسيط ، وهو أننى لم أجن شيئا يستحق الاعتراف ، مهما أنقب فى زوايا نفسى وحياتى وتاريخى فلن أعثر على نية أو كلمة أو فعل وجّه ضدك بسوء ، إنى أعجب كيف لا تأخذين هذا مأخذ البديهيات من الأمور ؟!

فقالت بازدراء :

ـــ لست ممن يؤثر فيهن التمثيل ، سل نفسك عما قلت عنى !

فقال بانزعاج :

ـــ ماذا قلت عنك ؟، ولمن قلته ؟، أقسم لك ..

فقاطعته بضيق قائلة :

ـــ لا يهمنى القسم فى كثير أو قليل ، وفّره لنفسك ، إن الذى يغتاب الناس لا يؤتمن على قسم ، المهم أن تذكر ماذا قلت عنى ..!

رمى بمعطفه على مقعد كأنما ليأخذ كامل أهبته للنضال ، وابتعد خطوة عن بدور ليتخلص من محاولتها البريئة فى الاستئثار بانتباهه ، ثم قال بحرارة ناطقة بالصدق :

ـــ لم أقل عنك كلمة أخجل من إعادتها الآن على مسمعك ، لم أتفوه عنك بكلمة سوء فى حياتى وما كان ذلك فى وسعى لو تعلمين ، وإذا كان « بعضهم » قد أبلغك عنى ما أغضبك ، فهو واش حقير لا يستحق ثقتك ، وإنى على استعداد لمواجهته أمامك لترى بنفسك مبلغ صدقه أو بالحرى مدى كذبه . ماذا بك من عيب حتى أتحدث به ؟!، لشد ما أسأت بى الظن !

فقالت بتهكم :

ـــ شكرا على هذا الثناء الذى لا أستحقه ، لا أظننى أخلو من نقص ، على الأقل فإنى لم أتلق تربية شرقية خالصة !.

نشبت هذه الجملة الأخيرة فى انتباهه ، فذكر كيف وردت على لسانه وهو يحاور حسن سليم دافعا الشبهات عن معبودته ، فهل يكون حسن أعادها بطريقة أثارت الشك فى حسن مقصده ؟!، حسن سليم النبيل ؟، هل يتأتى هذا حقا ؟، شدما يدور رأسه !. قال وعيناه تنطقان بالدهش والأسف :

ـــ ماذا تقصدين ؟!، أعترف لك بأنى قائل هذه الجملة ، ولكن سلى حسن سليم يخبرك ، أو ينبغى له أن يخبرك ، بأننى قلتها وأنا أنوّه بمزاياك !..

فحدجته بنظرة باردة ، وتساءلت :

ـــ مزاياى ؟!، وهل رغبتى فى أن أكون « فتاة أحلام » كل شاب من بين هذه المزايا ؟!

فهتف كمال بانزعاج وغيظ :

ـــ هو قائل هذا عنك لا أنا ، هلا انتظرت حتى يحضر لأتحداه أمامك ؟!..

فواصلت تساؤلها الذى تتابع فى مرارة وسخرية قائلة :

ـــ وهل ملاطفتى إياك من بين هذه المزايا أيضا ؟

قال يائسا وقد عجز ، حيال انصباب التهم ، عن الدفاع :

ـــ ملاطفتك إياى ؟!، أين ؟، ومتى ؟.

ـــ فى هذا الكشك !؟ هل نسيت ؟!، أتنكر أنك أوهمته ذلك ؟!

آلمته سخريتها وهى تتساءل « هل نسيت ؟! » وأدرك لتوه أن حسن سليم ـــ يا

للحماقة ــ قد ظن بلقاء الكشك الظنون ، فكاشف حبيبته بشكوكه أو نسبها إليه ليتحقق منها .. حيل خبيثة راح هو ضحيتها !، قال بحزن وحنق :

ــ أنكر ، أنكر بكل قوة وصدق ، إني نادم على حسن ظني بحسن !

فقالت بكبرياء ، كأنما اعتبرت جملته الأخيرة موجهة إليها هي :

ــ إنه عند حسن الظن دائما ..

زفر غبارا ، وخيل إليه أن أبا الهول قد رفع قبضته الجرانيتية الهائلة التي لم تتحرك منذ آلاف السنين ، ثم هوى بها عليه ، فهرسه وواراه تحتها إلى الأبد ، قال بصوت متهدج :

ــ إذا كان حسن هو الذي أبلغك عني هذه الأكاذيب فهو كاذب وضيع ، ويكون هو الذي اغتابني لا أنا الذي اغتبتك ..!

لاحت في عينيها الجميلتين نظرة قاسية ، وتساءلت بحدة :

ــ أتنكر أنك انتقدت أمامه اختلاطي بأصدقاء حسين ؟!

أهكذا يحرف النبل الأرستقراطي الكلام ؟!، قال بتأثر شديد :

ــ كلا ، لم يحصل ذلك ، علم الله أني لم أقله منتقدا ، ولكنه ادعى ادعاءات كبيرة ، قال ... قال إنك تحبينه !، وقال إنه إن شاء منعك من الاختلاط بنا !، ولم أكن أقصد ..

قاطعته قائلة بازدراء وهي تقف منتصبة القامة في كبرياء ، حتى تموجت هالة شعرها الأسود بحركة رأسها المرفوع !

ــ أنت تهذي !، لا يهمني ما يقال عني ، إني فوق هذا كله ، ولا خطأ لي فيما أعتقد إلا أنني أهب صداقتي دون تمييز ..!

وأنزلت بدور إلى الأرض وهي تتكلم ، فتناولت يدها ثم ولّته ظهرها ، وغادرت الكشك ، فهتف بها متوسلا :

ــ انتظري لحظة من فضلك كي ..

ولكنها كانت قد ابتعدت ، وكان صوته قد علا أكثر مما ينبغي حتى خيل إليه أنه أسمع الحديقة كلها ، وأن الأشجار والكشك والكراسي ترمقه بنظرة جامدة ساخرة ، فأطبق فاه واعتمد براحته حافة المائدة ، فمال فرعه الطويل كأنما انثنى تحت ضغط القهر ، لم يمكث وحده طويلا ، فما لبث أن جاء حسين شداد طلق

المحيَّا كعادته ، فحياه تحيته الصافية الحلوة وجلسا على كرسيين متجاورين ، وتبعه بعد قليل إسماعيل لطيف ، وأخيرا جاء حسن سليم يسير فى خطواته المتمهلة وحركاته المترفعة . وتساءل كمال فى حيرة : ترى ألم يلمحهما حسن من بعيد كما لمحهما فى المرة السابقة ؟. ومتى — وكيف — يدرى بما دار بينهما من حديث قاطع أسيف !. وانفجر فى صدره الغيظ والغيرة كما تنفجر الزائدة ، بيد أنه آلى على نفسه ألا يشمت به غريما ، وألا يضع شخصه موضع السخرية أو العطف الزائف ، وألا يمكن أحدا من أن يطالع فى صفحة وجهه أثرا مما تضطرب به جوانحه ، فألقى بنفسه فى تيار الحديث ، ضحك لملاحظات إسماعيل لطيف ، وعلّق طويلا على تكوّن حزب الاتحاد وخروج الخارجين على سعد زغلول والوفد ودور نشأت باشا فى هذا كله ، بالاختصار مثَّل دوره خير تمثيل حتى انفض المجلس بسلام ، وغادر كمال وإسماعيل وحسن سراى آل شداد عند الظهر ، وكأن كمال لم يعد يحتمل مزيدا من الصبر ، فخاطب حسن قائلا :

— أريد أن أحدثك قليلا ..

فقال حسن بهدوء :

— تفضل ..

فنظر كمال إلى إسماعيل كالمعتذر ، وقال :

— على انفراد !

همَّ إسماعيل بالانسحاب ، فأوقفه حسن بإشارة من يده ، وقال :

— لست أخفى عن إسماعيل شيئا ..

فأحنقته هذه الحركة فاستشف وراءها مريبا يتوجس ، غير أنه قال دون مبالاة :

— إذن فليسمعنا ، فلست أخفى عنه شيئا أيضا ..

وانتظر قليلا حتى باعد المشى بينهم وبين سراى آل شداد ، ثم قال :

— قبل حضوركم اليوم اتفق لى أن قابلت عايدة فى الكشك على انفراد ، فدار بيننا حديث غريب أدركت منه أنك نقلت إليها بعض حديثنا فى شارع السرايات — أتتذكره ؟ — مشوَّها محرَّفا حتى دخل فى روعها أننى حملت عليها حملة ظالمة باغية ..

ردد حسن بين شفتين ممتعضتين لفظى « مشوَّه ومحرَّف » ثم قال ببرود وهو

يلقى عليه نظرة كأنما يريد بها أن يذكره بأنه إنما يخاطب « حسن سليم » لا شخصا آخر :

ـــ يحسن بك أن تكلف نفسك بعض الجهد فى تخيُّر الألفاظ ..

فقال كمال بانفعال :

ـــ هذا ما فعلته !. فالحق أن كلامها لم يدع لى شكًّا فى أنك أردت الوقيعة بينى وبينها !

حال لون حسن غضبا ، ولكنه لم يستسلم له ، فقال بصوت أمعن فى البرود :

ـــ يؤسفنى أننى أحسنت الظن طويلا بفهمك وتقديرك للأمور (ثم بلهجة ساخرة) هلا خبرتنى عما عسى أن أجنيه من وراء هذه الوقيعة المزعومة ؟!. الحق أنك تندفع بلا روية أو عقل ..

فاشتد الغضب بكمال ، وهتف قائلا :

ـــ بل سوّلت لك نفسك سلوكا شائنا ..!

وهنا تدخل إسماعيل قائلا :

ـــ إنى أقترح عليكما تأجيل الحديث إلى وقت آخر تكونان فيه أملك لأعصابكما !

فقال كمال بإصرار :

ـــ إن الأمر من الجلاء بحيث لا يحتاج إلى مناقشة ، وهو عارف وأنا عارف !

فعاد إسماعيل يقول :

ـــ قص علينا ما دار فى الكشك بينك وبينها لعلنا ..

ولكن حسن قال بكبرياء :

ـــ أنا لا أقبل محاكمة ..!

فهتف كمال منفسا عن غيظه ، وإن كان يعلم أنه من الكاذبين :

ـــ على أى حال أخبرتها بالحقيقة لتعلم أينا أصدق قولا !

فصاح حسن بوجه ممتقع :

ـــ فلندعها توازن بين ما قال ابن التاجر وما قال ابن المستشار !

اندفع كمال نحوه مكورا قبضته فحال إسماعيل بحوهما ، وكان أقوى الثلاثة رغم ضآلة حجمه ، ثم قال بحزم :

ـــ لا أسمح بهذا ، كلاكما صديق ، محترم ابن محترم ، دعانا من هذا العبث الخليق بالأطفال ..

عاد ثائرا هائجا جريحا يقطع الطريق بخطوات حادة اعتدائية وباطنه يستعر بالألم ، طعن فى قلبه وكرامته ، معبودته وأبيه ، فما بقى له فى الدنيا ؟!، وحسن ، الذى لم يحترم زميلا كما احترمه ولا أعجب بخلق أحد كما أعجب بخلقه ، كيف انقلب فى ساعة من الزمان وقّاعاً سبّابا ؟!، الحق أنه رغم حنقه عليه لم يستطع أن يؤمن بالتهمة التى اتهمه بها إيمانا خالصا من كل شك أو تردد ، فلم يزل يعاوده التفكير فى الأمر ، فيسائل نفسه : ألا يجوز أن يكون من وراء ذلك الموقف الأليم ما وراءه من أسرار ؟!. أيكون حسن شوّه كلامه ، أم تكون عايدة قد أساءت الفهم أو بالغت فى التكهن أو استسلمت للغضب ؟. غير أن الموازنة بين ابن التاجر وابن المستشار رمت به فى جحيم من الغضب والألم جعلا من محاولة إنصاف حسن ضربا من العبث . وقد ذهب بعد ذلك إلى سراى آل شداد فى موعد اللقاء المعهود ، فوجد حسن معتذرا عن التخلف بطارىء ، وأخبره إسماعيل لطيف عقب انفضاض المجلس : بأنه ـــ حسن ـــ آسف جدا على ما بدر منه حين الغضب عن « ابن التاجر وابن المستشار » ، وأنه مؤمن بأنه ـــ كمال ـــ ظلمه ظلما فادحا باستنتاجاته الواهمة وأنه يرجو ألا تقطع هذه الحادثة العارضة أسباب الصداقة بينهما ، وأنه ـــ حسن ـــ كلّفه بإبلاغه ذلك عن لسانه ، ثم تلقى منه خطابا بهذا المعنى مشددا الرجاء فى ألا يعودا إلى الماضى إذا تلاقيا وأن يسدلا عليه ستار النسيان ، وختمه بقوله « اذكر جملة ما أسأت به إلىّ وجملة ما أسأت به إليك لعلك تقتنع معى بأن كلانا مخطىء وأنه لا يصح لأحدنا تبعا لذلك أن يرفض اعتذار صاحبه ! » . وطابت نفس كمال بالرسالة حينا ، بيد أنه لاحظ أن ثمة تناقضا بين كبرياء حسن المعروف وبين هذا الاعتذار الرقيق غير المتوقع ، أجل غير المتوقع !! فما كان يتصور أنه يعتذر لأى سبب من الأسباب ؟، فماذا غيره ؟، لا يمكن أن يكون لصداقته هو هذا التأثير الضخم فى كبرياء صاحبه ، فلعله ـــ حسن ـــ أراد أن يسترد سمعته المهذبة أكثر مما أراد استرداد صداقته ، ولعله حرص أيضا على ألا يستفحل الشقاق فتترامى أنباؤه إلى حسين شداد أن يستاء الشاب لموقف شقيقته من النزاع أو يغضب بدوره إذا بلغه ما قيل عن ابن التاجر ـــ

وهو ابن تاجر — وابن المستشار ! أى سبب من أولئك له وجاهته وهو أدنى إلى المنطق فى حال حسن من اعتذار لا يراد به إلا وجه الصداقة وحدها ؟! كل شىء يهون ، فليصالحه حسن أو فليخاصمه ، المهم حقا أن يعرف هل قررت عايدة الاختفاء ؟، لم تعد تطوف بمجلسهم ، أو تبدو فى النافذة ، أو تلوح فى الشرفة لقد أفشى لها قول حسن بأنه إذا شاء منعها من الاختلاط بأحد ليضمن — اعتمادا على كبريائها — إصرارها على زيارة الكشك فلا يحرم من رؤيتها . لكنها اختفت رغم ذلك ، كأنما رحلت عن البيت كله ، بل عن الحى كله ، بل عن الدنيا كلها فما عاد يجد لها طعما ، أيمكن أن يطول هذا الفراق إلى ما لا نهاية ؟.. ود لو كان قصدها أن تعاقبه حينا ثم تعفو ، أو فى الأقل أن يذكر حسين شداد سببا لغيابها يكذب مخاوفه ، ود هذا أو ذاك كثيرا ، وانتظر وطال انتظاره بلا فائدة .

كان إذا مضى لزيارة السراى أقبل عليها بعينين قلقتين تضطربان فى محجريهما بين اليأس والرجاء ، فيسترق إلى شرفة المدخل نظرة ، وإلى نافذة الممر الجانبى نظرة ، ثم يلحظ شرفة الحديقة وهو فى طريق الكشك أو السلاملك ، ويجلس بين الأصدقاء ليحلم طويلا بالمفاجأة السعيدة التى لا تريد أن تقع ، وينفض المجلس فيغادره ليختلس نظرات متعبة حزينة من النافذة والشرفات ، خاصة نافذة الممر الجانبى التى كثيرا ما تظهر فى أحلام يقظته إطارا للصورة المعبودة ، ثم يذهب متجرعا اليأس زافرا الكرب ، وبلغ به اليأس أن كاد يسأل حسين شداد عن سر اختفاء عايدة ، غير أن تقاليد الحى العتيق الذى تشبع بها عقلته فلم ينطق ، وجعل يتساءل فى قلق عن مدى إلمام حسين بالظروف التى أدت إلى توارى المعبودة ، أما حسن سليم فلم يشر إلى « الماضى » بكلمة ولم يبد فى صفحة وجهه أنه يفكر على أى وجه فيه ، ولكن لا شك أنه كان يرى فى كل جلسة تجمعهم شاهدا على هزيمته — كمال — المجسمة ، وكم كان يتألم كمال لهذا الخاطر ، تعذب كثيرا ، شعر بالعذاب ينفذ إلى نخاعه ، وبهذيان العذاب يخالط عقله ، وكان شر ما يعذبه لوعة الفراق ومرارة الهزيمة وضيقة اليأس ، وأفظع من هذا كله الإحساس بالهوان ، بأنه المنبوذ من روضة الرضى ، المحروم من أنغام المعبود وأضوائه ، فجعل يردد وروحه تذرف دموع الأسى والقهر « أين أنت من أولئك السعداء أيها المخلوق المشوه ! » ، ما معنى الحياة إن أصرت على الاختفاء ؟. أين تجد عيناه النور ؟، ويتلقى قلبه

الحرارة ؟. وتنعم روحه بالغبطة ؟، فلتبد المعبودة بأى ثمن ترضاه ، فلتبد لتحب من تشاء حسن كان أو غيره ، فلتبد ولتهزأ برأسه وأنفه ما شاء لها المزاح واللعب ، إن اشتياقه إلى اجتلاء طلعتها وسماع صوتها فاق طاقة النفس على الاشتياق ، فأين منه نظرة رانية تمسح عن صدره سخام الكآبة والوحشة ، ولتسر قلبا أمسى مفتقد السرور منه كالنور من فقيد البصر ، فلتبد وأن تتجاهله ، فإنه إن خسر سعادة القبول عندها فلن تضيع سعادة رؤيتها ورؤية الدنيا بعد ذلك فى مجتلى ضوئها البهيج ، أما بغير ذلك فلن تكون الحياة إلا لحظات متصلة من الألم المخلخل بالجنون ، وهل كان خروجها من حياته إلا كخروج العمود الفقرى من الجسم الإنسانى يرده من بعد توازن وتكامل إلى شبه جثة ناطقة .

وأخرجه الألم والقلق عن الصبر ، فلم يعد يحتمل الانتظار حتى يجىء يوم الجمعة فكان يذهب مع الأصدقاء إلى العباسية فيحوم حول السراى من بعيد لعله يلمحها فى نافذة أو شرفة أو فى خطراتها وهى تظن أنها بمنأى عن عينيه ، على أن الانتظار فى بين القصرين كان من فضائله اليأس بخلاف حومان المحموم حول مقام المعبودة ، كحومان مجموعة من الديناميت حول عمود من النيران . ولم يرها ، ولكنه رأى مرات أحد الخدم وهو ذاهب إلى الطريق أو عائد منه ، فكان يتبعه عينا متفحصة متعجبة كأنما تسائل المقادر عما جعلها تخص هذا الإنسان بحظوة القرب من المعبودة والاختلاط بها والاطلاع على شتى أحوالها ، مستلقية أو مترنمة أو لاهية ، كل ذلك من حظ هذا الإنسان الذى يعيش فى المحراب ولا تشغل قلبه العبادة !.

وفى جولة من جولاته رأى عبد الحميد بك شداد وحرمه المصون وهما يغادران القصر ليركبا المنرفا التى كانت فى انتظارهما أمام الباب ، رأى الشخصين السعيدين اللذين تقف عايدة أمامهما — من دون العالمين — بإجلال واحترام ، اللذين يخاطبانها بلسان الأمر أحيانا فلا تملك إلا أن تطيع !، وهذه الأم المقدسة التى حملتها فى بطنها تسعة أشهر ، فما من ريب فى أن عايدة كانت جنينا فوليدة كتلك المخلوقات التى كان يرنو إليها طويلا فى فراشى عائشة وخديجة . وليس من إنسان هو أعرف بطفولة معبودته من هذه الأم السعيدة المقدسة !. سوف تبقى الآلام ما بقى فى ساحة الحياة أو فى الأقل لن تمحى آثارها . أين تذهب ليالى يناير الطوال وهو دافن فى الوسادة عينيه الهامعتين ؟. وبسط راحتيه إلى رب السماوات وهو يدعو من

الأعماق« اللهم قل لهذا الحب كن رمادا كما قلت لنار إبراهيم كونى بردا وسلاما » ؟!، وتمنيه لو كان للحب مركز معروف في الكائن البشرى لعله يبتره كما يبتر العضو الثائر بالجراحة ؟، وهتافه باسمها المحبوب ليتلقى صداه فى سكون الحجرة الصامتة بقلب خاشع كأنما كان غيره المنادى ؟، ومحاكاته لصوتها حينما دعت باسمه ليستعيد حلم السعادة المفقودة ؟ وتقليبه البصر فى كراسة الذكريات للتثبت من أن ما كان كان حقيقة لا وهما من الخيال ؟!.

ولأول مرة منذ أعوام تطلع إلى ما قبل الحب من الماضي بلهفة كما يتطلع السجين إلى ذكريات الحرية الضائعة ، أجل لم يتصور شخصا هو أشبه بحاله من السجين ، غير أن قضبان السجن بدت أطوع للتحطيم وأرق أمام الزمام من أغلال الحب الأثيرية التى تستأثر المشاعر فى القلب والأفكار فى العقل والأعصاب فى الجسد ثم لا تؤذن بانحلال ، ووجد نفسه يوما يتساءل : ترى هل ذاق فهمى مثل هذا العذاب الذي يعانيه ؟ وهفت عليه ذكريات أخيه الراحل مثل لحن كامن حزين . تنهد فى أعماق النفس . فذكر كيف قص يوما على مسمعه مغامرة مريم مع جوليون ، فأغمد خنجرا مسموما فى قلبه بلا حيطة أو حذر . وجعل يستحضر فى ذاكرته وجه فهمى ، فتخيل إليه هدوءه الذى انخدع به وقتذاك ، ثم تصور تقلصات الألم فى قسماته الجميلة حين خلا إلى نفسه ، ومناجاته الشاكية التى لا شك غرق فيها كما هو يغرق الآن فى تأوهاته وأنينه . فشعر بغمز فى قلبه وراح يقول : لقد عانى فهمى ما هو أشد من الرصاص قبل أن يستقر الرصاص فى صدره !، ومن عجب أنه وجد فى الحياة السياسية صورة مكبرة لحياته . فكان يطالع أنباءها فى الصحف وكأنما يطالع مواقف مما مر به فى بين القصرين أو العباسية . هذا سعد زغلول — مثله هو — شبه سجين وهدف للطعنات الباغية والحملات الظالمة والخيانة الأصدقاء وغدرهم ، وكلاهما — هو وسعد — يكابدان أحزانا من اتصالهما بأناس علوا بأرستقراطيتهم وسفلوا بفعالهم . تقمص شخص الزعيم فى كدره كما تقمص حال الوطن فى قهره ، وكان يلاقى الموقف السياسى وموقفه الشخصى بعاطفة واحدة وانفعال واحد ، فكأنما كان يعنى نفسه وهو يقول عن سعد زغلول « أتليق هذه المعاملة الظالمة بهذا الرجل المخلص ؟ » ، وكأنما كان يعنى حسن سليم وهو يقول عن زيور « خان الأمانة واستحل القبيح فى سبيل الاستيلاء على الحكومة » ،

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

وكأنما كان يعنى عايدة وهو يقول عن مصر « هل تخلت عن رجلها الأمين وهو يذود عن حقوقها ؟! » .

٢١

كان بيت آل شوكت بالسكرية من البيوت التى لا تحظى بنعمة الهدوء والسكينة ، لا لأن أدواره الثلاثة أصبحت مأهولة بالسكان من آل شوكت فحسب ، ولكن بسبب خديجة قبل أى شيء آخر . كانت الأم العجوز تقيم فى الدور التحتانى ، وخليل وعائشة وأبناؤهما : نعيمة ، وعثمان ، ومحمد فى الدور الفوقانى ، ولكن ضوضاء أولئك جميعا لم تكن شيئا بالقياس إلى ضوضاء خديجة وحدها . سواء ما يصدر عنها مباشرة أو ما يصدر عن الآخرين بسببها ، وقد حدثت تغيرات فى نظام البيت كانت خليقة بحصر أسباب الضوضاء فى أضيق الحدود ، كاستقلال خديجة ببيتها ومطبخها ، وكاستئثارها بالسطح لتربية دواجنها ، وغرس بستان متواضع فى جانب منه على مثال بستان البيت القديم بعد أن أجلت عنه حماتها ودواجنها ، كان كل ذلك خليقا بتخفيف الضوضاء إلى حد كبير ، ولكن الضوضاء لم تخف ، أو لعلها خفت بقدر لم يلحظه أحد ، على أن روح خديجة اعتورها هذا اليوم فتور ، ولم يكن سره — فيما بدا — خافيا ، فإن عائشة وخليل انتقلا إلى شقتها ليشاركا فى تفريج الأزمة — أجل الأزمة — التى أزمتها ، جلسوا : الأخوان ، والأختان فى الصالة على كنبتين متقابلتين ، وكانت الوجوه جادة ، وكانت خديجة متجهمة ، وكانوا يتبادلون نظرات ذات معنى ، ولكن أحدا منهم لم يشأ أن يطرق الأمر الذى جمعهم حتى قالت خديجة بنبرة شاكية حانقة معا :

— هذه المنازعات تقع فى كل بيت ، هكذا كانت الدنيا منذ خلقها ربنا وليس معنى هذا أن ننشر متاعبنا على الناس ، خصوصا أولئك الذين لا ينبغى أن يشغلوا بالكلام الفارغ ، ولكنها أبت إلا أن تجعل من شئون بيتنا فضائح عامة ، حسبى الله ونعم الوكيل ..

تحرك إبراهيم فى معطفه كأنه يستوى فى مجلسه ، ثم ضحك ضحكة مختزلة لم يدر أحد على وجه الدقة ماذا أراد بها ، فحدجته خديجة بنظرة ارتياب وهى تتساءل :

ـــ ماذا تعني بهيء هيء ؟.. ألا يهتم قلبك بشيء فى الدنيا ؟

وأعرضت عنه كاليائسة ، ثم استطردت تقول مخاطبة خليل وعائشة :

ـــ هل يرضيكما ذهابها إلى أبى فى الدكان لتشكونى إليه ؟، هل يجوز اقحام الرجال ـــ خاصة من كان على شاكلة أبى ـــ فى منازعات النسوان ؟، ما كان ينبغى أن يعلم بشيء من هذا ، ولا شك أنه تضايق من زيارتها وشكواها ، ولولا أدبه لصارحها بذلك .. ولكنها ما زالت تلح عليه حتى وعدها بالمجيء ، ما أبشع تصرفها ، لم يخلق أبى لهذه الصغائر ، فهل يرضيك هذا التصرف يا سى خليل ؟

فقطب خليل فى استياء ، وقال :

ـــ أمى أخطأت ، صارحتها أنا نفسى بذلك حتى صبّت علىّ غضبها ، غير أنها ست كبيرة ، وأنت تعلمين أن الإنسان فى مثل سنها يحتاج إلى المداراة والحلم كالأطفال ، حبذا ..

فقاطعه إبراهيم فى ضجر قائلا :

ـــ حبذا .. حبذا ..! كم كررت حبذا هذه حتى مللتها ، أمك كما قلت ست كبيرة ، ولكن قرعتها وقعت على من لا ترحم ..!

التفتت خديجة إليه بحدة وقد عبس وجهها واتسع منخراها ، وقالت :

ـــ الله .. الله .. ، لم يبق إلا أن تعيد هذا الكلام الجائر أمام بابا ..!

فقال إبراهيم وهو يلوح بيده آسفا :

ـــ بابا ليس معنا الآن ، وهو إن جاء فلن يجيء ليستمع إلى أنا ، ولكنى أقرر الحقيقة التى يسلم بها الجميع ولا تستطيعين أنت إنكارها ، أنت لا تطيقين أمى ولا تحتملين ظلها ، أعوذ بالله ، لم كل هذا يا شيخة ؟، بشيء قليل من الحلم والكياسة كان يسعك أن تأسريها ، ولكن القمر أقرب منالا من حلمك ، هل تستطيعين أن تنكرى كلمة واحدة مما قلت ؟!

فرددت عينيها بين خليل وعائشة لتشهدهما على هذا « الظلم » الصارخ ، فبدوا حائرين بين الحق والسلامة ، حتى تمتمت عائشة وهى من الإشفاق فى نهاية :

ـــ سى إبراهيم يقصد أن تغضى قليلا عما يبدر منها ..

وهز خليل رأسه بالموافقة فى ارتياح من ظفر أخيرا بسلم النجاة ، ثم قال :

ـــ هو ذلك ، أمى سريعة الغضب ولكنها بمنزلة والدتك ، وبشيء من الحلم

تعفين أعصابك من مشقة المشاحنة ..

فنفخت خديجة وهى تقول :

ـــ الأصوب أن يقال إنها هى التى لا تطيقنى ولا تحتمل لى ظلا ، لقد أتلفت أعصابى ، وما من مرة نتلاقى إلا وتسمعنى ـــ تصريحا أو تلميحا ـــ كلمة تهيج الدم وتسم البدن ، ثم أطالب أنا بالحلم !، كأنى مخلوقة من ثلج ، أليس يكفينى عبد المنعم وأحمد اللذان استنفدا صبرى وحلمى ؟!، يا هوه أين أجد منصفا ؟!

فقال إبراهيم فى تهكم وهو يبتسم :

ـــ لعلك تجدين هذا المنصف فى شخص أبيك ؟!

فهتفت قائلة :

ـــ أنت شامت بى ، أنا أفهم كل شىء ، ومع ذلك فربنا موجود !

فقال إبراهيم بصوت ممطوط يدل على التسليم والتحدى فى آن :

ـــ ربنا موجود !

وقال خليل بعطف :

ـــ هدئى روعك حتى تلقى والدك بنفس مطمئنة !

من أين لها بالنفس المطمئنة ؟ لقد انتقمت العجوز منها شر انتقام ، وعما قليل تدعى إلى لقاء أبيها فى موقف يغير منه قلبها ودمها . وهنا ترامى إليهم صياح عبد المنعم وأحمد من وراء باب حجرتهما وأعقبه صوت أحمد وهو يبكى . فقامت على عجل رغم سمانتها واتجهت نحو الحجرة ، فدفعت الباب ودخلت وهى تصيح بدورها :

ـــ ما معنى هذا ؟!. ألم أنهكما عن الشجار ألف مرة ؟، خصيمى المعتدى منكما ..

قال إبراهيم بعد أن توارت وراء الباب :

ـــ مسكينة كأن بينها وبين الراحة عداء مستحكما ، منذ الصباح الباكر تبدأ بخوض معركة طويلة تستغرق النهار كله فلا تسكن حتى تأوى إلى الفراش ، يجب أن يذعن كل شىء إلى إرادتها وتفكيرها ، الخادم ، الأكل ، الشرب ، الأثاث ، الدجاج ، عبد المنعم ، أحمد ، أنا ، الكل يجب أن يذعن لتنظيمها ، إنى أشفق عليها ، وأؤكد لكم أن بيتنا يمكن أن ينعم بأحسن حال من النظام والدقة دون حاجة إلى هذه الوسوسة ..

فقال خليل باسما :

ـــ ربنا يعينها ..

ـــ ويعينني معها !

قال إبراهيم ذلك وهو يهز رأسه باسما أيضا ، ثم أخرج من جيب معطفه الأسود علبة سجائره ، ونهض متجها إلى أخيه فقدمها له فتناول خليل سيجارة ، ودعا عائشة لتتناول واحدة ولكنها رفضت ضاحكة ، وأومأت إلى الباب الذى توارت وراءه خديجة ، وهى تقول :

ـــ خلِّ الساعة تمر بسلام ..

فعاد إبراهيم إلى مجلسه وهو يشعل سيجارة ، ويقول مشيرا إلى الباب نفسه :

ـــ محكمة ، فى الداخل الآن محكمة ، ولكنها ستعامل هذين المتهمين بالرحمة ولو على رغمها ..

عادت خديجة وهى تقول متأففة :

ـــ كيف يمكن أن أذوق طعم الراحة فى هذا البيت !، كيف ومتى ؟!

وجلست وهى تتنهد ، ثم قالت مخاطبة عائشة :

ـــ نظرت من المشربية فوجدت الطين المتخلف من مطر الأمس لا يزال يغطى أرض الحارة ، فخبرينى وربك كيف يشق أبى سبيله ؟!.. ولم هذا العناد كله ؟!

فسألتها عائشة :

ـــ والسماء ؟، كيف حالها الآن ؟

ـــ قطران !، ستجعل الحارات بحورا قبل الليل ، ولكن هل أجدى ذلك فى حمل حماتك على تأجيل ما بيتت من شر ولو إلى يوم آخر ؟، كلا ، ذهبت إلى الدكان رغم ما يسببه المشى لها من متاعب ، وما زالت بالرجل حتى تعهد لها بالحضور ، ولو سمعها سامع فى الدكان وهى تشكونى فى هذه الظروف العسيرة لحسبنى ريا أو سكينة !

وضحكوا جميعا مغتنمين الفرصة التى أتاحتها لهم للتنفيس عن صدورهم ، وتساءل إبراهيم :

ـــ أتحسبين نفسك أقل شأنا من ريا وسكينة ؟!

وسمع نقر على الباب ، ولما فتحت الخادم لاح وجه الجارية سويدان فنظرت إلى

خديجة بخوف ، وقالت :

ـــ سيدى الكبير حضر ..

ثم سرعان ما توارت ، وقامت خديجة شاحبة اللون وهى تقول بصوت خافت :

ـــ لا تتركونا وحدنا ..

فقال خليل ضاحكا :

ـــ معك إلى النهاية يا خديجة هانم !..

فقالت بلهجة وشت بالرجاء والتوسل :

ـــ كونوا فى جانبى ..

وغادرت الشقة بعد أن ألقت عائشة نظرة متفحصة على صورتها فى المرآة لتتوكد من خلو وجهها من أى أثر للأصباغ .

كان السيد أحمد عبد الجواد يجلس على كنبة فى صدر الحجرة القديمة تحت صورة كبيرة للمرحوم شوكت ، على حين جلست الأم على مقعد قريب فى معطف كثيف لم تجد كثافته فى إخفاء ضآلة جسمها الذى احدودب أعلاه ، وقد نحل وجهها وعمقت تجاعيده وتكاثرت وجف جلده فلم يبق شىء منه على ما كان عليه إلا أسنانها الذهبية ، ولم تكن هذه الحجرة بالغريبة على السيد أحمد ، ولم يهون قدمها من فخامتها ، وإذا كانت الستائر قد بهتت وقطيفة بعض المقاعد والكنبات قد انجردت أو تهتكت عند المقابض والمساند ، فإن بساطها العجمى قد صان رونقه أو استجد نفاسته ، إلى أن جوها تنسم برائحة بخور لطيفة مما تولع به العجوز ، وكانت المرأة تميل على مظلتها وتقول :

ـــ قلت لنفسى إذا لم يحضر السيد أحمد كما وعدنى ، فلا هو ابنى ولا أنا أمه ..

فابتسم السيد قائلا :

ـــ لا سمح الله ، إنى طوع أمرك ، فأنا ابنك وخديجة ابنتك !

فمطت بوزها ، وقالت :

ـــ كلكم أبنائى ! أمينة هانم ابنتى الطيبة ، أنت سيد الناس ، أما خديجة (ورنت إليه وعيناها تتسعان) فلم ترث سجية واحدة من سجايا والديها الطيبين .. (ثم وهى تهز رأسها) يا لطيف الطف ..!

فقال السيد بلهجة المعتذر :

ـــ إنى أعجب كيف أغضبتك لهذا الحد ؟، كان الأمر كله مفاجأة شديدة على ، لا أقبل هذا مطلقا ، ولكن هلا حدثتنى عما فعلت ؟

فقالت المرأة مقطبة :

ـــ هذا شيء قديم ، كنا نخفى عنك كل شيء إكراما لتوسلات والدتها التى أعيتها الحيل فى إصلاحها ، ولكنى لن أقول كلمة واحدة إلا فى وجهها ، فى وجهها يا سى السيد كما عزمت أمامك فى الدكان ..

عند ذاك جاءت الجماعة ، دخل إبراهيم فى المقدمة ، وتبعه خليل ، فعائشة ، ثم خديجة ، وصافحوا السيد واحدا فواحدا حتى جاء دور خديجة ، فانحنت فى أدب مثالى حتى لثمت يده ، فلم تتمالك العجوز من أن تقول فى عجب :

ـــ رباه ما هذه البوليتيكا ، أأنت خديجة حقا ؟!، لا تخدعنك الظواهر يا سيد أحمد ..

فقال خليل معاتبا أمه :

ـــ هلا تركت والدنا حتى يستريح !، ليس ثمة ما يدعو إلى محاكسة على الإطلاق !

فعلا صوت المرأة وهى تجيبه قائلة :

ـــ ما الذى جاء بك ؟! ما الذى جاء بكم ؟، دعوها واذهبوا عنا بسلام ..

فقال إبراهيم برقة :

ـــ وحدى الله ..

فصاحت به :

ـــ أنا موحدة أحسن منك يا بغل !، لو كنت رجلا حقا ما أحوجتني إلى استدعاء هذا الرجل الطيب ، ما الذى جاء بك ؟، وكان يجب أن تكون غاطا فى نومك كالعادة ؟!

ابتل صدر خديجة ارتياحا إلى هذه البداية ، فتمنت لو تشتد حتى تغطى على قضيتها ، ولكن السيد سألها بصوت مرتفع سد الطريق فى وجه المعركة المأمولة :

ـــ ما هذا الذى سمعته عنك يا خديجة ؟!، أحق أنك لست الابنة المؤدبة المطيعة لوالدتك ، أستغفر الله ، بل لوالدتنا جميعا ؟!

خاب أمل خديجة ، فغضت بصرها ، وتحركت شفتاها فى همس دون أن تبين

وهي تهز رأسها نفيا ، ولكن الأم لوحت بيدها للجميع كي ينصتوا ، ثم أنشأت تقول :

ـــ هذا تاريخ قديم لن أستطيع أن أسرده عليك فى هذه الجلسة ، منذ أول يوم لها فى هذا البيت وهى تخاصمنى بلا سبب ، وتخاطبنى بأطول لسان عرفته فى حياتى ، لا أحب أن أعيد عليك ما سمعته طوال خمس سنوات ، أو يزيد ، كثير كثير ، وقبيح قبيح !! عابت إشرافى على البيت وتنقصت طهيى ـــ هل تتصور هذا يا سى السيد ؟ ـــ وما زالت حتى انفصلت بشقتها عنى فانشطر البيت الواحد بيتين ، حتى الجارية سويدان حرمت عليها دخول شقتها لأنها جاريتى ، وجاءت بخادم خصوصية لها ، السطح ، السطح على سعته يا سى السيد ، ضيقته على حتى اضطررت إلى نقل دواجنى إلى الفناء !! ماذا أقول أيضا يا بنى ؟. هذا قليل من كثير ، ولكن ما علينا ، قلت لنفسى ما فات فات ، واحتملته وصبرت عليه ، وقد ظننت بعد الانفصال أن أسباب الشقاق ستنتهى ، ولكن هل صدق ظنى ؟. كلا وحياتك ..

انقطعت عن الحديث لسعال غلبها ، وراحت تسعل حتى انتفخت أوداجها ، وخديجة تلحظها وهى تدعو الله فى سرها أن يأخذها قبل أن تتم حديثها ، ولكن السعال سكت فازدردت ريقها وتشهدت ، ثم رفعت إلى السيد عينين دامعتين ، وسألته بصوت لم يخل من بح :

ـــ أتستنكف أنت يا سيد أحمد أن تقول لى يا أمى ؟

فقال الرجل الذى تظاهر بالعبوس رغم ابتسام إبراهيم وخليل :

ـــ معاذ الله يا أمى ..

ـــ عوفيت يا سيد أحمد ، لكن ابنتك تستنكف من هذا ، تدعونى « تيزة » ، أقول لها مرارا ادعينى « نينة » ، فتقول لى « وماذا أدعو التى فى بين القصرين ؟ » ، أقول لها أنا نينة ، وأمك نينة ، فتقول لى « ليس لى إلا نينة واحدة ربنا يخليها لى » . انظر يا سى السيد ، أنا التى تلقيتها بيدى من عالم الغيب !

ألقى السيد أحمد على خديجة نظرة غاضبة ، وسألها محتدا :

ـــ صحيح هذا يا خديجة ؟، يجب أن تتكلمى ..

كانت خديجة كأنها فقدت القدرة على النطق ، كانت من الغيظ فى نهاية ،

وكانت من الخوف فى نهاية ، وإلى هذا كله كانت يائسة من نتيجة المناقشة فحدتها غرائز الدفاع عن النفس على التذرع بكافة ضروب الضراعة والمسكنة ، قالت بصوت خافت :

ـــ أنا مظلومة ، كل واحد هنا يعلم بأنى مظلومة ، مظلومة والله يا بابا ..

كان السيد أحمد فى دهش مما يسمع ، ومع أنه فطن من أول الأمر إلى حال « الكبر » التى تسيطر على المرأة ، ومع أنه لم يغب عن ملاحظته ما يكتنف الجو من فكاهة بدت آثارها فى وجهى إبراهيم وخليل ، فإنه صمم على التظاهر بالجد والصرامة إرضاء للعجوز وإرهابا لخديجة ، وكان يعجب لما يتكشف له من عناد خديجة وحدة طباعها ، الأمر الذى لم يخطر له فى خيال من قبل ، أكانت على هذا الخلق مذ كانت فى بيته ؟، أتعلم أمينة من أمرها ما لا يعلم ؟، هل يكتشف على آخر الزمن صورة جديدة لابنته مناقضة للصورة التى كونها كما سبق أن اكتشف لياسين ؟!

ـــ أريد أن أعرف الحقيقة ؟! أريد أن أعرف حقيقتك ، إن التى تتحدث عنها والدتنا امرأة أخرى غير التى عهدتها ، فأيتهما تكون الصادقة ؟!

ضمت المرأة أناملها وهزت يدها داعية إياه إلى الصبر حتى تتم حديثها ، ثم استطردت قائلة :

ـــ قلت لها : إنى تلقيتك بيدى من عالم الغيب ، فقالت لى بلهجة شريرة لم أسمع بمثلها من قبل : « إذن أكون نجوت من الموت بأعجوبة ! » .

ضحك إبراهيم وخليل ، وخفضت عائشة رأسها لتخفى ابتسامتها .. ، فقالت العجوز مخاطبة ابنيها « اضحكا ، اضحكا ، اضحكا من أمكما ! » ، ولكن السيد تجهم وإن يكن باطنه ضحك ، ترى أخلقت بناته على مثاله أيضا ؟، أليس هذا مما يستحق أن يروى على إبراهيم الفار وعلى عبد الرحيم ومحمد عفت ؟! قال لخديجة بغلظة :

ـــ كلا .. كلا ، لأعرفن كيف أحاسبك على هذا حسابا عسيرا ..

فواصلت العجوز حديثها بارتياح قائلة :

ـــ أما سبب شجار الأمس ، فهو أن إبراهيم دعا بعض أصدقائه إلى وليمة فقدمت لهم الشركسية فيما قدم من أطعمة ، وفى المساء سهر عندى إبراهيم وخليل

وعائشة وخديجة ، وجاء ذكر الوليمة فنوّه إبراهيم بثناء المدعوين على الشركسية ، فانبسطت ست خديجة ، ولكنها لم تقنع بذلك ، بل راحت تؤكد أن الشركسية هى الصنف المأثور عن بيتها الأول ، فقلت بحسن نية : إن زينب زوجة ياسين الأولى هى التى أدخلت الشركسية فى بيتكم ، وأن خديجة لا بد وأن تكون تعلمتها منها ، أقسم لك أنى ما تكلمت إلا عن حسن نية وأنى ما قصدت أحدا بسوء ، ولكن أجارك الله يا حبيب ، انتفضت غاضبة وصاحت فى وجهى « هل تعرفين عن بيتنا أكثر مما نعرف ؟ » فقلت لها : إنى أعرف بيتكم من قبل أن تعرفيه أنت بعمر مديد ، فصرخت قائلة : « أنت لا تحبين لنا الخير ولا تطيقين أن ينسب لنا شيء حميد ولو كان طهى الشركسية ، الشركسية تؤكل فى بيتنا قبل أن تولد زينب وعيب أن تكذب واحدة فى مثل سنك » أى والله هذا يا سى السيد ما قذفتنى به أمام الجميع ، فأيتنا الكاذبة بربك وصلاتك ؟!

قال السيد غاضبا ساخطا :

ــ رمتك بالكذب فى وجهك !، يا رب السماوات والأرض ، ما هذه ابنتى ..

غير أن خليل قال لأمه باستياء :

ــ ألهذا جئت بوالدنا ؟!. أيصح أن نكدر خاطره ونضيع وقته بسبب نزاع صبيانى حول الشركسية ؟!، هذا كثير يا أماه ..

فحملقت المرأة فى وجهه مقطبة وصاحت به :

ــ اخرس ، اغرب عن وجهى ، لست كاذبة ، ولا يصح أن يرمينى مخلوق بالكذب ، إنى أعرف ما أقول ولا حياء فى الحق ، لم تكن الشركسية بالطعام المعروف فى بيت السيد قبل أن تدخله زينب ، وليس فى ذلك ما يعيب أحدا أو ينتقصه ، ولكنها الحقيقة . هاكم السيد فليكذبنى إن كنت كاذبة ، إن طواجن بيته مضرب الأمثال ويليها الأرز المحشو ، أما الشركسية فلم تقدم على مائدته قبل مجيء زينب ، تكلم يا سى السيد أنت وحدك الحكم ..

قاوم السيد أحمد إغراء الضحك طيلة حديث المرأة ، ثم قال بلهجة عنيفة :

ــ ليت ذنبها اقتصر على الكذب والادعاء الباطل من دون أن تضيف إليه سوء الأدب ، هل شجعك على هذا السلوك السيىء ابتعادك عن قبضة يدى ؟! إن يدى تمتد إلى حيث يجب أن تمتد بلا تردد ، من المؤسف حقا أن يجد أب ابنته

مستحقة للتأديب والعقاب بعد أن اكتمل نضجها واستوت بين النساء زوجة وأما ..

واستطرد ملوحا بيده :

ـــ إنى غاضب عليك ، ووالله إنه ليؤلمنى أن أرى وجهك أمامى ..

أجهشت خديجة بالبكاء فجأة ، جاء ذلك عن تأثير وتدبير معا ، ولم يكن ثمة وسيلة أخرى للدفاع ، ثم قالت بصوت متهدج تخنقه العبرات :

ـــ أنا مظلومة ، والله أنا مظلومة ، إنها لا ترى وجهى حتى ترمينى بكلمات قاسية ، ولا تفتأ تقول لى « لولاى لقضيت العمر عانسا » وأنا لم أنلها بسوء أبدا ، وكلهم شهود على ذلك ..

لم تعدم الحركة التمثيلية ـــ الصادقة الكاذبة ـــ أثرا تركته فى النفوس ، قطب خليل شوكت حانقا ، ونكس إبراهيم شوكت رأسه ، والسيد نفسه ولو أن مظهره لم يعتوره تغيير إلا أن قلبه انقبض عند سماعه ما قيل عن العنوس كعهده من قديم ، أما العجوز فجعلت تنظر إلى خديجة نظرات نافذة من تحت حاجبيها الأشيبين ، وكأنما تقول لها « مثلى دورك يا ماكرة لن يجوز على » ، ولما استشعرت فى الجو عطفا على الممثلة قالت بتحد :

ـــ ها كم عائشة أختها ؟، إنى أستحلفك بعينيك ، أستحلفك بالقرآن الشريف إلا ما شهدت بما سمعت ورأيت ، ألم ترمنى أختك بالكذب فى وجهى ؟. ألم أصف نزاع الشركسية دون مبالغة أو تجاوز ، تكلمى يا بنية تكلمى ، إن أختك ترمينى الآن بالظلم بعد أن رمتنى أمس بالكذب ، تكلمى ليعلم السيد من الظالم ومن المعتدى ..

روعت عائشة بجرّها المباغت إلى حومة القضية التى ظنت أنها ستقف منها موقف المشاهد إلى النهاية ، وشعرت بالخطر يحدق بها من كل جانب ، فرددت عينيها الجميلتين بين زوجها وأخيه كالمستغيثة ، فهمّ إبراهيم بالتدخل ، ولكن السيد أحمد سبقه إلى الكلام ، فخاطب عائشة قائلا :

ـــ إن والدتنا تستشهد بك يا عائشة ، فيجب أن تتكلمى ..

فاضطربت عائشة حتى شحب لونها ، ولكن شفتيها لم تتحركا إلا عند ازدراد ريقها ، وغمضت عينيها فرارا من عينى أبيها وأصرت على الصمت . قال خليل محتجا :

ـــ لم أسمع من قبل أن أختا دعيت للشهادة على أختها ..!

فصاحت به أمه :

ـــ ولم أسمع من قبل أن أبناء يتكتلون ضد أمهم كما تفعلون . (ثم ملتفتة إلى السيد) ولكن حسبى صمتها ، إن صمت عائشة شهادة لى يا سى السيد ..

ظنت عائشة أن عذابها قد انتهى عند هذا الحد ، ولكنها ما تدرى إلا وخديجة تقول لها برجاء وهى تجفف عينيها :

ـــ تكلمى يا عائشة ، هل سمعتنى أشتمها ؟

لعنتها فى سرها من صميم قلبها ، وراح رأسها الذهبى يهتز اهتزازة عصبية ، فهتفت العجوز :

ـــ جاءنا الفرج ، هى التى تطالب بالشهادة ، لم يبق لك عذر يا شوشو .

يا ربى إذا كنت ظالمة حقا كما تقول خديجة فلم لم أظلم عائشة ؟، لم تسير الأمور بينى وبينها على خير حال ، لم يا ربى لم ؟

نهض إبراهيم شوكت من مجلسه ، ثم جلس إلى جانب السيد ، وقال له :

ـــ يا والدى ، يؤسفنى أننا أتعبناك وأضعنا وقتك الثمين هباء ، فلندع الشكوى والشهادة جانبا ، لندع الماضى كله جانبا ولننظر فيما هو أهم وأجدى ، ينبغى أن يكون محضرك خيرا وبركة ، فلنعقد الصلح بين أمى وزوجى ، وليتعهدا لك بأن يحافظا عليه على الدوام ..

ارتاح السيد أحمد إلى هذا الاقتراح ، غير أنه قال بلباقة وهو يهز رأسه معترضا :

ـــ كلا ، لن أقبل أن أعقد صلحا ، فإن الصلح لا يكون إلا بين ندين ، والطرفان هنا هما والدتنا من ناحية وابنتنا من ناحية أخرى ، وليست الابنة كالأم ، فيجب أولا أن تعتذر خديجة إلى أمها عما سلف ، لتعفو أمها عنها إذا شاءت ، ثم نتكلم بعد ذلك فى الصلح ..

ابتسمت العجوز حتى تضامت تجاعيدها ، غير أنها نظرت نحو خديجة بحذر ، ثم أعادت بصرها إلى السيد ولم تنبس ، فاستطرد السيد قائلا :

ـــ يبدو أن اقتراحى لم يصادف قبولا ..

فقالت العجوز بامتنان :

ـــ إنك لا تنطق إلا عن الصواب : سلم فوك ، وبارك الله فى عمرك ..

وأشار السيد إلى خديجة فقامت دون تردد واقتربت منه فى انكسار لم تشعر بمثله من قبل حتى مثلت بين يديه ، فقال لها بحزم :

ــ قبلى يد والدتك ، وقولى لها : اصفحى عنى يا نينة ..

آه ، ما كانت تتخيل ــ ولا فى الكابوس ــ أنها يمكن أن تقف هذا الموقف أبدا ، ولكن أباها ــ أباها المعبود ــ هو الذى قضى به ، أجل قضى به من لا تستطيع لقضائه ردا . فلتكن مشيئة الله . تحولت خديجة إلى العجوز ، ومالت نحوها ، ثم تناولت اليد التى رفعتها إليها ــ إى والله رفعتها إليها دون ممانعة ولو فى الظاهر ــ ولثمتها ، وهى تشعر باشمئزاز وتقزز وقهر أليم ، ثم غمغمت قائلة :

ــ اصفحى عنى يا نينة !..

فنظرت العجوز إليها ماليا وقد شاع البشر فى وجهها ، ثم قالت :

ــ صفحت عنك يا خديجة ، صفحت عنك إكراما لأبيك ، وقبولا لتوبتك ..

وندت عنها ضحكة صبيانية ، ثم استطردت تقول بتحذير :

ــ لا جدال بعد اليوم فى الشركسية ، ألا يكفيكم أنكم فقتم الدنيا فى الطواجن والأرز المحشو ..؟

قال السيد بسرور :

ــ الحمد لله على الصلح (ثم وهو يرفع رأسه إلى خديجة) .. نينة دائما ليست تيزة ، هذه نينة كالأخرى سواء بسواء ..

ثم بصوت خفيض أسيف :

ــ من أين جئت بهذا الخلق يا خديجة ؟. ما كان ينبغى لأحد نشأ فى بيتى أن يعرفه ، أنسيت أمك وما تتحلى به من أدب ودماثة ؟، أنسيت أن أى شر تأتينه إنما يسوّد وجهى أنا ؟. لقد عجبت والله وأنا أستمع إلى حديث أمك ، ولسوف أعجب طويلا ..

٢٢

رقيت الجماعة فى السلم عائدة إلى مساكنها عقب رحيل السيد أحمد عبد الجواد ، كانت خديجة تتقدم القافلة بوجه مربد تعلوه صفرة الغضب والحنق ، وكان الآخرون يشعرون بأن الصفاء لم يزل أبعد ما يكون عن القلوب فأشفقوا مما

سيتمخض عنه صمت خديجة ، لذلك صحب خليل وعائشة خديجة وإبراهيم إلى شقتهما ، رغم أن زياط نعيمة وعثمان ومحمد كان حريا بأن يعيدهما إلى شقتهما فورا ، ولما عادوا إلى مجلسهم بالصالة قال خليل ــ وهو بسبيل جس النبض ــ مخاطبا أخاه :

ــ كانت كلمتك الختامية حاسمة فأتت بخير النتائج ..

فتكلمت خديجة لأول مرة قائلة بانفعال :

ــ أتت بالصلح أليس كذلك ؟. هي السبب فيما نزل بي من مذلة لم أتعرض لمثلها من قبل ..

فتساءل إبراهيم كالمستنكر :

ــ لا مذلة في أن تقبلي يد أمي أو تستصفحيها ..

فقالت دون مبالاة :

ــ إنها أمك أنت ، ولكنها عدوتي أنا ، ما كنت لأدعوها نينة لولا أمر بابا ، أجل فما هي إلا نينة بأمر بابا ، وبأمر بابا وحده !

مال إبراهيم إلى مسند الكنبة وهو يتنهد يائسا ، وكانت عائشة قلقة ولا تدرى أى أثر تركه امتناعها عن الشهادة في نفس أختها ، وزاد من قلقها تجنب خديجة النظر إليها ، صممت على محادثتها لتحملها على معالنتها بحقيقة مشاعرها ، فقالت برقة :

ــ ليس في الأمر مذلة وقد تصافيتما ، ويجب ألا تذكرى إلا حسن الختام ..

فتصلب جذع خديجة ورمقتها بنظرة غاضبة ، ثم قالت بحدة :

ــ لا تكلميني يا عائشة ، أنت آخر شخص في الدنيا يحق له أن يكلمني ..

فتظاهرت عائشة بالدهش ، وتساءلت وهي تقلب عينيها بين إبراهيم وخليل :

ــ أنا ؟! لماذا لا سمح الله ؟!..

فقالت بصوت كالرصاص برودة وحدة :

ــ لأنك خنتني وشهدت بصمتك علي !. لأنك آثرت إرضاء الأخرى على مظاهرة أختك ، هذه هي الخيانة بعينها ..!

ــ أمرك عجيب يا خديجة !.. كل واحد يعلم بأن الصمت كان في صالحك !

فقالت بنفس اللهجة أو أشد :

ــ لو راعيت صالحي حقا لشهدت لي بالحق أو بالباطل لا يهم ، ولكنك آثرت

التى تطعمك على أختك ، لا تكلمينى ، ولا كلمة واحدة ، لنا أم يكون عندها الكلام .

وفى ضحى اليوم التالى ذهبت خديجة لزيارة أمها رغم توحل الطرقات وامتلاء منخفضاتها بالمياه الراكدة ، ومضت إلى حجرة الفرن ، فنهضت أمها لاستقبالها فى سرور وحرارة ، وأقبلت نحوها أم حنفى مهللة ، ولكنها ردت السلام بكلمات مقتضبة حتى تفحصتها أمها بنظرة متسائلة ، فقالت دون تمهيد :

ـــ جئتك لترى رأيك فى عائشة .. فلم يعد بى طاقة لأتحمل أكثر مما تحملت ..

لاح فى وجه أمينة اهتمام مقرون بالأسى ، فقالت وهى تشير إليها برأسها كى تسبقها إلى الخارج :

ـــ ماذا حدث كفى الله الشر ؟، حدثنى أبوك بما كان فى السكرية ، فما دخل عائشة فى ذلك ؟ (ثم وهما يرقيان فى السلم) .. رباه يا خديجة، طالما رجوتك أن توسعى من صدرك ، حماتك عجوز ينبغى مراعاة سنها ، إن ذهابها إلى الدكان وحده فى جو كجو أمس برهان على ضعف عقلها ، ولكن ما الحيلة ؟. كم غضب أبوك !. لم يكن يصدق أنه يمكن أن تند عنك كلمة سوء ، ولكن ماذا أغضبك من عائشة ؟ لقد صمتت أليس كذلك ؟ لم يكن فى وسعها أن تخرج عن الصمت ..

وجلستا فى الصالة ـــ مجلس القهوة ـــ على كنبة جنبا إلى جنب ، وخديجة تقول محذرة :

ـــ نينة ، أرجو ألا تنضمى إليهم ، ما لى يا ربى لا أجد نصيرا فى هذه الدنيا !

فابتسمت الأم ابتسامة عتاب ، وقالت :

ـــ لا تقولى هذا ، لا تتصورى هذا يا بنية ، ولكن خبرينى ماذا وجدت من عائشة ؟

وهى تدفع بيدها الهواء كأنما تلطم عدوا :

ـــ كل شر ، شهدت على ، فأوقعت بى شر هزيمة ..

ـــ ماذا قالت ؟

ـــ لم تقل شيئا ..

ـــ الحمد لله ..

ـــ إن المصيبة جاءت من أنها لم تقل شيئا ..
تساءلت أمينة ، وهى تبتسم فى عطف :
ـــ وماذا كان فى وسعها أن تقول ؟
وكأنما كبر عليها تساؤل أمها ، فقالت بعبوس وحدة :
ـــ كان فى وسعها بأن تشهد بأننى لم أعتد على المرأة ، لم لا ، لو فعلت ما جاوزت واجبات الأخوة ، كان فى وسعها على الأقل أن تقول إنها لم تسمع شيئا ، الحق أنها آثرت المرأة علىَّ ، خذلتنى وتركتنى أقع تحت رحمة الماكرة الشامتة ، لن أنسى هذا لعائشة ما حييت !..
قالت أمينة ، بإشفاق وألم :
ـــ خديجة لا ترعبيننى ، كان يجب أن يكون كل شىء قد نسى فى الصباح ..
ـــ نسى ؟!. لم أنم من الليل ساعة ، سهدت وبرأسى مثل النار ، كل مصيبة كانت تهون لو لم تجىء من عائشة ، من أختى ؟! لقد ارتضت أن تنضم إلى حزب الشيطان ، حسنا ، ليكن ما تشاء ! كان لى حماة فأصبح لى اثنتان ، عائشة !.. رباه طالما سترتها ، لو كنت خائنة مثلها لقصصت على أبى ما تزخر به حياتها من قلة الأدب ، إنها تحب أن يعرف عنها أنها ملك كريم وأننى شيطان رجيم ، كلا . أنا خير منها ألف مرة ، إن لى كرامة لا يعلو إليها التراب ، ولولا أبى (وهنا اشتدت نبراتها حدة) لما استطاعت قوة فى الأرض أن تحملنى على أن أقبل يد عدوتى أو أن أدعوها نينة !
ربتت أمينة كتفها برقة ، وهى تقول :
ـــ أنت غضبى ، دائما غضبى ، هدئى من روعك ، ستبقين معى حتى نتغدى معا ثم نتحادث فى هدوء ..
ـــ إنى فى كامل عقلى وأعرف معنى ما أقول ، أريد أن أسأل أبى ، أيتهما خير من الأخرى : التى تلزم بيتها ، أم التى تزور بيت الجيران فتغنى وترقص ابنتها ؟!
تنهدت أمينة ، وقالت بحزن :
ـــ إن رأى أبيك فى هذا لا يحتاج إلى سؤال ، ولكن عائشة سيدة متزوجة والرأى الأعلى فى سلوكها لزوجها ، وما دام يسمح لها بزيارة الجيران ويعلم بأنها تغنى بين صديقاتها اللاتى يحببنها ويحببن صوتها فما شأننا نحن ؟!. لك الله يا خديجة !..

أتسمين هذا قلة أدب ؟!، هل يغضبك حقا أن ترقص نعيمة ؟!. إنها فى السادسة وما رقصها إلا لعبا ، لست إلا غاضبة يا خديجة ، سامحك الله ..

فقالت خديجة بإصرار :

ـــ إنى أعنى كل كلمة قلتها ، وإذا كان يعجبك أن تغنى ابنتك عند الجيران وترقص ابنتها ، فهل يعجبك أيضا أن تدخن ، كالرجال ؟!، نعم ، ها أنت تدهشين !، أكرر على مسمعك أن عائشة تدخن ، وأن التدخين صار لها كيفا لا تملك الامتناع عنه ، وأن زوجها يعطيها العلبة ويقول لها بكل بساطة « علبتك يا شوشو » ، رأيتها بنفسى وهى تأخذ النفس وهى تخرجه من فمها وأنفها ، أنفها أتسمعين ؟، لم تعد تخفى عنى ذلك كما كانت تفعل أول الأمر ، بل دعتنى إليه مرة بحجة أنه مهدىء للأعصاب الحامية . هذه هى عائشة ، فما قولك ؟ وما قول أبى يا ترى ؟

ساد الصمت ، وبدت أمينة فى حيرة شائكة ، غير أنها صممت على خطة التهدئة التى التزمتها ، قالت :

ـــ التدخين عادة قبيحة بالقياس إلى الرجال أنفسهم ، أبوك لم يدخن قط ، فماذا أقول عليه بالنسبة إلى النساء ؟!، ولكن ما القول أيضا إذا كان زوجها هو الذى أغراها به وعلمها إياه ؟، ما الحيلة يا خديجة ؟، إنها لزوجها لا لنا ، ولم يبق إلا النصح إن كان يجدى ..

فجعلت خديجة تنظر إليها فى صمت وشى بترددها قبل أن تقول :

ـــ إن زوجها يدللها تدليلا معيبا حتى أفسدها وأشركها فى كافة معاصيه ، ليس التدخين بشر عاداته ، ولكنه يشرب الخمر فى بيته دون حياء ، إن بيته لا يخلو من الزجاجة كأنها ضرورة من ضرورات الحياة وسوف يوقعها فى الخمر كما أوقعها فى التدخين ، لم لا ؟ العجوز تعلم بأن شقة ابنها حانة ولكنها لا تكترث لذلك ، سوف يسقيها الخمر ، بل إنى أقطع بأنه فعل فإنى شممت مرة فى فمها رائحة غريبة ، وسألتها عنها وضيقت عليها رغم إنكارها ، أؤكد لك أنها شربت الخمر وأنها بسبيل اعتيادها كالتدخين ..

صاحت الأم فى يأس :

ـــ إلا هذا يا رب ، ارحمى نفسك وارحمينا ، اتقى الله يا خديجة ..

ـــ إنى تقية وربنا عالم ، لا أدخن ولا تفوح من فى روائح مريبة !، ولا أسمح للخمر بأن تدخل شقتى !، ألم تعلمى بأن البغل الآخر حاول أن يقتنى هذه الزجاجة المحرمة ؟!. ولكنى وقفت له بالمرصاد ، قلت له بصريح العبارة : إنى لا أبقى مع زجاجة خمر فى شقة واحدة ، فتراجع أمام تصميمى ، وجعل يحتفظ بزجاجته عند أخيه فى شقة الهانم التى خانتنى بالأمس ، وكلما صرخت لاعنة الخمر وشاربيها ، قال لى ـــ قطع الله لسانه ـــ « من أين جئت بهذه الحنبلية ؟، هذا أبوك منبع الأنس كله وقلّ أن يخلو له مجلس من الكأس والعود ! » أسمعت ماذا يقال عن أبى فى بيت آل شوكت ؟!

لاحت فى عينى أمينة نظرة حزن وجزع ، وجعلت تقبض راحتيها وتبسطهما فى اضطراب وقلق ، ثم قالت بصوت نمت نبراته عن التشكى والتألم :

ـــ رحماك يا ربى ، لم نخلق لشىء من هذا ، عندك العفو والرحمة ، يا ويل النساء من الرجال ، لن أسكت ولا يصح أن أسكت ، سأحاسب عائشة حسابا عسيرا ، ولكنى لا أصدق ما تقولين عنها ، إن سوء ظنك بها جعلك تتخيلين ما لا أصل له ، ابنتى طاهرة وستظل طاهرة ولو انقلب زوجها شيطانا رجيما ، سأحدثها حديثا صريحا ، وسأحادث سى خليل نفسه إن لزم الأمر ، فليشرب كما يشاء حتى يتوب الله عليه .. أما ابنتى فحدّ الله بينها وبين الشيطان ..

هفت على نفس خديجة نسمة راحة لأول مرة ، فتابعت جزع أمها بعين راضية واطمأنت إلى أن عائشة ستشعر قريبا بمدى الخسران الذى منيت به جزاء خيانتها ، ولم تأبه كثيرا لما أضفت على الوقائع من مبالغة فى التصوير أو حدة فى الوصف مما جعلها تسمى شقة أختها حانة ، وهى تعلم بأن إبراهيم وخليل لا يقربان الخمر إلا فى أحوال نادرة وفى اعتدال لم يبلغ حد السكر أبدا ، ولكنها كانت حانقة ثائرة ، أما ما قيل عن أبيها من أنه منبع الأنس .. إلخ ، فقول أعادته على أمها بلهجة استنكار لا تدع مجالا للشك فى كفرها به ، ولكن الحقيقة أنها اضطرت من زمن إلى التسليم بما يقال أمام إجماع إبراهيم وخليل وأمهما العجوز ، خصوصا وأنهم كاشفوها بما يعلمون عنه فى غير ما تحامل عليه أو انتقاد له ، بل وهم ينوّهون بأريحيته ويعقدون له زعامة الظرف فى عصره ، قابلت ذلك الإجماع بادىء الأمر بعناد غليظ ، ثم داخلها الشك رويدا وإن لم تعلنه ، ووجدت عسرا شديدا فى مزج هذه الصفات

الجديدة بالشخصية الوقور الجبارة التى آمنت بها طوال حياتها ، غير أن هذا الشك لم يهون من شأنها وجلالها ، بل لعلها أثرت فى نظرها بما انضاف إليها من ظرف وأريحية . لم تقنع بما أحرزت من نصر ، فعادت قول بلهجة التحريض :

ـــ عائشة لم تخنى فحسب ، ولكنها خانتك أنت أيضا ..

وصمتت ريثما يتغلغل قولها فى الأعماق ، ثم استطردت قائلة :

ـــ إنها تزور ياسين ومريم فى قصر الشوق ..

هتفت أمينة وهى تحملق فيها بفزع :

ـــ ماذا قلت ؟

فقالت وهى تشعر بأنها تسوَّرت ذروة الظفر :

ـــ هذه هى الحقيقة المحزنة !، زارنا ياسين ومريم أكثر من مرة ، زارا عائشة وزارانى ، أقول الحق إنى اضطررت لاستقبالهما وما كاد يسعنى إلا أن أفعل إكراما لياسين غير أنه كان استقبالا متحفظا ، ودعانى ياسين إلى زيارة قصر الشوق ، ولست فى حاجة إلى أن أقول لك إننى لم أذهب ، وتكررت الزيارة دون أن يغير ذلك من تصميمى حتى قالت لى مريم « لم لا تزورينا ونحن أختان من قديم الزمان ؟»، ولكنى اعتذرت بشتى المعاذير ، وبذلت كل حيلها لاجتذابى ، وجعلت تشكو لى معاملة ياسين لها واعوجاج سلوكه وانصرافه عنها ، علها ترقق قلبى ولكنى لم أفتح لها صدرى .. عائشة على خلاف ذلك ، تستقبلها بالترحاب والقبل ، الأدهى من ذلك أنها تبادلها الزيارة ، وقد صحبت معها مرة سى خليل ، وفى مرة أخرى صحبت نعيمة وعثمان ومحمد ، لشد ما تبدو سعيدة بتجديد صداقتها لمريم ، وقد نبهتها إلى مجاوزتها الحد فى ذلك فقالت لى « لا مأخذ على مريم إلا أننا رفضنا يوما أن نجعل منها خطيبة للمرحوم الغالى ، فأى وجه للعدل فى هذا ؟! » ، قلت لها « أنسيت الجندى الإنجليزى ؟ » فقالت لى « لا ينبغى أن نذكر إلا أنها زوجة أخينا الأكبر » . هل سمعت يا نينة عن شىء كهذا من قبل ؟.

استسلمت أمينة للحزن ، فنكست رأسها ولاذت بالصمت ، فجعلت خديجة تنظر إليها مليا ، ثم عادت تقول :

ـــ هذه هى عائشة بلا زيادة ولا نقصان ، عائشة التى شهدت علىَّ أمس فأذلتنى أمام العجوز المخرفة ..

تنهدت أمينة من الأعماق ، ورمقت خديجة بعينين فاترتين ، ثم قالت بصوت خافت :

ـــ عائشة طفلة تأبى أن يكون لها عقل أو وزن ، ولن تزال كذلك مهما امتد بها العمر ، هل يسعنى أن أقول غير ذلك ؟!، لا أود ولا أستطيع ، هل هانت عليها ذكرى فهمى ؟، لا أستطيع أن أصدق ذلك ، ألم يكن فى وسعها أن تقتصد فى عواطفها حيال تلك المرأة ولو إكراما لى ؟!، لكن لن أسكت عن هذا ، سأقول لها إنها أساءت إلى وأننى غاضبة حزينة لأرى ما يكون منها بعد ذلك ..

فأمسكت خديجة بخصلة من سوالفها ، وقالت :

ـــ أحلق هذا لو صلح لها حال !، إنها تعيش فى دنيا غير الدنيا التى نعيش فيها ، لست أتحامل عليها وربنا يعلم ، إننى لم أخاصمها ولا مرة مذ تزوجت ، حتى أننى طالما حملت عليها لما يقع منها من إهمال لأطفالها أو تملق مزر لحماتها وغير ذلك مما حدثتك عنه فى حينه ، ولكن حملتى لم تجاوز حد النصح الحازم أو النقد الصريح ، هذه أول مرة يضيق بها صدرى فأعالنها الخصام ..

فقالت الأم برجاء وإن ظل وجهها ممتعضا :

ـــ دعى الأمر لى يا خديجة ، أما أنت فلا أحب أن يفصل بينك وبينها خصام أبدا ، لا يصح أن يفترق قلباكما وأنتما تعيشان معا فى بيت واحد ، لا تنسى أنها أختك وأنك أختها ، بل أختها الكبرى ، إن قلبك أبيض والحمد لله ، وهو مترع بالحب لأهلك جميعا ، إنى كلما اشتد أمر لم أجد عزاء إلا فى قلبك ، وعائشة مهما يكن من هفواتها هى أختك ، لا تنسى هذا ..!

فهتفت فى تأثر :

ـــ إنى أغفر لها كل شىء إلا شهادتها على ..!

ـــ لم تشهد عليك ، خافت أن تغضبك كما خافت أن تغضب حماتها فلاذت بالصمت ، إنها تكره أن تغضب أحدا ـــ كما تعلمين ـــ وإن كانت رعونتها كثيرا ما تغضب الكثيرين ، لم تقصد الإساءة إليك أبدا ، فلا تحملى تصرفها أكثر مما يحتمل ، سأزوركم غدا لأصفى حسابى معها ، ولكننى سأصلح بينكما وإياك أن تمتنعى عن الصلح ..

ولأول مرة تتجلى فى عينى خديجة نظرة قلقة مشفقة حتى أنها غضت عينيها

لتخفيهما عن أمها ، وصمتت قليلا ، ثم قالت بصوت خافت :

ــ ستجيئين غدا ..؟

ــ نعم ، لم يعد الحال يحتمل الصبر ..

خديجة كأنما تحدث نفسها :

ــ سوف تتهمنى بأننى أفشيت أسرارها ..

ــ ولو !..

ولما آنست منها مزيدا من القلق والإشفاق ، عادت تقول :

ــ على أى حال أنا أعرف ما يقال وما لا يقال ..

فقالت خديجة بارتياح :

ــ هذا أفضل ، فهيهات أن تعترف بحسن نيتى ورغبتى فى إصلاح أمرها ..!

٢٣

ــ آه ..!

ندت عنه بغتة مفعمة بالحرارة والانفعال عندما رأى عايدة خارجة من باب القصر . كان يقف كعادته كل أصيل على طوار العباسية يراقب البيت من بعيد وغاية أمانيه أن يلمحها فى شرفة أو نافذة . وكان يرتدى بدلة رصاصية أنيقة كأنما أراد أن يجارى الجو الذى بعثت فيه الأيام الأخيرة من مارس أريحية ولطفا وبشاشة ، فضلا عن أنه كان يزداد تأنقا كلما ازداد ألما وقنوطا . وكانت عيناه لم ترياها مذ خاصمته فى الكشك ، ولكن الحياة لم تكن تتيسر له إلا أن يحج كل أصيل إلى العباسية فيطوف بالقصر من بعيد فى مثابرة لا تعرف اليأس ، معللا نفسه بالأحلام ، قانعا إلى حين باجتلاء المقام واجترار الذكريات . وكان الألم فى الأيام الأولى للفراق كالجنون فى هذيانه ووسوسته ، ولو طال به الأمد على ذلك لقضى عليه ، ولكنه نجا من تلك المرحلة الخطيرة بفضل اليأس الذى وطّن النفس عليه من قديم ، فانسرب الألم إلى مستقر له فى الأعماق يؤدى فيه وظيفته من غير أن يعطل سائر الوظائف الحيوية كأنه عضو أصيل فى الجسم أو قوة جوهرية فى الروح ، أو أنه كان مرضا حادا هائجا ثم أزمن فزايلته الأعراض العنيفة واستقر ، غير أنه لم يتعز ــ وكيف يتعزى عن الحب ، وهو أجلّ ما كاشفته به الحياة ؟ ــ ولكنه كان يؤمن

إيمانا عميقا بخلود الحب ، فكان عليه أن يصبر كما ينبغى لإنسان مقدور عليه بأن يصاحب داء إلى آخر العمر .

ولما رآها وهى تغادر القصر فجأة ندت عنه هذه الآهة ، وتابعت عيناه عن بعد مشيتها الرشيقة التى طال تشوقه إليها حتى رقصت روحه رقصة قطر هيمانها حنينا وطربا ، ومالت المعبودة إلى اليمين وسارت فى شارع السرايات ، فشبت فى روحه ثورة اجتاحت الهزيمة التى راض عليها النفس قرابة ثلاثة أشهر ففزع به قلبه إلى أن يطرح همومه عند قدميها وليكن ما يكون . واتجه دون تردد إلى شارع السرايات . كان فى الماضى يحذر الكلام أن يفقدها ، الآن ليس ثمة ما يخاف عليه ، إلى أن العذاب الذى عاناه طيلة الأشهر الثلاثة الماضية لم يدع لها سبيلا إلى التردد أو التراجع . ولم تلبث أن انتبهت إلى اقتراب خطاه ، فالتفتت إلى الوراء فرأته على بعد خطوات منها ، ولكنها أعادت رأسها إلى وضعه الأول دون مبالاة . لم يكن يتوقع استقبالا ألطف ، ولكنه قال معاتبا :

ـــ أهكذا يكون اللقاء بين الأصدقاء القدماء ؟!

فكان الجواب أن حثت الخطى دون أن تعيره أدنى التفات ، فأوسع خطوه مستمدا من ألمه عنادا ، ثم قال وهو يوشك أن يحاذيها :

ـــ لا تتجاهلينى فهذا شىء يفوق الاحتمال ولا داعى له لو راعيت الإنصاف ..

وكان أخوف ما يخاف أن تصر على تجاهله حتى تبلغ هدفها المقصود ، ولكن الصوت الرخيم خاطبه قائلا :

ـــ من فضلك ابتعد عنى ، ودعنى أسير فى سلام ..

فقال بإصرار وتوسل معا :

ـــ ستسيرين بسلام ، ولكن بعد أن نصفّى الحساب ..

فقالت بصوت تردد عميقا واضحا فى صمت الطريق الأرستقراطى الذى بدا خاليا أو شبه خال :

ـــ لا أدرى شيئا عن هذا الحساب ، ولا أريد أن أدرى ، أرجو أن تسلك سلوك الجنتلمان ..!

فقال بحرارة ووجد :

ـــ أعدك بأن أسلك سلوكا يعتبر بالقياس إلى الجنتلمان نفسه مثاليا ، وليس فى

وسعى أن أفعل غير هذا ، إذ أنك أنت التى توحين إلى بسلوكى .
قالت ولم تكن تنظر إلى ناحيته :
ــ أعنى أن تتركنى فى سلام ، هذا ما عنيته ..
ــ لا أستطيع ، لا أستطيع قبل أن تعلن براءتى من التهم الظالمة التى عاقبتنى عليها دون استماع إلى دفاعى ..
ــ أعاقبتك أنا ؟!
تغاضى عن الحديث لحظة خاطفة كى يتملى سحر الحال ، فقد رضيت أن تحاوره ، وأن تتمهل فى خطوها السعيد ، وسواء أكان هذا لأنها تود أن تستمع إليه أم لأنها تتعمد إطالة المسافة حتى تتخلص منه قبل بلوغ هدفها فلن يغير هذا من الحقيقة الباهرة ، وهى أنهما يسيران جنبا إلى جنب فى شارع السرايات ، تحف بهما أشجار الطريق الباسقة ، وترنو إليهما من فوق أسوار القصور عيون النرجس الساجية وثغور الياسمين الباسمة ، فى هدوء عميق يتعطش قلبه المستعر إلى نفحة منه ، وقال :
ــ عاقبتنى أشد عقاب باختفائك عنى ثلاثة أشهر كاملة وأنا أتعذب عذاب المتهم البرىء ..
ــ يحسن ألا نعود إلى ذلك ..
فى انفعال وضراعة :
ــ بل يجب أن نعود إليه ، إنى مصر على ذلك وأتوسل إليك باسم العذاب الذى عانيته حتى لم يعد بى قوة لتحمل المزيد منه ..
تساءلت فى هدوء :
ــ ما ذنبى أنا فى ذلك ؟
ــ أريد أن أعرف : ألا تزالين تعدينني معتديا ؟، الأمر المؤكد أننى لا أستطيع أن أسىء إليك بحال ، ولو تذكرت مودتى طوال الأعوام الماضية لاقتنعت برأيى دون عناء ، دعينى أفصل لك الأمر بكل صراحة ، لقد دعانى حسن سليم إلى مقابلته عقب الحديث الذى دار بيننا فى الكشك .
قاطعته فيما يشبه الرجاء :
ــ دعنا من هذا ، إنه ماض انتهى ..

وقعت الجملة الأخيرة من أذنه موقع النياحة من أذن الميت لو كان ميت يسمع ، ثم قال بتأثر بدا فى نبراته كالنغمة إذا هبطت من الجواب إلى القرار :

ـــ انتهى .. ، أعلم أنه انتهى ، لكننى أطمع فى حسن الختام ، لا أريد أن تذهبى وأنت تظنين بى الغدر ، أو الغيبة ، إننى برىء ويعز علىّ أن تسيئى الظن بشخص يكن لك كل إعزاز واحترام ، فلا يجرى لك ذكر على لسانه إلا مقرونا بكل ثناء ..

ألقت عليه نظرة وهى تميل برأسها إلى الناحية الأخرى كأنما تداعبه قائلة « من أين لك بهذه البلاغة كلها ؟ » ، ثم قالت بشىء من الرقة :

ـــ يبدو أنه وقع سوء تفاهم غير مقصود ، ولكن ما فات فات ..

بحماس وأمل :

ـــ بل لا يزال فى النفس شىء من الشك فيما أرى ..

فقالت بتسليم :

ـــ كلا ، لا أنكر أنى أسأت الظن حينا ، ولكن تبين لى الحق بعد ذلك ..

فطفا قلبه فوق موجة من السعادة ترنح فوقها كالثمل ، ثم تساءل :

ـــ متى عرفت ذلك ؟

ـــ منذ زمن غير قصير ..

ورنا إليها بامتنان ، وعبرته حال من الوجد يحلو معها نوع من البكاء ، ثم قال :

ـــ عرفت أننى برىء ؟..

ـــ نعم ..

هل يسترد حسن سليم احترامه عن جدارة ؟

ـــ وكيف عرفت الحقيقة ؟

فقالت بعجلة توحى بالرغبة فى إنهاء التحقيق :

ـــ عرفتها .. وهذا هو المهم ..

تجنب الإلحاح أن يضايقها ، ولكن خاطرا خطر فأظلت على قلبه سحابة من الكدر حتى قال متشكيا :

ـــ ومع ذلك أصررت على الاختفاء !، لم تكلفى نفسك إعلان العفو ولو بإشارة أو كلمة مع أنك افتننت فى إعلان الغضب !، ولكن عذرك الواضح وهو عندى

مقبول ..

ــ أى عذر هذا ؟

بصوت حزين :

ــ أنك لا تعرفين الألم ، وإنى أسأل الله مخلصا ألا تعرفيه أبدا ..

قالت كالمعتذرة :

ــ ظننت أنه لا يهمك أن تكون متهما ..!

ــ سامحك الله ، لقد اهتممت أكثر مما تتخيلين ، وساءنى جدا أن أجد الشقة بيننا واسعة ، فلم يقف الأمر عند حد أنك تجهلين ما أكنّه لك من .. من مودة ، ولكنه جاوز ذلك إلى إلصاق التهم الظالمة بى ، فانظرى أين كنت وأين كنت ؟، على أنى أصارحك بأن الاتهام الجائر لم يكن أسوأ ما عانيت من ضروب الألم ..

باسمة :

ــ لم يكن ضربا واحدا من ضروب الألم إذن ؟!

فشجعته الابتسامة ــ كما تشجع الطفل ــ على الاسترسال فى عاطفته ، فقال بوجد وانفعال :

ــ بلى ، وكانت التهمة أخف الآلام ، أما أشدها فكان اختفاؤك ، كان لكل ساعة من ساعات الأشهر الثلاثة الماضية نصيبها من آلامى ، عشت أشبه ما يكون بالمجانين ، لهذا أدعو الله صادقا ألا يمتحنك بالألم ، دعاء مجرب ، فإن لى بالألم تجربة وأى تجربة ، وأقنعتنى هذه التجربة القاسية بأنه إذا كان مقدورا على أن تختفى من حياتى ، فمن الحكمة أن أبحث لى عن حياة أخرى ، كان كل شىء كلعنة طويلة مقيتة ، لا تهزئى بى ، أنا أتوجس من ناحيتك شيئا كهذا دائما ، ولكن الألم أجل من أن يهزأ به ، لا أتصور أن يهزأ ملاك كريم مثلك من عذاب الآخرين ودعى جانبا أنك سببه ، لكن ما الحيلة ؟. قضى على من قديم أن أحبك بكل قوة نفسى ..

ساد صمت مقطع بأنفاسه المترددة ، وكانت تنظر إلى الأمام فلم يطالع عينيها ولكنه وجد فى صمتها راحة لأنه على أى حال أخف من كلمة سادرة وعدّه توفيقا . تصور أن يجيئك صوتها ناعما عذبا معربا عن الشعور نفسه !. يا له من مجنون !، لماذا سكب ماء قلبه المكنون ؟، لم يكن إلا كقافز رام الارتفاع قدما فوجد نفسه يحلق فوق هامة الجو !، ولكن أى قوة تستطيع أن تشكمه بعد ذلك ؟

ـــ لا تذكرينى بما لا أحب سماعه فإنى فى غنى عن ذلك ، لن أنسى رأسى لأنى أحمله ليل نهار ، ولا أنفى فإنى أراه مرات كل يوم ، ولكن عندى شيء لا نظير له عند الآخرين ، حبى لا نظير له ، إنى فخور به ، ويجب أن تكونى به فخورا أيضا ولو زهدت فيه ، هكذا كان مذ رأيتك أول مرة فى الحديقة ، ألم تشعرى به ؟.. لم أفكر فى الاعتراف من قبل لأنى خفت أن يقطع ما بيننا من مودة وأن يطردنى من الفردوس ، لم يكن من اليسير عليَّ أن أغامر بسعادتى ، أما وقد طردت من الفردوس فعلام أخاف ؟!

سال سره على لسانه كأنه دم تعذر منعه ، ولم يكن يرى من الوجود إلا شخصها البديع ، كأن الطريق والأشجار والقصور والقلة العابرة قد غابت وراء سحابة شاملة لم تنحسر إلا عن فرجة لاحت منها المعبودة الصامتة بقامتها الهيفاء وهالتها السوداء وعارضها الموسوم بالملاحة المنطوى على الأسرار ، يبدو فى الظل حينا أسمر صافيا ، وحينا ـــ إذا مرَّا بطريق جانبى ـــ وضَّاءً منيرا تحت شعاع الشمس المائلة للغروب ، ولم يكن يبالى أن يسترسل فى الحديث حتى الصباح !

ـــ أقلت لك إننى لم أفكر فى الاعتراف من قبل ؟!، فى هذا تجاوز ، الواقع أننى هممت بالاعتراف يوم التقينا فى الكشك ونودى حسين للتليفون ، كدت أعترف لولا أن عاجلتنى بمهاجمة رأسى وأنفى ، فكنت (وهو يضحك ضحكة مقتضبة) كالخطيب الذى هم بفتح فيه فانهال عليه الحصي من جمهور المستمعين ؟

هادئة صامتة كما ينبغى لها ، ملاك من عالم آخر لا يطيب له التحدث بلغة البشر أو الاهتمام بشئونهم ، أما كان من الأكرم له أن يصون سره ؟!.. الأكرم ؟!. الكبرياء حيال المعبود كفر ، مواجهة القاتل بالقتيل فن من الحكمة ، أتذكر الحلم السعيد الذى استيقظت منه ذات صباح فبكيت عليه ؟.. الحلم سرعان ما يبتلعه النسيان ، أما الدموع أو بالحرى ذكراها فتبقى رمزا خالدا ، وإذا بها تقول :

ـــ لم أقل ما قلت إلا على سبيل الدعابة ، ورجوتك حينذاك ألا تغضب ..

هذا الشعور الرطيب جدير بالتذوق ، كالفرحة السعيدة على أثر وجع ضرس وضرباته ، وتداعت الأنغام الكامنة فى نفسه حتى برز منها لحن مليح ، عند ذاك تراءت قسمات المعبودة رموزا موسيقية للحن سماوى مرقومة على صفحة الوجه الملائكى .

ــ ستجدينني قانعا بما دون الرجاء ، لأنني كما قلت لك : أحبك ..

والتفتت صوبه فى رشاقة طبيعية ، فألقت عليه نظرة باسمة ثم استردتها على عجل قبل أن يتمكن من قراءتها ، أية نظرة كانت يا ترى ؟.. نظرة رضى ؟. تأثر ؟. عطف ؟. استجابة ؟. سخرية مهذبة ؟. وهل أصابت الوجه جملة أم اختصت بالرأس والأنف ؟. وجاءه صوتها قائلا :

ــ لا يسعنى إلا أن أشكرك ، وأعتذر لك عن إيلامك الذى لم أتعمده ، أنت رقيق وكريم ..

ونزعت به النفس إلى الارتماء فى أحضان الأحلام السعيدة ، ولكنها استطردت قائلة بصوت خافت :

ــ الآن دعنى أتساءل عما وراء ذلك ؟

ترى أيسمع صوت معبودته أم صدى صوته هو ؟. هذه الجملة بنصها محلقة فى مكان ما من سماء بين القصرين محفوفة بتنهداته ، هل آن له أن يجد لها جوابا ؟.. تساءل فى حيرة :

ــ هل وراء الحب شيء ؟!

ها هى تبتسم ، ترى ما معنى ابتسامتها ؟. لكنك غير الابتسام تروم ، عادت تقول :

ــ إن الاعتراف بداية وليس نهاية ، إنى أتساءل عما تريد ..؟

فأجاب بحيرة أيضا :

ــ أريد .. أريد أن تأذنى لى بأن أحبك ..

فما ملكت أن ضحكت ، ثم تساءلت :

ــ أهذا ما تريد حقا ؟!. ولكن ماذا أنت فاعل إذا لم آذن لك ؟

فقال وهو يتنهد :

ــ فى هذه الحال أحبك أيضا .

فتساءلت فيما يشبه الدعابة ، الأمر الذى أرعبه :

ــ فيم إذن كان الاستئذان ؟

حقا ما أسخف هفوات اللسان ، إن أخوف ما يخاف أن ينحط على الأرض فجأة كما سما عنها فجأة ، وسمعها تقول :

ـــ أنت تحيرنى ، ويبدو لى أنك تحير نفسك أيضا ..

قال بجزع :

ـــ إنى .. حائر ؟، ربما ، ولكنى أحبك ، ماذا وراء ذلك ؟. يخيل إلى أحيانا أنى أطمع إلى أمور تعجز الأرض عن حملها ، ولكنى إذا تأملت قليلا عجزت عن تحديد هدف لى ، خبرينى أنت عن معنى هذا كله ، أريد أن تتحدثى وأن أستمع ، هل عندك ما ينتشلنى من حيرتى ؟..

قالت باسمة :

ـــ ليس عندى مما تسأل شيء ، كان ينبغى أن تكون أنت المتحدث وأنا المستمعة ، ألست فيلسوفا ؟!

قال واجما ووجهه يتورد :

ـــ أنت تسخرين منى ..!

فقالت بعجلة :

ـــ كلا ، غير أنى لم أكن أتوقع هذا الحديث عندما غادرت البيت ، فاجأتنى بما لم أتوقع ، وعلى أى حال فإنى شاكرة ممتنة ، ولا يسع إنسان أن ينسى عواطفك الرقيقة المهذبة ، أما أن يسخر منها فهذا ما لا يخطر على بال ..

نغمة آسرة ومناغمة عذبة ، ولكنه لا يدرى أيجد المعبود أم يلهو ، وهل تتفتح أبواب الأمل أم توصد فى خفة النسيم ، وقد سألته عما يريد فما أجاب لأنه لا يدرى ماذا يريد ، ولكن ماذا عليه لو قال إنه يطمح إلى الوصال ، وصال الروح بالروح ، وأن يطرق باب السر المغلق بعناق أو قبلة ، ألا يكون هذا هو الجواب ؟!، وعند مفترق الطرق الذى ينتهى عند شارع السرايات ، توقفت عايدة عن السير ، ثم قالت برقة ولكن بلهجة قاطعة :

ـــ هنا ..!

فتوقف عن السير أيضا وهو يحملق فى وجهها بدهش ، هنا تعنى أنه يجب أن نفترق هنا ، لم يكن لجملة « أحبك » هذا الامتداد فى المعنى الذى يغنى عن السؤال ، قال دون تدبر أو تفكير :

ـــ كلا ..!

ثم هاتفا ، كمن ظفر بكشف مضيء بغتة :

ـــ ماذا وراء الحب ؟. أليس هذا سؤالك ؟. هاك الجواب : ألا نفترق ..!

قالت بهدوء باسم :

ـــ ولكن يجب أن نفترق الآن ..!

تساءل بحرارة

ـــ لا كدر ولا سوء ظن ؟

ـــ كلا ..

ـــ أتعودين إلى زيارة الكشك ؟

ـــ إذا سمحت الظروف .

بقلق :

ـــ كانت الظروف تسمح فى الماضى !

ـــ الماضى غير الحاضر ..

آلمه الجواب إيلاما عميقا ، فقال :

ـــ يبدو أنك لن تعودى ..

فقالت كأنما تنبهه إلى وجوب الافتراق :

ـــ سأزور الكشك كلما سمحت الظروف ، سعيدة ..

وغادرت موقفها متجهة نحو شارع المدرسة فوقف يرنو إليها كالمسحور ، وعند منعطف الطريق التفتت نحوه فألقت عليه نظرة باسمة ثم غابت عن ناظريه .

ماذا قال وماذا سمع ؟، سيخلو إلى هذا عما قليل ، بعد أن يفيق ، متى يفيق ؟!، إنه يسير الآن وحده ، وحده ؟، وخفقات القلب وهيمان الروح وأصداء النغم ؟، ومع ذلك شعر بالوحدة بقوة هزت صميم فؤاده ، وفغمه شذا ياسمين ساحرا آسرا ولكن ما هويته ؟، ما أشبهه بالحب فى سحره وأسره وغموضه ، لعل سر هذا يفضى إلى ذاك ، ولكنه لن يحل هذا اللغز حتى يأتى على تراتيل الحيرة ..

٢٤

قال حسين شداد :

ـــ هذه جلسة الوداع وا أسفاه !

امتعض كمال لدى ذكر كلمة الوداع ، ورمق حسين بنظرة سريعة ليرى إن كان وجهه ينطق بالأسف حقا كما نطق به لسانه !. على أنه استشعر جو الوداع منذ أكثر من أسبوع ، إذ أن مجيء يونية يؤذن عادة برحيل الأصدقاء إلى رأس البر والإسكندرية ، فما هي إلا أيام حتى تغيب عن أفقه الحديقة والكشك والأصدقاء ، أما المعبودة فقد ارتضت الاختفاء من قبل أن يقضي به الرحيل ، وأصرت عليه رغم الصلح الذي توّج به حديث شارع السرايات ، لكن هل يمضي يوم الوداع دون زيارة ؟، هل هانت المودة إلى حد الضن بنظرة عابرة قبل سفر ثلاثة أشهر ؟. تساءل كمال باسما :

ـــ لم قلت « وا أسفاه ! » ؟

فقال حسين شداد باهتمام :

ـــ وددت لو سافرتم معي إلى رأس البر ، يا سلام !.. أي تصييف كان يكون ؟!..

كان يكون عجبا بلا ريب ، حسبه أن المعبودة لا تستطيع مواصلة الاختفاء هناك !، وخاطبه إسماعيل لطيف :

ـــ كان الله في عونك !. كيف تحتمل حر الصيف هنا ، إن الصيف لم يكد يبدأ بعد ، ومع ذلك انظر إلى حر اليوم !..

كان الجو شديد الحرارة رغم تقلص ذيل الشمس عن الحديقة والصحراء الممتدة وراءها ، غير أن كمال قال بهدوء :

ـــ لا شيء في الحياة لا يمكن احتماله ..

وفي اللحظة التالية كان يسخر من إجابته ويتساءل كيف أجاب بها ، وإلى أي حد يمكن اعتبار أن أقوالنا تعبير صادق عما في نفوسنا ؟، ونظر فيما حوله فرأى أناسا سعداء ما في ذلك ريب ، بدوا في قمصانهم ذوات الأكمام القصيرة وبنطلوناتهم الرمادية كأنما يتحدُّون الحر ، كان هو وحده الذي يرتدي بدلة كاملة ـــ وإن تكن

بدلة خفيفة بيضاء ــ وطربوشا وقد وضعه على المنضدة ، وإذا بإسماعيل لطيف ينوّه بنتيجة الامتحان قائلا :

ــ نتيجة نجاح مائة فى المائة ، حسن سليم نال الليسانس ، كمال أحمد عبد الجواد منقول ، حسين شداد منقول ، إسماعيل لطيف منقول ..

قال كمال ضاحكا :

ــ لو اكتفيت بذكر النتيجة الأخيرة لعرفنا الأخريات بداهة !

فقال إسماعيل وهو يرفع منكبيه استهانة :

ــ كلانا بلغ هدفا واحدا ، أنت بعد كد وتعب تواصلا طول العام ، وأنا بعد تعب شهر واحد !

ــ هذا دليل على أنك عالم بالفطرة !

فتساءل إسماعيل ساخرا :

ــ ألم تقل مرة فى أحد أحاديثك التافهة إن برنارد شو كان أخيب تلميذ فى عصره ؟

فقال كمال ضاحكا :

ــ الآن آمنت بأن عندنا نظيرا لشو ، على الأقل فى خيبته ..!

عند ذاك قال حسين شداد :

ــ عندى خبر ينبغى إذاعته قبل أن يسرقنا الحديث ..

ولما وجد أن قوله لم يجد كثيرا فى لفت الأنظار إليه نهض فجأة ، ثم قال بلهجة لم تخل من تمثيل :

ــ دعونى أزف إليكم خبرا طريفا وسعيدا (ثم مستدركا وهو ينظر نحو حسن سليم) أليس كذلك ؟، (ثم وهو يعود برأسه نحو كمال وإسماعيل) تمت أمس خطبة الأستاذ حسن سليم على أختى عايدة ..

وجد كمال نفسه أمام هذا الخبر بغتة كما يجد إنسان نفسه تحت الترام وكان أنعم ما يكون عينا بالسلامة والأمن ، خفق قلبه خفقة عنيفة كسقطة طيارة منطلقة فى فراغ هوائى ، بل هى صرخة فزع باطنية تصدعت الضلوع دون تسربها إلى الخارج ، وقد عجب ــ خصوصا فيما بعد ــ كيف استطاع أن يضبط مشاعره ويلاقى حسين شداد بابتسامة التهنئة ، فلعله شغل عن القارعة ــ ولو إلى حين ــ بالصراع الذى

نشب بين نفسه وبين الذهول الذى طوقها ، وكان إسماعيل لطيف أول من تكلم فردد عينيه بين حسين شداد وحسن سليم الذى بدا هادئا رزينا كعادته وإن شابه هذه المرة شيء من الحياء أو الارتباك ، ثم هتف :

ــ حقا ؟!، يا له من خبر سار ، سار ومفاجيء ، سار ومفاجيء وغادر !. غير أنى سأؤجل الحديث عن الغدر إلى حين ، حسبى الآن أن أقدم خالص التهانى ..

ونهض فصافح حسين وحسن ، فقام كمال من فوره للتهنئة كذلك ، وكان مأخوذا رغم ابتسامته الظاهرة بسرعة الحوادث وغرابة الأقوال حتى خيل إليه أنه فى حلم غريب وأن المطر ينهمر فوق رأسه وأنه يتلفت باحثا عن مأوى ، وقال وهو يصافح الشابين :

ــ خبر سار حقا ، تهانىَّ القلبية ..

عاد المجلس إلى سابق هيئته ، واختلس كمال من حسن سليم نظرة على رغمه فرآه هادئا رزينا ، وكان يشفق من أن يجده مختالا أو شامتا ــ كما تصور هذا ــ فداخله شيء من الارتياح العابر ، وراح يستجدى نفسه أقصى ما لديها من قوة ليستر جرحه الدامى عن العيون اليواقظ وليتفادى من موضع الهزء والزراية ، تجلدى يا نفسى وأنا أعدك بأن نعود إلى هذا كله فيما بعد ، بأن نتألم معا حتى نهلك ، وبأن نفكر فى كل شيء حتى نجن ، ما أمتع هذا الموعد فى هدأة الليل حيث لا عين ترى ولا أذن تسمع ، حيث يباح الألم والهذيان والدموع دون زراية زار أو لومة لائم . وثمة البئر القديمة أزح عن فوهتها الغطاء واصرخ فيها مخاطبا الشياطين ومناجيا الدموع المتجمعة فى جوف الأرض من أعين المحزونين ، لا تستسلم ، حذار ، حذار ، فالدنيا تبدو لناظريك حمراء كعين الجحيم . عاد إسماعيل لطيف يقول متخذا لهجة الاتهام :

ــ مهلا ، لنا عندكما حساب ، كيف حدث هذا ودون سابق إنذار ؟، أو فلندع هذا إلى حين ، ولنسأل كيف تمت الخطبة دون حضورنا ؟.

قال حسين شداد مدافعا عن موقفه :

ــ لم يكن هناك حفل كبير أو صغير ، اقتصر الجمع على خاصة الأهل ، موعدنا يوم الكتاب وعليك خير ، ستكونان من الداعين لا المدعوين ..

يوم الكتاب !. كأنه عنوان لحن جنائزى ، حيث يشيع قلب إلى مقره الأخير

محفوفا بالورود مودعا بالزغاريد ، وباسم الحب تعنو ربيبة باريس لشيخ معمم يتلو فاتحة الكتاب ، وباسم الكبرياء هجر إبليس الجنة . قال كمال باسما :

ـــ العذر مقبول والوعد مأمول .

فصاح إسماعيل لطيف محتجا :

ـــ هذه بلاغة أزهرية إذا لاحت لها فى الأفق مائدة تناست دواعى العتاب ، وتغنت بالتسامح والثناء ، كل ذلك فى سبيل لقمة دسمة !، حقا إنك أديب أو فيلسوف أو ما شاكل ذلك من ضروب الشحاذة ، أما أنا فلست كذلك ..

ثم مواصلا حملة الاتهام على حسين شداد وحسن سليم :

ـــ يا لكما من داهيتين ، صمت طويل يعقبه فجأة إعلان خطبة ، هه ؟، حقا يا أستاذ حسن أنك الخليفة المنتظر لثروت باشا ..

قال حسن سليم وهو يبتسم معتذرا :

ـــ إن حسين نفسه لم يعلم بالأمر إلا قبيله أيام معدودات ..

فتساءل إسماعيل :

ـــ خطبة من جانب واحد كتصريح ٢٨ فبراير ؟

رفضته الأمة المغلوبة على أمرها بإباء ولكنه فرض عليها وما كان كان ، وضحك كمال ضحكة عالية ، فقال إسماعيل وهو يغمز حسن سليم بعينه :

ـــ استعينوا على قضاء ... لا أذكر ماذا بالكتمان !، قالها عمر بن الخطاب ، أو عمر بن أبى ربيعة ، أو عمر أفندى ، والله أعلم ..

وقال كمال فجأة :

ـــ جرت العادة بأن تنضج هذه الأمور فى صمت ، على أنى أقر بأن الأستاذ حسن أشار فى حديث له معى مرة إلى شىء كهذا !

فرمقه إسماعيل بارتياب ، على حين ألقى عليه حسن نظرة واسعة ، وقال مستدركا :

ـــ كان كلاما أشبه بالعناوين ..!

تساءل كمال فى دهش كيف ندعنه ذلك القول ؟. إنه كذب أو شبه كذب على أحسن تقدير ، كيف يطمع ـــ بهذا الأسلوب الشاذ ـــ أن يقنع حسن بأنه كان على علم بنواياه وأنه لم يفاجأ بها أو يكترث لها؟، يا للحماقة !. أما إسماعيل فقد قال

لحسن وهو يحدجه بنظرة عتاب :

ـــ ولكنى لم أحظ بعنوان واحد من هذه العناوين !

قال حسن بجد :

ـــ أؤكد لك أنه إذا كان كمال قد وجد فى حديثى معه ما اعتبره إشارة إلى الخطبة ، فإنما يكون قد استعان على ذلك بخياله لا بكلماتى.

ضحك حسين شداد ضحكة عالية ، وقال مخاطبا حسن سليم :

ـــ إسماعيل زميلك القديم ، وهو يريد أن يقول لك إنه إذا كنت سبقته إلى الليسانس بثلاث سنوات فلا يعنى هذا أن تضن عليه بأسرارك أو أن تؤثر بها غيره !

فقال إسماعيل باسما ، وكأنما كان يدارى مضايقته :

ـــ إنى لا أرتاب فى زمالته القديمة ، ولكنى أحاسبه حتى لا يعود إلى الوقوع فى الإهمال يوم القران !

فقال كمال باسما :

ـــ نحن أصدقاء الطرفين ، فإذا أهملنا العريس فلن تهملنا العروس ..

إنه تكلم ليثبت أنه حى ، لكنه حى يتألم ، شد ما يتألم ، ترى هل جرى فى خاطره يوما أن يكون لحبه نهاية غير هذه النهاية ؟. كلا ، غير أن الإيمان بأن الموت حتم مقدر لا يمنع من الجزع حين حضوره ، وهو ألم مفترس لا يعرف المنطق أو الرحمة ، لو يستطيع أن يشخصه ليعلم فى أى موضع يكمن أو عن أى ميكروب يصدر ؟!. وبين نوبات الألم يرشح بالملل والفتور ..

ـــ ومتى يعقد القران ؟

إن إسماعيل يسأل عما يدور بخاطره كأنه موكل بأفكاره ، ولكنه لا ينبغى له أن يصمت . قال :

ـــ نعم ، هذا مهم جدا حتى لا نؤخذ على غرة ، متى يعقد القران ؟

فتساءل حسين شداد ضاحكا :

ـــ لم تتعجلان الأمر ؟!. فليهنأ العريس بما بقى من عهد عزوبيته ..

وقال حسن بهدوئه المعتاد :

ـــ ينبغى أن أعرف أولا إن كنت سأبقى فى مصر أم لا ..؟

فقال حسين شداد معقبا :

ـــ إما أن يعين فى النيابة ، أو فى السلك السياسى ..

هكذا يبدو حسين شداد مسرورا بالخطبة ، فأستطيع أن أزعم أننى كرهته ولو دقيقة عابرة ، كأنه خاننى فيمن خانونى ، أخاننى أحد ؟، اختلطت الأمور على ، غير أن هذا المساء يعدنى بخلوة حافلة ..

ـــ أيهما تفضل يا أستاذ حسن ؟

فليختر ما يحلو له ، النيابة .. السلك السياسى .. السودان .. سوريا إن أمكن ..

ـــ النيابة بهدلة ، إنى أفضل السلك السياسى ..

ـــ يحسن أن تفهم والدك ذلك جيدا حتى يركز عنايته فى إلحاقك بالسلك السياسى ..

أفلتت هذه الجملة أيضا ؟، ولا شك أنها أصابت الهدف ، ينبغى أن يتمالك أعصابه وإلا وجد نفسه مشتبكا مع حسن فى نزاع علنى ، ثم ينبغى أن يراعى خاطر حسين شداد ، فهما الآن أسرة واحدة ، ما أقسى هذه الشكة من الألم . هز إسماعيل رأسه كالآسف ، وقال :

ـــ هذه آخر أيامك معنا يا حسن ، بعد عشرة العمر كله ، يا لها من نهاية محزنة !..

يا للحماقة ! يحسب أن الحزن يمس قلبا واحة المعبود مرتعه .

ـــ الواقع أنها نهاية محزنة يا إسماعيل ..

كذب فى كذب ، مثل تهنئتك له ، يستوى فى هذا ابن التاجر وابن المستشار . قال :

ـــ أيعنى هذا أنك ستقضى عمرك كله خارج القطر ؟

ـــ هذا هو المتوقع ، لن نرى مصر إلا فى القليل النادر ..

قال إسماعيل متعجبا :

ـــ حياة غريبة !، هلا فكرت فيما ينتظر أولادك من متاعب !؟

واقلباه !، أيليق هذا العبث بالمعانى !، يحسب الشرير أن المعبودة تحبل وتتوحم وتتداح بطنها وتتكور ثم يجيئها المخاض فتلد !، أتذكر خديجة وعائشة فى الأشهر الأخيرة ؟، هو الكفر ، لم لم تشترك فى جمعية الكف السوداء ؟، الاغتيال خير من

الكفر وأنجع ، وتجد نفسك يوما فى قفص الاتهام وعلى المنصة سليم بك صبرى والد صديقك الدبلوماسى وحمو معبودتك ، كما مثل بين يديه قتلة السردار فى هذا الأسبوع ، الخائن !..

حسين شداد ضاحكا :

ـــ أتقطع الدول علاقتها السياسية حتى يربى أولاد الدبلوماسيين فى بلادهم ؟!

بل تقطع الرءوس !، عبد الحميد عنايت .. الخراط .. محمود راشد .. على إبراهيم .. راغب حسن .. شفيق منصور .. محمود إسماعيل .. كمال أحمد عبد الجواد الإعدام شنقا ، القاضى الوطنى سليم بك صبرى ، القاضى الإنجليزى مستر كرشو ، الاغتيال هو الجواب ، أتريد أن تقتُل أم تقتَل !..

وخاطب إسماعيل حسين قائلا :

ـــ رحيل أختك سيحمل والدك على الإصرار على رفض فكرة سفرك أنت !..

فقال حسين شداد باطمئنان :

ـــ قضيتى تقترب من الحل الموفق بخطى ثابتة ..

عايدة وحسين فى أوربا !، إنسان يفقد فى ساعة حبيبه وصديقه ، تفتقد روحك معبودها فلا تجده ويفتقد عقلك أليفه فلا يجده ، وفى الحى العتيق تعيش وحيدا مهجورا كأنك صدى حنين هائم منذ أجيال ، تأمل الآلام التى ترصدك ، آن لك أن تحصد ثمار ما زرعت من أحلام فى قلبك الغر ، توسل إلى الله أن يجعل الدموع دواءً للأحزان ، وعلّق إن استطعت جسمك بحبال المشانق أو ضعه على رأس قوة مدمرة تنقض بها على العدو ، غدا تلقى روحك خلاء كما لقيت بالأمس ضريح الحسين ، يا خيبة الآمال ، والمخلصون قتلى أما أبناء الخونة فسفراء . قال إسماعيل لطيف وكأنما يخاطب نفسه :

ـــ لن يبقى فى مصر إلا أنا وكمال ، وكمال غير مأمون الجانب ، لأن صديقه الأول ـــ قبل أو بعد أو مع حسين ـــ هو الكتاب ..

فقال حسين فى ثقة وإيمان :

ـــ لن يقطع الرحيل ما بيننا من أسباب ..

فخفق قلب كمال رغم فتوره ، وقال :

ـــ على أن قلبى يحدثنى بأنك لن تحتمل الغربة إلى الأبد ..

ـــ هذا هو الراجح ، ولكنك ستفيد من رحلتى بما سأرسله لك من كتب ، سنواصل أحاديثنا بالرسائل والكتب ..

هكذا يتكلم حسين كما لو كان السفر قد بات أمرا مفروغا منه ، هذا الصديق الذى يسعد بلقياه سعادة فاتنة فحتى الصمت يستمتع به فى محضره ، ولكن عزاء فذهاب المعبودة سيعلمه كيف يستهين بالخطب وإن جل ، هكذا هانت وفاة جدته المحبوبة على النفس التى اكتوت بنار الحزن على فهمى ، غير أنه ينبغى أن يذكر دائما أنه فى جلسة الوداع كى يملأ عينيه من الورود والأزهار الثملة بالنضرة لا تبالى فى أى حزن يهيم ، وثمة مشكلة ينبغى أن يجد لها حلا : كيف يسمو بشر إلى معاشرة المعبود أو كيف يهبط المعبود حتى يعاشره بشر ؟!، فإذا لم يجد لذلك حلا فسوف يسير فى طريقه بقدمين ترسفان فى الأغلال وفى حلقه شجا ، والحب حمل ذو مقبضين متباعدين خلق لتحمله يدان .. فكيف يحمله وحده ؟، وكان الحديث يطرد ويتفرع وهو يتابعه بعينيه وهزات رأسه وكلمات يثبت بها أن الخطب لم يقض عليه بعد ، وكان الأمل معقودا بأن قاطرة الحياة تسير وأن محطة الموت فى الطريق على أى حال ، وها هى ساعة الغروب .. ساعة الظلام والهدوء .. تحبها كما تحب الفجر ، وعايدة والألم لفظان لمعنى واحد فينبغى أن تحب الألم وأن تطرب للهزيمة منذ اليوم ولا تزال عجلة الحديث فى دوران غير منقطع والأصدقاء يتضاحكون ويتناظرون كأن واحدا منهم لم يعرف الحب قلبه .. حسين ضحكة الصحة والصفاء ، وإسماعيل ضحكة العربدة والعدوان ، وحسن ضحكة التحفظ والاستعلاء ، ويأبى حسين إلا أن يتحدث عن رأس البر ، أعدك بأن أحج إليها يوما وأن أسأل عن الرمال التى وطئتها أقدام المعبودة لألثمها ساجدا ، الآخران يتغنيان بسان استفانو ويتحدثان عن أمواج كالجبال ، حقا ؟، تصور جثة تقذف بها الأمواج إلى الشاطىء وقد امتص البحر الرهيب جمالها ونبلها ؟، ولتعترف بعد هذا كله بأن الملل يطوق الكائنات وأن السعادة ربما كانت وراء أبواب الموت ، وتواصل السمر حتى آن للجمع أن يتفرق ، فتصافحوا بحرارة .. شد كمال على يد حسين ، وشد حسين على يد كمال ، ثم مضى وهو يقول :

ـــ إلى اللقاء .. فى أكتوبر !

كان فى مثل هذا الموقف من العام الماضى وما قبله يتساءل فى لهفة متى يعود

الأصدقاء ؟، الآن ليست أشواقه رهينة بعودة أحد ، ستظل مستعرة جاء أكتوبر أو لم يجىء ، عاد الأصدقاء أو لم يعودوا . لن يلوم شهور الصيف بعد الآن لأنها تباعد بينه وبين عايدة ، فالهوة التى تفصل بينهما أعمق من الزمن ، وقد كان يعالج الزمن بجرعات الصبر والأمل ، ولكنه يخاصم اليوم عدوا مجهولا وقوة خارقة غامضة لا يدرى من تعاويذها ورقاها حرفا واحدا .. فليس أمامه إلا الصمت والتعاسة حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا . تراءى له حبه معلقا فوق رأسه كالقدر ، يشده إليه بأسلاك من الألم المبرح ، أشبه ما يكون فى جبريته وقوته بالظاهرة الكونية ، فتأمله بعين ملؤها الإكبار والحزن .

افترق الأصدقاء الثلاثة أمام سراى آل شداد : فسار حسن سليم إلى شارع السرايات ، واتجه كمال وإسماعيل نحو الحسينية فى طريقهما المعهود الذى يفترقان فى نهايته ، فيمضى إسماعيل إلى غمرة ، ويمضى كمال إلى الحى العتيق ، وما أن انفردا حتى ضحك إسماعيل ضحكة عالية طويلة ، فسأله كمال عما أضحكه ، فقال فى خبث :

ــ ألم تفطن بعد إلى أنك كنت فى الأسباب الجوهرية التى دعت إلى الإسراع فى إعلان الخطبة ؟

ــ أنا ؟!

ندت عن كمال وعيناه تتسعان فى ذهول ، فقال إسماعيل فى استهانة :

ــ نعم أنت ، لم يكن حسن يرتاح إلى صداقتكما ، هذا يبدو لى محققا رغم أنه لم ينبس لى عنه بكلمة ، إنه ذو كبرياء شديد ــ كما تعلم ــ ولكنى أعرف كيف أصل إلى ما أريد ، أؤكد لك أنه لم يكن يرتاح إلى صداقتكما ، أتذكر ما نشب بينكما ذلك اليوم ؟. الظاهر أنه طالبها بأن تحد من حريتها فى الاختلاط بالأصدقاء ، والظاهر أنها ذكرته بأنه لا حق له فى مطالبته فأقدم على هذه الخطوة الكبيرة ليكون من أصحاب الحقوق !

قال كمال وخفقان قلبه يكاد يعلو على صوته :

ــ لكننى لم أكن الصديق الوحيد ! كانت عايدة صديقتنا جميعا !.

فقال إسماعيل متهكما :

ــ ولكنها اختارتك أنت لتثير قلقه !، ربما لأنها آنست فى صداقتك حرارة لم

تجدها عند غيرك ، على أى حال ، إنها لا تلقى الأمور ارتجالا ، وقد صممت منذ قديم على الظفر بحسن فجنت أخيرا ثمرة صبرها !

« الظفر بحسن » ؟، « ثمرة صبرها » ! ما أشبه هاتين العبارتين بقول مأفون « شروق الشمس من الغرب » ، قال وقلبه يتأوه :

ــ ما أسوأ ظنك بالناس !، إنها ليست على شيء مما تتصور !.

فقال إسماعيل دون أن يفطن إلى شعور صاحبه :

ــ لعل الأمر وقع اتفاقا أو لعل حسن كان واهما ، على أى حال جاءت العواقب فى صالحها ..

هتف كمال غاضبا :

ــ صالحها !، ماذا تظن ؟!، سبحان الله ، إنك تتحدث عنها كما لو كانت خطبتها لحسن تعتبر ظفرا لها لا له !!

فحدجه إسماعيل بنظرة غريبة ، ثم قال :

ــ إنك فيما يبدو غير مقتنع بأن أمثال حسن قليلون ؟، أسرة ومركز ومستقبل ، أما مثيلات عايدة فلسن قليلات ، هن أكثر مما تتصور ، ترى هل تقدرها أكثر مما تستحق ؟، إن أسرة حسن ارتضت زواجه منها لثروة أبيها الهائلة فيما أعتقد ، إنها فتاة .. (ثم بعد تردد) .. ليست بارعة الجمال على أى حال !..

إما أن يكون مجنونا وإما أن تكون مجنونا أنت !، حزّه ألم كهذا من قبل يوم اطلع على كلمة جارحة تهجم بها كاتبها على نظام الزواج فى الإسلام ، ألا لعنة الله على الكافرين جميعا ، تساءل بهدوء يغطى به على لوعته :

ــ لم إذن كثر المعجبون من حولها ؟

أبرز إسماعيل فكه الأسفل فارتفع ذقنه فى حركة استهانة ، ثم قال :

ــ لعلك تعنينى فيمن تقصد !، لا أنكر أنها خفيفة الروح ، وطراز وحدها فى الأناقة ، إلى أن أسلوبها الغربى فى اللباقة الاجتماعية يريق عليها فتنة وإغراء ؛ لكنها بعد ذلك سمراء نحيلة لا شيء فيها يشتهى !، تعال معى إلى غمرة تر ألوانا من الجمال تزرى بجمالها جملة وتفصيلا ، هنالك ترى الملاحة الحقة فى البشرة الوضيئة والنهد الكاعب والردف الملىء ، هذا هو الجمال إن أردته .. لا شيء فيها يشتهى !..

كأنها شيء يشتهى كقمر ومريم !، نهد كاعب وردف ملىء .. كمن يصف

الروح بصفات الجسد !، يا لشدة الألم ، كتب عليه اليوم أن يتجرع كأس الألم حتى ثمالتها ، إذا توالت الضربات القاتلة فمن الخير أن ترحب بالموت ..

وعند الحسينية افترقا ، فسار كل إلى سبيله ..

٢٥

تنقضى السنون ولا يفتر حبه لهذا الطريق ، قال لنفسه ، وهو يلقى على ما حوله نظرة ضيقة : « لو شابه حبى للمرأة التى يختارها قلبى حبى لهذا الطريق لأراحنى من متاعب جمة » ، أعجب به من طريق كالتيه ، لا يكاد يمتد بضعة أمتار طولا حتى ينعطف يمنة أو يسرة ، وفى أى موضع منه يطالعك منحنى يطوى وراءه مجهولا ، وضيق ما بين جانبيه يريق عليه تواضعا وألفة فهو كالحيوان الأليف ، والجالس فى دكان على يمينه يستطيع أن يصافح الجالس فى دكان على يساره ، سقوف بمظلات الخيش تمتد بين أعالى الحوانيت فتحجب أشعة الشمس المحرقة وتنفث فى الجو الرطب سمرة حالمة ، وعلى الأرائك والرفوف جوالق مرصوصة مترعة بالحناء الخضراء والشطة الحمراء والفلفل الأسود وقوارير الورد والعطر والقراطيس الملونة والموازين الصغيرة ، وتتدلى من عل الشموع فى أحجام وألوان شتى كأنها التهاويل ، فى جو مفعم بشذا العطارة والعطر كأنها أنفاس حلم قديم تائه لا يذكر متى رآه ، أما الملاءات اللف والبراقع السود والعرائس الذهبية والأعين الكحيلة والأرداف الثقيلة فمنها جميعا أستعيذ بواهب النعم ، سير الحالم فى تهاويل حلم جميل رياضة محبوبة بيد أنى أشكو ضنى القلب والعين ، إن تعد النسوان هنا لا تحصيهن ، مبارك المكان الذى يضمهن ولا منجى لك إلا أن تهتف من أعماق الفؤاد : يا خراب بيتك يا ياسين ، هنالك يجيبك صوت أن افتح دكان فى التربيعة واستقر ، أبوك تاجر .. سيد نفسه .. ينفق فى مسراته أضعاف أضعاف مرتبك ، افتحها وتوكل ولو بعت لذلك ربع الغورية ودكان الحمزاوى ، تجىء مع الصبح كالسلطان لا ميعاد يربطك ولا رئيس يرعبك ، تجلس وراء الميزان فيجيئك النسوان من كل فج : صباح الخير يا سى ياسين ، واقعد بالعافية يا سى ياسين ، علىَّ وعلىَّ إن تركت مصونة دون تحية أو متهتكة دون ميعاد ! ما ألذ الخيال وأقساه على من سيبقى إلى آخر العمر ضابطا بمدرسة النحاسين ، والعشق داء أعراضه جوع دائم وقلب قلب فوارحمتاه لمن خلق

بشهوة خليفة وسلطان ضابط مدرسة ، تهدم الرجاء فلا جدوى من الكذب ، ويوم حملتها إلى قصر الشوق كان الأمل يعدك بحياة هادئة مطمئنة ، قاتل الله الملل كيف يمازج النفس كما تمازج مرارة المرض اللعاب !، عدوت وراءها عاما ثم مللتها فى أسابيع فما التعاسة إن لم تكن هذا ؟، بيتك أول بيت يضج بالشكوى فى شهر العسل ، سل قلبك أين مريم !؟.. أين الملاحة التى لوعتك ؟.. يجيبك بضحكة كالتأوه ويقول أكلنا وشبعنا وصرنا نتقزز من رائحة الطعام ، وهى ماكرة يستعذب اللعب بها ولا تفوتها شاردة ، مرة بنت مرة ، اذكروا حسنات موتاكم هل كانت أمك خيرا من أمها ؟!، المهم أنها ليست كزينب يسهل خداعها وما أثقل غضبها إذا غضبت ، لا هى بالتى تغضى ولا أنت بالذى يقنع ، هيهات أن تشبع جوعك المستعر امرأة أو يعرف الاستقرار قلبك ، ومع ذلك توهمت أنك ستظفر بحياة زوجية سعيدة !، ما أعظم أباك وما أحقرك !، لم تستطع أن تكون مثله ودواؤك أن تكون مثله ؟!، رباه ما هذا الذى أرى ؟!، أهذه امرأة حقا ؟!، كم قنطارا يا ترى تزن ؟! اللهم إنى لم أر من قبل طولا كهذا الطول ولا عرضا كهذا العرض ، كيف تملك هذه الضيعة ؟!، إنى أنذر إذا وقعت بين يدى امرأة فى قدرها أن أنيمها فى وسط الحجرة عارية ، وأن أدور حولها سبعا وأنا أفقر ..

ـــ أنت ..!

جاء الصوت من وراء فاهتز له قلبه ، وسرعان ما تحولت عيناه عن المرأة الضخمة إليه ، فرأى شابة فى معطف أبيض ، فما تمالك أن هتف :

ـــ زنوبة !..

وتصافحا فى حرارة وهى تضحك ، غير أنه حثها على السير حتى لا يلفتا إليهما الأنظار ، فسارا جنبا إلى جنب يشقان الزحام . هكذا التقيا بعد طول الفراق ، ولم تكن ترد على خاطره إلا فى القليل النادر بعد أن شغلته عنها الشواغل ، ولكنه وجدها جميلة كيوم هجرها أو لعلها ازدادت جمالا ، ثم ما هذا الزى الحديث الذى استبدلته بالملاءة اللف ؟!، وانبعثت فيه موجة من النشاط والسرور ، وإذا بها تتساءل :

ـــ كيف حالك ؟

ـــ عال ، وأنت ؟

ـــ كما ترى ..

ـــ عال جدا والحمد لله ، أنت غيرت زيك ، لم أكن أعرفك عند أول نظرة ، لا أزال أذكر مشيتك فى الملاءة اللف ..

ـــ وأنت لم تتغير ، لم تكبر ، ازددت سمانة ، هذا كل ما فى الأمر ..

ـــ أنت الآن شيء آخر !، بنت أفرنجية !.. (وهو يبتسم فى حذر) .. إلا أن ردفها من الغورية !

ـــ لسانك !

ـــ أرعبتنى !، كأنك تبت أو تزوجت ..!

ـــ لا شيء على الله بكثير ..

ـــ أما التوبة فهذا المعطف الأبيض يكذبها ، وأما الزواج فلا يبعد أن تسوقك قلة العقل يوما إليه !

ـــ حاسب ، إنى متزوجة تقريبا ..!

ضحك ـــ وكانا يميلان إلى الموسكى ـــ قائلا :

ـــ مثلى تماما ..

ـــ لكنك متزوج بالفعل ، أليس كذلك ؟

ـــ كيف عرفت هذا ؟.. (ثم مستدركا) أوه .. كيف نسيت أن أسرارنا عندكم أول بأول !

وضحك مرة أخرى ضحكة ذات معنى ، فابتسمت ابتسامة غامضة ، وقالت :

ـــ تقصد بيت السلطانة ؟

ـــ أو بيت أبى ، أليس الود متصلا ؟

ـــ تقريبا !.

ـــ كل شيء عندك الآن بالتقريب !، أنا كذلك متزوج تقريبا ، أعنى أنى متزوج وأبحث عن رفيقة ..

هشت بيدها ذبابة على وجهها ، فوسوست أساورها الذهبية المحيطة بساعدها وهى تقول :

ـــ أنا مرافقة وأبحث عن زوج !.

ـــ مرافقة ؟!، من السعيد ابن الـ ..

قاطعته وهى تشير إليه محذرة :
ــ إياك والسب ، إنه رجل ذو مقام ..
فقال وهو يلحظها ساخرا :
ــ ذو مقام ؟!، هق هق ، زنوبة !.. أود لو أنطحك ..
ــ أتذكر متى تقابلنا آخر مرة ؟
ــ أوه ، ابنى رضوان عمره الآن ستة أعوام ، فنكون قد تقابلنا آخر مرة منذ سبعة أعوام .. تقريبا !
ــ عمر طويل ..
ــ ولكن لا ينبغى لحى أن ييأس فى هذه الدنيا من اللقاء ..
ــ ولا الفراق ..
ــ الظاهر أنك خلعت الوفاء مع الملاءة اللف !
فحدجته بنظرة مقطبة وهى تقول :
ــ أتتحدث عن الوفاء يا ثور !
فسره رفع الكلفة إلى هذا الحد وشجع مطامعه ، فقال :
ــ الله وحده يعلم كم سررت بلقائك ، كثيرا ما كنت تخطرين ببالى ، ولكنها الدنيا !
ــ دنيا النسوان ، هه ؟
فقال متظاهرا بالتأثر :
ــ دنيا الموت ، ودنيا المتاعب ..
ــ لا يبدو أنك تحمل للمتاعب هما ، إن البغال لتحسدك على صحتك ..
ــ لولا أن العين الجميلة لا تحسد ..
ــ أتخاف على نفسك !، كأنك عبد الحليم المصرى طولا وعرضا ..
فضحك مختالا ، وصمت قليلا ، ثم قال بلهجة جديدة جادة :
ــ أين كنت ذاهبة ؟
ــ لم تذهب الواحدة إلى التربيعة ؟، أم ظننت الناس مثلك لا هم لهم إلا التحكك بالنسوان ؟
ــ مظلوم والله ..

ــ مظلوم !، لما لمحتك وجدتك تغوص بعينيك فى امرأة كالبوابة ..
ــ بل كنت شاردا أفكر لا أعى فيم أنظر ..
ــ أنت !، إنى أنصح من يروم لقاءك أن ينقب فى التربيعة عن أضخم امرأة ، وأنا كفيلة بأنه سيجدك وراءها لابداً كما تلبد القراضة فى الكلب ..
ــ أنت يا ولية لسانك كل يوم يطول عن يوم ..
ــ اسم الله على لسانك انت ..
ــ ما علينا ، خلينا فى الأهم ، أين أنت ذاهبة الآن ؟
ــ سأتسوق قليلا ، ثم أعود إلى بيتى !..
فصمت لحظة كالمتردد ، ثم قال :
ــ ما رأيك فى أن نقضى معا بعض الوقت ؟
فلحظته بعينيها السوداوين اللعوبتين ، وقالت :
ــ ورائى رجل غيور !..
فقال وكأنه لم يسمع اعتراضها :
ــ فى مكان لطيف لنشرب كأسين !..
فعادت تقول بصوت أعلى من سابقه :
ــ قلت لك ورائى رجل غيور ..
فاستطرد قائلا دون اكتراث :
ــ توفابيان ، ما رأيك ؟، إنه مكان لطيف وابن حلال ، سأنادى هذا التاكسى ..
فند عنها صوت احتجاج ، ثم تساءلت فى استياء وشى وجهها بغيره قائلة : « بالقوة ؟! » ثم نظرت فى ساعتها بمعصمها ــ وقد كادت هذه الحركة الجديدة تضحكه ــ وقالت بلهجة الشارط :
ــ على ألا أتأخر ، الساعة الآن السادسة ، وينبغى أن أكون فى البيت قبل الثامنة ..
تساءل والتاكسى يطوى بهما الطريق : ترى هل لمحتهما عين ما بين التربيعة والموسكى ؟، غير أنه هز كتفيه استهانة وهو يزحلق طربوشه المائل فوق حاجبه الأيمن إلى الوراء بمقبض منشته العاجية ، ماذا يهمه ؟! مريم وحيدة وليس وراءها

وحش مثل محمد عفت الذى قوض أول بيت زوجية بناه ، وأما أبوه فرجل لبق وهو يعلم أنه لم يعد الطفل الغرير الذى نكّل به فى فناء البيت القديم . وفى حديقة توفابيان جلسا حول مائدة متقابلين ، كان المشرب غاصا بالنساء والرجال ، والبيانو الميكانيكى يعزف مقطوعاته الرتيبة ، على حين هفت رائحة الشواء مع نسيم الأصيل من ركن قصى . وأدرك من ارتباكها أنها تجلس فى مكان عام لأول مرة فداخله سرور حريف ، ثم أيقن فى اللحظة التالية أن ما به حنينا حقا لا محض رغبة عابرة ، وبدت له أيامها الغابرة أسعد الأيام كلها . وطلب قارورة كونياك ثم طلب شواء ، وجرى ماء الحياة فى خديه ، ثم خلع طربوشه فبدا شعره الأسود مفروقا من الوسط على جانبى الرأس كشعر أبيه ، فما أن لمحته زنوبة حتى ارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة لم يفطن بطبيعة الحال إلى ما وراءها . كانت أول مرة يجالس فيها امرأة فى حانة غير حانات وجه البركة ، وكانت أول مغامرة له بعد زواجه الثانى مع استثناء إلمامة واحدة بدرب عبد الخالق . وربما كانت أول مرة كذلك يشرب فيها كونياك « راقيا » خارج البيت ، إذ أنه لا يتناول الجيد منه إلا فيما يقتنى من زجاجات فى البيت للاستعمال « الشرعى » على حد تعبيره . ملأ الكأسين فى زهو وارتياح ، ثم رفع كأسه وهو يقول لها :

ـــ صحة زنوبة مارتل !

فقالت بكبرياء خفيف الظل :

ـــ إنى أشرب الديوارس مع البك ..

فقال متأففا :

ـــ دعينا من سيرته ، ربنا يقدرنا على جعله فى خبر كان ..

ـــ بعدك !..

ـــ سنرى ، كلما شربنا كأسا تفتحت لنا أبواب وانحلت عقد ..

ولإحساسهما بقصر الوقت المتاح تعجلا الشراب فامتلأ الكأسان وفرغا تباعا ، وهكذا أخذ الكونياك يزغرد بلسانه النارى فى معدتيهما فيرتفع زئبق النشوة فى ترمومتر العروق ، أما الأوراق الخضراء المتطلعة من الأصص وراء سور الحديقة الخشبية فافترت ثغورها عن بسمات متألقة ، وأخيرا وجد البيانو آذانا متسامحة ، والوجوه الحالمة المعربدة تلاقت أعينها مرارا فى أنس ومودة ، وجو الأصيل سبح فى

موجات موسيقية صامتة ، وبدا كل شيء طيبا وجميلا :

ـــ أتعرف ماذا طفر إلى لسانى أول ما رأيتك اليوم وأنت تحملق فى المرآة كالمسعور ؟

ـــ أفندم ؟.. ولكن أفرغى كأسك أولا حتى أملأه ..

وهى تتناول ريشة شواء :

ـــ كدت أصيح بك : يا بن الكلب ..

وهو يضحك ضحكة ريانة :

ـــ ولم لم تفعلى يا بنت القارحة ؟

ـــ أصلى لا أشتم إلا الأحباء ! وكنت وقتها غريبا أو كالغريب !

ـــ والآن ماذا تريننى ؟

ـــ ابن ستين ..

ـــ يا سلام ، الشتيمة تسكر أكثر من الخمر أحيانا ، هذه الليلة المباركة ستتحدث عنها الجرائد غدا ..

ـــ لم كفى الله الشر ؟، ناو تعمل حادثة ؟!

ـــ الطف يا رب لى وبها ..

وعند ذاك قالت فى شيء من الاهتمام :

ـــ لم تحدثنى عن زوجك الجديدة ..؟

ـ فربت ياسين شاربه وهو يقول :

ـــ حزينة المسكينة !، ماتت أمها هذا العام ..

ـــ العمر الطويل لك ، كانت غنية ؟

ـــ تركت بيتا ، البيت المجاور لبيتنا أعنى المجاور لبيت والدى ، ولكنها تركت فى نفس الوقت شريكا لزوجى فيه وهو لزوجها !

ـــ لا بد أن زوجك جميلة ، فأنت لا تقع إلا على النقاوة ..

فقال بحذر :

ـــ لها جمالها ، غير أنه لا يقاس بجمالك أنت ..

ـــ آه منك آه ..!

ـــ هل عرفتنى كاذبا أبدا ؟!

ـــ أنت ؟!، أنا أشك أحيانا فى أن اسمك هو ياسين حقا ..
ـــ إذن فلنشرب هذه الكأس أيضا ..
ـــ تسكرنى كى أصدقك ..؟!
ـــ إذا قلت لك إننى أرغب فيك وأحن إليك فهل تشكين فى صدقى ؟، انظرى فى عيني ، وجسى نبضى ..
ـــ أنت خليق بأن تقول هذا الكلام لأية امرأة تصادفك ..
ـــ هذا كما يقال إن الجائع يود ألوان الطعام جميعا ، ولكن الملوخية مثلاً قد تستأثر بمنزلة خاصة ..
ـــ الرجل الذى يحب امرأة حقا لا يتردد عن الزواج منها ..
فنفخ ، ثم قال :
ـــ أنت مخطئة ، بودى لو أقف فوق هذه المائدة وأصرخ بأعلى صوتى : من يحب منكم امرأة فلا يتزوجها ، أجل ، لا شىء يقتل الحب كالزواج . صدقينى ، إنى مجرب ، وقد تزوجت مرة وأخرى وأعرف مدى صدق ما أقول ..
ـــ لعلك لم تهتد بعد إلى المرأة التى تناسبك ..
ـــ تناسبني ؟، كيف تكون هذه المرأة ؟، وبأى حاسة يهتدى إليها ؟، وأين تكون هذه المرأة التى لا تمل ؟!
فضحكت فى فتور ، وقالت :
ـــ كأنك تتمنى أن تكون ثورا فى حديقة أبقار ، هذا هو أنت !
ففرقع بأصبعه طربا ، وقال :
ـــ الله .. الله ، منذا الذى كان فى زمان مضى يدعونى بالثور ؟.. إنه أبى ربنا يمسيه بالخير ، كم أود لو أكون مثله ، حظى بامرأة هى آية الطاعة والقناعة ، وانطلق على هواه لا يجد فى حياته المتاعب ، موفقا فى زواجه ، موفقا فى عشقه .. هذا ما أريد ..
ـــ ما عمره ؟
ـــ أظنه فى الخامسة والخمسين ، بيد أنه أقوى من الشباب ..
ـــ لا عظيم أمام السنين ، ربنا يمتعه بصحته ..
ـــ إلا أبى ، إنه معشوق المعشوقات من النساء ، ألا ترينه الآن فى بيتكم ؟

فقالت ضاحكة وهى ترمى بعظمة إلى قطة تموء تحت قدميها :

ـــ هجرت ذلك البيت منذ أشهر ، الآن لى بيتى الخاص وأنا سيدته !

ـــ حقا ؟! حسبتك تمزحين ، وهل هجرت التخت أيضا ؟

ـــ هجرته ، إنك تحدث سيدة بكل معنى الكلمة ..

فقهقه فى انبساط ، ثم قال :

ـــ إذن اشربى ودعينى أشرب ، وربنا يلطف بنا ..

فى النفس فتنة وفى الجو فتنة ، ولكن أيهما الصوت وأيهما الصدى ؟، وأعجب من هذا أن الحياة تدب فى الجمادات ، الأصص تترنح هامسة والأركان تتناجى ، السماء ترنو إلى الأرض بأعين النجوم الناعسة وتتكلم ، وبينه وبين صاحبته رسائل متبادلة تفصح عن المكنون فى جو مشحون بالأضواء المنظورة وغير المنظورة يبهر الفؤاد ويزغلل العين ، وفى الدنيا شىء يدغدغ البشر فلا يتركها حتى تغرق بالضحك ، الوجوه والكلمات والحركات وغيرها تغرى جميعا بالضحك ، والوقت يمر كالشهاب ، وحاملو ميكروب العربدة يوزعونه بين الموائد بوجوه أثقلتها الرزانة ، أما أنغام البيانو فتترامى من بعيد فيكاد يغطى عليها صليل عجلات الترام ، وغلمان الطوار ولاقطو الأعقاب ينشرون حولهم لغطاً كطنين الذباب ، وجحافل الليل تعسكر فوق الربوع وتستقر ، كأنك تنتظر حتى يجيئك الساق فيسألك : أليس للنشوان مقر ؟، وأنت عن ذاك وما هو أجلّ لاهٍ سادر ، لو تسجد مريم بين يديك هامسة : حسبى غرفة أمارس فيها طاعتك واملأ الحجرات بمن تهوى من النساء ، أو يربت ناظر المدرسة كتفك كل صباح قائلا : كيف حال والدك يا بنى ؟، لو تشق الحكومة طريقا جديدا أمام دكان الحمزاوى وربع الغورية ، أو تقول لك زنوبة : سأهجر غدا بيت صاحبى وأكون طوع بنانك ، لو حدث هذا لاجتمع الناس عقب صلاة الجمعة يتبادلون قبل الصفاء ، أما حكمة الليلة فهى أن تجلس على الكنبة وأن ترقص زنوبة عارية بين يديك ، هنالك يتاح لك أن ترعى شامة الحسن النابتة فوق سرتها :

ـــ كيف حال الشامة المحبوبة ؟

تساءل وهو يشير إلى بطنه باسما ، فقالت ضاحكة :

ـــ تبوس يدك ..

فألقى نظرة زائغة على المكان ، وقال :
ــ أترين هؤلاء الناس ، ما منهم إلا فاسق وابن فاسق ، هكذا كل السكيرين ..
ــ تشرفنا ، أما أنا فمخي يتطاير ..
ــ أرجو أن يطير الجزء الذى يقيم فيه رفيقك ..
ــ آه لو علم بما هو حاصل لنا !، سوف يطعنك يوما بفردة شاربه .
ــ أهو شامى من ذوى الشوارب الجبارة و
ــ شامى !؟.. (ثم ترنمت بصوت مسموع) برهوم يا برهوم .
ــ هس ، لا تلفتى إلينا الأنظار ..
ــ أى أنظار يا أعمى !، لم يبق إلا نفر قليل ..
وهو يمسح على بطنه نافخا :
ــ الخمر مجنونة ..
ــ المجنونة أمك ..
ــ صوتك يعلو أكثر مما ينبغى ، قومى بنا ..
ــ إلى أين ؟.
ــ عمرك أطول من عمرى ، لندع الأمر إلى قدمينا ..
ــ وهل يفلح من يترك قياده إلى قدميه ؟
ــ إنها آمن على كل حال من مخ مبعثر ..
ــ فكر قليلا فى ..
فقاطعها وهو ينهض مترنحا :
ــ علينا أن ندبر أمورنا بلا تفكير ، لأن التفكير لن يذعن لنا قبل صباح الغد ، قومى بنا ..

٢٦

أسبلت المساكن جفونها ، وأقفرت الطرقات إلا من نسمة شاردة أو ضوء مصباح مهوم ، أما الصمت فقد خلا له الجو فتاه ونشر جناحيه ، وما جدوى الفنادق إذا كان أصحابها لا يلقونك إلا بالنظرة الشزراء ، كأنك مرض يترنح فهم يجتنبوه ، أجل إنك تلاقى الإعراض بالازدراء ولكنك ستظل بلا مأوى ، وقد ضم الرقاد العاشقين فإلام تهيم على وجهك ، وها هو حوذى يرفع رأسه المثقل بالنعاس ويرنو إليك بنظرة ترحاب ، فوارحمتاه للذى يسحب المرأة فى أذيال الليل وهو يتساءل إلى أين ..؟

ــ إلى أين ؟

أجاب الحوذى باسما :

ــ تحت الأمر ..

فقال له ياسين :

ــ لم أقصدك بسؤالى ..

فقال الرجل :

ــ تحت الأمر على أى حال ..

عند ذاك قالت زنوبة :

ــ لا تسألنى أنا سل نفسك ، لم لم تفكر فى ذلك قبل أن تسكر ؟!

عاد الحوذى يقول متشجعا بوقوفهما أمام العربة :

ــ النيل !، أحسن مكان ، هل أذهب بكما إلى شاطىء النيل ؟

فتساءل ياسين محتدا :

ــ أحوذى أنت أم نوتى ؟! ماذا نفعل عند النيل فى هذا الوقت من الليل ؟!

قال الحوذى بإغراء :

ــ هنالك النور ضئيل والمكان خال ..

ــ جو مناسب لقطاع الطرق !

زنوبة بخوف :

ــ يا خبر أسود ، أذناى وعنقى وساعداى محملة بالذهب !

فقال الحوذى وهو يهز منكبيه :

ـــ الدنيا بخير ، أنا كل ليلة أذهب إلى هناك بأناس طيبين مثلكما ، ونعود على أحسن حال ..

زنوبة بحدة :

ـــ لا تذكر النيل على لسانك ، إن بدنى يقشعر لذكره !

ـــ بعد الشر عن بدنك ..

صاح ياسين وكان قد اتخذ مجلسه فى العربة إلى جانب زنوبة :

ـــ كلمنى أنا ، مالك أنت وبدنها !

ـــ يا بك أنا خدامك ..

ـــ الليلة كل شيء متعقد ..

ـــ ربنا يحل عسيرها ، إن أردت فندقا ذهبنا إلى فندق ..

ـــ تشاجرنا فى ثلاثة فنادق ، ثلاثة أم أربعة يا زنوبة ؟، شف غيرها ..

ـــ نرجع إلى النيل ..

زنوبة بغضب :

ـــ الذهب يا عمر ..!

ياسين وهو يطرح ساقيه على المقعد الخلفى :

ـــ فضلا عن أنه ليس هناك مكان ..

فقال الحوذى :

ـــ أما عن المكان فلديك العربة ..

هتفت زنوبة :

ـــ هل أنذرتما مضايقتى ؟

فقال ياسين وهو يفتل شاربه :

ـــ لك حق ، لك حق ، ثم إن العربة مكان غير صالح ، ولن أرضى بعبث الأطفال على آخر الزمن ، اسمع ..

مد الرجل أذنه ، فصاح ياسين بنفخة آمرة :

ـــ إلى قصر الشوق !..

طق طق طق طق ، تخوض الظلمات ولا أنيس إلا النجوم ، فى الأفق قلق يلوح ،

ثم لا يلبث أن يغرق فى بحر النسيان كالذكرى المستعصية ، ذلك أن الإرادة ذائبة فى كأس من الخمر ، وإذا رفيقة الهناء تساءلت بلسان ملعثم عن : أين يقصد فى قصر الشوق ؟ أجاب إلى بيتى الذى ورثته عن أمى ، قضت مقادير بأن تعيش فيه للغرام وأن توقفه بعد مماتها على الغرام ، استقبل بقلب شيق أم مريم ومريم ، والليلة يحتضن سيدة الليالى الخوالى ، وزوجك أيها السكران ؟، فى النوم مغرقة ، أليس لكل شيء حساب ؟.. وأنت مع رجل لا يعرف الخوف قلبه ، اقطفى من لآلىء النجوم ما ترصعين به جبينك ، وغنى فى أذنى وحدى : هاتيلى حبى يا نينة الليلة ..

ـــ وأين أقضى بقية الليل ..؟

ـــ سأوصلك إلى حيث تريدين ..

ـــ لن تستطيع أن توصل قشة .

ـــ باريس فى الوجه البحرى ..

ـــ لولا أنى أخافه !

ـــ من هو ؟!

بصوت منكسر وهى تلقى برأسها إلى الوراء :

ـــ من يدرينى ؟، نسيت ..

غشى الجمالية ظلام دامس ، حتى القهوة أغلقت أبوابها ، وقفت العربة عند مدخل قصر الشوق فغادرها ياسين وهو يتجشأ ، وتبعته زنوبة معتمدة على ذراعه ، ثم مضيا معا فى حذر لم يغن عن الترنح ، يتعقبهما سعال الحوذى وأطيط حذاء الخفير الذى مر بالعربة وهى تدور مستطلعا ، وقالت له : إن الطريق وعر ، فقال لها : لكن الدار أمان ، وقال لها أيضا : لا تشغلى البال . وعبثا حاولت أن تذكره بأن زوجه فى الشقة التى إليها يسعيان ، فضلا عن أنها كانت تحاول تذكيره وهى تبتسم فى الظلام ابتسامة بلهاء ، وكادت قدمها تعثر مرتين وهى ترقى السلم ، حتى وقفا أمام الشقة وهما يلهثان ، بعثت رهبة الموقف فى شعورهما المبعثر يقظة عابرة حاولت أن تلم شتاته بقبضة وانية ، فأدار المفتاح فى القفل بحذر ثم دفع الباب برفق بالغ ، وبحث فى الظلام عن أذن زنوبة حتى عثر عليها ، فمال نحوها وهمس أن تخلع الحذاء ، وفعل مثلها ، ثم تقدمها خطوة فوضع راحتها على كتفه ثم مضى إلى حجرة

الاستقبال لقاء المدخل ، ثم دفع بابها وانسل إلى الداخل وهى فى أثره . تنهدا معا بارتياح ، ورد الباب ثم قادها إلى الكنبة وجلسا معا ، قالت متضايقة :

ـــ الظلام شديد ، أنا لا أحب الظلام !

فقال وهو يضع الحذاءين تحت الكنبة :

ـــ ستألفينه بعد قليل ..

ـــ بدأ مخى يدور !..

ـــ الآن فقط ؟!

وقام فجأة دون أن يلقى إلى ما أجابت به بالا وهو يهمس فى ارتياع :

ـــ لم أغلق الباب الخارجى ..

ومد يده ليخلع طربوشه فهتف :

ـــ نسيت الطربوش أيضا !، فى العربة يا ترى أم فى توفابيان ؟

ـــ الطربوش فى داهية ، أغلق الباب يا عمر ..

تسلل مرة أخرى إلى الصالة ، ثم إلى الباب الخارجى فأغلقه بحذر شديد ، وفى طريق عودته خطرت له فكرة مغرية ، فاتجه نحو الكانصول وهو يمد يده أمامه رائدة لتقيه الاصطدام بكرسى السفرة ، ثم عاد إلى حجرة الاستقبال قابضا على زجاجة كونياك مملوءة حتى نصفها ، وضع الزجاجة فى حجرها وهو يقول :

ـــ جئتك بدواء لكل شىء ..

فتحسست يداها الزجاجة ، وقالت :

ـــ خمر ؟!.. حسبك !، أتريد أن نطفح ؟!

ـــ جرعة نسترد بها أنفاسنا بعد هذا الجهد !

شرب حتى ظن أنه قادر على كل شىء ، وأن الجنون حال تستطاب ، وهاج البحر فعلا مع موجه وسفل ثم دار فى دوامة ما لها من قرار ، وسلت فى أركان الحجرة ألسنة تنطق فى الظلماء لغوا وهذرا ، وتند عنها ضحكات معربدة ، فى ضجة كضوضاء السوق حتى الغناء جرى فى أثيرها ، وهوت الزجاجة على الأرض فأحدثت صوتا كالنذير ، ولكن كان أمامه شوط عليه أن يقطعه ولو فى بحر من العرق ، طال الوقت أم قصر فليس الزمان فى حسبانه ، لذلك تحرك الظلام وشاب إهابه والجفون المغلقة عنه غافلة ، وكما يستيقظ الحالم السعيد وهو يمد اليد ليقطف

لذة جديدة استيقظ هو على صوت وحركة ، فتح عينيه فرأى نورا وظلا يتراقص على الجدران ، وثنى رقبته فلمح عند الباب مريم قابضة على مصباح قد جلا من وجهها ملامح عابسة وعينين تشعان شرر الغضب . تبودل بين المنطرحين على الكنبة والواقفة عند الباب نظرات طويلة غريبة ، زائغة بالذهول من ناحية مستعرة بالغضب من الناحية الأخرى ، ثم لم يعد الصمت مما يستطاع . أعربت زنوبة عن قلقها بأن فتحت فاها لتتكلم ولكنها لم تقل شيئا ، ثم غلبها بغتة ضحك طارىء فأغرقت فيه حتى اضطرت إلى إخفاء وجهها بكفيها ، وإذا بياسين يصيح بها بلسان ثقيل :

ــ كفى عن الضحك !.. هذا بيت محترم !

وبدا أن مريم أرادت أن تتكلم فلم يسعفها لسانها أو أعجزها الغضب ، فقال لها ياسين ولم يكن يدرى ماذا يقول :

ــ وجدت هذه « الست » فى حالة سكر شديد ، فجئت بها إلى هنا حتى تفيق ..

ولم تسكت زنوبة ، فقالت معترضة :

ــ هو السكران كما ترين ، وقد جاء بى بالقوة !..

ندت عن مريم حركة خطيرة كأنما همت بأن تقذفهما بالمصباح ، فتصلبت قامة ياسين ونظر إليها متحفزا ، ولكنها سرعان ما تراجعت متأثرة بخطورة الإقدام ، فوضعت المصباح على منضدة وهى تصر على أسنانها بحنق ، ثم تكلمت لأول مرة وكان صوتها جافا متهدجا مخشوشنا بالحقد والغضب ، قالت :

ــ فى بيتى !. فى بيتى ؟!، فى بيتى يا مجرم يابن الشياطين !

ودوى صوتها كالرعد يصب عليه اللعنات وينعته بكل خبيث ، صرخت وصوتت حتى شق صوتها الجدران ، ونادت السكان والجيران وهى تحلف لتفضحنه وتشهد عليه النائمين . وكان ياسين ينذرها بشتى الوسائل ليسكتها ، لوح لها بيده وحملق فيها بعينيه ، وصاح بها مزمجرا ، فلما خابت وسائله نهض منفعلا واتجه نحوها بخطوات واسعة ليبلغها فى أقصر وقت دون اندفاع خشية أن يختل توازنه ، ثم انقض عليها مسددا راحته إلى فيها ليسده ، ولكنها صرخت فى وجهه كالهرة اليائسة وركلته بقدمها فى بطنه ، فتراجع مترنحا مكفهر الوجه من الحنق والألم ثم سقط على وجهه كالبنيان المتهدم ، انطلقت من زنوبة صرخة مدوية فجرت مريم

نحوها وارتمت عليها ، وجذبت شعرها بيمناها وأنشبت أظافرها الأخرى فى عنقها وجعلت تبصق فى وجهها وهى تسب وتلعن ، وما لبث ياسين أن نهض ثانيا هازًا رأسه بعنف كأنما ليطرد عنه الخمار ، فتحول إلى الكنبة وسدد نحو ظهر زوجه الراقدة فوق غريمتها قبضة شديدة فصرخت مريم وتراجعت زائغة عنه ، فتبعها وقد أعماه الغضب موجها إليها ضربات متتابعة حتى فصلت بينهما السفرة ، وعند ذاك تناولت الشبشب من قدمها وقذفته به فأصاب صدره فجرى نحوها ، وراحا يدوران فى الصالة وهو يصيح بها « اغربى عن وجهى ، أنت طالقة .. طالقة .. طالقة .. » . وإذا بيد تنقر الباب وصوت الجارة المقيمة فى الدور الثانى ينادى « ست مريم .. ست مريم » ، فتوقف ياسين عن الجرى وهو يلهث ، أما مريم ففتحت الباب وبادرت تقول بصوت ملأ السلم كله :

ـــ تعالى انظرى داخل الحجرة وخبرينى هل رأيت مثل هذا من قبل ؟!، عاهرة فى بيتى تسكر وتعربد ، ادخلى وانظرى .

فقالت الجارة باستحياء :

ـــ هدئى نفسك يا ست مريم ، تعالى معى حتى الصباح ..

هتف ياسين دون مبالاة :

ـــ اذهبى معها ، لا حق لك فى البقاء فى بيتى ..

فصرخت مريم فى وجهه :

ـــ يا فاسق ، يا مجرم ، تجيئنى بعاهرة فى بيت الزوجية ..

فضرب الجدار بقبضته وصاح بها :

ـــ أنت العاهرة ، أنت وأمك ..

ـــ تسب أمى وهى بين يدى الله !

ـــ أنت عاهرة ، أنا أعلم ذلك عن يقين ، ألا تذكرين الجنود الإنجليز ؟!. الحق علىَّ لأنى لم أستجب إلى تحذير الناس الطيبين !

ـــ أنا ستك وتاج رأسك ، أنا أشرف من أهلك ومن أمك ، سل نفسك عن الرجل الذى يتزوج امرأة وهو يعلم أنها عاهرة كما قلت !، هل يكون إلا قوادا خسيسا ؟!.. (وهى تشير إلى حجرة الاستقبال) .. تزوج من هذه ، إنها من النوع الذى يوافق مزاجك القذر ..

ـــ كلمة أخرى ، وبسيل دمك حيث تقفين ..

ولكن حنجرتها عادت تصرخ وتقذف اللهب حتى تدخلت الجارة لتحول بينهما إذا دعا داع ، وجعلت تربت منكبها متوسلة إليها أن تمضى معها حتى يطلع الصبح ، واشتد الضيق بياسين فصاح بها :

ـــ خذى ثيابك واخرجى ، ابعدى عن وجهى ، لا أنت زوجى ولا أنا أعرفك ، أنا داخل الحجرة الآن وإياك أن أجدك إذا عدت ..

واندفع إلى حجرة الاستقبال ودفع الباب وراءه دفعة عنيفة ارتجت لها الجدران ، ثم ارتمى على الكنبة وهو يجفف عرق جبينه ، همست زنوبة قائلة :

ـــ إنى خائفة ..

فقال بخشونة :

ـــ اسكتى ، مم تخافين ؟!.. (ثم بصوت مرتفع) أنا حر .. أنا حر ..

فقالت وكأنها تخاطب نفسها :

ـــ ماذا أصابنى فى عقلى حتى طاوعتك وجئت معك إلى هنا ؟

ـــ اسكتى !.. ما كان كان ولست آسفا على شىء .. أف ..

وترامت إليهما الأصوات خلال الباب المغلق ، فدلت على أن أكثر من جارة قد أحاطت بالزوجة الغاضبة ، ثم سمع صوت مريم وهى تقول بلهجة باكية :

ـــ هل سمعتم عن هذا من قبل ؟. عاهرة من عرض الطريق فى بيت الزوجية ؟. استيقظت على ضوضائهما وهما يضحكان ويغنيان !، إى والله كانا يغنيان بلا حياء بعد أن أذهلهما السكر ، خبرونى أهذا بيت أم ماخور ؟!

وإذا بصوت امرأة تقول محتجة :

ـــ أتجمعين ثيابك وتغادرين بيتك ؟!. هذا بيتك يا ست مريم ولا يصح أن تغادريه ، فلتغادره الأخرى ..

فهتفت مريم :

ـــ لم يعد بيتى ، لقد طلقنى المحترم !

فقالت أخرى :

ـــ لم يكن فى وعيه ، تعالى الآن معنا ولنؤجل الحديث إلى الصباح ، ومهما يكن من أمر فياسين أفندى رجل طيب وابن ناس طيبين ، لعنة الله على الشيطان ، تعالى

يا ابنتى ولا تحزنى ..

فصاحت مريم :

ـ لا كلام ولا حساب ، لا طلع الصباح عليه المجرم ابن المجرمة ..

ثم تتابع وقع الأقدام مبتعدا حتى لم يعد يسمع من المتحدثات إلا أصوات مبهمة ، ثم دوت صفقة الباب وهو يغلق . نفخ ياسين طويلا ثم استلقى على ظهره ..

٢٧

عندما فتح عينيه كان نور الضحى قد ملأ الحجرة ، وجد فى رأسه ثقلا لا عهد له به رغم أنها لم تكن أول مرة يستيقظ بعد ليلة مخمورة ، وبحركة من رأسه غير مقصودة وقعت عيناه على زنوبة وهى تغط فى نومها إلى جانبه ، هنالك استعادت ذاكرته حوادث الليلة الماضية فى لقطة واحدة : زنوبة فى فراش مريم ، ومريم ؟!. عند الجيران ، والفضيحة ؟!، فى كل مكان ، يا لها من وثبة جبارة فى هاوية التدهور ، ما جدوى الغضب أو الندم الآن ؟، ما كان كان وكل شىء قد يتغير إلا أمس ، أيوقظها ؟، ولكن لمه ؟، فلتمتلىء نوما حتى تشبع ، ولتبق حيث هى فما ينبغى أن تغادر البيت قبل أن يقبل الظلام ، ولم يكن بد من استعادة شىء من حيويته ليلاقى به يومه العسير ، فأزاح الغطاء الخفيف عن جسمه وانزلق إلى أرض الغرفة ثم مضى إلى الخارج ثقيلا منفوش الشعر منتفخ الجفون محمر العينين . تثاءب فى الصالة بصوت كالخوار ثم نفخ وهو ينظر إلى باب حجرة الاستقبال المفتوح ثم أغمض عينيه متأوها من ثقل رأسه وقصد إلى الحمام . أمامه يوم عسير حقا ، مريم عند الجيران والأخرى محتلة فراشها وقد أدركها النهار قبل أن يخفى آثار جريمته ، فيا للجنون ! كان يجب أن يسربها قبل أن يأوى إلى فراشه فكيف توانى عما يجب ؟!، أى غاشية غشيته ؟!، بل ومتى وكيف مضى بها من حجرة الاستقبال إلى حجرة النوم ؟!، إنه لا يذكر شيئا ، لا يذكر حتى كيف ومتى استجاب للنوم ، والجملة أنها فضيحة كبرى بلا ثمن ، وليلة بريئة ولكنها مثقلة بالعار مثل رأسه المثقل بالهم والصداع .. ولكن لا عجب فهذه الشقة مسكونة من قديم بشياطين الفضائح ، تركة أمّ غفر الله لها ، مضت

الأم وبقى الابن ليكون مضغة الأفواه ونادرة السكان والجيران وغدا تهرع الأنباء إلى بين القصرين .. فإلى الأمام !. قرار هاوية سحيقة من العربدة والسفالة فليت هذا الماء البارد الذى تغتسل به يطهر النفس من ذكريات السوء ، ومن يدرى فلعلك إذا أطللت من النافذة وجدت أمام بابك لمة ترصد خروج المرأة التى طردت الزوجة واحتلت مكانها ، كلا لن تسمح لها بالخروج مهما يكن من أمر ، أما مريم فقد طلقتها !، طلقتها وما أردت ذلك وأمها لم يجف ماؤها فى قبرها بعد ، فماذا يقول عنك الناس أيها المفترى ؟!. وشعر بحاجة ماسة إلى فنجان قهوة ينعش به حواسه ، فغادر الحمام إلى المطبخ ، وفى أثناء عبوره الدهليز الذي يفصل بينهما لمح الكنصول فى الصالة فذكر زجاجة الكونياك المهراقة فى غرفة الاستقبال ، وتساءل لحظة عما أصاب السجادة ، ثم ذكر فى اللحظة التالية وفى أسف ساخر أن أثاث الشقة كله لم يعد ملكه وأنه سيلحق عما قليل بصاحبته ، وبعد دقائق معدودات كان يحمل كوبا مملوءا حتى نصفه بالقهوة ويسير نحو حجرة النوم ، وهنالك وجد زنوبة جالسة فى الفراش تتمطى وتتثاءب ، فالتفتت نحوه وقالت :

ـــ صباحنا خير ، وإن شاء الله نغير ريقنا فى القسم !

فرشف رشفة وهو ينظر إليها من فوق الكوب ، ثم قال :

ـــ قولى يا فتاح يا عليم ..

فلوحت بيديها حتى وسوست الأساور الذهبية حول ساعديها ، وقالت :

ـــ أنت السبب فى كل ما حصل ..

فجلس على حافة السرير فيما يلى ساقيها الممدودتين ، وقال بضيق :

ـــ محكمة !، هه ؟!. قلت لك قولى يا فتاح يا عليم !.

فربتت سلسلة ظهره بكعب قدميها ، وهى تقول متأوهة :

ـــ خربت بيتى ، الله وحده يعلم ما ينتظرنى هناك ..

فوضع ساقا على ركبته حتى انحسر الجلباب عن الأخرى فبدت مكتنزة مغطاة بغابة من الشعر الفاحم ، وقال :

ـــ رفيقك ؟، خيبة الله عليه !، ما يكون هذا إلى طلاق زوجى ؟!، أنت التى خربت بيتى ، وبيتى أنا الذى خرب ..

قالت وكأنها تحدث نفسها :

ـــ ليلة سوداء لم أعرف لى فيها رأسا من قدمين ، لا تزال الضوضاء تدوى فى رأسى ، لكن الحق علىّ ، ما كان ينبغى لى أن أطاوعك من بادىء الأمر ..

خيل إليه أنها راضية رغم تشكيها ، أو أنها تدعي التشكي ادعاء ، ألم يعرف فى الأزبكية نساء يتباهين بكل عراك دموى ينشب من أجلهن !؟، على أنه لم يغضب ، كانت الأمور قد بلغت حد اليأس فأعفته من مشقة النهوض لمعالجتها ، فلم يملك إلا أن يضحك وهو يقول :

ـــ شر البلية ما يضحك !، اضحكى ، خربت بيتى واحتللته ، قومى فأصلحي من شأنك واستعدى لإقامة طويلة حتى يقبل الليل ، لن تغادرى البيت حتى يأتى الليل ..

ـــ يا خبر أسود !. سجينة !، أين زوجك ؟.

ـــ لم يعد لى زوجة ..

ـــ أين هى ؟

ـــ فى المحكمة الشرعية إن صدق ظنى ..

ـــ أخاف أن تعتدى على عند خروجي ..

ـــ تخافين ؟!، ربنا يرحمنا !، إن ليلة أمس على فظاعتها لم توهن من مكرك وخبثك يا بنت أخت زبيدة !

ضحكت ضحكة طويلة فبدا أنها تقر بالتهمة الموجهة إليها ، وفى مباهاة أيضا ، ثم مدت يدها إلى كوب القهوة فتناولته واحتست قليلا منها ، ثم ردتها إليه وهى تتساءل :

ـــ والآن ؟

ـــ كما ترين ، لا علم لى أكثر منك ، ولكن يحز فى نفسى أن أنكشف أمام لناس كما انكشفت فى الليلة الماضية ..

هزت منكبيها فى استهانة قائلة :

ـــ لا تهتم بذلك ، ما من رجل إلا ويخفى تحت ذقنه مخازى تضيق عنها الأرض .

ـــ رغم هذا فالفضيحة فضيحة ، تصورى الشجار والعويل والطلاق عند الفجر !، تصورى الجيران وقد فزعوا إلى شقتى مستطلعين فرأت أعينهم كل شىء .

قطبت قائلة :

ـــ كانت هى البادئة !.

لم يملك أن ضحك ضحكة ساخرة ، فعادت تقول بإصرار :

ـــ كانت تستطيع أن تعالج الأمور بحكمة لو كانت عاقلة ، الغرباء فى الطريق يتسامحون مع السكارى المعربدين ، هى التى جنت على نفسها بالطلاق ، وماذا كنت تقول لها ؟.. يا عاهرة يا بنت العاهرة ، هه ؟، وكلام آخر عن الجنود الإنجليز ..؟

تذكر هذا الآن فقط وهو يحدجها بنظرة محنقة متسائلا كيف رسخت هذه الألفاظ فى ذاكرتها ، وغمغم فى ضيق :

ـــ كنت غاضبا لا أدرى ماذا أقول !

ـــ إحم !

ـــ إحم فى يافوخك !..

ـــ الجنود الإنجليز ؟.. هل جئت بها من بار فنشى ؟!

ـــ أستغفر الله ، إنها بنت ناس وجيران الغمر ، ولكنه الغضب عليه ألف لعنة ..

ـــ لولا الغضب ما انكشفت الأسرار !

ـــ وحياة خالتك حسبنا ما نحن فيه ..

ـــ خبرنى عن الجنود الإنجليز وخذ شعر رأسى ..

بصوت عال محتد :

ـــ قلت إنه الغضب وكفى ..

شهقت ساخرة ، ثم قالت :

ـــ أتدافع عنها ؟.. اذهب فاستردها ..

ـــ ملعون أبو البارد الذى لا يستحى ..

ـــ ملعون أبوه ..

غادرت الفراش إلى المرآة فتناولت مشط مريم ، وراحت تمشط شعرها بعجل وهى تتساءل :

ـــ ما عسى أن أفعل لو قطع الرجل علاقته بى ؟

ـــ قولى له مع السلامة ، أما بيتى فمفتوح لك على الدوام ..

فالتفتت إليه قائلة بلهجة أسيفة :
ــ أنت لا تفقه معنى ما تقول !، كنا بسبيل التفكير الجدى فى الزواج .
ــ الزواج !، وهل ما زلت تفكرين فيه بعد ما رأيت من أحواله فى الليلة الماضية ؟!
قالت فى دهاء :
ــ أنت لا تفهمني !. لقد ضقت ذرعا بالحياة الحرام ، ليس وراءها إلا البوار ، إن مثلى إذا تزوجت قدّرت الحياة الزوجية خير قدرها !
من المغفل يا ترى ؟!. التخت لم يكن يعدها بأكثر من عوادة ، وحياة الهوى ليس وراءها بعد الثلاثين ــ وستبلغها قريبا ــ إلا التلف ، فالزواج هو الأمل الموعود ، هل تقصدك بهذا الحديث ؟.. ما ألذ الشيطانة !. لا أنكر أننى أريدها ، أريدها بكل قوة ، وفضيحتى تشهد على ذلك ..
ــ أتحبينه ؟
كالغاضبة :
ــ لو كنت أحبه ما وجدتنى الآن سجينة هنا !..
اهتز صدره حنانا رغم ارتيابه فى صدقها ، أجل إذا لم يكن يعرف الإخلاص قلبها أبدت له ميلا لا شك فيه :
ــ لا غنى لى عنك يا زنوبة ، فى سبيلك ارتكبت جنونا غير مبال بالعواقب ، أنت لى وأنا لك من قديم الزمان ..
وساد الصمت ، بدت كأنها تنتظر مزيدا على لهف ، ولكنه لم ينبس فقالت :
ــ هل أقطع أسبابى بذلك الرجل ؟. لست من اللاتى يستطعن أن يجمعن بين رجلين ..
ــ من هو ؟
ــ تاجر من ناحية القلعة يدعى محمد القللى ..
ــ متزوج ؟
ــ وله أولاد ، ولكنه كثير المال ..
ــ وعدك بالزواج ؟
ــ يغريني به ، ولكننى مترددة ، لأن ظروفه وكونه زوجا وأبا مما ينذر بالمتاعب ..

احتمل مكرها من أجل جمال عينيها .

ــ لم لا نعود كما كنا ؟.. لست فقيرا على أى حال ..

ــ لا يعنينى مالك ، ولكن ضقت بحياة الحرام !

ــ والعمل ؟

ــ هذا ما أسأل عنه ..

ــ أفصحى ..

ــ قلت ما فيه الكفاية ..

يا له من هجوم غير متوقع ، أجل إنه يبدو أول ما يبدو مضحكا ، غير أنه يريدها فلا يسعه أن يرد على الهجوم بمثله ، قال بعد صمت :

ــ لا أخفى عنك أنى بت أتطير من الزواج ..

ــ كما أتطير من الحرام ..!

ــ لم تكونى كذلك أمس !

ــ كان فى قبضة يدى زوج ، أما اليوم ..!!

ــ قليل من المرونة حتى نتلاقى ، شيء واحد لا ينبغى أن يغيب لك عن بال ، وهو أنى مهما تطل بى عشرتك فلن أتخلى عنك ..

فهتفت محتدة :

ــ سوابقك تشهد على صدقك ..

فقال بلهجة جدية يدارى بها ضعف مركزه :

ــ الإنسان لا يتعلم بلا ثمن ..

ــ لم تعد تغرر بى الأقوال ، آه منكم يا رجال !

ومنكن يا نساء أليس ثمة آه ؟!، يا بنت أخت زبيدة رحمتك ، جاءت بعد منتصف الليل سكرى وفى الصباح ضاقت بالحرام ، لعلها قالت لنفسها : إذا كانت زوجه الثانية عاهرة فلم لا أكون زوجه الثالثة ؟!، هان ياسين ، أنسيت ما ينتظرك فى الخارج من المتاعب ؟، دع المتاعب تنتظرك ولكن لا تفقد زنوبة بكلمة نابية ، كما فقدت مريم ، مريم ؟!، الآن كفّرت عن ذنبى يا أخى ، قال بهدوء :

ــ يجب ألا ينقطع ما اتصل بيننا ..

ـــ بيدك انقطاعه واتصاله ..

ـــ يجب أن نلتقى كثيرا ونفكر كثيرا ..

ـــ من جانبى لا حاجة بى إلى تفكير جديد !

ـــ فإما أن أقنعك برأيى ، وإما أن تقنعينى برأيك ..

ـــ لن أقتنع برأيك ..

وغادرت الحجرة وهى تدارى عنه ابتسامة فأتبع ظهرها المتأود نظرة استغراب ، أجل كل شىء يبدو غريبا ، ولكن أين مريم ؟، وحيدة على أى حال ولن تذوق نفسه الراحة والسلام ، وسيسأل غدا فى بين القصرين وبعد غد فى المحكمة الشرعية ، ولكن كانت حياتهما فى الأيام الأخيرة نضالا متواصلا ، حتى قالت له بصريح العبارة : كرهتك وكرهت عيشتك ، لم أخلق كى أوفق فى الزواج ، أهكذا كانت حياة جدى ؟، إنى أشبه الأسرة به فيما يقال ، ورغم هذا كله تريد المجنونة أن تتزوج منى ..

٢٨

كانت الشمس تؤذن بالمغيب عندما عبر السيد أحمد عبد الجواد القنطرة الخشبية المؤدية إلى العوامة ، ودق الجرس ففتح الباب بعد قليل عن زنوبة فى فستان من الحرير الأبيض نمت شفافيته عن محاسن جسدها ، فلما رأته هتفت :

ـــ أهلا .. أهلا ، قل ماذا فعلت أمس ؟ تصورت حضورك ودق الجرس دون نتيجة ووقوفك حينا ثم ذهابك .. (وهى تضحك) ووساوسك ، قل ماذا فعلت ؟

بالرغم من أناقة مظهره والعرف الطيب الذى يتطاير منه بدا وجهه متجهما وعيناه جامدتين تعكس حدقتاهما استياء ، سأل قائلا :

ـــ أين كنت أمس ؟

فتقدمته إلى حجرة الجلوس وتبعها حتى وسط الحجرة بين نافذتين مفتوحتين على النيل ولم يجلس ، أما هى فجلست على مقعد بين النافذتين وهى تتظاهر بالهدوء والثقة والابتسام ، ثم قالت :

ـــ خرجت ـــ كما تعلم ـــ أمس لأستبضع ، فقابلت فى بعض الطريق ياسمينة العالمة فدعتنى إلى بيتها ، وهنالك أبت عليَّ أن أنصرف ، وما زالت بى حتى أجبرتنى على المبيت عندها ، لم أكن رأيتها منذ انتقلت إلى هذه العوامة ، لو سمعتها وهي تطعن فى وفائى وتنسألنى عن سر الرجل الذى أنسانى عشيرتى وجيرانى !

صادقة أم كاذبة ؟، هل عانى آلام أمس واليوم بلا سبب حقا ؟، إنه لا يربح مليما ولا يخسر مليما بلا سبب ، فكيف عانى تلك الآلام المروعة بلا سبب ؟!، دنيا ماكرة .. غير أنه على استعداد لأن يلثم ترابها إذا صح عنده صدق هذه الشيطانة ، فليصح له صدقها ولو يفقد ما بقى من عمره ، هل آن له أن يثوب إلى رشده ؟، مهلا ..

ـــ متى عدت إلى العوامة ؟

فرفعت ساقها حتى مستوى المقعد ، وراحت تتأمل شبشبها البمبى ذا الوردة البيضاء وأصابعها المخضبة بالحناء ، ثم قالت :

ـــ هلا جلست أولا وخلعت طربوشك لأرى مفرق شعر رأسك ؟، عدت يا سيدى مع الضحى ..

ـــ كذابة !

انطلقت من فيه كالرصاص مفعمة غضبا ويأسا ، ثم استطرد قائلا فى عنف قبل أن تفتح فاها :

ـــ كذابة ، لم تعودى مع الضحى ولا مع العصر ، لقد جئت إلى هنا أثناء النهار مرتين فلم أجدك ..

وجمت قليلا ثم قالت بلهجة جمعت بين التسليم والضجر :

ـــ الحق أنى عدت قبيل المغرب ، منذ ساعة تقريبا ، لم يكن ثمة ما يدعونى إلى اختلاق الكذب لولا أنى لمحت فى عينيك استياء لا أساس له فأردت أن أزيله ، الحق أن ياسمينة ألحت عليَّ فى الصباح كى أتسوق معها ، ولما علمت بانفصالى عن خالتى عرضت عليَّ أن أنضم إلى تختها على أن تنيبنى عنها فى بعض الأفراح ، وطبعا لم أوافق ، لسابق علمى بأنك لن ترضى عن سهرى مع التخت ، المقصود إنى بقيت معها لعلمى بأنك لن تجىء إلى هنا قبل التاسعة مساء ، هذه هى الحكاية فاجلس وصل على النبى ..

حكاية مختلقة أم صادقة ؟، لو يطلع أصحابك على موقفك هذا ؟، لشد ما تهزأ بك المقادير ، على أنى أعفو على أضعاف هذا فى سبيل قطرة من الراحة ، تشحذ الراحة وما اعتدت الشحاذة من قبل ، هكذا هانت عليك نفسك أمام العوادة ، كانت موكلة يوما بخدمتك تقدم لك فى مجلس الأنس الفاكهة وتنصرف فى صمت وأدب ، إما الراحة أو فلتستعر نيران الجحيم .

ـــ ياسمينة العالمة ليست فى جبال الواق ، سوف أسألها عن حقيقة الحكاية ..

قالت وهى تلوح بيدها فى استهانة واستياء :

ـــ سلها كيفما بدا لك ..

وغلبته أعصابه الثائرة المنهكة فجأة ، فقال بعناد :

ـــ سوف أسألها هذا المساء ، إنى ذاهب إليها ، الآن .. حققت لك كل رغباتك فينبغى أن تحترمى حقوقى كاملة ..

وانتقلت إليها عدوى هياجه ، فقالت بحدة :

ـــ مهلا ، لا ترمينى فى وجهى بالتهم ، فقد اتسع لك حلمى حتى الآن ، ولكن لكل شىء حد ، أنا إنسانة من لحم ودم ، فتح عينك وصلّ على أبى فاطمة !..

تساءل فى ذهول :

ـــ أبهذه اللهجة تخاطبيننى ؟!

ـــ نعم ما دمت تخاطبنى بمثلها !

اشتدت قبضة يده على مقبض عصاه وهو يهتف :

ـــ أنا أستاهل ، فأنا الذى خلقت منك سيدة وهيأت لك حياة تحسدك عليها زبيدة نفسها !..

واستفزها قوله فبدت كاللبؤة الهائجة ، وصاحت :

ـــ خلقنى الله سيدة لا أنت ، لقد ارتضيت هذه الحياة بعد توسلاتك الحارة ، فهل نسيت هذا ؟! لست أسيرة أو عبدة لك ، تحقيق ومحضر ، ماذا تظن بى ؟، هل اشتريتنى بمالك ؟، إذا كانت حياتى لا تعجبك فليذهب كل منا إلى حال سبيله..

يا رب السماوات أهكذا تستحيل الأظافر المدللة إلى مخالب ؟، إن كنت فى

شك من الليلة البارحة فاستخبر هذه اللهجة الوقحة ، جنس نمرود ابتليت به فتجرع الألم حتى الثمالة ، انهل من الإهانة حتى تكتفى ، والآن ما جوابك !، . بأعلى صوتك اصرخ فى وجهها : اخرجى إلى الطريق الذى التقطتك منه . اصرخ ، أجل اصرخ ، ماذا يمنعك ؟!، لعنة الله على ما يمنعك ، خيانة القلب شر من ألف خيانة ، هذا هو ذل القلوب الذى كنت تسمع عنه وتهزأ منه ، شد ما أكره نفسى إذ تحبها ..

ـــ تطردينني ؟!

بنفس النبرات المحتدة الغاضبة :

ـــ إذا كان معنى هذه الحياة أن تحبسنى هنا كالرقيق وأن ترمينى بالتهم كلما حلا لك ، فمن الخير لى ولك أن تنتهى ..

وأدارت عنه وجهها فتأمل عارضها وصفحة عنقها فى هدوء غير طبيعى بالذهول أشبه . أقصى ما أسأل الله من سعادة أن أنبذها دون مبالاة ، هى ذلك وحنقك ولكن هل تطيق أن تعود إلى هذا المكان فلا تجد لها من أثر ؟!

ـــ لم أكن شديد الثقة فى نبلك ، ولكنى لم أتصور أن يذهب بك الجحود هذا المذهب !

ـــ تريدنى حجرا لا شعور له ولا كرامة !

أنت أحقر من هذا لو تعلمين !..

ـــ بل أريدك شخصا يعرف للجميل حقه وللعشرة حقها ..

مغيرة لهجتها من الغضب إلى السخط والتشكى :

ـــ فعلت لك أكثر مما تتصور ، ارتضيت أن أهجر أهلى وعملى لأبقى حيث تريد ، حتى الشكوى كتمتها كى لا أكدر صفوك فلم أشأ أن أصارحك بأن « بعض الناس » يود لى حياة خير من هذه فلم ألق إليهم بالا !

أثمة متاعب أخرى لم تقع لى فى حسبان ؟. تساءل كالجريح :

ـــ ماذا تعنين ؟

فعكفت على أسورة ذهبية تديرها حول ساعدها الأيسر ، وهى تقول :

ـــ رجل محترم يريد أن يتزوجنى ويلح فى ذلك بلا ملل ..

الحرارة والرطوبة يخنقانك خنقا أما « العكننة » فقد فغرت فاها لتبتلعك ،

ما أسعد هذا الملّاح الذى يطوى شراعه أمام النافذة !..

ــ من هو ؟

ــ رجل لا تعرفه . فسمِّه كيف شئت !

تراجع خطوة ، ثم جلس على كنبة تتوسط مقعدين كبيرين ، وشبك راحتيه فوق مقبض عصاه وهو يسألها :

ــ متى رآك ؟، وكيف علمت برغبته ؟

ــ كان يرانى كثيرا حينما كنت أقيم مع خالتى ، وفى الأيام الأخيرة كان يحاول مكالمتى كلما صادفنى فى طريقه ، ولكننى تجاهلته فحرض إحدى صديقاتى على إبلاغى رغبته ، هذه هى الحكاية !

ما أكثر حكاياتك ، عندما افتقدتك أمس قاتلنى ألم واحد ، لم أفطن وقتذاك إلى كل هذه الآلام والمتاعب ، اتركها إن استطعت ، اهجرها فهجرها هو سبيل السلام . أليس الناس مخطئين فى تصورهم أن الموت شر ما يبتلون ؟!

ــ أحب أن أعرف صراحة ، هل تودين قبول هذا العرض ؟

تركت ساعدها بحركة عصبية وشخصت إليه بوجهها فيما يشبه الكبرياء ، ثم قالت بتوكيد :

ــ قلت لك إنى تجاهلته ، يجب أن تفهم معنى ما أقول ..

يجب ألا تعود الليلة إلى فراشك بأفكار قاتلة حتى لا تتكرر ليلة أمس ، غربل نفسك من الهواجس .

ــ صارحينى هل زارك أحد فى العوامة ؟

ــ أحد ؟!، أى أحد تعنى ؟، لم يدخل هذه العوامة أحد سواك ..

ــ زنوبة ، إنى أستطيع أن أعرف كل شىء ، لا تخفى عنى شيئا ، صارحينى بكل كبيرة وصغيرة ولك عندى بعد ذلك العفو مهما يكن من أمرك ..

قالت محتجة غاضبة :

ــ إذا أصررت على الشك فى صدقى فخير لنا أن نفترق ..

أتذكر الذبابة التى رأيتها تحتضر فى صباح اليوم فى خيط العنكبوت ؟!

ــ حسبنا دعينى أسألك الآن ، هل قابلك هذا الرجل أمس ؟!

ــ أخبرتك أين كنت أمس ..

نافخا على رغمه :

ــ لماذا تعذبينني ، وما حرصت على شيء حرصي على سعادتك ؟

ضربت كفا بكف ، كأنما قد كبر عليها شكه ، ثم قالت :

ــ لم لا تريد أن تفهمني ؟... إني أرفض كل غال في سبيلك !

ما أجمل هذه النغمة ، المأساة أنها يمكن أن تصدر عن قلب فارغ ، كالمغنى الذى يذوب فى نغمة حزينة شاكية وقلبه ثمل بالسعادة والفوز .

ــ إنى أشهد الله على قولك ، صارحيني الآن : من يكون هذا الرجل ؟

ــ ماذا يهمك منه ؟، قلت لك إنك لا تعرفه ، تاجر من غير حينا ولكنه كان يجلس من حين لآخر فى قهوة سى على ..

ــ اسمه ؟

ــ عبد التواب ياسين ، هل عرفته ؟..

اكتريت هذه العوامة لقضاء وقت سعيد ، هل تذكر أوقاتك السعيدة ؟! أيتها الدنيا هل تذكرين أحمد عبد الجواد الذى لم يكن يبالى شيئا ؟، زبيدة .. جليلة .. بهيجة .. سليهن عنه ، إنه بلا ريب غير هذا الرجل الحائر الذى اشتعل الشيب فى فوديه ..

ــ إن شيطان النكد هو أنشط الشياطين ..

ــ بل هو شيطان الشك لأنه يخلق من لا شيء ..

جعل ينقر الأرض بطرف عصاه ، ثم قال بصوت عميق :

ــ لا أريد أن أعيش أعمى ، كلا ولا شيء بقادر على أن يجعلنى أتهاون فى رجولتى وكرامتى ، بالاختصار لا أستطيع أن أهضم مبيتك فى الخارج ليلة أمس ..

ــ رجعنا مرة أخرى !

ــ وثالثة ورابعة ، لست طفلة ، أنت امرأة ناضجة عاقلة ، واليوم تحدثيننى عن ذلك الرجل !، هل غرَّك حقا وعده بالزواج منه ؟

أجابت بكبرياء قائلة :

ــ إنى أعلم أنه لا يخدعنى ، وآى ذلك أنه وعدنى بألا يقربنى حتى يعقد زواجه منى ..

ــ أترغبين فى هذا الزواج ؟

قطبت فى استياء ، ثم قالت بلهجة المتعجب :

ـ ألم تسمع ما قلت ؟!، إنى أعجب لما تبدى اليوم من كسل ، لكن على أى حال لست الساعة كالعهد بك ، أفق من الكدر الذى جلبته على نفسك بلا سبب واسمع منى للمرة الأخيرة : لقد تجاهلت الرجل ورغبته إكراما لك ..

رغب أن يعرف سنه ولكنه لم يدر كيف يصوغ السؤال ، الشباب والكهولة أمور لم تجر له فى حساب من قبل ، قال بعد تردد :

ـ لعله من الأغرار الذين يلقون القول بلا تردد !

ـ ليس طفلا ، إنه فى الثلاثين من عمره !

أى أنه يتأخر عنه بربع قرن ، والتأخر مكروه إلا فى العمر ، أما الغيرة فتقتلنا بلا حياء .

وعادت هى تقول :

ـ تجاهلته رغم أنه وعدنى بالحياة التى أتمناها !

يا بنت القديمة !، فات زبيدة أن تتعلم منك الكثير !..

ـ حقا ؟..

ـ دعنى أصارحك بأنى لم أعد أطيق هذه الحياة ..

اذكر مرة أخرى الذبابة والعنكبوت ..

ـ حقا !.

ـ أجل ، أريد حياة مطمئنة فى ظل الحلال ، أم ترانى مخطئة ؟

جئت للتحقيق معها فأين تقف الآن ؟، هى التى طردتك فمن أين لك هذا الحلم كله ؟، اخجل من نفسك ما بقى لك من أيام ، أتفهم ما تعنى إيماءاتها ؟، ما أجمل الأمواج المتلاطمة فى ساعة المغيب !، ولما طال به الصمت استطردت قائلة بهدوء :

ـ لن يغضبك هذا ، أنت رجل تقى رغم كل شىء ، فلا يمكن أن تحول بين امرأة وبين الحلال الذى توده ، لا أود أن أكون بردعة لكل راكب ، لست كخالتى ، لى قلب مؤمن وأخاف الله ، وقد صدق عزمى على هجر الحرام ..

استمع إلى قولها الأخير بدهشة وانزعاج ، وجعل يتفحصها بحنق داراه بابتسامة باهتة ، ثم قال :

ـــ لم تحدثينى عن هذا من قبل ، كنا حتى أول أمس على خير حال !
ـــ لم أكن أدرى كيف أكاشفك بما فى نفسى ..
إنها تبتعد عنك بسرعة مخيفة خبيثة ، يا خيبة الأمل ، إنى مستعد أن أنسى ليلة أمس المشئومة .. أنسى شكى وألمى .. على أن تقلع عن هذا المكر الخبيث ..
ـــ كنا نعيش فى سعادة ووئام ، فهل هانت عليك العشرة ؟!
ـــ لم تهن ولكننى أريد أن أجعل منها شيئا أفضل ، أليس الحلال خيرا من الحرام ؟!
تقلصت شفته السفلى محدثة ابتسامة لا معنى لها ، ثم قال بصوت خافت :
ـــ الأمر بالنسبة لى مختلف جدا ..
ـــ كيف ؟!
ـــ أنا زوج ، وابنى زوج ، وبناتى أزواج ، الأمر دقيق جدا كما ترين .. (ثم بلهفة) ألم نكن نعيش فى سعادة كاملة ؟!
قالت بضجر :
ـــ لم أقل لك طلق زوجتك وتبرأ من ذريتك !، كثيرون هم الذين يجمعون بين أكثر من زوجة !.
فقال بإشفاق :
ـــ ليس الزواج فى مثل .. حالى مما يهون أمره ، أو يعرض فى حياة الإنسان بلا قيل وقال !..
ضحكت ساخرة ، ثم قالت :
ـــ كل الناس يعلمون أنك عشيق وأنت لا تبالى بهم ، فكيف تشفق من قيلهم وقالهم على زواج مشروع إن أردت الزواج ..؟!
قال باسما فى ارتباك وضيق :
ـــ قليل من الناس من اطلع على أسرارى ، إلى أن أهل بيتى هم أبعد الناس عن الشك فى أمرى ..
رفعت حاجبيها المزججين فى إنكار ، ثم قالت :
ـــ هذا ظنك ، أما الحقيقة فلا يعلمها إلا الله ، أى سر يصان ووراءه ألسنة الناس ؟!

ثم استدركت غاضبة قبل أن يتكلم :

ــ أم لعلك لا ترانى أهلا للتشرف بالانتساب إليك ؟!

أستغفر الله ، زوج زنوبة العوادة على سن ورمح !

ــ ما قصدت هذا يا زنوبة ..

فقالت باستياء :

ــ لن تخفى عني حقيقة مشاعرك طويلا ، سأعرفها غدا إن لم أعرفها اليوم ، فإن كان زواجى يعرّك فمع السلامة ..

تجىء لتطرده فيطردك ، لم تعد تسألها أين كانت ولكنها تخيرك بين الزواج أو الذهاب ، ماذا أنت صانع ؟، ماذا يبقيك بلا حراك ؟، إنه القلب الخائن ، إن نزع عظامك من لحمك أهون من هجر هذه العوادة ، أليس من المحزن ألا تبتلى بهذا الحب الأعمى إلا على كبر !؟.

تساءل فى عتاب :

ــ أهذا هو قدرى عندك ؟

ــ لا قدر عندى لمن يأنف منى كأنى بصقة معدية !

قال بهدوء حزين :

ــ أنت أعز علىَّ من نفسى ..

ــ كلام سمعنا منه الكثير ..

ــ ولكنه صدق وحق ..

ــ آن لى أن أعرف هذا من غير اللسان !

غض بصره فى كرب ويأس ، لم يكن يدرى كيف يقبل ولم يكن بوسعه أن يرفض ، وكان حرصه عليها من وراء ذلك يغلبه ويشتت فكره ، قال بصوت خفيض :

ــ أعطنى مهلة كى أدبر أمرى ..

فقالت بهدوء وهى تخفى ابتسامة ماكرة :

ــ لو كنت تحبنى حقا ما ترددت ..

فقال بعجلة :

ــ ليس هذا ، أعنى أمورى الأخرى ..

وحرك يده كأنما يفسر بها قوله وإن كان لا يدرى على وجه التحديد ما تعنى فابتسمت قائلة :

ـــ إذا كان الأمر كذلك فأنا رهن انتظارك ..

فشعر براحة وقتية ، كالراحة التى يجدها الملاكم الموشك على السقوط إذا أدركه الجرس المؤذن بانتهاء الجولة غير الأخيرة ، وانبعثت فى نفسه رغبة إلى الترويح عن همه والتنفيس عن قلقه ، فقال لها وهو يمد نحوها يده :

ـــ تعالى إلى جانبى ..

فتراجعت فى مقعدها إلى الوراء بإصرار وهى تقول :

ـــ عندما يأذن الله ..

٢٩

غادر العوامة يشق سبيله فى ظلام وسار وشاطىء النيل فى طريق مقفر متجها إلى جسر الزمالك . كان الهواء يهفو لطيفا فنفخ رأسه الملتهب ، وبعث فى أغصان الأشجار الهائلة المتشابكة حركة وانية ند عنها هسيس كالهمس ، وكانت تبدو فى الظلام كالكثبان أو السحب الجون ، كلما رفع رأسه وجدها مطبقة عليه كالهم الجاثم على صدره ، وهذه الأضواء المنبعثة من نوافذ العوامات هل تنبعث من بيوت خلت من الهم ؟، ولكن ليس كهمك هم ، ليس من يموت كمن ينتحر ، وأنت بلا جدال قد وافقت على الانتحار . واصل السير ، لم يكن أحب إليه وقتذاك من المشى ليريح أعصابه ويستعيد أفكاره قبل أن يمضى إلى الإخوان ، وهنالك يخلو إليهم ويكاشفهم بكل شىء ، لن يقدم على هذه الخطوة حتى يشاورهم وإن خمن سلفا ما سيقولون ، ولكنه سيعترف أمامهم مهما كلفه الأمر ، وإنه ليجد إلى مكاشفتهم رغبة دافعة كأنها استغاثة غريق يتخطفه الموج العاتى ، لم يغب عنه أنه يعد فى حكم الموافق على الزواج من زنوبة ، ولم ينكر شعوره الذليل بالرغبة فيها والحرص عليها ولكنه لم يتصور كيف يمكن أن يتحقق هذا فى صورة زواج رسمى ولا كيف يزف البشرى إلى الأهل والأبناء والناس جميعا . ومع أنه كان يريد أن يطيل المشى ما وسعه ذلك إلا أنه اندفع يسير بسرعة وفى خطوات واسعة وعصاه تضرب الأرض التربة كأنما يتعجل

الذهاب إلى هدف ولا هدف له . تأبت عليه وصدته ، هل تغيب عن تجربته وحنكته هذه الأساليب ؟.. ولكن الضعيف يقع فى الشرك وهو يدرى . ومع أنه استجد بالمشى والهواء النقى بعض الراحة إلا أنه لم يزل مشتت الفكر مشعث الوجدان ، ولم تزل الأفكار تطرق رأسه بغير انتظام حتى لم يعد يحتمل حاله فخيل إليه أنه سيجن إن لم يحسم الأمر بحل ولو يكن الضلال نفسه .

فى هذا الظلام يستطيع أن يخاطب نفسه بلا تردد أو حياء ، تحجبه الأغصان المتلاحمة عن السماء ، وتوارى خواطره الحقول المترامية إلى يمينه ، ويبتلع مشاعره ماء النيل الجارى إلى يساره ، ولكن حذار من النور ، حذار أن تكتنفه هالة منه فينطلق كعربة السيرك داعيا وراءه الغلمان وهواة العجائب ، أما سمته وجلاله وكرامته فسلام الله عليها ، كان ولم يزل ذا شخصيتين ، يعيش بواحدة بين الإخوان والأحباب ، ويطالع بالأخرى الأهل وسائر الناس ، وهذه الأخيرة التى تمسك عليه جلاله ووقاره وتقرر له منزلة لا يطمع إليها أحد ، وهى هى التى تتآمر نزواته عليها وتهددها بالفناء الأبدى . وتراءى له الجسر بمصابيحه الوهاجة فتساءل إلى أين ؟.. بيد أنه رغب فى مزيد من الوحدة والظلام فمر أمام الجسر إلى طريق الجيزة . ياسين ! ذكره يرعبك ، جبينك يحترق خجلا ، لم ؟، سيكون أول من يفهمك ويتسامح معك أم تراه يشمت بك ويتندر ؟. طالما زجرته وأدبته ولكن قدمه لم تنزلق بعد إلى مثل هاويتك ؟، كمال ؟. يجب أن تلقاه منذ الساعة بقناع غليظ أن يطلع على الذنب فى أساريرك ، خديجة وعائشة ؟. سينكس منهما الجبين فى بيت آل شوكت ، زنوبة امرأة أبيك ، زفاف يصفق له أهل المجون . فى صدرك غوايات فاختر مسرحا غير دنياك لها ، هل ثمة مملكة ظلام بغيدا عن متناول البشر كى تمارس رذائلك فى سلام ؟!، غدا فلتنظر إلى نسيج العنكبوت لترى ماذا تبقى من الذبابة ؟. استمع إلى نقيق الضفادع وزفرات الصراصير ، ما أسعد هذه الحشرات ، كن حشرة لتسعد بلا حساب ، أما فوق سطح الأرض فلن يسعك إلا أن تكون « السيد » أحمد ، مر الليلة بأهل بيتك جميعا .. زوجك .. كمال .. ياسين .. خديجة .. عائشة .. ثم كاشفهم بنيتك إن استطعت ، وإن استطعت فاعقد زواجك بعد ذلك .

هنية !. أتذكر كيف نبذتها على حبها ؟. لم تحب امرأة كما أحببتها ، ولكن يبدو ـــ وا أسفاه ـــ أننا نخسر العقول فى كهولتنا !. لتشرب هذه الليلة حتى يرفعوك

على الأعناق ، ما أحنَّه إلى الشراب ، كأنك لم تشرب منذ عام الفيل ، إن الآلام التى تجرعتها فى عامك هذا خليقة بأن تمحو حسنات السعادة التى تمتعت بها العمر كله .

ضرب بعصاه الأرض ، ثم توقف عن السير ، ضاق بالظلام والسكون والطريق الحاشد والأشجار وفزع قلبه إلى الإخوان ، ليس هو بالذى يستطيع أن يخلو إلى نفسه طويلا ، فما هو إلا عضو فى جماعة وجزء من كل ، وهنالك تحل المشكلات كما اعتادت أن تحل . واستدار ليرجع إلى الجسر ، وعند ذاك انتفض جسمه غضبا وتقززا ، فقال بصوت غريب تمزقه الشكوى والألم والحنق : « ليلة كاملة تبيتها فى الخارج .. فى مكان مجهول .. ثم توافق على الزواج منها ! » وطئه إحساس ثقيل بازدراء النفس عصر جذعه وعصر قلبه . ياسمينة !؟.. يا للسخرية !، بل أمضت ليلتها فى حضن الرجل الذى لم يزايلها حتى وافاهما عصر اليوم التالى ، لبثت عنده وهى عالمة بمواعيد حضوره فماذا يعنى هذا ؟!. ليس إلا أن الغرام أنساها الوقت . يا جحيم الآخرة ! أو أنك هنت للحد الذى لا تبالى عنده بغضبك ، كيف حاورتها مسترضيا بعد ذلك أيها المسحور ؟، وكيف تمضى حاملا وعد الزواج بها يا عار الدنيا والآخرة ، كأنك لم تشعر بالقرن الذى ارتضيته من شدة ضغط الهم على رأسك ، قرن تكلل به هامة أسرة لتخزى به جيلا بعد جيل ، ما عسى أن يقول الناس عن هذا القرن فوق الجبين الأغر ؟!، إن الغضب والمقت والدم والدموع لا تكفى للتكفير عن استسلامك وضعفك ، لشد ما تضحك منك الآن وهى مستلقية على ظهرها فى العوامة ، ولعلها لم تغتسل بعد من عرق رجلها الذى سيضحك منك بدوره ، لا ينبغى أن يطلع الغد وفم يضحك منك ، اعترف بخورك واعرضه على مائدة الإخوان لتسمع قهقهاتهم .. اعذروه كبر وخرَّف .. اعذروه فقد جرَّب كل شيء إلا متعة القرون !، زبيدة : أبيت أن تكون سيدا فى بيتى وارتضيت أن تكون قوَّادا فى بيت عوَّادتى ، جليلة : لست أخى ولا حتى أختى !، إنى أشهد هذا الطريق الرهيب وهذا الظلام الكثيف وهذه الأشجار الهرمة على على هرولتى فى الظلام باكيا كالطفل الغرير ، لا بت ليلتى حتى أرد الإهانة إلى الطاغية !، وتمنعت عليك !، لم ؟، لأنها ضاقت بالحرام !، الحرام الذى لم تغتسل منه ، قل إنها لم تعد تطيقك وكفى ، ما أفظع الألم ، ولكنه حق عليَّ وعبادة ، كمن

ينطح الجدار حتى يهشم رأسه تكفيرا عن ذنب ، الشيخ متولى عبد الصمد يظن أنه يعرف أمورا كثيرة ، ألا ما أجهله !، مر بجسر الزمالك مرة أخرى إلى طريق امبابة ، وجعل يحث خطاه بعزم وعناد مصمما على غسل ما لطخه من خزى ، وكلما ألح عليه الألم جدَّ فى السير ضاربا بعصاه الأرض كأنما يسير على ثلاث .

وبدت له العوامة يلوح من نافذتها الضوء فاشتد هياجه بيد أنه كان قد استعاد ثقته بنفسه وشعوره برجولته وكرامته واطمأن خاطره بعد أن استقر على رأى ، وانحدر على السلم فمر فوق الجسر الخشبى ثم طرق الباب بطرف عصاه ، وكرر ذلك بعنف ، حتى جاءه الصوت متسائلا فى انزعاج :

ـــ من الطارق ؟!

فأجاب بقوة :

ـــ أنا ..

انفتح الباب عن وجهها المتعجب ، فأفسحت له وهى تغمغم « خيرا » ، فمرق إلى حجرة الجلوس حتى توسطها ثم استدار ووقف ينظر إليها وهى تقترب منه متسائلة حتى وقفت حياله وراحت تتفحص وجهه المتجهم بقلق ، قالت :

ـــ خير إن شاء الله !! ما عاد بك ؟!

فقال بهدوء مريب :

ـــ خير والحمد لله كما ستعلمين ..

جعلت تتساءل بعينيها دون أن تتكلم ، فاستطرد قائلا :

ـــ جئت لأخبرك بألا تتعلقى بما قلت ، فإن الأمر كله لم يكن إلا دعابة سخيفة .

هبط نجذعها هبوط الخيبة ونطق وجهها بالإنكار والحنق ، ثم هتفت :

ـــ دعابة سخيفة !، كيف لا تفرق بين دعابة سخيفة وبين كلمة شرف ارتبطت بها ؟

قال ووجهه يزداد اكفهرارا :

ـــ يحسن بك وأنت تخاطبيننى أن تلتزمى حد الأدب الواجب ، فإن نساء من طبقتك يرتزقن فى بيتى خادمات ..

صاحت وهى تحملق فى وجهه :

ـــ هل رجعت لتسمعنى هذا الكلام ؟. لم لم تقله من قبل ؟، لم وعدتنى واستعطفتنى وتوددت إلى ؟، أتحسب أن هذا الكلام يخيفنى ؟، لم يعد لى متسع للدعابات السخيفة .

لوح لها بيده غاضبا فأسكتها ، ثم هتف :

ـــ جئت كى أقول لك إن الزواج من واحدة مثلك خزى لا يليق بكرامتى ، وأنه لا يصلح أكثر من أن يكون دعابة يتندر بها هواة الدعابات المخجلة ، وأنه ما دامت أمثال هذه الأفكار تدور برأسك فأنت لم تعودى أهلا لمعاشرتى ، إذ لا يصح أن أعاشر المجانين ..

كانت تصغى إليه وشرر الغضب يتطاير من حدقتيها ، بيد أنها لم تستسلم لتيار الغضب كما تمنى ، ولعل منظر غضبه بث فى حناياها خوفا وتقديرا للعواقب ، فقالت بلهجة أخف من السابقة :

ـــ لن أتزوجك بالقوة ، لقد كاشفتك بما يجول بخاطرى تاركة لك الخيار ، الآن تريد أن تتحلل من وعدك ، لك ما تشاء ، ولا داعى لسبّى وإهانتى ، ليذهب كل منا إلى حال سبيله فى سلام ..

أهذا قصارى جهدها فى الحرص عليك ؟!، ألم تكن تكون أسعد حالا لو ـــ فى سبيل امتلاكك ـــ أنشبت فيك الأظافر ؟، استمد من ألمك غضبا :

ـــ سيذهب كل منا إلى حال سبيله ، غير أنى أردت أن أصارحك برأيى فيك قبل أن أذهب ، لا أنكر أنى سعيت إليك بنفسى ، ربما لأن النفس تولع أحيانا بالقاذورات ، فهجرت من كنت تسعدين بخدمتهن كى أرفعك إلى هذه الحياة ، لذلك لا أدهش لأنى لم أحظ عندك بما حظيت به عندهن من الحب والتقدير ، ذلك أن القذر لا يقدر إلا من كان على شاكلته ، وقد آن لى أن أربأ بنفسى عنك ، وأن أعود إلى حظيرتى الأولى ..

بدا فى وجهها القهر ، قهر من يحجزه الخوف عن التنفيس عن صدره المستعر ، وتمتمت بصوت مرتعش النبرات :

ـــ مع السلامة ، اذهب ودعنى فى سلام ..

قال بحنق وهو يكظم آلامه :

ـــ لقد نزلت فهنت ..

هنا أفلت الزمام ، فصاحت به :

ـــ حسبك ، كفاية ، ارحم الحشرة القذرة واحذرها ، اذكر كيف كنت تقبل يدها والخشوع فى عينيك ، نزلت فهمت ؟.. هه ؟.. ، الحق أنك كبرت ، قبلتك على كبر وها أنا أتلقى الجزاء ..

لوح بعصاه وهو يصيح بغضب :

ـــ اخرسى يا بنت الكلب ، اخرسى يا دون ، لمّى ثيابك وغادرى العوامة ..

فصاحت بدورها وهى ترفع رأسها فى تشنج :

ـــ املأ أذنيك بما أقول ، كلمة أخرى أملأ عليك العوامة والنيل والطريق صوتا حتى تحضر الحكمدارية كلها ، سامع ؟.. لست لقمة سائغة ، أنا زنوبة والأجر على الله ، اذهب أنت ، هذه العوامة عوامتى وعقد إيجارها باسمى ، فاذهب بالسلامة قبل أن تذهب فى زفة ..

لبث قليلا كالمتردد ينظر إليها باحتقار وازدراء ، ولكنه عدل عن مغامرة قاسية تفاديا من الفضيحة ، ثم بصق على الأرض ومضى إلى الخارج فى خطوات واسعة ثابتة ..

٣٠

ذهب من توّه إلى الإخوان ، فوجد محمد عفت وعلى عبد الرحيم وإبراهيم الفار وآخرين . شرب حتى سكر كعادته وتعدى عادته ، وضحك كثيرا وأضحك كثيرا ، ثم مضى فى الهزيع الأخير من الليل إلى بيته فنام نوما عميقا . واستقبل مع الصباح يوماً هادئا ، خلا فى أوله من الفكر ، وكان كلما نزع به الخيال إلى منظر من مناظر حياته القريبة أو الماضية صده بعزم ، اللهم إلا منظرا واحدا رحب باستعادته عن طيب خاطر ، ذلك هو المنظر الأخير الذى سجَّل انتصاره على المرأة وعلى نفسه معا ، وراح يؤكد الأمر لنفسه فيقول : « انتهى كل شيء والحمد لله ولأكونن شديد الحذر فيما يقبل من أيام حياتى » .

بدا اليوم هادئا فى مطلعه ، فاستطاع أن يفكر فى فوزه المبين وأن يهنيء نفسه عليه ، ولكن انقلب اليوم بعد ذلك خاملا بل خامدا ، فلم يجد من تفسير لذلك إلا

أنه رد الفعل للجهد العصبى المضنى الذى بذله فى اليومين الماضيين ، بل فى الأشهر الماضية على تفاوت فى الدرجة ، إذ الحق أن معاشرته لزنوبة بدت لعينيه فى تلك اللحظة مأساة خاسرة من أولها لآخرها . لم يكن من الهين عليه أن يسلم بأول هزيمة تلحقه فى حياته الغرامية الطويلة ، كان لذلك رجع شديد الأثر فى قلبه وخياله ، وكان يثور كلما همس له عقله بأن الشباب قد ولّى ، معتزا بقوته وجماله وحيويته ، ثم يصر على ذلك التعليل الذى جاهر به المرأة أمس وهو أنها لم تحبه لأن القدر لا يقدر إلا القدر !. لشد ما تشوق طوال يومه إلى مجلس الإخوان ، فلما دنا موعده نفد صبره فمضى متعجلا إلى بيت محمد عفت بالجمالية ، فاجتمع به قبل أن يتوافد الإخوان ، وسرعان ما قال له :

ـــ انتهيت منها ..

فتساءل محمد عفت :

ـــ زنوبة ؟!

فأومأ بالإيجاب ، فتساءل الآخر باسما :

ـــ بهذه السرعة ؟

ضحك كالساخر ، ثم قال :

ـــ هل تصدقنى إذا قلت إنها طالبتنى بالزواج حتى ضقت بها ؟!

فضحك كالساخر ، ثم قال :

ـــ زبيدة نفسها لم تفكر فى ذلك !، يا للعجب !، لكنها معذورة ، فقد وجدتك تدللها أكثر مما تحلم به فطمعت فى المزيد ..

فغمغم السيد أحمد قائلا باستهانة :

ـــ مجنونة ..

فضحك محمد عفت مرة أخرى ، وقال :

ـــ لعلها تهالكت فى حبك ؟!

يا لها من طعنة !، اضحك بقدر ما تجد من ألم ..

ـــ قلت إنها مجنونة وكفى ..

ـــ وماذا فعلت ؟

ـــ صارحتها بأننى ذاهب إلى غير رجعة ، وذهبت ..

ـــ كيف تلقَّت ذلك ؟

ـــ سبَّت مرة ، وهدَّدت أخرى ، وقالت فى داهية ثالثة ، ثم تركتها كالمجنونة ، كانت غلطة من بادىء الأمر .

قال محمد عفت وهو يهز رأسه مقتنعا :

ـــ نعم ، ما منا إلا من ضاجعها ، ولكن أحدا لم يفكر حتى فى مجرد معاشرتها ..

تصول وتجول فى ميادين الأسود ثم تهزم أمام فأرة ،أخف عارك حتى عن أقرب المقربين واحمد الله على أن كل شىء قد انتهى ..

لكن شيئا فى الواقع لم ينته ، لم تبرح مخيلته ، وصح لديه فيما تلا ذلك من أيام أن تفكيره فيها لم يكن مجردا ولكنه اقترن بألم عميق تزايد وتفشى ، وصح لديه أيضا أن ذلك الألم لم يكن غضبا لكرامته فحسب ولكن كان ألم الحسرة والحنين ، وأنه فيما بدا عاطفة طاغية لا تقتنع بأقل من تدمير من يعانيها . بيد أنه كان شديد الاعتزاز بما سجل ساعة انتصاره ، فمنى نفسه بقهر مشاعره المستبدة الخائنة فى مهلة تطول أو تقصر كيفما اتفق . ومهما يكن من أمر فقد غادره السلام فأمضى وقته متفكرا مجترًّا أحزانه معذبا بخيالاته وذكرياته . وكان يبلغ به الضعف أحيانا أن يفكر فى مصارحة محمد عفت بما ينوء به من آلام ، بل تمادى به الخاطر مرة إلى حد الاستعانة بزبيدة بنفسها ، ولكنها كانت فترات ضعف كنوبات الحمى ثم يفيق إلى نفسه وهو يهز رأسه متعجبا متحيرا .

وقد صبغت أزمته سلوكه العام بلون من القسوة قاومه ما استطاع بحلمه وكياسته ، فلم يفلت منه الزمام إلا قليلا ، وهذا القليل لم يلحظه إلا الأصدقاء والمعارف الذين ألفوا منه الدماثة والتسامح والرقة ، أما أهل بيته فلم يفطنوا إلى شىء ؛ لأن سلوكه حيالهم بقى هو هو لم يكد يتغير ، إذ أن الذى تغير حقا هو العاطفة المستترة وراءه فاستحالت من شدة مصطنعة إلى شدة حقيقية لم يدرك مداها سواه . على أنه هو نفسه لم ينج من قسوته هذه ، بل لعله كان هدفها الأول ، فيما حمل به على نفسه من تقريع وما عبرها به من مهانة ، وأخيرا بما أخذ يفر به رويدا رويدا من ذله وتعاسته وهجران شبابه ، ثم يعزى نفسه فيقول : لن أتحرك ، لن أسيم نفسى مزيدا من الذل ، فلتدر بى الأفكار كل مدار ، ولتنقلب بى العواطف كل منقلب ،

ولأبقين حيث أنا لا يعلم بألمى إلا الله الغفور الرحيم . لكنه ما يدرى إلا وهو يسائل نفسه : ترى ألا تزال فى العوامة أم تركتها ؟، وإذا كانت بها ، فهل ما يزال لديها بقية من ماله تغنيها عن الناس ، أم يكون الرجل قد لحق بها هنالك ؟، تساءل كثيرا وفى كل مرة يلقى عذابا ينفذ من روحه إلى لحمه وعظمه فيهصره هصرا ، لم يكن يجد شيئا من القرار إلا عند استحضاره المنظر الأخير فى العوامة الذى أوهمها فيه — وتوهم — أنه نبذها وعلا عليها ، ولكنه كان يستدعى مناظر أخرى سجلت ذله وضعفه ، ومناظر غيرها سجلت ألوانا من السعادة لا تنسى !. وخلق الخيال له مناظر جديدة التقيا فيها ، فتشاجرا ، وتحاسبا ، وتعاتبا ، ثم أدركهما سلام الصلح والوصال .. حلم كثيرا ما يتراءى له فى عالم الباطن الزاجر بما لا يحصى من ألوان الشقاء والسعادة ، لم لا يتأكد بنفسه مما طرأ على العوامة وسكانها ؟. فى الظلام يستطيع أن يسير هنالك دون أن يراه أحد ..

وذهب متسترا بالظلام كاللص ، فمر أمام العوامة ورأى النور يوصوص من خصاص النافذة ، ولكنه لم يدر إن كانت هى التى تستضىء به أم ساكن جديد ، بيد أن قلبه شعر بأن النور نورها هى دون غيرها ، وخيل إليه وهو يتطلع إلى العوامة أنه يستشف روح صاحبتها ، وأنه ليس بينه وبين رؤيتها رؤية العين إلا أن يطرق الباب فيفتح عن وجهها كما كان يفتح فى الأيام الذاهبة ، السعيد منها والتعيس على السواء ، ولكن ما عسى أن يفعل لو طالعه وجه الرجل ؟!، حقا أنها قريبة ولكن ما أبعدها ، وقد حرم عليه هذا المعبر إلى الأبد . آه .. هل مرت به هذه الحالة فى حلم من الأحلام !. قالت له اذهب ، قالتها من قلبها ثم مضت فى سبيلها كأنه لم يعرض لها يوما وكأنها لا تشعر له بوجود !، إذا كان الإنسان بهذه القسوة فكيف يتطلع إلى طلب الرحمة أو المغفرة !.

وذهب مرات ومرات حتى صار التردد أمام العوامة بعد جثوم الليل عادة يمر بها قبل ذهابه إلى مجلس الإخوان ، ولم يبد عليه أنه يريد أن يفعل شيئا ذا بال ، وكأنه كان يرضى بها حب استطلاع عقيم جنونى . وكان يهم بالعودة مرة إذ انفتح الباب وخرج شبح لم يتبينه فى الظلام فدق قلبه فى خوف ورجاء ، ثم عبر الطريق مسرعا ووقف فى جوار شجرة وعيناه تحملقان فى الظلام . قطع الشبح المعبر الخشبى إلى الطريق ثم سار فى اتجاه جسر الزمالك ، فوضح له أنه امرأة .. وحدثه قلبه بأنها

هى . وتبعها عن بعد وهو لا يدرى على أى وجه تنتهى الليلة . هى أو غيرها فماذا يقصد ؟!. غير أنه واصل سيره مركزا انتباهه فى شبحها ، ولما بلغت الجسر ودخلت فى مرمى مصابيحه توكد إحساس قلبه وأيقن أنها زنوبة ، غير أنها كانت ملتفة فى الملاءة اللف التى تخلت عن ارتدائها طوال معاشرتها له . عجب لذلك وتساءل عن معناه فظن ـــ ما أكثر ظنونه ـــ وراءه أمرا . رآها تتجه إلى محطة ترام الجيزة وتنتظر ، فسار محاذيا للحقول حتى جاوز الموضع قبالتها ، ثم عبر إلى ناحيتها ووقف بعيدا عن مرمى بصرها . وجاء الترام فاستقلته ، وعند ذاك هرول إليه فركب جاعلا مجلسه فى نهاية المقعد المطلة على السلم ليراقب النازلين ، وعند كل محطة راح يتطلع إلى الطريق وقد زايله الإشفاق من اكتشاف أمره لأنه حتى إذا وقع فقد فاتها أن تعلم أنه كان يرصدها أمام العوامة متجسسا . نزلت فى العتبة الخضراء فنزل وراءها ورآها تتجه إلى الموسكى مشيا على الأقدام فتبعها على بعد مرحبا بظلمة الطريق ، ترى هل عاودت الاتصال بخالتها ؟، أم تراها ماضية إلى السيد الجديد ؟، ولكن ماذا دعاها إلى الذهاب إليه وعندها عوامة تنادى العاشقين ؟!، وبلغت حى الحسين فضاعف انتباهه أن تضيع منه فى زحمة الملاءات اللف . لم تستبن له غاية وراء هذه المطاردة الخفية ، ولكن كان مدفوعا برغبة فى الاستطلاع أليمة وعقيمة وإن تكن فى نفس الوقت عنيفة لا تجدى معها المقاومة .. سارت أمام الجامع فاتجهت إلى حارة الوطاويط حيث يقل المارة ويلبد الشحاذون المتعبون ، ثم إلى الجمالية حتى مالت إلى قصر الشوق فتبعها مشفقا من أن يلقاه ياسين فى الطريق أو يراه من نافذة ،فارتأى إن صادفه أن يزعم له أنه ذاهب لزيارة صديقه غنيم حميدو صاحب معصرة الزيوت وجار ياسين بقصر الشوق ، وما يدرى إلا وهى تنعطف إلى أول حارة ، تلك الحارة التى لم يكن بها من بيت إلا بيت ياسين ، فدق قلبه بقوة وثقلت قدماه ! كان يعرف سكان الدورين الأول والثانى ، وهما أسرتان لا يمكن أن تربطهما بزنوبة رابطة !، وزاغ بصره قلقا واضطرابا ، غير أنه وجد نفسه يميل إلى العطفة غير مقدر للعواقب ، فاتجه نحو الباب حتى ترامى إلى سمعه وقع الأقدام الصاعدة ، ثم دخل بئر السلم رافعا رأسه منصتا إلى وقع الأقدام فشعر بمرورها بالباب الأول ثم الثانى ، ثم وهى تطرق باب ياسين !..

تسمر فى مكانه وهو يلهث ، فدار رأسه وشعر بخور وتهدم ، ثم تنهد من الأعماق وانتزع نفسه من موضعه راجعا من حيث أتى وقد غاب الطريق عن عينيه فى زحمة الأفكار وارتطام الخواطر ..

ياسين كان الرجل !، فترى هل علمت زنوبة بعلاقته الأبوية بياسين ؟! وراح يدفع الطمأنينة فى نفسه كما يدفع سدادا غليظا فى فوهة ضيقة قائلا : إنه لم يجر على لسانه ذكر لأحد أبنائه أمامها ، فضلا عن أنه من غير المعقول أن يكون واقفا على سره ، وأنه ليذكر كيف جاءه منذ أيام لينهى إليه طلاق مريم ، فطالعه بوجه المذنب المرتبك ولكن فى براءة وإخلاص لا تشوبهما شائبة ، وإنه ليفترض كل شيء إلا أن يقدم ياسين على خيانته وهو عالم بما يفعل ، بل من أين لياسين أن يعلم بأن أباه ذو صلة أو كان ذا صلة بأى امرأة فى الوجود ، فله أن يطمئن من هذه الناحية ، وحتى إذا كانت زنوبة قد عرفت علاقته بياسين ، أو إذا عرفتها يوما من الأيام ، فلن تطلع ياسين على سر خليق بأن يقطع ما بينهما ، وواصل السير مؤجلا الذهاب إلى الإخوان ريثما يسترد أنفاسه ويملك جنانه فمضى فى اتجاه العتبة على تعبه وإعيائه .

أردت أن تعرف وها أنت قد عرفت ، ألم يكن الأفضل أن تنفض يديك من الأمر كله قانعا بالصبر ؟!، احمد الله على أن الظروف لم تجمعك بياسين وجها لوجه فى بؤرة الفضيحة ، كان ياسين هو الرجل ، متى عرفته ؟، وأين ؟، وكم من مرة خانته معه وهو لا يدرى ؟!، أسئلة لن تبحث لها عن جواب ، افترض إذا شئت أسوأ الفروض فلن يغير هذا من الأمر شيئا ، وهل عرفها قبل أن يطلق مريم أم بعد الطلاق أم كانت الشيطانة الباعث على الطلاق ؟. أسئلة أخرى لن تعرف الجواب عنها ولن تبحث عنه ، فافترض أسوأ الفروض أيضا إراحة لرأسك المصدوع ، ياسين كان الرجل !، قال إنه طلقها لقلة أدبها !، كلام كان يمكن أن يعلل به طلاق زينب لو لم يطلع هو على السبب الحقيقى حال وقوعه ، سوف تعرف الحقيقة يوما ، ولكن ماذا يهمك من أمرها ؟، ألا زلت مشغوفا بالجرى وراء الحقيقة ؟!، أنت مبعثر الرأس معذب القلب ، أيمكن أن تغار من ياسين ؟، كلا ليست هذه بالغيرة ، على العكس مما تظن أنت خليق بالتعزى ، إذا لم يكن بد من أن يكون لك قاتل فليكن ابنك هو قاتلك ، ياسين جزء منك ، جزء منك انهزم وجزء منك انتصر ، أنت المغلوب وأنت الغالب ، ياسين قلب مغزى المعركة ، كنت تشرب كأسا مزاجها

الألم والهزيمة فصار مزاجها الألم والهزيمة والفوز والعزاء ، لن تتحسر على زنوبة بعد اليوم ، غاليت فى الاعتداد بنفسك ، عاهد نفسك على ألا تسقط الزمن من حسابك بعد الآن ، ليتك تستطيع أن توجه هذه النصيحة إلى ياسين حتى لا يؤخذ على غرة إذا جاء دوره ، أنت سعيد ، لا داعى للندم ، ينبغى أن تواجه الحياة بخطة جديدة وقلب جديد وعقل جديد ، دع الراية فى يد ياسين ، وسوف تفيق من دوارك ويمضى كل شىء وكأنه لم يكن ، لن يتاح لك أن تجعل من حوادث الأيام الأخيرة حديثا يدار على مائدة الإخوان كسابق عهدك ، علّمتك هذه الأيام المخيفة أن تطوى الصدر على أمور كثيرة ، آه .. ما أعظم تشوقى إلى الشراب !..

أثبت السيد أحمد فى الأيام التالية أنه أقوى مما اعترضه من أحداث ، فسار فى طريقه قدما ، وقد ترامت إليه أنباء طلاق ياسين على حقيقتها من السيد على عبد الرحيم نقلا عن غنيم حميدو وآخرين ، وإن لم يتعرف الراوون على حقيقة المرأة التى نجم عن مغامرتها طلاق الزوجة .. وابتسم السيد ، وضحك طويلا من كل شىء ، وكان ماضيا إلى بيت محمد عفت ـــ ذات مساء ـــ حين شعر بثقل قبيح فى أعلى الظهر والرأس حتى لهث . لم يكن الأمر جديدا كل الجدة ، فقد جعل الصداع ينتابه كثيرا فى الأيام السابقة ولكنه لم يشتد عليه كهذه المرة ، ولما شكا حاله إلى محمد عفت أمر له بقدح من شراب الليمون المثلوج ، وأمضى سهرته حتى نهايتها ، ولكنه استيقظ فى اليوم التالى أسوأ حالا من الأمس ، وبلغ به الضجر أن فكر فى استشارة الطبيب ، والواقع أنه لم يكن يفكر فى استشارة الطبيب إلا حين الضرورة القصوى .

٣١

تتطور الأشياء بالمناسبات كما تتطور الألفاظ بما يستجد من معان جديدة ، لم يكن قصر آل شداد فى حاجة جديدة كي يزداد فى عينى كمال جلالا ، ولكنه بدا فى ذلك المساء من ديسمبر فى زى جديد من أزياء الحياة . أريقت عليه الأنوار حتى غمرته . أجل : كان كل ركن من أركانه وكل موضع من جدرانه يتقلد عقدا من اللآلىء المضيئة .. مصابيح كهربائية مختلفة الألوان تومض فوق رقعة جسده من

أعلى السطح إلى أسفل الجدار ، كذلك السور الكبير ، والباب الضخم ، كذلك أشجار الحديقة بدت كأنما استحالت أزهارها وثمارها أنوارا حمرا وخضرا وبيضا ، ومن النوافذ جميعا انبعثت الأضواء ، فكل شيء يهتف مؤذنا بالفرح ، وعندما رأى كمال وهو مقبل ذلك المنظر آمن بأنه يحج إلى مملكة النور لأول مرة فى حياته .
وازدحم الطوار المواجه لمدخل البيت بالغلمان ، وفرش المدخل برمل فاقع لونه كالذهب ، وفتح الباب على مصراعيه ، كذلك باب السلاملك فلاحت من داخله نجفة كبيرة فى سقف البهو المعد لاستقبال المدعوين ، على حين امتلأت الشرفة العليا الكبيرة بمجموعة وضيئة من الغيد فى ثياب السهرة البهيجة . ووقف شداد بك وجماعة من رجال الأسرة فى مدخل السلاملك يستقبلون الوافدين ، أما شرفة السلاملك فقد ازدانت برجال أوركسترا عجيب ترامت أنغامه إلى خدود الصحراء .
ألقى كمال على المنظر كله نظرة شاملة سريعة ، ثم تساءل : ترى أعائدة فى الشرفة العليا بين المطلات ؟، وهل وقعت عيناها عليه وهو يقبل مع المقبلين بقامته الفارعة وزينته الكاملة والمعطف على ساعده يتقدمه رأسه الكبير وأنفه الشهير ؟. لم يخل من إحساس بالارتباك وهو يجتاز الباب ، ولكنه لم يتجه إلى السلاملك كالآخرين ، وإنما مال إلى « ممره » القديم المفضى إلى الحديقة كما نبَّه حسين شداد من قبل كي يتاح لجماعتهم البقاء معاً أطول مدة ممكنة فى الكشك المحبوب . كأنما كان يخوض بحرا من نور ، وقد وجد السلاملك الخلفى — كالأمامى — مفتوح الباب ، مضاء بالأنوار ، يعج بالمدعوين ، كذلك الشرفة العليا معمورة بأسراب الحسان ، أما فى الكشك فلم يجد سوى إسماعيل لطيف فى بدلة سوداء أنيقة أضفت على منظره العدوانى هيئة لطيفة لم يره فى مثلها من قبل . ألقى إسماعيل عليه نظرة سريعة ، ثم قال :
— بديع ، لكن لم أتيت بالمعطف ؟. حسين لم يمكث معى إلا ربع ساعة ولكنه سيعود إلينا حين يفرغ من الاستقبالات ، أما حسن فقد لبث معى دقائق ولا أظنه سيتمكن من مجالستنا كما نود ، هذا يومه وله عنا أمور تغنيه ، كان حسين يفكر فى دعوة بعض الزملاء إلى هنا ولكنى منعته فاكتفى بأن يدعوهم إلى مائدتنا ، سيكون لنا مائدة خاصة ، هذا أهم خبر أزفه إليك الليلة ..

هنالك ما هو أهم ، سوف أعجب من نفسى طويلا لقبولى هذه الدعوة ، لم قبلتها ؟!، لتبدو كأنك لا تبالى ، أم لأنك غدوت مغرما بالمغامرات المخيفة ؟!.
ـــ هذا حسن ، ولكن لم لا نذهب ولو قليلا إلى البهو الكبير لنشاهد المدعوين ؟..
قال إسماعيل لطيف بازدراء :
ـــ لن تحظى بما تريد حتى لو ذهبنا ، فإن الباشوات والبكوات خصوا بالبهو الأمامى وحدهم ، فإذا ذهبت فستجد نفسك بين الشباب من الأهل والأصدقاء فى البهو الخلفى وليس هذا ما تريد ، وددت لو أمكن أن نندس فى الحجرات العليا التى تموج بأفخر مُثُل الجمال ..
مثال واحد يعنينى ، مثال المثل ، الذى لم تقع عليه عيناى منذ يوم الاعتراف ، هتك سرى وذهب .
ـــ لا أكتمك أنى مشوق إلى رؤية الكبراء ، قال حسين لى إن والده قد دعا كثيرين ممن أقرأ عنهم فى الصحف ..
ضحك إسماعيل ضحكة عالية ، وقال :
ـــ أتحلم بأن ترى كبيرا وله أربع أعين أو ست أرجل ؟!. إنهم أناس مثلى ومثلك فضلا عن أنهم طاعنون فى السن وذوو منظر لا يسر كثيرا ، إنى أفهم سر تطلعك إليهم ، ما هو إلا ذيل لاهتمامك المفرط بالسياسة ..
يجدر بى ألا أهتم بشىء ما فى هذه الدنيا ، لم تعد لى ولم أعد لها ، غير أن اهتمامى بالكبراء مستمد فى الحقيقة من هيامى بالعظمة ، أنت تود أن تكون عظيما لا تنكر ، ولك مؤهلاتك الواعدة من خلقة سقراط وآلام بتهوفن ، أنت مدين بهذا التطلع للتى حرمتك النور بذهابها ، غدا لن تجد لها أثر فى مصر كلها ، يا جنون الألم إن لك لسكرة !.. قال بتشوف :
ـــ قال لى حسين إن الحفلة ستجمع بين رجال من جميع الأحزاب ..
ـــ صحيح ، بالأمس دعا سعد الأحرار والوطنيين إلى حفلة الشاى المعروفة بالنادى السعدى ، واليوم شداد بك يدعوهم إلى زفاف كريمته ، رأيت من أصدقائك الوفديين ، فتح الله بركات ، وحمد الباسل ، وجاء من الآخرين : ثروت ، وإسماعيل صدقى ، وعبد العزيز فهمى . شداد بك يعمل بهمة عالية ،

وحسنا فعل ، لقد ولَّى عهد أفندينا ، كان الشعب يهتف منشدا : « الله حى .. عباس جى » ، ولكن الحقيقة أنه ذهب إلى غير رجعة فكان من الحكمة أن يعمل شداد بك للمستقبل حسابه ، ويجب أن يسافر كل أعوام قلائل إلى سويسرا ليقدم إلى الخديو فروض طاعة كاذبة من باب الحيطة ، ثم يعود ليواصل سيره الموفق ..

قلبك يمقت هذه الحكمة ، إن محنة سعد بالأمس القريب أثبتت أن الوطن ملىء بهؤلاء الحكماء ، ترى أشداد بك واحد منهم ؟. والد المعبودة ؟!. مهلا ، إن المعبودة نفسها نزلت من علياء السماء لتقترن بواحد من البشر ، ليتفتت قلبك حتى يعجزك لمّ أجزائه المتناثرة .

ـــ تصور أن حفلة كهذه تمضى بلا مطرب ولا مطربة !

قال إسماعيل بلهجة ساخرة :

ـــ آل شداد نصف باريسيين ، ينظرون إلى تقاليد الأفراح بازدراء غير قليل ، ولا يسمحون لعالمة بأن تحيى حفلة فى بيتهم ولا يعترفون بمطرب من مطربينا ، ألا تذكر حديث حسين عن هذا الأوركسترا الذى أراه الليلة لأول مرة فى حياتى ؟، إنه يعزف مساء الأحد من كل أسبوع فى جروبى ، وسينتقل إلى البهو بعد العشاء ليطرب الكبراء ، دع هذا واعلم أن زينة الليلة هى العشاء والشمبانيا !.

جليلة وصابر وزفاف عائشة وخديجة ؟. شتان بين الجوّين ، كم كنت سعيدا فى تلك الأيام !، الليلة يشيع الأوركسترا حلمك إلى القبر ، أتذكر الذى رأيت من ثقب الباب ؟.. أسفى على الآلهة التى تتمرغ فى التراب !..

ـــ هذا شىء يهون ، الذى آسف عليه حقا وسآسف عليه طويلا هو أننى لم أتمكن من مشاهدة الكبراء عن كثب ، كنت أتطلع إلى سماع حديثهم لأفهم أمرين هامين : أولهما الموقف السياسى على حقيقته وهل بات من المأمول حقا بعد الائتلاف أن يعود الدستور والحياة النيابية ؟، والثانى كلام هؤلاء الناس العادى الذى يتبادلونه فى مناسبة سعيدة كهذه ، أليس بديعا أن تصغى إلى ثروت باشا مثلا وهو يثرثر ويمزح ؟!

قال إسماعيل لطيف وهو يتظاهر بالاستهانة وإن نمت حركات الاستهانة نفسها عن مباهاة :

ـــ أتيح لى أكثر من مرة أن أجلس مع أصدقاء أبى من أمثال سليم بك والد

حسن وشداد بك ، أؤكد لك أنك لن تجد لديهم ما يستحق هذا الاهتمام ..
من أين جاء الفارق إذن بين ابن المستشار وابن التاجر ؟!. كيف كان جل حظ أحدهما أن يعبد المعبود على حين يتزوج الآخر منه !؟. أليس هذا الزواج آية على أن هؤلاء القوم من طينة غير طينة البشر ؟.. لكنك لا تدرى كيف يتكلم أبوك بين أصحابه وأقرانه !..

ـــ على أى حال سليم بك ليس من العظماء الذين أعنى ..!

ابتسم إسماعيل لهذه الملاحظة الأخيرة دون أن يعلق عليها . هذه الضحكات تجيء من الداخل مفعمة بالغبطة ، وأخرى تهبط من الشرفة العليا معبقة بشذا الأنوثة الساحر ، وبين هذه وتلك تجاوب كالذى بين أنغام الآلات المترامية من بعيد تستقبلها الأذن وحدة حينا وطاقة من ألحان شتى حينا آخر ، ثم تكون كلها ـــ الضحكات والأنغام ـــ إطارا ورديا يبدو فيه القلب الحزين المترع بالوحشة كبطاقة سوداء فى طاقة ورد ..

وما لبث حسين شداد أن جاء متهللا بقامته الفارعة ووجهه المتألق يختال فى الردنجوت ، فتح ذراعيه عندما اقترب ففعل كمال مثله وتعانقا بحرارة ، ثم لحق به حسن سليم فى بزته الرسمية ، جميلا فى كبريائه الطبيعى الملفوف فى مظهره المؤدب المهذب وإن بدا إلى جانب حسين قصيرا صغيرا ، فتصافحا أيضا بحرارة ، وهنأه كمال من أعماق لسانه . وقال إسماعيل لطيف بصراحته المعهودة التى لا تكاد فى أغلب الأحيان تتميز عن المكر السيىء :

ـــ كمال آسف لأنه لم تتح له مجالسة ثروت باشا وصحبه !

فقال حسن سليم بمرح غريب أطاح بتحفظه المعهود :

ـــ فلينتظر حتى يسجل مؤلفاته المنتظرة ، وعندها يجد نفسه واحدا منهم !..

أما حسين شداد فقال محتجا :

ـــ أهاوى تزمت أنت ؟!، إنما أريد أن تمر الليلة كلها ونحن مستمتعون بحريتنا الكاملة ..

وقبل أن يجلس حسين استأذن حسن سليم منصرفا ، إذ كان فى الواقع كالفراشة لا يستقر بموضع . ومد حسين ساقه أمامه ، وراح يقول :

ـــ غدا يسافرون إلى بروكسل ، سبقانى إلى أوربا ، ولكن بقائى هنا لن يطول ،

وغدا تكون ملهاتى التنقل ما بين باريس وبروكسل ..

وتنتقل أنت ما بين النحاسين والغورية ، بلا حبيب ولا صديق ، هذا جزاء من يتطلع إلى السماء ، ستردد بصرك بين أركان المدينة حائرا ولن تبرأ عيناك من لوعة الشوق ، املأ رئتيك من هذا الهواء الذى تعبقه أنفاسها ، غدا سوف ترثى لنفسك .

ـــ يخيل إلى أنى سألحق بك يوما ..

تساءل حسين وإسماعيل معا :

ـــ كيف ؟

لتكن كذبتك ضخمة كألمك ..

ـــ ثمة اتفاق بينى وبين أبى على أن أسافر فى بعثة على حسابى الخاص بعد إتمام دراستى ..

هتف حسين بسرور :

ـــ لو تحقق هذا الحلم !.

أما إسماعيل فقال ضاحكا :

ـــ أخاف أن أجد نفسى وحيدا بعد بضع سنين !

تلاقت آلات الأوركسترا جميعا فى حركة متدفقة سريعة ، أعلنت ـــ فيما أعلنت ـــ عما فى كل آلة من مرونة وقوة ، كأنما تشترك كلها فى سباق عنيف بات الهدف منه فى مرمى العين ومتناول الطموح ، فسما بهما اللحن إلى ذروته العليا ، تلك الذروة التى توحى بتدانى الختام . انجذب وعيه إلى الأنغام المستعرة رغم استغراقه بالشجن ، فانخرط فى عدوها حتى تدافع دمه ولهثت منه الأنفاس ، وسرعان ما داخلته رقة وأسكرته أريحية جعلت من حزنه نشوة دامعة ، فتنهد مع النهاية من الأعماق ، وتملى أصداء اللحن المترنمة فى روحه بانفعال وتأثر ، فخيل إليه أنه يتساءل : ألا يمكن أن تنتهى عواطفه المتأججة فى ذروتها إلى ختام كذلك ؟. ألا يمكن أن يكون للحب ـــ كهذا اللحن وككل شىء ـــ نهاية ؟!. وذكر أحوالا مرت به فى أوقات نادرة، فتراءت من الفتور حتى بدا وكأنه لم يبق من عايدة إلا اسمها ، أتذكر هذه الفترات ؟، وكان يهز رأسه حيرة ثم يتساءل : هل انتهى حقا كل شىء ؟، وإذا بخيال يطوف أو فكرة تخطر أو منظر يرى فيستيقظ من غفوته ويلقى

نفسه غريقا فى بحر الهوى مكبّلا بأصفاد الأسر . جرب إذا حلّت بك فترة من هذه الفترات أن تقبض عليها بكل قواك وألا تدعها تفلت حتى يستقر بك الشقاء ، أجل حاول أن تفنى خلود الحب . قال حسين شداد باسما :

ــ بدأت الحفلة بتلاوة سورة على سبيل البركة !

القرآن ؟!، ما ألطف هذا !، الباريسية الحسناء نفسها لا تستطيع أن تعقد قرانها إلا بمأذون وقرآن !، وهكذا سيقترن زواجها فى ذهنك بالقرآن والشمبانيا .

ــ حدثنا عن نظام الحفلة ؟

قال حسين وهو يشير براحته إلى البيت :

ــ عما قليل يعقد القران ، وبعد ساعة يدعى الجميع إلى الموائد ، ثم ينتهى كل شيء ، وتبيت عايدة هذه الليلة فى بيتنا لآخر مرة ثم تسافر مع الصباح إلى الإسكندرية لتستقل بعد غد الباخرة إلى أوربا ..

ستضيع منك مناظر ما أخلقها بالتسجيل لتكون زادا لألمك الشره ، كرؤية اسمها الجميل وهو يكتب فى الوثيقة الشرعية ، ومنظر وجهها المتطلع إلى إعلان النبأ السعيد ، ولون الابتسامة التى يفتر عنها ثغرها عند زفاف البشرى ، ثم منظر العروسين وهما يتلاقيان ، حتى ألمك يعوزه الزاد ..

ــ وهل يعقد القران مأذون ؟!

ــ طبعا !.

هكذا أجاب حسين ، أما إسماعيل فضحك ضحكة عالية ، وقال :

ــ بل قسيس !

أى سخافة فى سؤالك !.. سل أيضا هل يبيتان الليلة معا !، أليس من المحزن أن يسد مجرى حياتك رجل لا شأن له كهذا المأذون ؟. ولكن دودة حقيرة هى التى تأكل جدث أكبر الكبراء ، فكيف ستكون جنازتك حين يحم القضاء ؟، شيء هائل يملأ الطريق أم لمة تمضى ؟،.. وإذا بالصمت يشمل البيت حتى استحال نورا بلا تغاريد فشعر بخوف وانقباض . الآن ، فى مكان ما ، لعلها هذه الحجرة أو تلك ، ثم لعلعت زغرودة طويلة مجلجلة أحيت ذكرى قديمة ، زغرودة كتلك الزغاريد التى عرفها من قبل فلا تمت إلى باريس بسبب ، ثم تبعتها زغاريد مجتمعة كالصواريخ ، لشد ما يبدو هذا القصر الليلة كأى بيت من بيوت القاهرة . وتابعت

دقات قلبه الزغاريد حتى لهث ، ثم سمع إسماعيل يهنىء فهنأ بدوره ، وتمنى عند ذاك لو كان منفردا ، ثم تعزى بأنه سينفرد بنفسه أياما وليالى فوعد أمله بزاد لا يفنى . وانبعثت الأوركسترا تعزف مقطوعة يعرفها حق المعرفة هى « العفو يا سيد الملاح » فنادى قدرته الهائلة على التحمل والتصبر وإن كانت كل قطرة من دمه تطرق جدران عروقه مؤذنة بأن كل شىء قد انتهى ، إن التاريخ نفسه قد انتهى ، إن الحقيقة جميعا قد انتهت ، إن الأحلام التى فوق الحياة قد انتهت ، وأنه يواجه الصخر المدبب الأطراف ولا شىء غيره . قال حسين متأملا :

ـــ كلمة ثم زغرودة ويدخل الواحد منا فى دنيا جديدة ، سوف نعرف ذلك كلنا يوما ما ..

فقال إسماعيل لطيف :

ـــ سوف أباعد ما استطعت بينى وبين ذلك اليوم ..

كلنا ؟!، إما السماء وإما لا شىء !

ـــ لن أذعن لذلك اليوم أبدا ..

بدا عليهما أنهما لم يكترثا لقوله أو أنهما لم يحملاه على محمل الجد ، بيد أن إسماعيل عاد يقول :

ـــ لن أتزوج حتى أقتنع بأن الزواج ضرورة لا محيص عنها ..

وجاء نوبى حاملا أكواب الشربات ، ثم تبعه آخر بصينية محملة بعلب الحلوى الفاخرة . علبة من البللور على قوائم أربع مذهبة ، مموه زجاجها الكحلى بزخارف فضية ، وقد انعقد عليها شريط أخضر من الحرير سجل على لافتة هلالية فى عقدته الحرفان الأولان لاسمى العروسين « ع. ح » . شعر وهو يتناول العلبة بارتياح لعله كان أول شعور بالارتياح يحظى به فى ذلك اليوم . فقد وعدته العلبة الفاخرة بأن معبودته ستترك وراءها أثرا خالدا كحبها ، وأن هذا الأثر سيبقى ما بقى هو على الأرض رمزا لماض غريب وحلم سعيد وفتنة سامية وخيبة رائعة . ثم لفه شعور بأنه ضحية اعتداء منكر تآمر به عليه القدر وقانون الوراثة ونظام الطبقات وعايدة وحسن سليم وقوة خفية غامضة لم يشأ أن يسميها .. وتراءى له شخصه التعيس وهو يقف وحده أمام هذه القوى مجتمعة وجرحه ينزف فلا يظفر بأسى ، ولم يجد ما يرد به على هذا الاعتداء إلا ثورة مكبوتة حرمت من الإفصاح، بل أجبرته الظروف على

التظاهر بالسرور كأنما يهنىء القوى الباغية على تنكيلها به ونبذه خارج حدود البشرية السعيدة ، فأضمر لها جميعا حنقا خالدا ترك للمستقبل أمر تكييفه وتوجيهه ، أجل شعر بأنه لن يأخذ الحياة بعد تلك الزغرودة الفاصلة مأخذا سهلا أو يرضى فيها بالقريب أو يتسامح معها تسامح الكرم والصفاء ، وأن طريقه سيكون شاقا عسيرا ملتويا غاصا بالمضض والغضاضة والألم ، ولكنه لم يفكر فى التراجع،قبل الحرب وأبى الصلح ، وأنذر وتوعد ، غير أنه ترك للقدر اختيار الغريم الذى سينازله والوسيلة التى سيحارب بها . قال حسين شداد وهو يزدرد ريقه المشرب بالشربات :

ــ لا تعلن الثورة على الزواج ، أعتقد ــ إذا أتيح لك أن تسافر كما تقول ــ أنك ستجد زوجة تعجبك ..

كأنك لم تجد التى تعجبك هنا ، ابحث عن وطن جديد لا يتأذى جنسه اللطيف بمنظر الرءوس الشاذة ، والأنوف الكبيرة ، إما السماء وإما الموت . قال وهو يهز رأسه كالمقتنع :

ــ هذا رأيى ..

فقال إسماعيل لطيف ساخرا :

ــ أتعرف ماذا يعنى الزواج من أوربية ؟! ، إنه كلمة واحدة « الظفر » بامرأة من أحط طبقات الشعب ، امرأة ترضى بأن تكون تحت رجل تشعر فى أعماقها بأنه عبد من العبيد .

حظيت بهذه العبودية فى وطنك الكريم لا فى أوربا التى لن تراها .

قال حسين مستنكرا :

ــ مغالاة !..

ــ انظر إلى المدرسين الإنجليز كيف يعاملوننا !

قال حسين شداد بحماس هو بالرجاء أشبه :

ــ الأوروبيون فى بلادهم غيرهم فى بلادنا !

هل من سبيل إلى قوة قاهرة تبيد الظلم والظالمين ؟! ، يا رب العالمين أين عدالتك السماوية ؟!.

دعا الداعى إلى الموائد فمضى الأصدقاء الثلاثة إلى السلاملك ، ثم إلى حجرة جانبية تتفرع عن البهو الخلفى ، فوجدوا مقصفا صغيرا يتسع لعشرة على الأقل ،

ولحق بهم شبان بعضهم من أقرباء آل شداد والبعض من أصدقاء المدرسة ، ومع أن العدد دون الحد المقرر للمقصف وهو ما شكر عليه حسين من الأعماق ، إلا أنهم سرعان ما اندفعوا إلى الطعام بقوة وعنف حتى ساد الجو نشاط السباق ، وكان ينبغي لهم أن يتحركوا دواما ليطوفوا بشتى ألوان الطعام التى امتدت صحافها على طول المائدة تفصل بين كل مجموعة منها وأخرى طاقة صغيرة من الورود ، ولوح حسين بإشارة من يده إلى السفرجى ، فجاء بقوارير الويسكى وزجاجات الصودا ، فهتف إسماعيل لطيف :

ـــ أقسم أنى تفاءلت خيرا بهذه الإشارة من قبل أن أعرف مغزاها .

ومال حسين على أذن كمال قائلا برجاء :

ـــ كأسا واحدة من أجل خاطرى ..

وقالت له نفسه « اشرب » لا رغبة فى الشراب فإنه لم يعرفه ولكن رغبة فى الثورة ، بيد أن إيمانه كان أقوى من حزنه وتمرده ، قال مبتسما :

ـــ أما هذه فلا ، شكرا ..

قال إسماعيل لطيف وهو يرفع كأسا مترعة :

ـــ لا حق لك فى هذا ، حتى الورع يبيح لنفسه السكر فى حفلات الزفاف ..

مضى يتناول طعامه الشهى فى هدوء ، وكان يراقب بين حين وآخر الآكلين والشاربين أو يشترك معهم فى الحديث والضحك . إن سعادة المرء تتناسب تناسبا طرديا مع عدد مرات شهوده لمقاصف الأفراح ، ولكن هل مقصف الباشوات مثل مقصفنا ؟!، نلتهم طعامهم ونحقق معهم !، شمبانيا !.. هذه فرصة لتذوق الشمبانيا .. شمبانيا آل شداد ماذا قلتم ؟!، ما للأستاذ كمال لا يقرب الخمر ؟، لعله ملأ بطنه فلم تعد تتسع لمزيد ، الحق أنى آكل بشهوة لا تجارى ، كأنما أعصاب معدتى لا تتأثر بالحزن أو أنها تتأثر به تأثرا عكسيا .. هكذا تغذيت فى مأتم فهمى ، امنعوا إسماعيل عن الأكل والشرب وإلا نفق ، موت المنفلوطى وسيد درويش وضياع السودان أحداث كللت زماننا بالسواد ، لكن الائتلاف وهذا المقصف من أنباء زماننا السارة ، أكلنا ثلاثة من الديكة الرومية وثمة رابع لم يمسس بعد .. هو هذا !، رباه إنه يشير إلى أنفى فيضجون جميعا بالضحك !، إنهم سكارى فلا تغضب !، اضحك معهم متظاهرا بالاستهانة والمرح ، أما قلبى

فينتفض غضبا ، إن استطعت أن تغزو العالم فاغزه ، أما آثار هذه الليلة البهيجة فهيهات أن تنجو منها أبد الدهر ، وهاك اسم فؤاد الحمزاوى تتناقله الألسن ، عن تفوقه ونبوغه يتحدثون فهل لذعتك الغيرة ؟، سيكون حديثك عنه مدعاة لإكبارك ولو على نحو ما :

ـــ كان طالبا مجدًّا منذ طفولته !

ـــ أتعرفه ؟

أجاب حسين شداد عنه :

ـــ والده موظف فى متجر والد كمال ..

فى قلبى ارتياح لعن الله القلوب ..

قال كمال :

ـــ كان والده ولا يزال الرجل المجد الأمين .

ـــ وما تجارة والدك ؟

كم أحيط « التاجر » فى خيالى بهالة الإكبار ، حتى قيل لك ابن تاجر وابن مستشار :

ـــ تاجر جملة للبقالة ..

الكذب أداة نجاة حقيرة ، انظر إليهم كى تستشف ما يدور وراء أقنعة وجوههم ولكن أى رجل فى هذا البيت يضارع أباك جمالا وقوة ؟!.

وعقب الانصراف عن الموائد عادت الأكثرية إلى مجالسها فى البهو ، وانطلق كثيرون إلى الحديقة يتمشون ، فمر وقت هادىء خامل ، ثم أخذ المدعوون فى الانصراف ، أما الأهل فصعدوا إلى الدور الثانى ليقدموا التهانى إلى العروسين ، وما لبث الأوركسترا أن انتقل إليهم ليعزف مختاراته الرائعة فى المجلس السعيد . ارتدى كمال معطفه وحمل علبة الحلوى الفاخرة ثم تأبط ذراع إسماعيل وغادر سراى آل شداد ، قال إسماعيل وهو يلقى على صاحبه نظرة مخمورة :

ـــ الساعة الحادية عشرة ، ما رأيك فى أن نتمشى فى شارع السرايات حتى أفيق قليلا ؟. فوافق كمال عن طيب خاطر ، لأنه وجد فى المشى وقتل الوقت فرصة مواتية بيّتها ، سارا معا فى نفس الطريق الذى سار فيه من قبل إلى جانب عايدة ، يعترف لها بحبه ويبثها آلامه . لن يغيب عن رأسه منظر هذا الطريق ذى القصور الجليلة

الصامتة ، والأشجار الباسقة على جانبيه تطالع المساء بهدوء النفس المطمئنة وروعة الخيال السامى ، ولن يفتأ قلبك كلما وطئته قدماك أو استدعاه خيالك يرعش باعثا بخفقات الحنين والوجد والألم كالشجرة المقلقلة بالرياح ترمى أوراقها وثمارها ، ومهما يكن من فشل رحلتك القديمة على أديمه فلن يزال يدخر لك ذكرى حلم غابر وأمل ضائع وسعادة موهومة وحياة دافقة مترعة بالمشاعر هي على أسوأ التقديرات خير من راحة العدم ووحشة الهجر وخمود العاطفة ، وهل أنت واجد فى مستقبلك زادا للقلب إلا أماكن تتطلع إليها بعين الخيال وأسماء تمد لها آذان الشوق ؟!، تساءل كمال :

ـــ ترى ماذا يحدث الآن فى الدور الأعلى ؟

فأجاب إسماعيل بصوت مرتفع أزعج الصمت الجاثم :

ـــ أوركسترا يعزف مقطوعات غربية ، العروسان فوق المنصة يبسمان وحولهما آل شداد وآل سليم ، رأيت مثل هذا الجمع مرات عديدة ..

عايدة فى ثياب العرس !، يا له من منظر !، هل رأيت شيئا كهذا ولو فيما يرى النائم ؟!.

ـــ وإلام يمتد الحفل ؟

ـــ ساعة على الأكثر كى يتمكن العروسان من النوم ما داما سيسافران فى الصباح إلى الإسكندرية .

كلمات كالخناجر ، اغرز منها ما تشاء فى قلبك ..

غير أن إسماعيل عاد يقول متسائلا :

ـــ ولكن متى عرفت ليالى الزفاف النوم ؟!

وضحك ضحكة عالية معربدة ، ثم تجشأ ونفخ أبخرة الخمر وهو يقطب متأففا ثم بسط صفحة وجهه ، وقال :

ـــ ربنا لا يحكم عليك بنوم العشاق ، لا نوم لهم يا عينى ، لا يغرنك تحفظ حسن سليم ، سيصول ويجول كالفحول حتى مطلع الصبح ، هذا قضاء لا نجاة منه ..

تذوق هذا النوع الجديد من الألم المقطر ، روح الألم أو ألم الألم ، ليكن عزاؤك أنك انفردت بألم لم يشعر به إنسان قبلك ، وأنه سيهون عليك الجحيم إذا قدر عليك

يوما أن تحملك الزبانية وترقص بك فوق ألسنة لهيبه ، ألم !! لا لفقد الحبيب فإنك ما طمحت يوما فى امتلاكه ، ولكن لنزوله من علياء سمائه ، لتمرغه فى الوحل بعد حياة عريضة فوق السحاب .. لأنه رضى لخده أن يقبل ، ودمه أن يسفح ! ولجسده أن يبتذل . ما أشد حسرتى وألمى !..

ـــ أحق ما يقال عن ليلة الدخلة ؟

هتف إسماعيل :

ـــ أتجهل بالله هذه الأمور ؟

كيف يقدسون الدنس ؟..

ـــ لا أجهلها طبعا ، كنت حتى زمن قريب لا أدرى عنها شيئا ، وثمة أمور أود أن تعاد على مسمعى ..

قال إسماعيل ضاحكا :

ـــ إنك تبدو لى أحيانا أحمق أو أبله ..

ـــ دعنى أسألك ، أيهون عليك أن يفعل هذا بشخص تقدسه ؟

تجشأ مرة ثانية حتى تطايرت رائحة الخمر اللعينة إلى أنف كمال ، وقال :

ـــ لا يوجد شخص يستحق أن يقدس ..

ـــ ابنتك مثلا ، لو كان لك ابنة ..؟

ـــ لا ابنتى ولا أمى ، كيف جئنا نحن ؟ ، هذا هو قانون الطبيعة ..

نحن ! ، الحقيقة نور لألاء ، فغض الطرف ، وراء ستار القداسة الذى سجدت أمامه طيلة حياتك يعبثان كالأطفال ، ما لكل شيء يبدو خاويا !، الأم .. الأب .. عايدة ، كذلك ضريح الحسين .. مهنة التجارة .. أرستقراطية شداد بك ، يا لشدة الألم .

ـــ ما أقذر قانون الطبيعة !..

تجشأ إسماعيل للمرة الثالثة ، وقال وقد نم صوته عن الضحك وإن لم يسمع له ضحك :

ـــ الحقيقة أن قلبك موجع ، إنه يغنّى مع المطربة الجديدة أم كلثوم « أفديه إن حفظ الهوى أو ضيّعا » ..

كمال فى انزعاج :

ــ ماذا تعنى ؟

فقال إسماعيل بلهجة تعمد أن تشى بسكره أكثر من الواقع :

ــ أعنى أنك تحب عايدة !

رباه ! كيف افتضح سره ؟..

ــ أنت سكران !..

ــ هى الحقيقة والجميع يعرفونها !

هتف وهو يحملق صوبه فى الظلام :

ــ ماذا تقول ؟

ــ أقول إنها الحقيقة ، والجميع يعرفونها .

ــ الجميع ؟!، من هم ؟!، من افترى هذا علىَّ ؟.

ــ عايدة !.

ــ عايدة ؟.

ــ عايدة هى التى أذاعت سرك ..

ــ عايدة ؟!، لا أصدق هذا ، أنت سكران .

ــ نعم أنا سكران ولكن هذه هى الحقيقة أيضا ، من فضائل السكران أنه لا يكذب .. (ثم بعد ضحكة رقيقة) .. هل أغضبك هذا ؟، عايدة كما تعلم شابة لطيفة ، حالما لفتت الأنظار سرا إلى عينيك المغرمتين وأنت لا تدرى ، لا بدافع السخرية ولكن لأنها تتيه دلالا بالمغرمين ، وقد كاشفت حسن أول الأمر فوجَّه حسن نظرى إليك مرات ، ثم أفضى بالسر إلى حسين ، بل علمت أن سنية هانم سمعت عن العاشق الولهان كما كانوا يدعونك !، وغير مستبعد أن يكون الخدم قد استرقوا السمع إلى ما دار عنك بين سادتهم ، فالكل يعرف قصة العاشق الولهان ..

شعر بخور ، وخيل إليه أن الأقدام المتحركة تطأ كرامته بقسوة ، فانطبقت شفتاه على حزن مرير ، أهكذا يعثر السر المصون . وعاد الآخر يقول :

ــ لا تتأثر ، كان الأمر كله دعابة بريئة صدرت عن قلوب تكن لك الود ، حتى عايدة لم تذع سرك إلا بدافع المباهاة !

ــ توهمت فانخدعت !..

فقال إسماعيل ضاحكا :

ـــ إنكار حبك عبث كإنكار الشمس فى رابعة النهار !..
صمت كمال صمتا مليئا بالشجن والاستسلام ، وفجأة تساءل :
ـــ ماذا قال حسين ؟
ارتفع صوت إسماعيل وهو يقول :
ـــ حسين ؟! إنه صديقك الأمين ، طالما أعلن عن عدم ارتياحه لأسلوب أخته البرىء ، وكان يجيبها منوِّها بمزاياك ؟
تنهد فى ارتياح . إذا كان فى الحب قد خاب أمله ، فقد بقيت له الصداقة ، آه ، كيف يسعه أن يدخل سراى آل شداد بعد الليلة ؟!.
وقال إسماعيل بلهجة جدية كأنما يشجع صاحبه على مواجهة الموقف :
ـــ كانت عايدة فى حكم المخطوبة لحسن من قبل إعلان الخطوبة بأعوام ، ثم إنها أكبر منك سنا ، وهذه العواطف تنسى عقب النوم ، فلا تهتم ولا تحزن .
هذه العواطف تنسى !. تساءل باهتمام غير خاف :
ـــ أكانت تسخر منى وهى تنوِّه بهذا الغرام المزعوم ؟
ـــ كلا ، قلت لك إنها تسعد بالحديث عن عشاقها !
كانت معبودتك إلها قاسيا ساخرا ينشرح صدره للهزء بعابديه ، أتذكر يوم مثّلت برأسك وأنفك ؟، ما أشبهها بقانون الطبيعة فى قوته وقسوته ، كيف هرعت بعد ذلك متهللة إلى ليلة الدخلة كأى فتاة ؟!، أما أمك فشيمتها الحياء كأنما تشعر بذنبها !.
وكانا قد توغلا فى الطريق فاستدارا راجعين فى صمت كأنما قد تعبا من الحديث وشجونه ، وما لبث إسماعيل أن اندفع يغنى بصوت ردىء « يا ماشاء الله ع التحفجية » ، ولكن الآخر لم يخرج عن صمته فضلاً عن أنه لم يبد عليه أنه انتبه إلى غنائه ، ما أخجله !، أحدوثة كان ، وكأنه بأهل البيت والأصدقاء والخدم وهم يتغامزون من وراء ظهره وهو عنهم غافل ، معاملة فظة لا يستحقها ، فهل يكون هذا جزاء الحب والعبادة ؟!. ما أقسى المعبودة وما أفظع الألم !، لعل نيرون عندما غنى وروما تحترق كان ينتقم لحال كحاله هذه . كن قائدا غازيا يختال على متن جواد ، أو زعيما يحمل على الأعناق ، أو تمثالا من صلب فوق سارية ، أو ساحرا يتصور فى أى صورة شاء ، أو ملاكا يطير فوق السحاب ، أو راهبا منزويا فى صحراء ، أو

مجرما خطيرا يزلزل الآمنين ، أو مهرجا يأسر الضاحكين ، أو منتحرا يهز الرائين .
لو علم فؤاد الحمزاوى بقصته لقال له وهو يوارى سخريته تحت طلاء أدبه المعهود : الحق عليك ، فأنت الذى هجرتنا من أجل هؤلاء الناس ، احتقرت قمر ونرجس فذق هجر الآلهة . السماء أو لا شىء هذا هو جوابى . فلتتزوج كما تحب ، وتذهب إلى بروكسل أو باريس ، وليتقدم بها العمر حتى يذوى عودها الريان ، فلن تظفر بحب كحبى . لا تنس هذا الطريق ففوق أديمه سكرت بخلب الآمال ثم تجرعت غصص اليأس ، لم أعد من سكان هذا الكوكب ، غريب أنا وينبغى أن أحيا حياة الغرباء .

عندما مرا بسراى آل شداد فى طريق العودة وجدا العمال عاكفين على نزع الزينات وأسلاك المصابيح الكهربائية من فوق الجدران والأشجار ، فتجرد البيت الكبير من حلية الزفاف واشتمل بالظلام ، إلا حجرات ظل النور ينبعث من شرفاتها ونوافذها . انتهى الحفل وتفرق الجمع وأذن الحال بأن لكل شىء نهاية ، وها هو يعود حاملا علبة الحلوى كأنه طفل يلهى عن البكاء ببضع قطع من الشيكولاتة ، وواصلا السير على مهل حتى بلغا مطلع الحسينية ، فتصافحا ، وافترقا ..

لم يكد كمال يتقدم فى شارع الحسينية أمتارا حتى توقف ، ثم انقلب عائدا إلى العباسية التى بدت مقفرة مغرقة فى النوم ، وحث خطاه صوب سراى آل شداد ، وعندما شارف البيت مال يمنة إلى الصحراء التى تكتنفه وأوغل فيها حتى بلغ موضعا فيما وراء السور الخلفى للحديقة يطلع على السراى على بعد ، وكان الظلام كثيفا شاملا يطمئن الرقباء ستائره ، ولأول مرة فى ليلته شعر بالبرودة فى ذلك الخلاء العارى ، فحبك المعطف حول جسده النحيل الطويل .. تراءى له شبح البيت وراء سوره العالى كالقلعة الضخمة ، فجالت عيناه باحثة عن هدف غال حتى استقرتا على نافذة مغلقة يوصوص النور من خلال خصاصها فى أقصى الجناح الأيمن من الدور الثانى ، تلك غرفة العرس ، الغرفة الوحيدة اليقظى فى هذا الجانب من القصر ، كانت بالأمس حجرة نوم عايدة وبدور ، وازينت الليلة لشهود أعجب ما جرت به المقادير . تطلع إليها طويلا ، أول الأمر بلهفة كأنه طائر مقصوص الجناح يتطلع إلى عشه فوق الشجرة ، ثم بحزن عميق كأنما يرى بعينيه مصرعه فيما وراء الغيب ، ماذا يدور وراء هذه النافذة ؟.. لو يتاح له أن يتسلق هذه الشجرة فى

الحديقة ليرى !، إن البقية الباقية من عمره ثمن زهيد يؤديه عن طيب خاطر لقاء نظرة خلال هذه النافذة ، وهل قليل أن ترى المعبود فى خلوة زفافه ؟. كيف يقيمان وكيف تلتقى العينان ؟ وبأى حديث يتناجيان ؟ وفى أى مكان من الدنيا ينزوى الآن كبرياء عايدة ؟!، إنه يتحرق شغفا إلى الرؤية وإلى تسجيل كل كلمة تند أو حركة تصدر أو أمارة تنطق بها أسارير الوجه ، بل إلى خطرات النفس وتصورات الخيال ونفثات العاطفة وفورات الغرائز .. كل شىء ولو كان بشعا مرعبا أو محزنا مؤلما، ولتذهب الحياة بعد ذلك دون أسف ، ولبث بمكانه والوقت يمضى لا هو يبرح ولا النور ينطفىء ولا خياله يمل التساؤل . ماذا كان يفعل لو كان فى مكان حسن سليم ؟. ودوخته الحيرة دون الجواب ، إن العبادة لن تغنى عن هذه الليلة شيئا ، وخلا العبادة من مطالب النفس لم يتوجه إلى عايدة ، أما حسن سليم فمن طائفة لا تتقيد بالعبادة . هكذا يتعذب فى الصحراء وهنالك تتبادل قبل مما عهده الناس وتنهدات تتصبب عرقا وغيبوبة تنز دما وغلالة تنحسر عن جسد فان ، كهذا العالم الفانى وآماله الخاوية وأحلامه الطائشة ... فابك ما بدا لك على هوان الآلهة ، وليمتلىء قلبك بالمأساة ، ولكن أين يمضى الشعور الباهر الرائع الذى نور قلبه أربعة أعوام ؟، لم يكن وهما ولا صدى لوهم ، إنه حياة الحياة ، ولئن تسيطر الظروف على الجسد فأى قوة تستطيع أن تتطاول إلى الروح ، وهكذا لتبقين المعبودة معبودته ، والحب عذابه وملاذه ، والحيرة ملهاته ، حتى يقف أمام الخالق يوما يسائله عما حيّره من معضلات الأمور ، آه لو يطلع على ما وراء النافذة ، لو يكشف سر أسرار وجوده ؟.. وكان البرد يقرصه أحيانا فيذكره بموقفه وبالوقت الذى يمر سادرا ، ولكن فيم يتعجل العودة ؟.. أيطمع حقا أن يطرق النوم جفونه هذه الليلة ؟!

٣٢

وقف الحنطور أمام دكان أحمد عبد الجواد ، وقد لطخ عجلاته الوحل المتراكم فى شارع النحاسين والمياه المتجمعة فى فجواته ، فغادره السيد محمد عفت فى جبة صوفية ، ودخل الدكان وهو يقول باسما :

ـــ جئناك بحنطور ، وكان الأسلم أن نجيئك بقارب ..

وكانت الأمطار قد انهملت يوما ونصف يوم حتى سالت الأرض وغرقت الحوارى والأزقة ، ومع أن السماء أمسكت ـــ بعد ذلك ـــ إلا أن تجهمها لم ينكشف ، وظل وجهها متواريا وراء سحاب جون أظل الأرض بمظلة قاتمة بعثت فى الجو عكارة كأنها نذير ليل بهيم . واستقبل أحمد عبد الجواد صاحبه بترحاب ودعاه إلى الجلوس ، وما كاد محمد عفت يطمئن إلى مجلسه عند ركن المكتب حتى قال كأنما ليجلو سر مجيئه :

ـــ لا تعجب لمجيئى فى هذا الجو رغم أننا سنلتقى فى مجلسنا المعتاد بعد ساعات ، ولكنى اشتقت إلى الانفراد بك !

وضحك محمد عفت ، كأنما ليعتذر عن غرابة قوله ، فضحك السيد أيضا ، ولكنها كانت ضحكة إلى التساؤل أقرب . وذهب جميل الحمزاوى ـــ وكان ملتفعا بكوفية ضمت قمة رأسه وما تحت ذقنه ـــ إلى الباب ، فنادى صبى قهوة قلاوون ليحضر قهوة ، ثم عاد إلى كرسيه وقد أعفاه المطر والبرد من العمل ، أما السيد أحمد فقد حدَّثه قلبه بأن وراء الزيارة أمرا ، فقد وقعت فى وقت لا تدفع إليه إلا ضرورة ، إلى أن الأزمات النفسية التى عاناها الرجل منذ قريب وما انتابه من مرض أخيرا ، كل أولئك جعله عرضة للقلق على غير عادته ، غير أنه دارى قلقه بضحكة لطيفة ، ثم قال :

ـــ كنت قبيل حضورك أتذكر سهرة الأمس وأستعيد منظر الفار وهو يرقص !، الله يقطعه .

فقال محمد عفت باسما :

ـــ كلنا تلاميذك !، وبهذه المناسبة دعنى أنقل إليك ما يشيعه على عبد الرحيم

عنك ، إنه يقول إن الصداع الذى انتابك فى الأسابيع الماضية ما هو إلا عارض لخلو حياتك من النساء فى الأيام الأخيرة !..

ـــ لخلو حياتى من النساء !. وهل للصداع من سبب غير النساء ؟!

وجاء صبى القهوة بأقداح القهوة والماء على صينية صفراء ، فوضعها على ركن المكتب الذى يجلس حوله الصديقان ، ومضى ، وشرب محمد عفت شربة ماء ، ثم قال :

ـــ شرب الماء البارد فى الشتاء لذيذ ، ما رأيك فى هذا ؟. لكن فيم سؤالى وأنت من عشاق الشتاء الذين يستحمون كل صباح بالماء البارد حتى فى هذه الأيام من فبراير .. الآن خبِّرنى ، هل أعجبتك أنباء المؤتمر الوطنى الذى احتشد فى بيت محمد محمود ؟، عشنا وشفنا مرة أخرى سعد وعدلى وثروت فى جبهة واحدة !.

فتمتم السيد قائلا :

ـــ ربنا من حكمته أنه يقبل التوبة ..

ـــ إنى لا أثق فى هؤلاء الكلاب ..

ـــ ولا أنا ، ولكن ما العمل ؟. الملك فؤاد طيِّنها ، ومن المحزن أن المعركة لم تعد بيننا وبين الإنجليز .

ثم مضيا يحتسيان القهوة فى صمت إن دل على شىء فعلى أن الحديث العابر لم يعد له محل ، وأن على محمد عفت أن يدلى بما عنده . واعتدل الرجل فى جلسته ، وخاطب السيد بلهجة جدية متسائلا:

ـــ أعندك أخبار عن ياسين ؟

انعكس السؤال فى عينى السيد الواسعتين اهتماما مشوبا بقلق ، وفى الوقت ذاته خفق قلبه خفقة مروعة ، قال :

ـــ خير !. إنه يزورنى من حين لآخر ، وكانت زيارته الأخيرة يوم الاثنين الماضى فهل من جديد ؟. أمر يتعلق بمريم ؟. لقد رحلت إلى جهة مجهولة ، وعلمت أخيرا أن بيومى الشربتلى اشترى نصيبها فى بيت أمها .

قال محمد عفت وهو يتكلف ابتسامة :

ـــ الأمر لا يتعلق بمريم ، من يدرى لعلها غابت عن ذاكرته ، المسألة دون لف أو دوران زواج جديد .

فخفق قلبه مرة أخرى فيما يشبه الفزع وهو يقول :

ـــ زواج جديد ؟!. ولكنه لم يشر إلى ذلك بتاتا فى أحاديثه معى !

هز محمد عفت رأسه آسفا ، وقال :

ـــ لقد تزوج بالفعل من شهر أو أكثر ، حدثنى بذلك غنيم حميدو منذ ساعة فقط ، وكان يظن أنك تعلم كل شىء !

جعلت يسراه تعبث بشاربه بسرعة عصبية ، ثم قال وكأنه يخاطب نفسه :

ـــ لهذا الحد !. كيف أصدق هذا !. كيف أخفى عنى الأمر ؟!

ـــ الحال تقتضى الكتمان !، أصغ إلىّ ، لقد آثرت أن أكاشفك بالحقيقة قبل أن تفاجأ بها مفاجأة غير كريمة ، ولكن لا يصح أن نعيرها أكثر مما تستحق ، وينبغى قبل كل شىء ألا تستسلم للغضب ، لم يعد الغضب مما تحتمله ، اذكر تعبك الأخير وارحم نفسك .

قال السيد يائسا :

ـــ فى الأمر فضيحة !؟. هذا ما حدثنى به قلبى ، هات ما عندك يا سيد محمد ..

هز محمد عفت رأسه آسفا ، ثم قال بصوت منخفض :

ـــ كن دائما أحمد عبد الجواد الذى عهدناه ، لقد تزوج من زنوبة العوادة !.

ـــ زنوبة !..

وتبادلا نظرة ذات دلالة ، وسرعان ما بدا الارتباك فى وجه أحمد والإشفاق فى وجه صاحبه ، ثم لم تعد مسألة الزواج ذاتها بالأولى فى الأهمية ، فتساءل السيد أحمد بلهجة لاهثة :

ـــ ترى هل تعلم زنوبة بأنه ابنى ؟!

ـــ لا يداخلنى فى هذا شك ، غير أنى أكاد أوقن بأنها لم تطلعه على سرك لتتمكن من إيقاعه فى الشرك ، وقد نجحت نجاحا تستحق عليه كل تهنئة !.

ولكن أحمد عبد الجواد عاد يتساءل بنفس اللهجة اللاهثة :

ـــ أم تراه أخفى عنى الأمر لعلمه بما كان ؟

ـــ كلا ، لا أصدق هذا ، لو سبق هذا إلى علمه ما أقدم على الزواج منها ، إنه شاب طائش ما فى ذلك من ريب ، ولكنه ليس نذلا ، وإذا كان قد أخفى عنك

الأمر ، فما ذلك إلا لأنه لم يجد الشجاعة ليصارحك بأنه تزوج من عوادة ! يا ويل الآباء من الأبناء الطائشين ، الحق أنني تألمت كثيرا ، ولكنني أكرر الرجاء بألا تستسلم للغضب ، ذنبه على جنبه ، وأنت بريء من فعلته ولا لوم عليك .

تنهد أحمد عبد الجواد بصوت مسموع ، ثم سأل صاحبه :

ــ خبرني كيف علق غنيم حميدو على الخبر ؟

فلوّح محمد عفت بيده مستهينا ، وقال :

ــ سألني : كيف يرضى السيد أحمد عن هذا ؟ فقلت له : إن الرجل لا يعلم شيئا. فتأسف وقال لى : انظر إلى المدى البعيد بين الأب وابنه !. كان الله فى عونه .

قال أحمد بلهجة رائية :

ــ أهذه عاقبة تربيتى لهم ؟. إنى فى حيرة شديدة يا سيد محمد ، المصيبة أننا نفتقد السيطرة الفعلية عليهم فى الوقت الذى تستوجب مصلحتهم الحقيقية سيطرتنا ، إنهم بحكم العمر يتحملون مسئولية أنفسهم ، ولكنهم يسيئون استعمالها دون أن نستطيع تقويم ما يعوج منهم ، نحن رجال ولكننا لم نلد رجالا ، من أين جاء العيب يا ترى ؟، هذا الثور !. امرأة فى متناول كل يد فماذا دعاه إلى الزواج منها ؟!، فلنبك على أنفسنا ، لا حول ولا قوة إلا بالله .

وضع محمد عفت يده على منكب صاحبه بحنو ، وقال :

ــ لقد أدينا ما علينا من واجب ، الأمر بعد ذلك لصاحب الأمر ، وهيهات أن يراك أحد مستحقا للوم .

عند ذاك جاء صوت الحمزاوى الأسيف وهو يقول :

ــ لا يستطيع منصف أن يلومك على أمر كهذا يا سى السيد ، على أنه يخيل إلى أن الأمل فى الإصلاح لم ينعدم ، انصحه يا سى السيد ..

ــ إنه يبدو بين يديك طفلا مطيعا ، وهو سيطلقها حتما غدا أو بعد غد فخير البر عاجله ..

فتساءل السيد متشكيا :

ــ وإن كانت قد حبلت ؟

فجاء صوت الحمزاوى وهو يقول جزعا :

ــ لا قدر الله ولا سمح ..

وبدا أن عند محمد عفت مزيدا من القول ، فنظر إلى صاحبه بإشفاق ، ثم قال :

ــ ومن المؤسف حقا أنه باع دكانه بالحمزاوى ليؤثث بيته من جديد !

حملق أحمد فى وجهه ، ثم قطب منفعلا ، وهتف حانقا :

ــ كأنى غير موجود فى هذه الدنيا !.. حتى فى هذا لا يشاورنى !..

ثم وهو يضرب كفا بكف :

ــ ضحكوا عليه بلا ريب ، وجدوا فى طريقهم لقية ، بغلا بلا سائس فى ثياب أفندى ..

فقال محمد عفت متأثرا :

ــ تصرفات أطفال !.. نسى أباه ونسى ابنه !. ولكن ما الفائدة من الغضب ؟!.

صاح أحمد عبد الجواد :

ــ يخيل إلىّ أنه ينبغى أن آخذه بالحزم مهما تكن العواقب ..

مد محمد عفت ذراعيه كأنما يدفع رزية ، وقال بتوسل :

ــ إن كبر ابنك آخه ، لا تخطىء وأنت سيد العارفين ، ليس عليك إلا النصيحة وليقض الله بما هو قاض ..

وخفض محمد عفت عينيه متفكرا ، وبدا لحظات كالمتردد ، ثم قال :

ــ ثمة أمر يهمنى كما يهمك ألا وهو رضوان !

وتبادل الرجلان نظرة طويلة ، ثم استطرد محمد عفت قائلا :

ــ سيبلغ الغلام السابعة من عمره بعد أشهر ، وأخاف أن يطالب به فينشأ بين أحضان زنوبة ، هذا شر يجب دفعه ، ولا إخالك توافق عليه ، فأقنعه بأن يترك الغلام عندنا حتى يقضى الله أمرا ..

لم يكن من طبع أحمد عبد الجواد أن يرحب بأن يبقى ابن ابنه عند آل أمه بعد انقضاء فترة الحضانة الشرعية ، ولكنه من ناحية أخرى لم يشأ أن يقترح ضمه إلى بيته هو حتى لا يضيف إلى أعباء أمينة عبئا جديدا لم تعد بحكم سنها أهلا لحمله ، فقال فى استسلام أسيف :

ــ لا يصح أن يتربى رضوان فى بيت زنوبة هذا ما أقرك عليه ..

فقال محمد عفت وهو يتنهد بارتياح :

ـــ إن جدَّته تحبه من كل قلبها ، وحتى لو دعت ظروف قهرية فى المستقبل إلى أن ينتقل إلى بيت أمه فسوف يجد هناك جوًّا صالحا ، إذ أن زوج أمه رجل فى الأربعين أو جاوزها ، وقد حرمه الله من نعمة الذرية ..

فقال أحمد عبد الجواد برجاء :

ـــ لكنى أفضل أن يبقى عندك ..

ـــ طبعا .. طبعا ، إنى تكلمت عن احتمالات بعيدة أسأل الله ألا نضطر إليها ، الآن لم يبق لى إلا أن أرجوك أن تترفق فى مخاطبته ومحاسبته حتى يتيسر إقناعه بترك رضوان لى ..

وهنا جاء صوت الحمزاوى المسالم وهو يقول :

ـــ السيد أحمد سيد الحكماء ، وهل يغيب عنه أن ياسين رجل ؟ وأنه مثل كافة الرجال حر التصرف فى شئونه وأملاكه ؟. هذا ما لا يمكن أن يغيب عن السيد ، وما عليه إلا النصيحة ، والباقى على الله ..

استسلم أحمد عبد الجواد بقية النهار إلى التفكير والحزن . قال لنفسه : إن ياسين فى كلمة ابن مخيب للآمال ، وليس أفجع من ابن مخيب للآمال ، إن مآله بيِّن ويا للأسف !، ولن يحتاج إلى قوة بصيرة كى يتصوره ، أجل سوف ينحدر من سيىء إلى أسوأ وعند الله اللطف . وقد رجاه جميل الحمزاوى أن يؤجل مخاطبة ياسين إلى الغد ، فانصاع لرجائه يائسا أكثر منه قادرا لوجاهة النصح .

وعند عصر اليوم التالى استدعاه إلى مقابلته ، فلبَّى ياسين مبادرا كما ينبغى للابن المطيع . والحق أن ياسين لم يقطع ما بينه وبين أهله من أسباب . كان البيت القديم المكان الوحيد الذى لم يجد الشجاعة للعودة إليه على شدة حنينه إليه ، وما من مرة كان يلتقى فيها بأبيه أو خديجة أو عائشة إلا ويحملهم السلام إلى امرأة أبيه . أجل لم ينس قلبه غضبها عليه ولم تمح من صفحته آثار ما سمَّاه تعنُّتها معه ، بيد أنه أبى أن ينسى كذلك العهد القديم ، عهد لم يكن يعرف أمًّا إلاها . ولم ينقطع عن زيارة أختيه ، كما كان يقابل كمال أحيانا فى قهوة أحمد عبده أو يدعوه إلى بيته حيث عرف الشاب مريم أولا ثم زنوبة أخيرا . أما أبوه فكان يزوره فى دكانه مرة على الأقل كل أسبوع ، وهنا أتيح لياسين أن يعرف شخصية أبيه الثانية التى يأسر الناس بها ، فنشأت بين الرجلين صداقة وطيدة ومودة وثيقة ، غذَّتها صلة الرحم من ناحية

بفرحة اكتشاف الأب على حقيقته من ناحية أخرى . غير أن ياسين وهو يتفرس فى وجه أبيه ذلك اليوم لمح فيه ما ذكره بالوجه القديم الذى طالما بعث فى أطرافه الرعب ، ولم يتساءل عما طرأ عليه ، لأنه كان واثقا من أنه سيقف على سرّه عاجلا أو آجلا ، فلم يشك فى أنه ملاق العاصفة التى توقع هبوبها منذ أقدم على فعلته . بادره الرجل قائلا :

ـــ يحزننى أن أجد نفسى بهذا الهوان ، وماذا وراء أن أعرف أنباء ابنى من الآخرين ؟

فطامن ياسين رأسه ولم ينبس ، فثار الرجل على طلاء المسكنة الكاذب الذى يطالعه به ، وصاح :

ـــ اخلع هذا القناع ، دعك من النفاق وأسمعنى صوتك ، طبعا أنت تعلم ما أعنيه !

فقال ياسين بصوت لم يكد يسمع :

ـــ لم أجد الشجاعة لإخبارك ..

ـــ هذا شأن من يتستر على ذنب أو فضيحة !

حذرته غريزته من أن يلجأ إلى أى نوع من أنواع المعارضة ، فقال باستسلام :

ـــ نعم ..

فسأله السيد ذاهلا :

ـــ إذا كان هذا هو رأيك حقا ، فلم فعلتها ؟!

لاذ ياسين بالصمت مرة أخرى ، فخيل إلى الأب أنه يقول له بصمته « عرفت أنها فضيحة ولكنى أذعنت للحب ! » ، وذكره هذا بموقفه المخزى أمام المرأة ذاتها ، يا للعار !، غسلت خزيك بغضبة كبرى ، ولكنك عدت تسعى إليها !، أما هذا الثور فما أضيعه !.

ـــ فضيحة ارتضيتها أنت دون تقدير للعواقب لنتعذب بها نحن جميعا !.

هتف بسذاجة قائلا :

ـــ أنتم جميعا ؟! معاذ الله ..

عاود السيد الغضب ، فصاح به :

ـــ لا تتصنع الجهل ، لا تدَّع البراءة ، أنت تعلم أنك فى سبيل شهواتك لا

تبالى ما يصيب سمعة أبيك وإخوتك ، أقحمت على الأسرة عوّادة لتكون هى ومن بعدها ذريتها منّا ، لا إخالك كنت تجهل هذا قبل أن أذكره ، ولكنك تستهين بكل شىء فى سبيل شهوتك ، هانت كرامة الأسرة على يديك ، وأنت نفسك تنهار حجرا بعد حجر ، وسوف تجد نفسك فى النهاية خرابا ..

غض البصر لائذا بالصمت حتى نطقت حاله بالذنب والتسليم ، لن تكلفك هذه الفضيحة إلا قدرا من التمثيل كما أرى ، حسبك هذا ، أما أنا فسأرزق غدا بحفيد أمه زنوبة وخالته زبيدة ، مصاهرة طريفة بين السيد أحمد التاجر المعروف وزبيدة العالمة الذائعة الصيت ، لعلنا نكفّر عن ذنوب لا ندريها !

ـــ إن بدنى يقشعر كلما فكرت فى مستقبلك ، قلت لك إنك تنهار وسوف تنهار أكثر وأكثر ، خبرنى ماذا فعلت بدكان الحمزاوى ؟

رفع إليه عينين كئيبتين ، وتردد مرات ، ثم قال :

ـــ كنت فى حاجة ماسة إلى المال ..

ثم وهو يخفض عينيه :

ـــ لو كانت الظروف غير الظروف لاقترضت ما أحتاجه من حضرتك ولكن الأمر كان محرجا ..

السيد حانقا :

ـــ يا لك من مراء !. ألا تخجل من نفسك ؟، أراهن على أنك لم تجد فى كل ما فعلته أى غرابة أو إنكار ، أنا عارفك وفاهمك فلا تحاول أن تخدعنى ، ليس عندى إلا كلمة واحدة وإن كنت أعلم مقدما ألا طائل تحتها : أنت تخرب نفسك بنفسك ونهايتك سوداء ..

عاد ياسين إلى صمته متظاهراً بالأسى . الثور !. هى جذابة شيطانة ولكن ماذا اضطرك بالزواج منها ؟. كنت أظن أنها طالبتنى بالزواج طمعا فى تقدم عمرى ، لكنها أوقعت هذا الثور على شبابه . ووجد عند ذاك شيئا من الارتياح والعزاء . كانت خطتها المدبرة أن تتزوج بأى ثمن إلا أنها آثرت غيرى علىّ ، فوقع هذا الأحمق :

ـــ طلّقها ؟. طلّقها قبل أن تصير أما وتفضحنا إلى أبد الآبدين !..

تردد ياسين مليا ، ثم تمتم :

ـــ حرام عليَّ أن أطلِّقها بلا ذنب !.

يابن الكلب !.. أتحفتني بنكتة بارعة لسهرة الليلة !..

ـــ سوف تطلقها عاجلا أو آجلا ، ولكن قبل أن تنجب لك طفلا يكون مشكلتك ومشكلتنا ..

تنهد بصوت مسموع مستغنيا بذلك عن الكلام ، على حين راح الأب يتفحصه فيما يشبه الحيرة ، فهمى مات ، كمال أبله أو مجنون ، وهذا ياسين لا أمل فيه . المحزن أنه أعز الجميع لدى . دع الأمر لله ، رباه !، ماذا يكون الحال لو زلّت قدمى إلى الزواج ..

ـــ بكم بعت الدكان ؟

ـــ مائتى جنيه ..

ـــ تستحق ثلاثمائة ، موقعها ممتاز جدا يا جاهل ، لمن بعتها ؟

ـــ على طولون ، بائع الخردوات .

ـــ مبارك مبارك ، هل ضاع المبلغ فى الجهاز الجديد ؟

ـــ لدىَّ منه مائة ..

بلهجة ساخرة :

ـــ أحسنت ، فالعريس لا يستغنى عن النقود ..

ثم بلهجة جادة حزينة :

ـــ يا ياسين اسمع كلامى ، أنا أبوك ، احترس وغير سيرتك ، أنت نفسك أب ، ألا تفكر فى ابنك ومستقبله ؟!

فقال مدافعا متحمسا :

ـــ إن نفقته الشهرية تصله على آخر مليم !.

ـــ أهى مسألة تجارية ؟، إنى أتكلم عن مستقبله ، بل عن مستقبل الآخرين الذين ينتظرون فى عالم الغيب !

فقال ياسين باطمئنان :

ـــ ربنا يخلق ويرزق ..

هتف الرجل باستياء :

ـــ ربنا يخلق ويرزق وحضرتك تبدد !. قل لى ..

واعتدل فى جلسته ، ثم تساءل وهو يركز فيه عينيه القويتين :
ــ رضوان على عتبة السابعة ، فماذا أنت صانع به ؟، أتأخذه لينشأ فى أحضان حرمكم ؟.
لاح فى الوجه الممتلىء الارتباك ، ثم تساءل بدوره :
ــ ماذا أفعل إذن ؟. لم أعمل فى الأمر فكرى ..
هز الرجل رأسه فى أسى ساخر ، وقال :
ــ دفع الله عنك شر الفكر !. وهل لديك وقت لتبذره فيه ؟! دعنى أفكر عنك ، دعنى أقول إن رضوان يجب أن يبقى فى حضانة جده ..
فكر قليلا ، ثم خفض رأسه بالإيجاب قائلا بانصياع :
ــ الرأى رأيك يا أبى ، هذا فى صالحه ولا شك ..
قال الأب متهكما :
ــ يبدو لى أنه فى صالحك أيضا كيلا تشغل نفسك بأمور تافهة !.
ابتسم دون تعليق ، كأنما يقول له « إنى واثق من أنك تمزح ولا بأس من ذلك » .
ــ ظننت أنه سيشق علىَّ إقناعك بالتخلى عنه !
ــ إن ثقتى فى رأيك هى التى جعلتنى أبادر إلى الموافقة !
فتساءل السيد بدهشة ساخرة :
ــ أتثق حقا فى رأيى ؟. لم لم تعمل به فى الأمور الأخرى ؟!
ثم وهو يتنهد آسفا :
ــ القصد !. ربنا يهديك ، وذنبك على جنبك ، سأحدث محمد عفت الليلة فى شأن الاحتفاظ برضوان ، على أن تقوم بكل نفقاته فعسى أن يوافق ..
عند ذاك نهض ياسين وسلم على أبيه واتجه نحو باب الدكان ، وما إن خطا خطوتين حتى أدركه صوت أبيه وهو يسأله :
ــ ألا تحب ابنك ككل الآباء ؟
فتوقف ياسين متلفتا نحوه ، وهو يقول بإنكار :
ــ وهل يحتاج هذا إلى قرار يا أبى !. إنه أعز شىء فى الحياة ..
فرفع السيد حاجبيه ، وقال وهو يهز رأسه هزة غامضة :
ــ مع السلامة ..

قبل الخروج إلى صلاة الجمعة بساعة ، دعا أحمد عبد الجواد كمال إلى حجرته ، لم يكن يدعو أحدا من أهل بيته إلى مقابلته إلا لأمر هام ، والحق أنه كان مبلبل الفكر ، متحفزا لاستجواب ابنه عما يشغله . وكان بعض أصحابه قد وجهوا نظره مساء أمس إلى مقال ظهر فى البلاغ الأسبوعى بقلم الأديب الناشىء « كمال أحمد عبد الجواد » ، ومع أن أحدا منهم لم يقرأ من المقال إلا العنوان وهو « أصل الإنسان » والإمضاء وهو الأديب الناشىء « كمال أحمد عبد الجواد » فإنهم اتخذوا منه مادة للتعليق والتهنئة وممازحة السيد ، حتى فكر الرجل جادا فى أن يكلف الشيخ متولى عبد الصمد بعمل حجاب للشاب . قال له محمد عفت « سجل اسم ابنك مع أسماء كبار الكتاب فى مجلة واحدة، طب نفسا وادع الله أن يكتب له مستقبلا باهرا كما كتب لهم » ، وقال له على عبد الرحيم « سمعت من شخص محترم أن المرحوم المنفلوطى ابتاع عزبة بقلمه فأبشر خيرا » ، وحدثه آخرون عن القلم وكيف شق السبيل لكثيرين إلى حظوة الحكام والزعماء ، ضاربين الأمثال بشوقى وحافظ والمنفلوطى ، وعندما جاء دور إبراهيم الفار داعبه قائلا « سبحان الذى خلق من ظهر الجاهل عالما » ، أما السيد فقد ألقى نظرة على العنوان ونظرة على « الأديب الناشىء » ، ثم وضع المجلة فوق جبته التى كان قد نزعها بسبب حرارة يونية وحميا الويسكى مؤجلا قراءتها حتى ينفرد بنفسه فى البيت أو فى الدكان ، ثم واصل سهرته بصدر منشرح وضمير تياه فخور ، بل جعل يراجع نفسه لأول مرة فى سخطه المكظوم على إيثار الشاب لمدرسة المعلمين قائلا إن « الولد » فيما يبدو سيكون « شيئا » رغم اختياره غير الموفق ، وبنى أحلاما على ما قيل عن « القلم » وحظوة الكبراء وعزبة المنفلوطى ، أجل ، من يدرى ؟، لعله لا يكون معلما فحسب ولكن يشق السبيل حقا إلى حياة لم تخطر له هو على بال . وعند ضحى اليوم ، وعند فراغه من الصلاة والإفطار ، تربع على الكنبة وفتح المجلة باهتمام وراح يقرأ بصوت مرتفع ليمتلىء بمعانيها ، لكن ماذا وجد فيها ؟، إنه يقرأ المقالات السياسية فيفهمها دون عناء ، أما هذه المقالة فإنها دارت برأسه وأفزعت قلبه ، وأعاد تلاوتها بعناية

فطالع كلاما عن عالم يدعى « دارون » ومجهوده فى جزر نائية ، ومقارنات ثقيلة بين شتى الحيوانات حتى وقف مبهوتا عند تقرير غريب يزعم أن الإنسان سلالة حيوانية !، بل أنه متطور عن نوع من القردة !. وكرر تلاوة الفقرة الخطيرة منزعجا ، ثم لبث ذاهلا أمام هذه الحقيقة الأسيفة وهى أن ابنا من صلبه يقرر ــ دون اعتراض أو مناقشة ــ أن الإنسان سلالة حيوانية !. انزعج الرجل انزعاجا شديدا وتساءل فى حيرة : هل حقا يعلمون الأولاد هذه المعلومات الخطيرة فى مدارس الحكومة ؟، ثم أرسل فى طلب كمال :

وجاء كمال وهو أبعد ما يكون عما يعتلج فى رأس أبيه ، وكان قد استدعاه قبل ذلك بأيام ليهنئه على النقل إلى السنة الثالثة فظن بالدعوة الجديدة خيرا . وبدا شاحب الوجه ضامر الجسم كعهده فى الفترة الأخيرة فى حال عللتها الأسرة بالجهد الشديد الذى بذله قبيل الامتحان ، ولكن غاب عنها سرها الحقيقى وهو ما عاناه طيلة الأشهر الخمسة الماضية من ألم وعذاب أسيرا لعاطفة مستبدة جهنمية كادت تودى به ، وأشار السيد إليه بالجلوس ، فجلس على طرف الكنبة متجها نحو أبيه بأدب ، وعند ذاك لمح أمه جالسة أمام الصوان مشغولة بترتيب الثياب وخيطها ، أما الرجل فقد رمى بالبلاغ الأسبوعى إلى الفراغ الذى يفصل بينهما على الكنبة وقال بهدوء مصطنع :

ــ لك مقال فى هذه المجلة ، أليس كذلك ؟

خطف غلاف المجلة عينى كمال فرنا إليه بعين ذاهلة دلت على أنه لم يكن يتوقع هذه المفاجأة قط .. من أين لأبيه هذا الاطلاع المستجد على المجلات الأدبية ؟!. لقد سبق أن نشر فى الصباح « تأملات » بين النثر والشعر المنثور ضمنها نظرات فلسفية بريئة وأنات عاطفية ، وهو آمن كل الأمن من ناحية اطلاع أبيه عليها ، فلم يدر بها أحد من أسرته إلا ياسين الذى كان هو نفسه يقرأها عليه فينصت الآخر ، ثم يقول له معلقا « هذا ثمرة توجيهى الأول لك ، أنا الذى علمتك الشعر والقصص ، جميل يا أستاذ ، ولكن هذه فلسفة عميقة جدا فمن أين جئت بها ؟ » أو يقول مداعبا « من الحسناء التى ألهمتك هذه الشكوى الرقيقة ؟، ستعلم يا أستاذ يوما أنهن لا يجدى معهن إلا ضرب المراكيب » ، ولكن ها هو يطلع على أخطر ما كتب ، تلك المقالة التى شب التفكير فيها معركة جهنمية فى صدره وعقله

كاد يحترق فى أتونها ، فكيف حدث هذا ؟. وهل يجد له من تفسير إلاعند أصدقاء أبيه الوفديين الذين يحرصون على اقتناء كافة الجرائد والمجلات الوفدية ؟ ، وهل يطمع فى أن يخرج سالما من هذا المأزق ؟، رفع عينيه عن المجلة ، ثم قال بلهجة لم يمكنها من الإفصاح عن اضطرابه :

ـــ بلى ، خطر لى أن أكتب موضوعا تثبيتا لمعلوماتى وتشجيعا لنفسى على مواصلة الدرس ..

قال السيد أحمد بهدوئه المصطنع :

ـــ لا عيب فى ذلك ، الكتابة فى الصحف كانت ولم تزل الوسيلة الى الجاه والحظوة عند الكبراء ، ولكن المهم الموضوع الذى يكتب فيه الكاتب ، ماذا أردت بهذه المقالة ؟، اقرأها واشرحها لى ، فقد غمض علىَّ مرماك ..

يا للتعاسة !، ليس هذا المقال للجهر ، وخاصة على مسمع من أبيه !

ـــ إنه مقال طويل يا بابا ، ألم تقرأه حضرتك ؟، إنى أشرح فيه نظرية علمية ..

حدجه الرجل بنظرة براقة متحفزة ، أهذا ما يدعونه بالعلم الآن ؟. ألا لعنة الله على العلم والعلماء ..

ـــ ماذا تقول فى هذه النظرية ؟، لقد لفتت نظرى عبارات غريبة تقول إن الإنسان سلالة حيوانية ، أو شيئا من هذا القبيل ، أحق هذا ؟

بالأمس ناضل نفسه وعقيدته وربه نضالا عنيفا أعيا روحه وجسده ، واليوم عليه أن يناضل أباه ، غير أنه كان فى الجولة الأولى معذبا محموما .. أما فى هذه الجولة فهو خائف مرتعب ، إن الله قد يؤجل عقابه ، أما أبوه فشيمته التعجيل بالعقاب ..

ـــ هذا ما تقرره هذه النظرية !

علا صوت السيد وهو يتساءل فى انزعاج :

ـــ وآدم أبو البشر الذى خلقه الله من طين ونفخ فيه من روحه ، ماذا تقول عنه هذه النظرية العلمية ؟!

طالما طرح هذا السؤال على نفسه ، لم يكن دون أبيه انزعاجا ، ولم يغمض له عين ليلتها حتى الصباح ، وتقلب فى الفراش متسائلا عن آدم والخالق والقرآن ، وقال لنفسه مرة وعشرا : القرآن إما أن يكون حقا كله أو لا يكون قرآنا ، إنك تحمل علىَّ لأنك لم تدر بعذابى ، لو لم أكن قد اعتدت العذاب وألفته لأدركنى الموت تلك

الليلة . قال بصوت خافت :
ـــ دارون صاحب هذه النظرية لم يتكلم عن « سيدنا » آدم ..
هتف الرجل غاضبا :
ـــ لقد كفر دارون ووقع فى حبائل الشيطان ، إذا كان أصل الإنسان قردا أو أى حيوان آخر ، فلم يكن ادم أبا للبشر .. هذا هو الكفر عينه ، هذا هو الاجتراء الوقح على مقام الله وجلاله !! إنى أعرف أقباطا ويهودا فى الصاغة وكلهم يؤمنون بآدم ، كل الأديان تؤمن بآدم فمن أى ملة دارون هذا ؟!، إنه كافر وكلامه كفر ، ونقل كلامه استهتار ، خبرنى أهو من أساتذتك فى المدرسة ؟
ما أدعى هذا إلى الضحك لو كان فى القلب فراغ للضحك ، لكنه قلب أفعمته الآلام ، ألم الحب الخائب ، وألم الشك وألم العقيدة المحتضرة ، إن الموقف الرهيب بين الدين والعلم أحرقك ، ولكن كيف يسع عاقل أن يتنكر للعلم ، قال بصوت متواضع :
ـــ دارون عالم إنجليزى مات منذ زمن بعيد ..
وهنا ند عن الأم صوت يقول بتهدج :
ـــ لعنة الله على الإنجليز أجمعين ..
فالتفتا نحوها التفاتة قصيرة ، فوجداها قد تركت الثياب والإبرة وتابعت الحديث ، ولكن سرعان ما انصرفا عنها وعاد الأب يقول :
ـــ خبرنى ، هل تدرسون هذه النظرية فى المدرسة ؟
التقف حبل النجاة الذى تدلى إليه فجأة ، فقال لائذا بالكذب :
ـــ نعم ..
ـــ أمر غريب !، وهل تدرس هذه النظرية فيما بعد لتلاميذك ؟!
ـــ كلا ، سأكون مدرس آداب لا علاقة لها بالنظريات العلمية ..
ضرب السيد كفا بكف ، ود فى تلك اللحظة لو كان له على العلم بعض ما له على الأسرة من سلطان ، وهتف محنقا :
ـــ إذن لماذا يدرسونها لكم ؟!، هل الغاية إدخال الكفر فى قلوبكم ؟
فقال كمال بلهجة المحتج :
ـــ معاذ الله أن يؤثر فى عقيدتنا مؤثر ..

فتفحصه بارتياب وهو يقول :
ـــ ولكنك نشرت الكفر بمقالك !
فقال بارتياب :
ـــ أستغفر الله ، إنى أشرح النظرية ليلم بها القارىء لا ليؤمن بها ، هيهات أن يؤثر فى قلب المؤمن رأى كافر ..
ـــ ألم تجد موضوعا غير هذه النظرية المجرمة لتكتب فيه ؟
لماذا كتب مقالته ؟، لقد تردد طويلا قبل أن يرسلها إلى المجلة ، ولكنه كان كأنما يود أن ينعى إلى الناس عقيدته . لقد ثبتت عقيدته طوال العامين الماضيين أمام عواصف الشك التى أرسلها المعرى والخيام ، حتى هوت عليها قبضة العلم الحديدية فكانت القاضية ، على أننى لست كافرا ، لا زلت أومن بالله ، أما الدين..؟ أين الدين ؟، ذهب !، كما ذهب رأس الحسين ، وكما ذهبت عايدة ، وكما ذهبت ثقتى بنفسى !. ثم قال بصوت حزين :
ـــ لعلى أخطأت ، عذرى أننى كنت أدرس هذه النظرية ..
ـــ ليس هذا بعذر ، وعليك أن تصلح خطأك ..
يا له من رجل طيب !، إنه يطمع فى أن يحمله على مهاجمة العلم فى سبيل الدفاع عن أسطورة . حقا لقد تعذب كثيرا ولكنه لن يقبل أن يفتح قلبه من جديد للأساطير والخرافات التى طهره منها ، كفى عذابا وخداعا ، لن تعبث بى الأوهام بعد اليوم ، النور النور ، أبونا آدم !، لا أب لى ، ليكن أبى قردا إن شاءت الحقيقة ، إنه خير من آدميين لا عدد لهم ، لو كنت من سلالة نبى حقا ما سخرت منى سخريتها القاتلة !..
ـــ وكيف أصلح الخطأ ؟
فقال السيد ببساطة وحدة معا :
ـــ عندك حقيقة لا شك فيها ، وهى أن الله خلق آدم من تراب ، وأن آدم هو أبو البشر ، هذا مذكور فى القرآن ، فما عليك إلا أن تبين أوجه الخطأ وهو عليك هيِّن ، وإلا فما فائدة ثقافتك ؟
وهنا جاء صوت الأم قائلا :
ـــ ما أيسر أن تبين خطأ من يعارض قول الرحمن ، قل لهذا الإنجليزى الكافر :

إن الله يقول فى كتابه العزيز : إن آدم هو أبو البشر ، كان جدك من حملة كتاب الله فعليك أن تنتهج سبيله ، لقد سرنى أنك تبغى أن تكون مثله من العلماء ..

لاح الضيق فى وجه السيد ، فانتهرها قائلا :

ـــ ماذا تفهمين أنت من كتاب الله أو من العلم ؟، دعينا من جده وانتبهى إلى ما بين يديك ..

فقالت فى حياء :

ـــ أريد يا سيدى أن يكون كجده من العلماء الذين يضيئون الدنيا بنور الله ..

فصاح الرجل ساخطا :

ـــ ها هو قد بدأ ينشر الظلام ..

فقالت المرأة بإشفاق :

ـــ معاذ الله يا سيدى ، لعلك لم تفهم ..

حدجها السيد بنظرة قاسية . لقد خفف من شدته فى معاملتهم فماذا كانت النتيجة ؟، ها هو كمال يذيع أن أصل الإنسان قرد ، وها هى أمه تناقشه وتقول له لم تفهم ؟ صاح بها :

ـــ دعينى أتكلم ، لا تقاطعينى ، لا تتدخلى فيما لا تفهمين ، انتبهى إلى عملك ، الله يقطعك ..

ثم ملتفتا إلى كمال بوجه متجهم :

ـــ خبرنى ، هل أنت فاعل ما قلت لك ؟

عليك رقيب فى البيت لم يبتل الأحرار بمثله فى الدول ، لكنك كما تخافه تحبه ، فلن يطاوعك قلبك على الإساءة إليه . تجرع الألم فقد اخترت حياة النضال ..

ـــ كيف يمكن أن أرد على هذه النظرية ؟، لو انحصرت مناقشتى فى الاستشهاد بالقرآن لما جاءت بجديد ، فالكل يعلم بما عندى ويؤمن به ، أما مناقشتها علميا فشأن المختصين من العلماء ..

ـــ ولماذا تكتب فيما لا شأن لك به ؟

اعتراض وجيه فى ذاته ، غير أنه من المؤسف أنه لا يجد الشجاعة للاعتراف لأبيه بأنه آمن بالنظرية بصفتها حقيقة علمية ، وأنها بهذه الصفة يمكن الاعتماد عليها فى إنشاء فلسفة عامة للوجود خارج نطاق العلم ، أما السيد فقد ظن صمته إقرارا

بالخطأ فتضاعف أسفه وحنقه . إن الضلال فى هذا الميدان شديد الخطورة سيىء العاقبة ، وهو ميدان لا سلطان له عليه ، وربما وجد فيه نفسه مكتوف اليدين أمام الشاب الضال كما وجد نفسه من قبل أمام ياسين بعد انفلاته من وصايته ، فهل يجرى عليه ما جرى على الآباء الآخرين فى هذه الأيام الغريبة ؟!. إن أنباء كالأساطير تترامى إليه عن شباب « اليوم » ، منهم تلاميذ قد اعتادوا التدخين ، وآخرون يعبثون بكرامات المدرسين ، وغير هؤلاء وأولئك قد تمردوا على آبائهم . أجل لم تهن هيبته ، ولكن عم أسفر ذلك التاريخ الطويل من الحزم والصرامة ؟، ها هو ياسين يتدهور ويضمحل ، وها هو كمال يناقش ويجادل ويحاول التملص من قبضته :

ـــ أصغ إلى بكل وعيك ، لا أريد أن أقسو عليك فإنك مؤدب ومطيع ، أما عن موضوعنا فلا أملك لك إلا النصيحة ، وينبغي أن تذكر أنه ما من أحد قد خالف نصيحتى وسلم ..

ثم بعد صمت قصير :

ـــ إليك ياسين شاهدا عما أقول ، وقد نصحت قديما « المرحوم » بألا يلقى بنفسه إلى التهلكة ، ولو امتد به العمر لكان رجلا نابها .

وهنا قالت الأم بصوت كالأنين :

ـــ قتلوه الإنجليز ، إنهم إما يقتلون وإما يكفرون !

وواصل السيد حديثه قائلا :

ـــ إذا وجدت فى دروسك ما يخالف الدين ، واضطررت إلى حفظه كى تنجح فى الامتحان ، فلا تؤمن به ، ومن باب أولى لا تنشره فى الصحف وإلا حملت وزره ، ليكن موقفك من علم الإنجليز كموقفنا من احتلالهم ، وهو بعدم الإقرار بشرعيته ولو فرض علينا بالقوة الجبرية ..

تدخل الصوت الرقيق الحيى مرة أخرى قائلا :

ـــ ولتكرس حياتك بعد ذلك لفضح أكاذيب هذا العلم ونشر نور الله ..

فصاح بها السيد :

ـــ قلت ما فيه الكفاية دون حاجة إلى آرائك !

فعادت إلى ما بين يديها ، وجعل السيد يحدق فيها متوعدا حتى اطمأن إلى صمتها ، فالتفت إلى كمال متسائلا :

ـــ مفهوم ؟

فقال كمال بلهجة موحية بالثقة :

ـــ بكل تأكيد :

إذا أراد أن يكتب بعد اليوم فعليه بالسياسة الأسبوعية حيث لا تمتد يد أبيه الوفدى ، أما عن أمه فقد وعدها فى سره بأن يكرس حياته لنشر نور الله ، أليس هو نور الحقيقة ؟، بلى ، وسيكون فى تحرره من الدين أقرب إلى الله مما كان فى إيمانه به ، فما الدين الحقيقى إلا العلم ، هو مفتاح أسرار الكون وجلاله ، ولو بعث الأنبياء اليوم ما اختاروا سوى العلم رسالة لهم ، هكذا يستيقظ من حلم الأساطير ليواجه الحقيقة المجردة ، مخلفا وراءه تلك العاصفة ـــ التى صارع فيها الجهل حتى صرعه ـــ حدًّا فاصلا بين ماض خرافى وغد نورانى ، بذلك تتفتح له السبل المؤدية إلى الله ، سبل العلم والخير والجمال ، وبذلك يودع الماضى بأحلامه الخادعة وآماله الكاذبة وآلامه البالغة ..

٣٤

بعناية واهتمام جعل يتفحص ما تقع عليه عيناه وهو مقبل على سراى آل شداد ، فلما عبر مدخلها تضاعفت عنايته واهتمامه بتفحص ما حوله ، فقد آمن أخيرا بأن هذه الزيارة ستكون آخر عهده بالبيت وآله وذكرياته ، كيف لا وقد انتزع حسين فى النهاية موافقة أبيه على سفره إلى فرنسا ؟ تأمل بملء عينيه ووجدانه الممر الجانبى المفضى إلى الحديقة ، والنافذة المطلة عليه وكان طيفها الرقيق الأنيق يطالعه منها بنظرة حلوة لا تعنى شيئا كنظرات النجوم أو تحية رقيقة لا يقصد بها شخصه كتغريد البلبل المشغول بفرحته عن السامعين ، ثم المنظر الكلى للحديقة المبسوط بين مؤخر القصر والسور العريض المشرف على الصحراء ، وما بين هذا وذاك من أعراش الياسمين وجماعات النخيل وشجيرات الورد ، وأخيرا الكشك العتيد الذى تملى تحت سقفه بنشوات الحب والصداقة . وذكر المثل الإنجليزى الذى يقول « لا تضع كل بيضك فى سلة واحدة » وابتسم ابتسامة حزينة ، فإنه وإن حفظه منذ عهد بعيد إلا أنه لم ينتفع به فوضع عن سهو أو حماقة أو قضاء وقدر كل قلبه فى

هذا البيت ، بعضه للحب وبعضه للصداقة ، وقد ضاع الحب وها هو الصديق يحزم أمتعته استعدادا للرحيل ، ومن الغد سيلقى نفسه بلا حبيب ولا صديق ، كيف يمكن أن يتعزى عن هذا المنظر ؟. قد انطبع فى صدره وعلق قلبه وبات ذا ألفة وحنين ، القصر والحديقة والصحراء ، جملة وتفصيلا ، كانطباع أسماء عايدة وحسين شداد فى حافظته ، فكيف ينقطع عنه أو يقنع برؤيته من بعيد كسائر المارة ؟، هو الذى لشدة ولعه بالبيت دعا نفسه يوما مداعبا بالوثنى !..

وكان حسين شداد وإسماعيل لطيف جالسين على كرسيين متقابلين أمام المنضدة التى وضع عليها الدورق التقليدى والأكواب الثلاثة ، وكانا كعادتهما فى الصيف يرتديان قميصا مفتوح الطوق وبنطلونا من الفانلة البيضاء ، فطالعاه بوجهيهما المتناقضين : حسين بوجهه الجميل الوضىء ، وإسماعيل بوجهه الحاد القسمات ونظراته التهجمية ، فأقبل عليهما ببدلته البيضاء ممسكا بطربوشه الذى تدلدل زره ، وتصافحوا ، ثم جلس جاعلا ظهره إلى البيت ، البيت الذى ولّاه ـــ من قبل ـــ ظهره !. وسرعان ما قال إسماعيل مخاطبا كمال ، وهو يضحك ضحكة ذات معنى :

ـــ يتعين علينا من الآن أن نبحث عن مكان جديد نتقابل فيه ..

ابتسم كمال ابتسامة باهتة . ما أسعد إسماعيل بسخريته التى لم تعرف الألم ، وهو وفؤاد الحمزاوى اللذان بقيا له ، صديقان يؤنسان القلب ولا يمازجانه ، يهرع إليهما هربا من الوحشة ، ولا حيلة إلا أن يرضى بما قسم له .

ـــ سنلتقى فى المقاهى أو الطرقات ما دام حسين قد قرر هجرنا ..

هز حسين رأسه فى أسف ، أسف الفائز بأمنية عزيزة وهو يجامل بإعلان حزنه على فراق يهون ، ثم قال :

ـــ سأغادر مصر وفى قلبى حسرة على فراقكما ، الصداقة عاطفة مقدسة ، إنى أقدرها من أعماق قلبى ، والصديق هو القرين الذى يعكس نفسك فيكون صدى لعواطفك وأفكارك ، لا يهم أن نختلف فى كثير ما دام الجوهر متشابها ، لن أنسى هذه الصداقة أبدا ، وستصل الرسائل ما بيننا حتى نعود إلى اللقاء مرة أخرى ..

كلام جميل هو العزاء للقلب المكلوم المهجور ، ألم يكن ما أصابه على يد أخته كافيا ؟، هكذا تتركنى وحيدا بلا صديق حقيقى ، وغدا يقتل المهجور ظمأ إلى

الألفة الروحية الساخرة . تساءل فى كآبة :

ـــ متى نعود إلى اللقاء مرة أخرى ؟. لم أنس بعد تطلعك الحار إلى السياحة الدائمة ، فمن يضمن لى ألا يكون ذهابك إلى الأبد ؟

فآمن إسماعيل على قوله قائلا :

ـ قلبى يحدثنى بأن العصفور لن يعود إلى القفص ..

ضحك حسين ضحكة قصيرة ، غير أنها وشت بسروره ، ثم قال :

ـــ لم أظفر بموافقة أبى على سفرى حتى وعدته بمواصلة دراستى القانونية ، ولكننى لا أدرى إلى أى مدى سيمكننى المحافظة على وعدى ؟، لا استلطاف بينى وبين القانون ، أكثر من هذا يخيل إلى أنى لن أصبر على الدراسة النظامية ، لا أريد إلا ما أحبه ، وقلبى موزع بين معارف شتى لا تجمعها كلية واحدة كما قلت مرارا وتكرارا ، أريد أن أتلقى محاضرات فى فلسفة الفن ، وأخرى فى الشعر والقصص ، وأن أرتاد المتاحف ومعازف الموسيقى ، وأن أعشق وألهو ، فأى كلية تحوى هذه الألوان جميعا ؟!، وثمة حقيقة أخرى تعرفانها وهى أنى أفضل أن أسمع على أن أقرأ ، أريد أن يشرح غيرى لأستمع أنا ، ثم أنطلق بحواس مجلوة وعقل مضىء إلى سفوح الجبال وشواطىء البحور والمشارب والمقاهى والمراقص ، وسوف تصلكما تباعا تقاريرى عن هذه التجارب الفذة !.

كأنه يصف الجنة التى نبذ هو الإيمان بها !. بيد أنها جنة سلبية تأخذ ولا تعطى ، وهو يطمح إلى مثال آخر ، أما حسين فهيهات أن يحن إلى مغناه القديم ، إذا ضمته تلك الحياة الوردية إلى صدرها الرغيد . وكأن إسماعيل كان يردد خواطره حين قال مخاطبا حسين :

ـــ لن تعود إلينا ، الوداع يا حسين !، حلمنا واحد على وجه التقريب ، دع جانبا فلسفة الفن والمتاحف والموسيقى والشعر وسفوح الجبال .. الخ ، فنكون شخصا واحدا !. أذكرك للمرة الأخيرة بأنك لن تعود إلينا ..

وحدجه كمال بنظرة متسائلة ، كأنما تطالبه برأيه فيما قال إسماعيل ، فقال :

ـــ بل سأعود كثيرا ، ستكون مصر ضمن سياحتى الطويلة لأرى الأهل والأصدقاء (ثم موجها الخطاب إلى كمال) سوف أنتظر سفرك إلى الخارج بجزع أكاد أشعر به من الآن !

من يدرى لعل كذبته تصدق فيجوب تلك الآفاق ، مهما يكن من أمر فقلبه يحدثه بأن حسين سيعود يوما وأن هذه الصداقة العميقة لن تضيع هباء ، إن قلبه الصدوق يؤمن بهذا كما يؤمن بأن الحب لا تقتلع جذوره من القلب وا أسفاه !، قال برجاء :

ـــ سافر وافعل ما تحب ثم عد إلى مصر لتجعلها مقامك ، على أن تخرج منها سائحا كلما طابت لك السياحة .

فأمّن إسماعيل على رأيه :

ـــ لو أنك ابن حلال حقا لقبلت هذا الحل الوجيه الذى يوفق بين رغبتك ورغبتنا ..

قال حسين وهو يطامن رأسه كأنما قد اقتنع :

ـــ سينتهى بى المطاف إلى هذا الحل فيما أعتقد ..

كان يصغى إليه وهو يملأ من منظره ناظريه ، خاصة العينين السوداوين اللتين تشبهان عينى عايدة ، ولفتاته الجامعة بين السمو واللطف ، وروحه الشفاف الذى يكاد يتمثل أمامه خلقا يرى ويحس ، إذا غاب هذا العزيز فماذا يبقى من نعمة الصداقة وذكرى الحب ؟. الصداقة التى تلقنتها على يديه ألفة روحية وسعادة مطمئنة ، والحب الذى ألهمه على يد أخته فرحة سماء وعذاب جحيم ؟!. وعاد حسين يقول وهو يشير إليهما واحدا بعد الآخر :

ـــ عندما أعود إلى مصر ستكون أنت محاسبا فى وزارة المالية ، وأنت مدرسا ، ولا يبعد أن أجدكما والدين !. ما أعجب هذا !

تساءل إسماعيل ضاحكا :

ـــ هل تستطيع أن تتخيلنا موظفين ؟، تصور كمال مدرسا ! (ثم موجها الخطاب إلى كمال) يجب أن تسمن كثيرا قبل أن تواجه التلاميذ ، سوف تلقى جيلا من العفاريت نحن نعد بالقياس إليهم من الملائكة ، وسوف تجد نفسك وأنت الوفدى العنيد مضطرا بحكم الوظيفة إلى معاقبة المضربين بأمر الوفد !.

أخرجته ملاحظة إسماعيل عن مجرى التفكير الذى كان مسترسلا فيه ، فوجد نفسه يتساءل : كيف يستطيع مواجهة التلاميذ برأسه وأنفه المشهورين ؟!، وجد امتعاضا ومرارة ، وخيل إليه ـــ قياسا على شواذ المدرسين الذين عرفهم فى

حياته ـــ أنه سيلتزم القسوة فى معاملة التلاميذ ليحمى شخصيته المهددة !. غير أنه تساءل : ترى هل يسعه أن يكون قاسيا على غيره كما يقسو على نفسه ؟. قال ارتجالا :

ـــ لا أظن أننى سأمتهن مهنة التدريس إلى النهاية ..

لاحت فى عينى حسين نظرة حالمة وهو يقول :

ـــ من التعليم إلى الصحافة على ما أظن ، أليس كذلك ؟

وجد نفسه يفكر فى المستقبل ، فعاودته فكرة الكتاب الجامع الذى حلم كثيرا بتأليفه ، ولكن ماذا بقى من موضوعه الأول ؟. لم يعد الأنبياء أنبياء ، ولا الجنة والجحيم ، وليس علم الإنسان إلا فصلا من علم الحيوان ، فعليه أن يبحث عن موضوع جديد ، قال مرتجلا أيضا :

ـــ لو أتمكن يوما من إنشاء مجلة للدعاية للفكر الجديد !

فقال إسماعيل لطيف بلهجة الوعظ والإرشاد :

ـــ بل السياسة هى السلعة الرائجة ، خصص للفكر إذا شئت عامودا فى الصفحة الأخيرة ، وفى البلد متسع لكاتب وفدى هجّاء جديد ..

فضحك حسين ضحكة عالية ، وقال :

ـــ لا يبدو أن صاحبنا سياسى إيجابى ، حسب أسرته ما قدمت من فدية ، أما الفكر فالمجال أمامه واسع فيه .. (ثم مخاطبا كمال) .. لديك ما تقوله ، لقد كانت ثورتك الإلحادية طفرة مفاجئة لم أتوقعها من قبل ..

ما أسعده بهذه الصفة الجديدة التى وجد فيها تحية لثورته وتملقا لغروره ، قال وقد تورد وجهه :

ـــ ما أجمل أن يكرس الإنسان حياته للحق والخير والجمال !..

صفّر إسماعيل ثلاثا ، لكل قيمة صفيرا ، ثم قال متهكما :

ـــ اسمعوا وعوا !.

أما حسين فقال جادا :

ـــ إنى مثلك ! ولكنى قانع بالمعرفة والمتعة !

فقال كمال بحماس وإخلاص :

ـــ الأمر أجلّ من هذا ، إنه كفاح فى سبيل الحق يستهدف خير الإنسانية

جميعا ، وبغيره لا يكون للحياة معنى فى نظرى ..

ضرب إسماعيل كفا بكف ــ وقد ذكرته هذه الحركة بأبيه ــ وقال :

ــ إذن فالواجب ألا يكون للحياة معنى !، كم تعبت وشقيت حتى تحررت من الدين !. لم أتعب أنا تعبك ، ولكن الدين لم يكن شغلى أبدا فهل تعدنى يا ترى فيلسوفا بالفطرة ؟!، حسبى أن أعيش الحياة التى لا تحتاج إلى تعريف ، غير أن هذا الذى أتبعه بالفطرة لا تبلغه أنت إلا بالكفاح المرير ، أستغفر الله ، بل أنت لم تبلغه بعد فلا زلت ــ حتى بعد إلحادك ــ تؤمن بالحقيقة والخير والجمال وتريد أن تكرس لها حياتك ، أليس هذا مما يدعو إليه الدين ؟!، فكيف تكفر بالأصل وتؤمن بالفرع ؟

لا تبال رفيق المزاح ، لكن لم يبدو ما يؤمن به من القيم مثارا للسخرية ؟!، هبك خيرت بين عايدة وبين الحياة السامية فأيهما تختار ؟!.. لكن عايدة تتخايل لعينى دائما وراء المثل !..

قال حسين يجيب عن كمال ، إذ طال به الصمت :

ــ المؤمن يستمد حبه لهذه القيم من الدين ، أما الحر فيحبها لذاتها .

رباه متى أراك مرة أخرى ؟. أما إسماعيل فضحك ضحكة وشت بانحراف تفكيره إلى ناحية جديدة ، وسأل كمال :

ــ خبرنى ألا زلت تصلى ؟. وهل تنوى أن تصوم رمضان القادم ؟

كان دعائى لها أمتع ما فى الصلاة ، وليالى هذا القصر أسعد ما فى رمضان ..

ــ لم أعد من المصلين ، ولن أكون من الصائمين ..

ــ وهل تعلن إفطارك ؟

ضاحكا :

ــ كلا ..

ــ آثرت النفاق !

فقال ممتعضا :

ــ ليس من ضرورة تدعونى إلى إيلام الذين أحبهم ..

فتساءل إسماعيل ساخرا :

ــ أتظن أنك بهذا القلب تستطيع أن تواجه المجتمع يوما بما يكره ؟!

كليلة ودمنة !؟، بهجة الخاطرة غطت على الامتعاض ، رباه هل عبرت على أساس الكتاب الذى لم يتبلور فى ذهنى بعد ؟!

ـــ مخاطبة القراء شىء ، ومخاطبة والدين على الفطرة شىء آخر !

فخاطب إسماعيل حسين وهو يشير إلى كمال قائلا :

ـــ إليك فيلسوفا من أسرة عريقة فى الجهل !

لن يعوزك أن تجد أصدقاء للهو واللغو ، ولكنك لن تحظى لروحك بصديق يحاورها ، فارض بالصمت أو حاور نفسك كالمجانين ، وساد الصمت قليلا . وكانت الحديقة صامتة أيضا فلا نسمة تهفو ، أما الورد والقرنفل والبنفسج فبدت وحدها سعيدة بالحر ، وحسرت الشمس ثوبها المضىء عن الحديقة فلم يبق منه إلا حاشية فى أعلى السور الشرقى . أنهى إسماعيل الصمت بأن التفت إلى حسين شداد ، وسأله :

ـــ ترى هل يتاح لك أن تزور حسن سليم وعايدة هانم ؟

يالله !.. خفقة قلب أم القيامة قامت فى صدرى ؟!

ـــ عندما يستقر بى المقام فى باريس ، سأفكر حتما فى القيام برحلة إلى بروكسل ..

ثم وهو يبتسم :

ـــ تلقينا خطابا من عايدة فى الأسبوع الماضى ، يبدو أنها تعانى متاعب الوحم !..

هكذا الألم والحياة توأمان ، لست الآن إلا ألما خالصا فى ثياب رجل ، عايدة منداحة البطن سائلة الإفرازات ؟!، مأساة أم مهزلة الحياة ؟!. نعمة الحياة الفناء ، ليتنى أستطيع أن أعرف كنه هذا الألم . قال إسماعيل لطيف :

ـــ سيكون أبناؤها أجانب !

ـــ من المتفق عليه أن يرسلوا إلى مصر إذا جاوزوا طور الطفولة .

هل تراهم يوما بين تلاميذك ؟. تسائل نفسك أين رأيت هذه الأعين فيجيب القلب الخافق أنها مقيمة هنا منذ قديم ، وإذا سخر الصغير من رأسك وأنفك فبأى قلب تعاقبه !، أيها النسيان .. هل أنت خرافة أيضا ؟!. عاد حسين يقول :

ـــ شد ما أسهبت فى الحديث عن حياتها الجديدة ، لم تخف سرورها بها حتى

بدا حنينها إلى الأهل مجرد مجاملة ..

لمثل هذه الحياة فى الأوطان المثالية خلقت ، أما مشاركتها فى الطبائع الآدمية فعبث من الأقدار التى عبثت بشتى مقدساتك ، ترى ألم يخطر ببالها أن تشير فى خطابها المسهب بكلمة إلى الأصدقاء القدامى ؟!، ولكن من أدراك بأنها لا زالت تذكرهم ؟!، وعاودهم الصمت مرة أخرى . بدا المغيب يقطر سمرة هادئة ، ولاحت فى الأفق حدأة مولية ، وترامى إليهم نباح كلب ، وأقبل إسماعيل على الدورق يشرب ، وراح حسين يصفر بفيه ، أما كمال فكان يسترق إليه النظر بوجه هادىء وقلب يتحسر .

ــ الحر هذه السنة ملعون ..

قال إسماعيل ذلك ، ثم جفف شفتيه بمنديله الحريرى المزركش ثم تجشأ ، وأعاد المنديل إلى جيب بنطلونه .

فراق الأحباب ألعن ..

ــ متى تسافر إلى المصيف ؟

ــ فى آخر يونية .

أجاب إسماعيل بارتياح ، فعاد حسين يقول :

ــ سنسافر غدا إلى رأس البر حيث أمكث أسبوعا معهم ، ثم أسافر بصحبة أبى إلى الإسكندرية فأستقل الباخرة فى ٣٠ يونية .

وينتهى تاريخ فترة من الزمن ، وربما انتهى قلب . حدق حسين إلى كمال مليا ، ثم ضحك قائلا :

ــ نترككم وأنتم على خير حال من الوحدة والائتلاف ، فعسى أن تسبقنا أنباء الاستقلال إلى باريس ..

فهتف إسماعيل مخاطبا حسين وهو يشير إلى كمال :

ــ صاحبك غير راض عن الائتلاف !. عز عليه أن يضع سعد يده فى يد الخونة ، وعز عليه أكثر أن يتحاشى الاصطدام بالإنجليز فينزل عن الوزارة إلى خصمه القديم عدلى ، هكذا تجده أشد تطرفا من زعيمه المقدس نفسه !

مهادنة الأعداء والخونة خيبة أخرى تتجرعها ، أى شىء فى هذه الدنيا لم يخب فيه أملك ؟. غير أنه ضحك عاليا ، ثم قال :

ـــ بل يشاء هذا الائتلاف أن يفرض على دائرتنا نائبا من الأحرار !

وضج ثلاثتهم بالضحك . وعند ذاك دبت فى مرمى البصر منهم ضفدعة ما لبثت أن توارت فى العشب، وهفت نسمة مؤذنة بتدانى المساء ، وتخفف العالم المحدق بهم من زياطه وضوضائه ، فأذن المجلس بالختام ، وملأه ذلك بالجزع فجعلت عيناه تتقلبان فى المكان لتمتلئا من منظره . هنا بدت أول مرة باعثة شعاع الحب ، وهنا صدح الصوت الملائكى بـ « يا كمال » وهنا دار سوار العذاب حول الرأس والأنف ، وهنا عالن المعبود بخصام التجنى ، وفى تضاعيف هذا الجو ترقد ذكريات عواطف ومشاعر وانفعالات لو مستها يد العبث يوما لأحيت الصحراء ونضرت وجهها ، املأ من هذا كله عينيك وأرِّخه فإن حوادث كثيرة تبدو وكأنها لم تقع لو لم يقيدها يوم وشهر وعام ، إنما نستعدى الشمس والقمر على خط الزمان المستقيم لندوره لتعود إلينا الذكريات الضائعة ، ولكن لا شيء يعود أبدا ، فذب فى الدموع أو تسل بالابتسام .

وقف إسماعيل لطيف وهو يقول :

ـــ آن لنا أن نذهب ..

ترك إسماعيل يسبقه إلى عناق صاحبه ، ثم جاء دوره فتعانقا طويلا ، طبع على خده قبلة وتلقى مثلها ، فغمغم خياشيمه رائحة آل شداد ممثلة فى صاحبه ، زكية لطيفة كأنها عبير غير آدمى ، أو نفثات حلم دوَّم فى سماء مليئة بالمسرات والآلام ، فأفعم بها حناياه حتى ثمل ، ولبث صامتا مليا حتى يملك عواطفه ، غير أنه عندما تكلم تهدج صوته وهو يقول :

ـــ إلى اللقاء ولو بعد حين ..

٣٥

ـــ لايوجد أحد إلا الخدم !

ـــ ذلك لأن ضوء النهار لم يكد يختفى بعد ، والزبائن يفدون عادة مع الليل ، هل ضايقك خلو المكان ؟

ـــ أبدا خلو المكان عامل مشجع على البقاء ، خاصة وأنها أول مرة .

ـــ للحانات هنا ميزات لا تقدر بثمن ، فهى تقوم فى طريق لا يقتحمه إلا ساع وراء لذة محرمة ، فلن يكدر صفوك هنا لائم ولا زاجر . وإذا عثر بك شخص تحترمه كأبيك أو ولى أمرك ، كان هو الأحق باللوم والأخلق بأن يتجاهلك أو يفر من سبيلك إن استطاع..

ـــ اسم الشارع وحده فضيحة !

ـــ لكنه أدعى إلى الطمأنينة من غيره ، لو أننا ذهبنا إلى إحدى حانات شارع الألفى أو عماد الدين أو حتى محمد على ، لما أمنا أن يرانا أب أو أخ أو عم أو ذو مال !. ولكنهم لا يجيئون إلى وجه البركة فيما أرجو .

ـــ منطقك سليم ، غير أنى لا زلت مضطربا .

ـــ صبرك ، الخطوة الأولى دائما عسيرة ، ولكن الخمر مفتاح الفرج ، لذلك أعدك بأنك ستجد الدنيا عند ذهابنا ألطف وأعذب مما عهدتها قبل ذلك..

ـــ حدثنى عن أنواع الخمور ، أيها الأوفق أن أبدأ به ؟

ـــ الكونياك عنيف وإذا مزج بالبيرة فقل على شاربه السلام ، الويسكى مقبول الطعم جيد الأثر ، أما الزبيب ...

ـــ لعل الزبيب ألذها !. ألم تسمع صالح وهو يغنى « وسقانى شراب الزبيب !»..

ـــ طالما قلت لك إنه لا عيب فيك إلا الإغراق فى الخيال ، الزبيب أقبحها رغم أنف صالح ، فيه طعم الأنيسون الذى تجزع منه معدتى ، فلا تقاطعنى ..

ـــ معذرة..!

ـــ وهناك البيرة ، ولكنها شراب الحر ونحن والحمد لله فى سبتمبر . وهناك

النبيذ ، غير أن عاقبته لطسة بنت كلب ..

ـــ إذن .. إذن.. فهو الويسكى ..

ـــ برافو !. توسمت فيك النجابة من قديم ، ولعلك توافقنى بعد قليل على أن استعدادك للهزل يفوق استعدادك للحقيقة والخير والجمال والوطنية والإنسانية إلى آخر هذه القائمة من الخزعبلات التى تتعب بها قلبك دون جدوى ..

ونادى النادل ، فطلب كأسين من الويسكى .

ـــ من الحكمة أن أقنع بكأس واحدة..

ـــ قد تكون هذه هي الحكمة ، غير أننا لم نجيء هنا لطلب الحكمة ، وسوف تعلم بنفسك أن الجنون ألذ من الحكمة ، وأن الحياة أخطر من الكتب والفكر ، اذكر هذا اليوم ولا تنس صاحب الفضل عليك..

ـــ لا أحب أن أفقد الوعى ، أخاف أن ..

ـــ كن حكيم نفسك..

ـــ المهم عندى أن أجد الشجاعة للسير فى الدرب إياه بلا تردد ، وأن أدخل عند الحاجة ..

ـــ اشرب حتى تشعر بأنك لا تبالى أن تدخل ..

ـــ حسن ، أرجو ألا أندم على فعلتى فيما بعد ..

ـــ تندم ؟!. طالما دعوتك من قبل فكنت تعتذر بالتقوى والدين ، ثم جاهرت بأنك لم تعد تؤمن بالدين ، فكررت عليك الدعوة ، فما أعجب إلا لرفضك باسم الخلق !. لكن يجب أن أعترف بأنك اتبعت المنطق أخيرا..

أجل أخيرا. بعد فترة من القلق والحيرة بين أبى العلاء والخيام ، أو بين التقشف واللذة . وقد نزع به طبعه إلى مذهب الأول ، فإنه وإن بشر بحياة قاسية إلا أنها وافقت ما نشأ عليه من تقاليد ، ولكنه لم يدر إلا ونفسه تهفو إلى الفناء ، وكأن صوتا خفيا راح يهمس فى أذنه : لا دين ولا عايدة ولا أمل ، فليكن الموت . عند ذاك ناداه الخيام بلسان هذا الصديق فلبى محتفظا بمبادئه السامية رغم هذا ، وإن يكن قد وسع من معنى الخير حتى وسع مسرات الحياة جميعا ، قائلا لنفسه : إن الإيمان بالحقيقة والجمال والإنسانية أسمى أنواع الخير ، وإنه لذلك كان ابن سينا يختم يوم الفكر بالشراب والحسان ، ومهما يكن من أمر فإنه لم يجد سوى هذه الحياة الواعدة

منقذا من الموت ..

ـــ إنى معك فى هذا ، ولكنى لم أتخل عن مبادئى ..

ـــ أعلم أنك لن تتخلى عن أوهامك ، طول العشرة جعلها حقيقة أكثر من الحقيقة نفسها ، لا بأس أن تقرأ بل وأن تكتب ما وجدت قراء ، اجعل من الكتابة وسيلة للشهرة والثروة ، ولكن لا تأخذها مأخذ الجد ، كنت متدينا عنيفا ، وأنت الآن ملحد عنيف ، دائما عنيف ، قلق كأنك مسئول عن البشرية ، الحياة أبسط من هذا كله ، مركز فى الحكومة يرضى النفس ويهيىء مستوى لا بأس به من المعيشة ، استمتاع بلذات الحياة بقلب متفتح خال من الهموم ، استمساك بقدر من القوة والاعتداء عند اللزوم يضمن لك الكرامة والفوز ، فإذا وافقت هذه الحياة الدين فبها ونعمت ، وإلا فذنبه على جنبه ..

الحياة أعمق وأعرض من أن تنحصر فى شيء واحد ولو يكون السعادة نفسها ، اللذة ملاذى ولكن ارتقاء الجبال الصعبة سيظل مطلبى ، عايدة ذهبت فيجب أن أخلق عايدة أخرى بكل ما ترمز إليه من معان ، أو فلتذهب الحياة غير مأسوف عليها .

ـــ ألم تشغل فكرك أبدا بما فوق هذه الحياة من معان ؟

ـــ هق !، شغلت عن ذلك بالحياة نفسها أو بالجرى بحياتى أنا ، ليس فى بيتنا كافر وليس فيه متدين ، وهكذا أنا !

صديق ضرورى مثل وقت الفراغ ، شاذ المنظر مثل منظرك ، موصول الذكريات بعايدة فهو فى القلب . رائد هذه الدروب الغناء ، جبار إذا تحديته ، يفتقد فى المسرات دون الجد والملمات ، ليس فيه للروح موضع ، غاب وراء البحار صديق الروح والعقل .. فؤاد الحمزاوى ذكى ولكن لا فلسفة له . نفعى حتى فى تذوق الجمال .. يبغى وراء الأدب بلاغة ينتفع بها فى تحبير المرافعات ، مَن لى بوجه حسين وروحه ؟! وجاء النادل فوضع على المنضدة كأسين طويلين مضلعى الكعب ، وفض سدادة قارورة الصودا وصب فى الكأسين فتحول الذهب إلى بلاتين مموه باللآلىء، ورص أطبق السلطة والجبن والزيتون والمرتدلا ، ثم ذهب . ردد كمال بصره بين كأسه وبين إسماعيل ، فقال الأخير باسما :

ـــ افعل كما أفعل ، ابدأ بجرعة كبيرة ، صحتك ..

غير أنه اكتفى بحسوة وراح يتذوقها ، ثم لبث يترقب .. ولكن عقله لم يطر كما كان يتوقع فتجرع جرعة كبيرة ، ثم تناول قطعة من الجبن ليغير الطعم الغريب الذى انتشر فى فيه .

ــ لا تتعجلنى !.

ــ العجلة من الشيطان ، المهم أن تترك مكانك وأنت على حال تمكنك من اقتحام ما تريد ..

ما الذى يريد ؟ امرأة ممن استثرن تقززه ونفوره وهو مفيق فهل يحلى الشراب مرارة الابتذال . كان يناضل الغريزة بالدين وعايدة ، أما الآن فقد خلا للغريزة الجو . غير أن حافزا آخر للمغامرة هو أن يكتشف المرأة ذلك المخلوق الغامض الذى تنطوى عايدة نفسها تحت جنسه ولو كره . لعل فى ذلك عزاء عن السهاد والدموع المطوى سرها فى جوف الليل المكتوم ، وتكفيرا عن العذاب الدامى الذى لا أمل فى التداوى منه إلا باليأس والذهول . الآن يستطيع أن يقول إنه خرج من زنزانة الاستسلام ليخطو الخطوة الأولى فى طريق الخلاص وإن يكن طريقا مخمورا محفوفا بالشهوات والمكاره . وتجرع جرعة أخرى وانتظر ، ثم ابتسم .. أما باطنه فكان يحتفل بمولد إحساس جديد ينفث حرارة وصبوة ، فتابعه مستسلما كما يتابع نغمة حلوة . وكان إسماعيل يراقبه بإمعان ، فقال باسما :

ــ أين حسين ليشهد بنفسه هذا المنظر ؟

أين حسين أين؟!

ــ سوف أكتب له عنه بنفسى ، هل رددت على رسالته الأخيرة ؟

ــ نعم ، رددت برسالة موجزة كرسالته ..

له وحده أسهب وأفاض حتى سجل كل خاطرة ، ياللسعادة التى خص بها وحده ، ولكن لا ينبغى أن يبوح بسر رسالته أن يثير غيرة مدربه ..

ــ كانت رسالته إلى موجزة أيضا فيما عدا الحديث الذى تعرفه ولا تحبه !.

ــ الفكر !. (ثم وهو يضحك) .. ما حاجته إلى هذا هو الذى سيرث ثروة تملأ المحيط ، ما سر ولعه بهذه الخزعبلات ؟، التكلف أم الغرور أم الاثنان معا ؟!.

جاء دور حسين ليُمد تحت المطرقة ، ترى ماذا تقول عنى فى غيابى ؟!.

ــ لا تناقض بين الفكر والغنى كما تظن ، لقد ازدهر الفكر فى اليونان القديمة

بفضل بعض السادة الذين لم يشغلهم طلب الرزق عن التفرغ للعلم ..

ـــ صحتك يا أرسطو ..

أفرغ بقية كأسه وترقب . ثم تساءل هل مرت به حال كهذه من قبل ؟ نافث الحرارة الوجدانية ينطلق فى الدورة الدموية ، يجرف فى طريقه الفجوة التى تتجمع بها نفايات الأكدار ، فمقم النفس يتفكك لحام أحزانه فتطير منه عصافير المسرات مترنمة ، وهذا صدى نغمة مطربة ، وهذه ذكرى أمل واعد ، وذاك طيف بهجة عابرة ، الخمر لعاب كله السعادة .

ـــ ما رأيك فى كأسين أخريين ؟

ـــ عمرك أطول من عمرى ..

ضحك إسماعيل ضحكة عالية وهو يومىء إلى النادل بإصبعه ، ثم قال بارتياح :

ـــ أنت سريع الاعتراف بالجميل ..

ـــ هذا من فضل ربى ..

وجاء النادل بالكأسين والمزة . وأخذ الزبائن يفدون مطربشين ومقبعين ومعممين ، فيستقبلهم النادل بمسح وجوه المناضد بالمناشف إذ كان الليل قد أقبل وأضيئت المصابيح فتألقت المرايا الملتصقة بالجدران مصورا على أسطحها قوارير الديوارس والجون ووكر ، وترامت من الخارج ضحكات ملعلعة كالأذان غير أنها تدعو للفجور ، وصوبت نحو منضدة الصديقين المراهقين نظرات إنكار متسامح باسم ، ثم ورد من الطريق بائع جمبرى صعيدى فبائعة فول ذات ثنيتين ذهبيتين ، وماسح أحذية ، وصبى كبابجى هو فى الوقت ذاته قواد كما دل ترحيب الجلوس به ، وقارىء كف هندى ، ثم لا تسمع هنا وهناك إلا « صحتك » وهاها ، وفى مرآة تلى رأس كمال مباشرة نظر فرأى وجهه موردا وبصره لامعا باسما ، وفيما وراء صورته عكست المرآة منظر رجل عجوز وهو يرفع كأسه إلى فيه ثم يتمضمض بحركة أرنبية ويزدرد الشراب ، ثم يقول لجليسه بصوت مسموع « المضمضة بالويسكى سنة عن جد لى مات وهو يسكر » فحول كمال وجهه عن المرآة ، وقال لإسماعيل :

ـــ نحن أسرة محافظة جدا ، أنا أول ذائق للخمر فيها ..

فهز إسماعيل منكبيه هازئا ، ثم قال :

ـــ كيف تحكم على ما ليس لك به علم ؟، هل شاهدت شباب والدك ؟، أما أبى فيتناول كأسا مع الغداء وأخرى مع العشاء ، وقد أمسك عن الشراب فى الخارج ، أو هذا ما يدعيه أمام والدتى ..

لعاب إله السعادة يتسرب إلى مملكة الروح ، وهذا الانقلاب الغريب الذى حدث فى لحظات لا تقدر البشرية على إدراكه فى أجيال وأجيال ، وهو فى جملته يجود بمعنى باهر جديد لكلمة « السحر » ، وأعجب شيء أنه لم يكن جديدا كل الجدة فلعله طاف بالروح مرة ولكن متى وكيف وأين ؟، إنه موسيقى باطنية تعزفها الروح وما الموسيقى المعهودة بالقياس إليها إلاكقشور التفاح بالقياس إلى لبابه ، ترى ما سر السائل الذهبى الذى صنع هذه المعجزة فى لحظات معدودات ؟، لعله طهر مجرى الحياة من الزبد والرواسب فانطلقت وثبة الحياة المكبوتة كما انطلقت أول مرة حرية مطلقة ونشوة خالصة ، فهذا هو الشعور الطبيعى بوثبة الحياة إذا تحررت من ربقة الجسد وأغلال المجتمع وذكريات التاريخ ومخاوف المستقبل ، موسيقى رائقة نقية تقطر طربا وتصدر عن طرب ، مثلها طاف بروحى من قبل ولكن متى وكيف وأين ؟، آه .. يا للذكرى .. إنها الحب !، يوم نادت « يا كمال » أسكرتك وأنت لا تدرى ما السكر فقر بأنك سكير قديم ، وأنك عربدت دهرا فى طريق الهوى المخمور المعبد بالأزهار والرياحين ، كان ذلك قبل أن يتحول قطر الندى الشفاف إلى وحل ، فالخمر روح الحب إذا انجابت عنه بطانة الآلام ، فحب تسكر أو اسكر تحب ..

ـــ الحياة جميلة مهما قلت وأعدت ..

ـــ هاها ، أنت الذى تقول وتعيد ..

طبع المقاتل على خد غريمه قبلة صافية فحل السلام على الأرض ، وغرد البلبل فوق غصن ريان ، فطرب العاشقون فى أربعة أركان المعمورة ، وطار طائر الأشواق من القاهرة إلى بروكسل مارا بباريس فاستقبل بالحنان والأناشيد ، وغمس الحكيم شباة قلمه فى مداد قلبه فسجل وحيا منزلا ، ثم آوى المجرب إلى شيخوخته فألمت به ذكرى دامعة بعثت فى صدره ربيعا مكتما ، أما أسلاك الشعر الأسود المسدل على الجبين فكعبة يتجه إليها الثملون فى حانات الوجد .

ـــ كتاب وكأس وحسناء وارمنى فى البحر !

ـــ هاها ، سيفسد الكتاب الكأس والحسناء والبحر .

ـــ لسنا متفقين فى فهم معنى اللذة ، تراها أنت لهوا وعبثا وهى عندى الجد كل الجد ، هذه النشوة الآسرة هى سر الحياة وغايتها العليا ، وما الخمر إلا بشيرها والمثال المحسوس المتاح لها ، وكما كانت الحدأة مقدمة لاختراع الطائرات ، والسمكة تمهيدا لاختراع الغواصة ، فالخمر ينبغى أن تكون رائد السعادة البشرية ، والمسألة تتلخص فى هذه الكلمة : كيف نجعل من الحياة نشوة دائمة كنشوة الخمر دون الالتجاء إلى الخمر ؟. لن نجد الجواب فى النضال والتعمير والقتال والسعى ، فكل أولئك وسائل وليست بغايات ، السعادة لن تتحقق حتى نفرغ من استغلال الوسائل كلها لنتمكن من أن نحيا حياة عقلية روحية خالصة لا يكدرها مكدر ، هذه هى السعادة التى أعطتنا الخمر مثالها ، كل عمل وسيلة إليها أما هى فليست وسيلة لشىء ..

ـــ الله يخرب بيتك ..

ـــ لم ؟!..

ـــ كان أملى أن أجدك فى نشوتك محدثا طريفا لطيفا ، ولكنك كالمريض يزيد مرضه الخمر استفحالا ، فيم تتحدث يا ترى إذا شربت الكأس الثالثة ؟.

ـــ لن أشرب أكثر مما شربت ، إنى الآن سعيد وفى وسعى أن أدعو أية امرأة تعجبنى ..

ـــ هلا انتظرت قليلا ؟.

ـــ ولا دقيقة واحدة..

سار متأبطا ذراع صاحبه غير هياب ولا متردد ، ينتظمه تيار من البشر يتلاطم مع تيار آخر قادم من الوجهة المضادة ، فى طريق ملتو ضيق برواده . كانت الرءوس تدور إلى اليمين تارة وإلى اليسار أخرى ، وعلى الجانبين بدت مضيفات الطريق قائمات وقاعدات يقلبن فى وجوههن المقنعات بالزواق الفاقع أعين الترحيب والإغراء ، ولا تمض آونة حتى يمرق أحدهم من التيار إلى إحداهن فتتبعه إلى الداخل وقد مسحت عن عينيها نظرة الإغراء لتحل محلها نظرة الجد والعمل . وكانت المصابيح المركبة فوق أبواب البيوت والمقاهى تضىء الطريق بأنوار ساطعة انعقدت فى أعاليها سحب الدخان المتطاير من بخور المجامر وتبغ الجوز والنارجيلات ، أما

الأصوات فقد تلاقت واختلطت فى دوامة صاخبة دارت بها الضحكات والهتافات وصرير الأبواب والنوافذ وعزف البيانو ومزيكة اليد وتصفيق الأيدى الراقصة وزعيق الشرطى والشخير والنخير وسعال الحشاشين وصراخ السكارى واستغاثات مجهولة وقرع عصى وغناء فردى وجماعى ، وفوق الجميع لاحت السماء قريبة من أسطح البيوت البالية ترنو إلى الأرض بأعين لا تطرف . كل حسناء هنا فى متناول اليد ، تجود بحسنها وأسرارها نظير عشرة قروش لا غير ، فمن كان يصدق هذا قبل أن يراه ؟، وخاطب إسماعيل قائلا :

ـــ هرون الرشيد يخطر فى بهو الحريم ..

فتساءل إسماعيل ضاحكا :

ـــ ألم تعجبك جارية يا أمير المؤمنين ؟

فأشار كمال إلى بيت ، وقال :

ـــ كانت تقف عند هذا الباب الخالى ، ترى أين ذهبت ؟

ـــ مع زبون فى الداخل يا أمير المؤمنين ، فلينتظر مولانا حتى يقضى أحد رعاياه وطره ..

ـــ وأنت ألم تجد ضالتك ؟..

ـــ إنى قديم عهد بالطريق وأهله ، ولكنى لن أمضى إلى وجهتى حتى أسلمك إلى صاحبتك ، ماذا أعجبك فيها ؟!، يوجد أجمل منها كثيرات ..

سمراء لم يطمس الزواق سمرتها ، وفى حنجرتها ، وتر يذكر من بعيد بتلك الموسيقى الخالدة ، وقد تجد العين نوعا من الشبه بين بشرة المختنق وأديم السماء الصافية :

ـــ أتعرفها ؟!.

ـــ تدعى هنا وردة ، واسمها الحقيقى عيوشة .

عيوشة ـــ وردة !. لو يستطيع الإنسان أن يغير ماهيته كما يغير اسمه !، فى عايدة نفسها شيء يشبه مركب عيوشة ـــ وردة ، وفى الدين ، وفى عبد الحميد بك شداد ، وفى الآمال العريضة ، أواه !. لكن الخمر ترفعك إلى عرش الآلهة فترى هذه المتناقضات غارقة فى أمواج الفكاهة المقهقهة ، مستحقة للعطف ، وشعر بكوع إسماعيل ينهزه فى جنبه وهو يقول (دورك) ، فنظر صوب الباب فرأى رجلا يغادر

البيت متعجلا ، وإذا بالمرأة تعود إلى موقفها كما رآها أول مرة ، فاتجه نحوها بقدمين ثابتتين فتلقته بابتسامة ، ثم مضى إلى الداخل وهى فى أثره تغنى « ارخى الستارة اللى فى ريحنا » .. ووجد سلما ضيقا فرقى فيه وقلبه يخفق حتى انتهى إلى دهليز يفضى إلى صالة ، وصوتها يلاحقه قائلا من حين لآخر « يمينك » ، « شمالك » ، « هذا الباب الموارب » . حجرة صغيرة مورقة الجدران ، مكونة من فراش وتسريحة ومشجب وكرسى خشب وطست وإبريق . ووقف فى وسط الحجرة كالمرتبك وعيناه تراقبانها . ومضت هى تغلق الباب والنافذة التى كان يترامى منها صوت دف وصفارة وتصفيق ، ولاح وجهها فى أثناء ذلك جادا بل أقرب إلى العبوس والصرامة حتى تساءل ساخرا عما تبيته له ، ثم واجهته وراحت تقيسه بعينيها طولا وعرضا ، ولما مرتا برأسه وأنفه داخله قلق ، غير أنه أراد أن يتغلب على قلقه فاقترب منها فاتحا ذراعيه ، ولكنها استنظرته بحركة جافة من يدها وهى تقول « انتظر » فتسمر فى مكانه . بيد أنه كان مصمما على تذليل العراقيل ، فقال باسما فيما يشبه السذاجة :

ـــ أنا اسمى كمال ..

فحدجته بنظرة داهشة وهى تقول :

ـــ تشرفنا !..

ـــ نادينى !. قولى لى « يا كمال » !.

فقالت وما تزداد إلا دهشة :

ـــ لماذا أناديك وأنت أمامى كالرزية ؟!

أعوذ بالله !. ترى أتمازحه ؟. وازداد تصميما على إنقاذ الموقف ، فقال :

ـــ قلت لى انتظر ، ماذا أنتظر ؟

ـــ فى هذا لك حق ..

قالت ذاك ، ثم نزعت ثوبها بحركة بهلوانية ووثبت إلى الفراش ففرقع تحت ثقلها ، واستلقت على ظهرها وراحت تربت بطنها بأناملها المخضبة بالحناء . اتسعت عيناه إنكارا ، لم يكن يتوقع هذه المفاجأة البهلوانية ، وشعر بأن كلا منهما فى واد ، وما أبعد المدى بين وادى اللذة ووادى العمل .. انهدم فى لحظة ما أقامه الخيال فى أيام ، وجرت مرارة الامتعاض فى ريقه ، غير أن الرغبة فى الاكتشاف لم تفتر فغالب

انزعاجه ثم حرك ناظريه صوب الجسد العاري حتى استقر على هدف وبدا حينا كأنه لا يصدق عينيه ، وأحدَّ بصره فى انزعاج وتقزز حتى شعر فى النهاية بما يشبه الرعب . أهذه هى الحقيقة أم أنه أساء اختيار المثال ؟، ولكن مهما يكن من سوء اختياره فهل يغير هذا من الجوهر ؟!. ونزعم أننا نحب الحقيقة !. شد ما ظلموا رأسك وأنفك !. وحدَّثته نفسه بالهرب ، وأوشك أن يصغى إليها ، ولكنه تساءل فجأة لماذا لم يهرب الرجل الذى سبقه ؟. وماذا يقول لإسماعيل إذا عاد إليه ؟. كلا لن يهرب ، لن يتراجع أمام المحنة ..

ـــ مالك واقفا كالتمثال ؟

هذه النبرة التى هزت الفؤاد ، لم تكذب الأذنان ولكن الجهل كذاب ، سوف تضحك كثيرا من نفسك ولكن وأنت ظافر لا هارب ، هب الحياة مأساة فعليك أن تلعب دورك .

ـــ أتقف هكذا حتى الفجر ؟!

قال بهدوء غريب :

ـــ نطفىء النور ..

فهبت جالسة فى الفراش وهى تقول بجفاء وحذر :

ـــ بشرط أن أراك فى النور !.

تساءل فى إنكار :

ـــ لم ؟.

ـــ حتى أطمئن إلى صحتك !.

وتجرد للاختبار الصحى فى منظر بدا له آية فى الهزل ، ثم ساد ظلام دامس .

وعندما عاد إلى الطريق كان يحمل بين جنبيه قلبا فاترا مليئا بالحزن ، وخيل إليه أنه وسائر البشر يعانون تدهورا مؤلما وأن الخلاص منه بعيد .

ورأى إسماعيل مقبلا نحوه راضيا ساخرا متعبا وهو يتساءل :

ـــ كيف حال الفلسفة ؟

فتأبط ذراعه وسار به يسأله بدوره جادا :

ـــ هل النساء جميعا متشابهات ؟

فألقى عليه الشاب نظرة متسائلة ، فأفصح له كمال عن شكوكه ومخاوفه فى عبارة موجزة ، فقال إسماعيل باسما :

ـــ على العموم الأصل واحد وإن اختلفت الأعراض !. إنك مضحك لدرجة تستحق الرثاء ، هل أستنتج من حالك أنك لن تعود إلى هنا مرة أخرى ؟

ـــ بل سأعود أكثر مما تظن ، دعنا نشرب كأسا أخرى ..

ثم وكأنه يحدث نفسه :

ـــ الجمال .. الجمال !. ما هو الجمال ؟

تاقت نفسه فى هذه اللحظة إلى التطهر والانعزال والتأمل ، وحن إلى ذكرى الحياة التى عاشها معذبا فى ظل المعبودة ، ثم بدا وكأنه آمن بقسوة الحقيقة إلى الأبد . أيجعل من الإعراض عن الحقيقة مذهبه ؟ سار متفكرا فى طريق الحانة يكاد لا يلقى بالا إلى ثرثرة إسماعيل . إذا كانت الحقيقة قاسية فالكذب دميم ، ليست الحقيقة قاسية ولكن الانفلات من الجهل مؤلم كالولادة ، اجر وراء الحقيقة حتى تنقطع منك الأنفاس . ارض بالألم حتى تخلق نفسك من جديد ، هذه المعانى تحتاج إلى عمر لاستيعابها . عمر من التعب تتخلله سويعات من الخمر ..

٣٦

أما هذا المساء فقد جاء كمال الدرب وحده ، جاء ثملا يترنم بصوت هامس ، غير هياب وهو يشق بين تيار البشر الصاخب سبيلا ، ووجد باب وردة خاليا ولكنه لم يتردد كما فعل أول عهده بالدرب ، وإنما قصد البيت ودخل دون استئذان فارتقى السلم حتى انتهى إلى الدهليز ، وهناك مد بصره إلى الباب المغلق الذى بدا ضوء فى ثقب مفتاحه ، ثم مال إلى حجرة انتظار فألفاها لحسن الحظ خالية وجلس على مقعد خشبى مادًّا ساقيه فى ارتياح . وبعد مرور دقائق سمع صرير الباب وهو يفتح

فتوثب للقيام ، وغادر الرجل الآخر الحجرة كما نمت عليه أقدامه متجها نحو السلم ، فتريث لحظات ثم نهض وذهب إلى الدهليز ، فرأى وردة خلال باب حجرتها المفتوح وهى تعيد ترتيب الفراش ، فلما لمحته ابتسمت وهتفت به أن يعود إلى مجلسه دقيقة واحدة ، فعاد من حيث أتى وهو يبتسم فى ثقة ، ثقة الزبون الذى جاز فترة الحضانة . ولم تكد تمر دقيقة على جلوسه حتى ترامى إليه وقع أقدام صاعدة فاستقبلها بضيق ، لأنه يكره البقاء مع غيره من المنتظرين غير أن القادم اتجه نحو حجرة وردة ، وما لبث كمال أن سمع المرأة وهى تخاطب القادم قائلة برقة :

ـــ عندى زبون فاذهب إلى الحجرة وانتظر ..

ثم رفعت صوتها منادية إياه وهى تقول « تفضل » ، فقام كمال وغادر الحجرة دون تردد فالتقى بالقادم فى الدهليز ، وجد نفسه وجها لوجه مع ياسين !. التقت عيناهما فى نظرة ذاهلة ، وسرعان ما غض كمال جفنيه وهو يذوب خجلا وارتباكا واضطرابا ، وأوشك أن يندفع هاربا لولا أن عاجله ياسين بضحكة عالية رنت فى سقف الدهليز رنينا عجيبا ، فرفع الشاب إليه عينيه فرآه فاتحا ذراعيه وهو يهتف فى سرور :

ـــ يا ألف ليلة بيضا !.. يا ألف نهار سلطانى .!

وقهقه عاليا فتعلق به نظر كمال فى ذهول ، ولما طالع فيه المرح الصافى جعل يفيق إلى نفسه حتى ارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة متسائلة ، ثم رجعت إليه الطمأنينة وإن لم يفارقه الحياء . وراح ياسين يقول بصوت خطابى :

ـــ هذه ليلة سعيدة ، الخميس ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٦ ، ليلة سعيدة حقا ، ويجب أن نحتفل بها كل عام ، ففيها تكاشف أخوان ، وفيها ثبت أن صغير الأسرة يتقدم حاملا لواء تقاليدها المجيدة فى عالم اللذات !..

وعند ذاك جاء وردة وهى تسأل ياسين :

ـــ صديقك ؟

فقال ياسين ضاحكا :

ـــ بل أخى ابن أبى وأ ... كلا ابن أبى فقط ، أرأيت أنك معشوقة الأسرة يا بنت اللذين ؟!

فتمتمت قائلة « عفارم » ، ثم خاطبت كمال قائلة :

ـــ واجب الأدب يقضى بأن تنزل لأخيك الأكبر عن دورك يا نونو ..

فضحك ياسين ضحكته الكبيرة ، وقال :

ـــ واجب الأدب !. منذا الذى علمك آداب الوصل ؟!. تصورى أخا ينتظر أخاه على الباب !.. ها .. ها ..

فرمقته بنظرة تحذير وهى تقول :

ـــ اضحك بصوتك المخيف حتى تسمع البوليس يا سكير ، ولكنك تعذر ما دام أخوك النونو لا يجيئنى إلا مترنحا !.

حدج ياسين كمال بنظرة دهش وإكبار ، ثم قال :

ـــ أعرفت هذا أيضا !، رباه حقا إننا أولاد حلال ، أولاد حلال بالمعنى ، قرب فاك لأشمه !. ولكن لا فائدة من ذلك فالسكران لا يشم رائحة السكران ، خبرنى الآن : ما رأيك فى هذه الحكمة التى تعلمتها من الحياة لا من الكتب ؟.. (ثم وهو يشير إلى وردة) .. إن زيارة واحدة لبنت الملسوعة هذه تعادل مطالعة عشرة كتب محرمة ، إذن فأنت تسكر يا كمال ؟! يا ألف نهار أبيض !. نحن أصدقاء من قديم الزمان ، أنا أول من عد ..

ـــ الله الله !.. هل أنتظر حتى مطلع الفجر !.

دفع ياسين كمال وهو يقول :

ـــ ادخل معها وسوف أنتظر أنا ..

ولكن كمال تقهقر وهو يهز رأسه بالرفض القاطع ، ثم تكلم لأول مرة قائلا :

ـــ كلا .. ليس .. ليس الليلة .

ودس يده فى جيبه فأخرج نصف ريال ثم أعطاه المرأة . فهتف ياسين بإعجاب :

ـــ تحيا الشهامة !، لكننى لن أتركك وحدك ..

وربت كتف وردة مودعا ، ثم تأبط ذراع كمال وذهبا معا حتىّ غادرا البيت ، قال ياسين :

ـــ يجب أن نحتفل بهذه الليلة ، فلنمض بعض الوقت فى بار ، إنى عادة أشرب فى شارع محمد على مع نفر من الموظفين وغيرهم ، ولكن المكان غير مناسب لك فضلا عن بعده ، فلنختر مكانا قريبا حتى نتمكن من العودة

مبكرين ، بت حريصا مثلك على العودة المبكرة منذ زواجى الأخير ، أين سكرت يا بطل ؟..

غمغم كمال فى حياء :

ـــ فنش ..

ـــ عال !، هلم بنا إليه ، تمتع بوقتك دون تهاون ، فغدا حين تصبح معلما سيتعذر عليك زيارة هذا الحى ببيوته وحاناته (ثم وهو يضحك) : تصور أن يلقاك هنا أحد تلاميذك !، على أن ميدان اللهو واسع وسوف تتدرج فيه من حسن إلى أحسن ..

ومضيا إلى فنش صامتين ـــ كان من حسن الحظ أن العلاقة بين ياسين وكمال لم تفتر بعد هجرة ياسين للبيت القديم ، ولم يكن بينهما كلفة ، إذ كان من طبع ياسين ألا يعنى بحقوقه التى تكفلها له مكانته فى الأسرة ، إلى أن مخالطة كمال له واطلاعه على سيرته عن كثب واستماعه إلى ما يقال عنه جعلته يؤمن بولع أخيه بالنساء وميله مع الأهواء ، ولكنه رغم هذا كله قد بوغت بلقائه فى بيت وردة مباغتة عنيفة ، إذ لم يذهب به الخيال إلى حد تصور ياسين سكيرا أو متسكعا فى هذا الدرب !، وبمرور الوقت أخذ يتخفف رويدا رويدا من وقع المفاجأة ، كما مضى الشعور بالانزعاج يزايله ، ثم حل محله إحساس بالطمأنينة بل بالارتياح . ولما بلغا فنش وجداه مكتظا بالجلوس ، فاقترح ياسين أن يجلسا فى الخارج ، واختار مائدة عند طرف الطوار على ناصية الطريق ليبتعدا ما أمكن عن الناس ، ثم جلسا متقابلين وهما يبتسمان :

ـــ أشربت كثيرا ؟

أجاب كمال بعد تردد :

ـــ كأسين ..

ـــ لا شك أن لقاءنا غير المتوقع طير أثرهما ، فلنعد الكرة ، أما أنا فلا أشرب إلا قليلا ، سبعة أو ثمانية ..

ـــ يا خبر !. أيعد هذا قليلا ؟!.

ـــ لا تدهش كالسذج فإنك لم تعد ساذجا ..

ـــ على فكرة ، قبل شهرين لم أكن أدرى شيئا عن طعمها ..

فقال ياسين كالمستنكر :

ــ شهرين !!، يبدو أنى احترمتك أكثر مما تستحق !.

وضحكا معا . ثم طلب ياسين كأسين ، وعاد يتساءل :

ــ ومتى عرفت وردة ؟

ــ عرفت وردة والويسكى فى ليلة واحدة ..

ــ وما خبرتك بالنساء عدا ذلك ؟

ــ لا شىء ..

فحنى ياسين رأسه وهو ينظر إليه من تحت حاجبيه مقطبا فى ابتسام ، كأنما يقول له « اطلع من دول » ، ثم قال :

ــ إياك وادعاء البلاهة ، لم يفتنى أن أطلع فى زمن مضى على مناورات كانت تدور بينك وبين بنت أبو سريع صاحب المقلى ، تارة بالعين وتارة بالإشارة ، هه ؟، هذه الأمور لا تخفى على الخبير يا عكروت ، ولكن لا شك أنك قنعت بالعبث السطحى حتى لا تجد نفسك مضطرا إلى مصاهرة عم أبو سريع ، كما صاهرت حماتى السابقة بيومى الشربتلى ، هه ؟، وها هو قد أصبح من ذوى الأملاك وجاركم الملاصق !، ترى أين اختفت مريم ؟، لا أحد يعلم عنها شيئا ، كان أبوها رجلا طيبا ، ألا تذكر السيد محمد رضوان ؟، فانظر ما آل إليه بيته ؟!، لكنها الأخلاق لا تستهين بها امرأة إلا هانت !

فما تمالك كمال أن ضحك متسائلا :

ــ والرجل ألا يلحقه من استهانته شىء ؟

فضحك ياسين ضحكته الكبيرة ، وقال :

ــ الرجل غير المرأة يا طويل اللسان ، خبرنى كيف حال والدتك ؟، الست الطيبة ، ألا زالت حانقة علىّ حتى بعد طلاق مريم ؟.

ــ لا أظنها تذكر شيئا من الأمر كله ، قلب أبيض كما تعلم ..

فأمن على قوله ، ثم هز رأسه كالآسف . وجاء النادل بالشراب والمزة ، وسرعان ما رفع ياسين كأسه وهو يقول : « صحة آل أحمد » ، فرفع كمال كأسه ثم شرب نصفها على أمل أن يسترد ما ذهب من مرحه ، وقال ياسين بفم مملوء بالخبز الأسود والجبن :

ـــ كان يخيل إليّ أنك ستكون أقرب إلى خلق والدتك ، كما كان المرحوم ، فتنبأت لك بالاستقامة ، ولكنك ، ولكننا ..

وحدجه كمال بنظرة متسائلة ، فعاد يقول باسما :

ـــ لكننا خلقنا على مثال أبينا ..

ـــ أبينا !، إنه الجد الذى لا تطاق معه الحياة !..

فقهقه ياسين عاليا ، وتريث قليلا ، ثم قال :

ـــ إنك لا تعرف أباك ، وقد كنت أجهله مثلك ، ثم تكشف لى عن رجل آخر قلَّ أن يجود الزمان بمثله .

وتوقف عن الكلام ، فقال كمال بحب استطلاع واهتمام :

ـــ ماذا عرفت مما لم أعرف ..؟

ـــ عرفت أنه قطب اللطافة والطرب ، لا تحملق فىّ كالمعتوه ، ولا تظننى سكران ، والدك عمدة الفكاهة والطرب والعشق !

ـــ أبى ؟..

ـــ أول ما عرفته فى بيت زبيدة العالمة ..

ـــ زبيدة ماذا ؟.. ها .. ها ..

ولكن وجه ياسين بدا أبعد ما يكون عن الهزل ، فكف كمال عن الضحك قبل أن تزايل أساريره هيئة الضحك ، ثم أخذ فمه يضيق رويدا رويدا حتى انطبقت شفتاه فحملق فى وجه أخيه صامتا وهذا يحدثه عما رأى أو سمع عن أبيهما فى تبسط وإسهاب . هل يفترى ياسين على أبيه كذبا ؟. كيف يمكن أن يقع هذا وأى بواعث تبرره ؟!. كلا إنه لا ينطق إلا بما علم ، وهذا إذن هو أبوه ، رباه ! والجد والجلال والوقار ما أمرها ؟! إذا سمعت غدا أن الأرض مسطحة أو أن أصل الإنسان هو آدم فلا تدهش ولا تنزعج ، وأخيرا تساءل :

ـــ أتدرى والدتى بذلك ؟

ياسين وهو يضحك :

ـــ لا شك أنها تدرى بسكره على الأقل ..

ترى كيف كان أثر ذلك فى نفسها هى التى تفزع من لا شىء ؟!، أتكون أمى ـــ مثلى ـــ ظاهرا من السعادة وباطنا من الشقاء ؟!. قال وكأنه ينتحل أسبابا

للدفاع لا يؤمن بها :

ــ الناس هواة مبالغة فلا تصدق جميع ما يزعمون ، ثم إن صحته تدل على أنه رجل معتدل فى حياته .

فقال ياسين بإعجاب ، وهو يشير إلى النادل أن يعيد الكرَّة :

ــ إنه أعجوبة !. جسمه معجزة ، وروحه معجزة ، كل شيء فيه معجزة ، حتى طول لسانه (ضحك منهما معا) .. تصور أنه بعد هذا كله يحكم آله كما تعلم ويحافظ على جلاله واحترامه كما ترى !.. ما أضيعنى !..

تأمل هذه العجائب : أنت وياسين تتشاربان ! أبوك شيخ ماجن ! هل ثمة حقيقى وغير حقيقى ؟! ما علاقة الواقع بما فى رءوسنا ؟، ما قيمة التاريخ ؟، ما العلاقة بين عايدة المعبودة وعايدة الحبلى ؟، أنا نفسى ما أنا ؟! لماذا تألمت ذلك الألم الوحشى الذى لم أبرأ منه بعد ؟، اضحك حتى تنفق .

ــ ما عسى أن يقع لو رآنا بمجلسنا هذا ؟

فرقع ياسين بأصبعه ، ثم قال :

ــ أعوذ بالله !.

ــ وهل زبيدة جميلة حقا ؟

فصفر ياسين وهو يرعش حاجبيه :

ــ أليس من الظلم أن يتمتع أبونا بالدسم ، على حين لا نجد نحن إلا الفتات ؟

ــ انتظر حظك ، ما زلت فى أول الطريق .

ــ ألم يتغير سلوكك معه بعد وقوفك على سره ؟

ــ إلا هذا !

لاحت نظرة حالمة فى عينى كمال وهو يقول :

ــ ليته أعطانا من لطفه نصيبا !

ــ ليته ..

ــ ما كان أمرنا ليفسد أكثر مما فسد !

ــ حب النساء والخمر ليس من الفساد فى شيء ..

ــ وكيف تفسر سلوكه على ضوء إيمانه العميق ؟

ــ وهل أنا كافر ؟!، وهل أنت كافر ؟!، وهل كان الخلفاء كفرة ؟، الله غفور

رحيم !..

ما عسى أن يكون جواب أبى ؟، شد ما أتوق إلى مناقشته ، كل شيء محتمل إلا أن يكون منافقا ، كلا ليس هو بالمنافق ، وما أزداد له إلا حبا !. وغمرته الجرعة الأخيرة رغبة فى الدعابة ، فقال :

ــ من المؤسف أنه لم يتعلم فن التمثيل !.

فضحك ياسين ضحكة عالية ، وقال :

ــ لو علم بما يتهيأ للممثل من حياة حافلة بالنساء والخمر لكرس حياته للفن !..

أهذا الكلام الهازىء عن السيد أحمد عبد الجواد حقا !، ولكن هل يكون هو أجلّ من آدم ؟، ومع ذلك فالمصادفة وحدها هى التى عرفتك بحقيقة الرجل ، والمصادفة هى التى لعبت فى حياتك أخطر الأدوار ، لو لم أصادف ياسين فى الدرب لما انقشعت عن عينى غشاوة الجهل ، لو لم يجذبنى ياسين على جهله إلى القراءة لكنت اليوم فى مدرسة الطب كما تمنى أبى ، ولو التحقت بالسعيدية ما عرفت عايدة ، ولو لم أعرف عايدة لكنت إنسانا غير الإنسان ولكان الكون غير الكون ، ثم يحلو للبعض أن يعيب على دارون اعتماده على المصادفة فى تفسير آلية مذهبه . قال ياسين مستعيرا لهجة الحكيم :

ــ سوف تعلمك الأيام ما لم تعلم ..

ثم وهو يسخر من نفسه :

ــ ها هى تعلمنى أن أقضى لذاتى مبكرا حتى لا أثير شكوك زوجتى ..

وهز رأسه وهو ينظر إلى عينى كمال المتسائلتين الباسمتين ، ثم استطرد :

ــ إنها أقوى زوجاتى الثلاث ، ويخيل إلى أننى لن أتخلص منها !

فسأله كمال باهتمام وهو يشير ناحية الدرب :

ــ ما الذى جاء بك إلى هذا وأنت متزوج للمرة الثالثة ؟

فردد ياسين الجملة المشهورة من الأغنية التى سمعها كمال أول ما سمعها فى دخلة عائشة :

ــ علشان كده .. علشان كده .. علشان كده ..

ثم قال مبتسما فى شيء من الارتباك :

ــ قالت لى زنوبة مرة « أنت لم تتزوج قط ، كنت تعتبر الزواج نوعا من

العشق ، وقد آن لك أن تنظر إليه بعين الجد » ، أليس غريبا أن يصدر هذا القول عن عوادة ؟!، ولكنها فيما يبدو أحرص على الحياة الزوجية من سابقتيها ، وهى مصممة على أن تبقى زوجة لى حتى تغمض عينى ، لكننى لا أستطيع أن أقاوم النسوان ، سرعان ما أحبهن وسرعان ما أملّهن ، لذلك عمدت إلى هذه الدروب لأقضى اللبانة مبكرا دون التورط فى عشق طويل ، ولولا الملل ما سعيت إلى امرأة فى درب طياب !.

فسأله كمال باهتمام متزايد :

ــ أليست هى امرأة ككل النساء ؟

ــ كلا ، إنها امرأة بلا قلب ، الهوى عندها سلعة !

فعاد كمال يسأل وعيناه تلمعان بالأمل :

ــ ماذا ترى من اختلاف بين امرأة وأخرى ؟

هز ياسين رأسه فى زهو إدلالا بالمكانة التى وضعته فيها أسئلة كمال ، ثم أجاب بلهجة خبير :

ــ درجة المرأة تتقرر فى كادر النساء تبعا لمزاياها الأخلاقية والعاطفية بصرف النظر عن أسرتها ومركزها ، فزنوبة مثلا أفضل عندى من زينب لأنها أعمق عاطفة وأشد إخلاصا وحرصا على الحياة الزوجية ، ولكنك فى النهاية تجدهن شيئا واحدا ، عاشر الملكة بلقيس نفسها فلا محيص من أن تجدها آخر الأمر منظرا مُعادا ونغمة مكررة ..

خبا اللمعان فى عينى كمال ، ترى هل أمست عايدة منظرا معادا ونغمة مكررة ؟!، ما أبعد هذا التصور عن التصديق !، ولكن ما أنت إلا صريع الواقع ، وحتى الشماتة بها تكبر عليك وتعز ، وإنه لمما يبعث على الجنون أن يعلم المعبود الذى تذهب النفس حسرة عليه أنه كان فى وسع الأيام أن تجعل منه منظرا معادا ونغمة مكررة ، بل أى الحالين أحب إليك إن استطعت جوابا ؟، غير أنى أتحسر أحيانا على الملل من شدة الشوق كما يتحسر ياسين على الشوق من شدة الملل ، وارفع رأسك أخيرا إلى رب السماوات وسله عن حل سعيد :

ــ ألم تحب أبدا ؟

ــ إذن ما هذا الذى أنا غارق فيه ؟!

ـــ أعني حبا حقيقيا لا هذه الشهوة العابرة..؟

أفرغ كأسه الثالثة ، ومسح على فمه بظاهر كفه ، ثم فتل شاربه وقال :

ـــ لا تؤاخذنى ، الحب يتركز عندى فى بعض مواضع كالفم واليد الخ الخ .

ياسين جميل ، ما كانت لتسخر من رأسه أو أنفه ، ولكنه بما قال يبدو حقيقا بالرثاء ، كأن الإنسان لا يكون إنسانا إلا أن يحب ، ولكن ما جدوى ذلك وما جنيت من الحب إلا الألم ؟!. واستطرد ياسين قائلا ، وهو يحثه بالإشارة على الفراغ من كأسه :

ـــ لا تصدق ما يقال عن الحب فى الروايات ، الحب عاطفة أيام أو أسابيع مع حسن الظن !

كفرت بالخلود ولكن هل نسيان الحب ممكن ؟، لم أعد كما كنت ، إنى أتسلل من جحيم العذاب فتشغلنى الحياة حينا حتى أرجع إليه ، وكان الموت قبلتى واليوم ثمة حياة ولو بلا أمل ، العجب أنك تثور على فكرة النسيان كلما خطرت ، كأنما تعانى تبكيت الضمير ، أو لعلك تخاف أن ينكشف أجلّ ما قدست عن وهم ، أو أنك تأبى على يد العدم أن تعبث بالحياة الرائعة التى بدونها تغدو ومن لم يولد سواء ، لكن ألا تذكر لم بسطت الراحتين داعيا الله أن ينتشلك من العذاب وأن يلهمك النسيان ؟!.

ـــ ولكن الحب الحقيقى موجود ، نقرأ حوادثه فى الصحف لا فى الروايات ..

ابتسم ياسين ابتسامة ساخرة ، ثم قال :

ـــ بالرغم من أننى مبتلى بحب النسوان فإننى لا أعترف بهذا الحب ، إن المآسى التى تقرأ أخبارها تتحدث فى الواقع عن شبان غير مجربين ، أسمعت عن مجنون ليلى ؟، لعل له نظائر فى هذه الحكايات ، ولكن المجنون لم يتزوج من ليلى ؟، دلنى على شخص واحد جن بحب زوجته !، وا أسفاه !، إن الأزواج عقلاء جدا ، عقلاء ولو كرهوا ، أما الزوجة فيبدأ بالزواج جنونها ، لأنها لا تقتنع بأقل من أن تزدرد زوجها ، ويخيل إلىّ أن المجانين يصيرون عشاقا لأنهم مجانين لا أن العشاق يصيرون مجانين لأنهم عشاق ، تراهم يتحدثون عن المرأة كأنما يتحدثون عن ملاك ، والمرأة ليست إلا امرأة ، طعام لذيذ سرعان ما تشبع منه ، دعهم يشاركونها الفراش ليطلعوا على منظرها عند الاستيقاظ وليشموا رائحة عرقها وسائر الروائح التى قد تصدر

عنها وليحدثونى بعد ذلك عن الملاك . فتنة المرأة ما هى إلا طلاء أو أداة إغراء حتى تقع فى الشرك وعند ذاك يبدو لك المخلوق الآدمى على حقيقته : لذلك فالأبناء ومؤخر الصداق والنفقة الشرعية هى سر قوة الزواج لا الجمال أو الفتنة ..

ما كان أجدره أن يغير رأيه لو رأى عايدة ، غير أنه ينبغي أن تفكر من جديد فى أمر الحب . كنت تراه وحيا ملائكيا ولكن لم يعد للملائكة وجود فابحث فى ذات الإنسان واسلكه ضمن الحقائق الفلسفية والعلمية التى تتشوف إلى اقتحامها ، بذلك تقف على سر مأساتك وتكشف النقاب عن سر عايدة المكنون ، لن تجدها ملاكا ولكن باب السحر سيفتح لك مصراعيه ، أما الوحم والحبل والمنظر المعاد وسائر الروائح فما أتعسنى !.

قال كمال بأسى لم يفطن إليه أخوه :

ــ الإنسان مخلوق قذر ، ألم يكن من الممكن أن يخلق خيرا وأنظف مما كان ؟!

رفع ياسين رأسه دون أن ينظر إلى شىء بالذات ، وقال بسرور عجيب :

ــ الله .. الله ، النفس شعشعت واستحالت أغنية ، وانقلبت الأعضاء آلات طرب ، والدنيا حلوة ، والكائنات حبيبة للقلب ، والجو عذب ، والحقيقة خيال ، والخيال حقيقة ، أما المنغصات فأسطورة ، الله .. الله ، ما أجمل الخمر يا كمال ، الله يطول عمرها ويديمها علينا ويعطينا الصحة والعافية لنشربها حتى آخر العمر ، ويخرب بيت الذى يمسها بسوء أو يتقول عليها بغير الحق ، تأمل هذه النشوة الحلوة ، تأمل ، أغمض عينيك ، هل وجدت لذة كهذه ؟. الله .. الله .. الله ، (ثم وهو يخفض رأسه ناظرا إلى كمال) .. ماذا قلت يا ولدى ؟. الإنسان مخلوق قذر ؟. أساءك ما قلت عن المرأة ؟. لم أتكلم لأثير اشمئزازك منها ، الواقع أنى أحبها ، أحبها بكل ما فيها ، ولكنى أردت أن أبرهن لك على أن المرأة الملاك لا وجود لها بل لا أدرى إن كنت أحبها إن وجدت !. فإنى مثلا ــ كأبيك ــ أحب الأرداف الثقيلة ، ولو كان الملاك ذا أرداف ثقيلة لتعذر عليه الطيران ، افهمنى جيدا ولا تسىء فهما وحياة أبينا السيد أحمد ..

وما لبث كمال أن شاركه نشوته ، فقال :

ــ لشد ما تبدو الدنيا محبوبة إذا سرت الخمر فى الروح !..

ــ يسلم فمك ، حتى النغمة المألوفة يترنم بها شحاذ الطريق تقع من الأذن موقع

السحر ..

ــ حتى أحزاننا تبدو كأنها أحزان شخص آخر ..

ــ بخلاف نساء الشخص الآخر ، فإنها تبدو وكأنها نساؤنا ..

ــ هما شيء واحد يا بن أبى ..

ــ الله .. الله ، لا أريد أن أفيق ..

ــ من رذالة الحياة أنها لا تمكننا من الاستمرار فى السكر كما نهوى ..

ــ ليكن فى معلومك أننى لا أرى فى السكر لهوا ، ولكن غاية سامية كالمعرفة والمثل الأعلى ..

ــ إذن فأنا فيلسوف كبير !

ــ عندما تؤمن بما قلت وليس قبل ذلك ..

ــ الله يطول عمرك يا أبى ، فقد أنجبت فلاسفة مثلك !

ــ لم يبدو الإنسان تعيسا مع أنه لا يطلب أحسن من كأس وما أكثر القوارير ، وامرأة وما أكثر النساء ؟!

ــ لمه ؟.. لمه ؟..

ــ سأجيبك عندما أشرب كأسا أخرى ..

ــ كلا ..

قال ياسين ذلك بصوت وشى بصحوة طارئة ، ثم استطرد محذرا :

ــ لا تفرط ، إنى شريكك الليلة فأنا مسئول عنك ، كم الساعة الآن ؟..

وأخرج ساعته فنظر فيها ، ثم هتف :

ــ منتصف الواحدة ، وقع المحذور يا بطل ، كلانا قد تأخر ، ووراءك أبونا وورائى زنوبة ، قم بنا ..

ولم تمض دقائق حتى غادرا البار ، فاستقلا عربة انطلقت بهما صوب العتبة ، دارت العربة حول سور الأزبكية فى طريق يسوده الظلام ، وبين آونة وأخرى يرى عابر مهرولا أو مترنحا ، وكلما مرت العربة بشارع مقاطع ترامى إليهما صوت غناء تحمله نسمة رطيبة ، أما فوق المبانى وأشجار الحديقة الباسقة فقد تألقت النجوم اليواقظ .

قال ياسين ضاحكا :

ــ أستطيع الليلة أن أحلف غير متحرج بأننى لم آت منكرا ..

فقال كمال فى شىء من القلق :
ــ أرجو أن أصل إلى البيت قبل أبى ..
ــ الخوف شر أنواع التعاسة ، لتحيا الثورة !.
ــ أجل لتحيا الثورة !
ــ لتسقط الزوجة المستبدة !.
ــ ليسقط الأب المستبد !.

٣٧

طرق كمال الباب فى خفة حتى فتح عن شبح أم حنفى ، ولما عرفته قالت بصوت هامس :
ــ سيدى الكبير على السلم ..
فانتظر وراء الباب حتى يطمئن إلى وصول أبيه إلى الدور الأعلى ، غير أن صوته جاء من داخل السلم وهو يسأل بشدة :
ــ من الطارق ؟
فخفق قلبه ولم ير بدا من التقدم وهو يجيبه :
ــ أنا يا بابا ..
تراءى له شبح أبيه على بسطة الدور الأول على حين لاح ضوء المصباح الذى تمسك به الأم فى أعلى السلم ، ونظر السيد إليه من فوق الدرابزين ، وهو يتساءل فى دهش :
ــ كمال ؟!.. ما الذى أخرك خارج البيت حتى هذه الساعة ؟
أخرنى الذى أخرك ..
قال بإشفاق :
ــ ذهبت إلى المسرح لأشهد التمثيلية المقررة علينا هذا العام ..
فصاح ساخطا :
ــ هل أصبحت المذاكرة فى المسارح ؟!. ألا يكفى أن تقرأ وتحفظ ؟، كلام فارغ سمج ، ولم لم تستأذنى ؟.

توقف كمال على بعد درجات من موقف أبيه ، وقال معتذرا :

ـــ لم أتوقع أن تمتد السهرة إلى هذه الساعة المتأخرة .

فقال الرجل بغضب :

ـــ شف لك طريقة أخرى للمذاكرة ودعك من الأعذار السخيفة ..

ومضى يرقى فى السلم وهو يدمدم ، فترامت إليه كلمات من دمدمته مثل « مذاكرة المسارح على آخر الزمن » ، « الساعة واحدة بعد منتصف الليل » ، « حتى الأطفال » ، « ملعون أبوك وأبو التمثيلية المقررة » . ارتقى السلم حتى الدور الأخير ومضى إلى الصالة ، فتناول مصباحا مضاء من فوق منضدة ودخل حجرته مكفهر الوجه ، وضع المصباح على المكتب ووقف مستندا بكلتا يديه يتساءل عن تاريخ آخر شتيمة قذفه بها أبوه فلم يتذكره على وجه التحديد ، ولكنه كان واثقا من أن سنوات دراسته العالية مرت فى سلام وكرامة ، ولذلك وقعت اللعنة من نفسه ـــ رغم أنه لم يواجه بها ـــ موقعا أليما . وتحول عن مكتبه فخلع طربوشه وشرع فى نزع ملابسه ، وعلى حين فجأة شعر بدوار فى رأسه وجزع فى معدته ، فغادر الحجرة مسرعا إلى الحمام حيث قذف جوفه بما فيه فى عنف ومرارة ، وعاد إلى الحجرة مرة أخرى منهوك القوى متقزز النفس يجد فى صدره ألما أشد وأعمق ، وخلع ملابسه وأطفأ المصباح ثم استلقى على الفراش وهو ينفخ فى ضيق وضجر ، ولكن لم تمض دقائق حتى سمع الباب وهو يفتح برفق ، ثم جاءه صوت أمه متسائلا فى إشفاق :

ـــ نمت ..؟

فقال بلهجة طبيعية راضية ليصرفها عنه ويخلو إلى ما هو فيه :

ـــ نعم ..

فتدانى شبحها من الفراش حتى وقفت فوق رأسه ، ثم قالت كالمعتذرة :

ـــ لا تتكدر ، أنت أعلم الناس بأبيك ..

ـــ مفهوم .. مفهوم !.

فقالت وكأنما أرادت أن تفصح عما ساورها هى :

ـــ إنه مطلع على جدّك واستقامتك ، ومن هنا جاء إنكاره لتأخرك غير المألوف حتى هذه الساعة ..

فركبه الغيظ حتى لم يتمالك من أن يقول :

ـــ إذا كان السهر يستوجب كل هذا الإنكار ، فلماذا يواظب هو عليه ؟!

حال الظلام دون رؤية ما ارتسم على وجهها من دهش وإنكار ، لكنه سمعها تضحك من أنفها لتوهمه بأنها لم تحمل قوله على محمل الجد ، وقالت :

ـــ كل الرجال يسهرون ، وسوف تصير رجلا عما قريب ، أما الآن !. وأنت طالب ..

فقاطعها قائلا بلهجة من يود الفراغ من الحديث :

ـــ مفهوم .. مفهوم ، لم أقصد بقولى شيئا ، لماذا تعبت نفسك بالمجىء إلى ؟. عودى مصحوبة بالسلامة ..

قالت برقة :

ـــ خفت أن تكون متكدرا ، سأتركك الآن ولكن عدنى بأن تنام صافى النفس ، اقرأ الصمدية حتى يأتيك النوم ..

وشعر بابتعادها ، ثم سمع الباب وهو يغلق وصوتها يقول « مساء الخير » . نفخ مرة أخرى ، وراح يمسح صدره وبطنه وهو يحملق فى الظلام .. أما مذاق الحياة كلها فكان مرا ، أين ذهبت نشوة الخمر الساحرة ؟، وما هذا الكرب الخانق الذى حل محلها ؟، ما أشبهه بخيبة الحب التى ورثت أحلامه السماوية ، ومع ذلك فلولا الأب ما انقلب حاله . هذه القوة الجبارة التى يخافها كل الخوف ، يخافها ويحبها معا ، ما كنهها ؟. ليس إلا رجلا لولا مرحه الذى خص به الغرباء لم يكن شيئا ، فكيف يخافه ؟. وحتى متى يذعن لقوة هذا الخوف ؟. إنه وهم كسائر الأوهام التى امتحن بها ، ولكن ما جدوى المنطق فى مقاومة العواطف الثابتة ؟. وقد قرعت يداه يوما أبواب عابدين فى المظاهرة الكبرى التى تحدت الملك هاتفة « سعد أو الثورة » ، فتراجع الملك واستقال سعد من الوزارة ... أما حيال أبيه فإنه يصير لا شىءً . كل شىء تغير مدلوله ومعناه ، الله .. آدم .. الحسين .. الحب .. عايدة نفسها .. الخلود . قلت الخلود ؟. نعم ، فيما يجرى على الحب وفيما جرى على فهمى ، ذلك الأخ الشهيد الذى استضافه الفناء إلى الأبد ، أتذكر التجربة التى قمت بها وأنت فى الثانية عشرة من عمرك لتعرف مصيره المجهول ؟.. يا للذكرى المحزنة !.. اقتنصت عصفورة من عشها ثم خنقتها ، وكفنتها وحفرت لها قبرا صغيرا فى فناء البيت على

كثب من البئر القديم ثم دفنتها فيه ، وبعد أيام أو أسابيع نبشت القبر وأخرجت الجثة ، فماذا رأيت وماذا شممت ؟. وذهبت إلى أمك باكيا تسألها عن مصير الميت ، كل ميت ، ومصير فهمى فهمى خاصة فلم يصدك عنها إلا إفحامها فى البكاء ، فماذا بقى من فهمى بعد سبع سنوات ؟. وماذا سيبقى من الحب ؟. وعم تمخض الأب الجليل ؟.

ألفت عيناه ظلام الحجرة فتراءى المكتب والمشجب والكرسى والصوان أشباحا قائمة ، وندت عن الصمت نفسه أصوات مبهمة ، وامتلأ رأسه بالأرق المحموم ، أما مذاق الحياة فازداد مرارة ، وتساءل هل غط ياسين فى نومه ؟، وعلى أى حال كان لقاء زنوبة له ؟، وهل آوى حسين إلى فراشه الباريسى ؟، وعلى أى جانب تنام عايدة الآن ؟، وهل تكور بطنها واندلاح ؟، وماذا يفعلون فى نصف الكرة الآخر الذى تتربع الشمس فى كبد سمائه ؟.. والكواكب المنيرة ، أليس ثمة حياة تعمرها خالية من التعاسة ؟، وهل يمكن أن يسمع أنينه الخافت فى ذلك الأوركسترا الكونى اللانهائى ؟!.

أبى !، دعنى أكاشفك بما فى نفسى ، لست ساخطا على ما تكشف لى من شخصك ، فإن ما كنت أجهله منك أحب إلىَّ مما كنت أعرف ، إنى معجب بلطفك وظرفك ومجونك وعربدتك ومغامراتك ، ذلك الجانب الدميث منك الذى يعشقه جميع عارفيه ، وهو إن دل على شىء فعلى حيويتك وهيامك بالحياة والناس ، ولكنى أسائلك لم ارتضيت أن تطالعنا بهذا القناع الفظ المخيف ؟. لا تعتل بأصول التربية فأنت أجهل الناس بها ، وآى ذلك ما ترى وما لا ترى من سلوك ياسين وسلوكى ، فما فعلت إلا أن آذيتنا كثيرا وعذبتنا كثيرا بجهل لا يشفع لك فيه حسن نيتك ، لا تجزع فإنى ما زلت أحبك وأعجب بك ، وسأبقى على الدوام مخلصا لحبك والإعجاب بك ، غير أن نفسى تضمر لك لوما شديدا يعادل ما جرعتنى من ألم ، لم نعرفك صديقا كما عرفك الغرباء ، ولكن عرفناك حاكما مستبدا شرسا طاغية ، كأنما كنت أول مقصود بالمثل القائل « عدو عاقل خير من صديق جاهل » ، لذا سأكره الجهل أكثر من أى شىء فى الحياة ، فهو المفسد لكل شىء حتى الأبوة المقدسة . خير منك أب له نصف جهلك ونصف حبك لأبنائك ، وأنى أعاهد نفسى ـــ إذا صرت يوما أبا ـــ أن أكون لأبنائى الصديق قبل

أن أكون المربى ، غير أنى ما زلت أحبك وأعجب بك حتى بعد أن زايلتك صفات الألوهية التى توهمتها فيما مضى عيناى المسحورتان . أجل لم تعد قوتك إلا أسطورة ، فلست مستشارا كسليم بك ولا غنيا كشداد بك ولا زعيما كسعد زغلول ولا داهية كثروت ولا نبيلا كعدلى . ولكنك صديق محبوب وحسبك هذا ، وما هو بالقليل ، فليتك لم تضن علينا بصداقتك ، ولكن لست وحدك الذى تغيرت فكرته ، الله نفسه لم يعد الله الذى عبدته قديما ، إنى أغربل صفات ذاته لأنقيها من الجبروت والاستبداد والقهر والدكتاتورية وسائر الغرائز البشرية ، ولست أدرى أين ينبغى أن أشكم الفكر ولا إن كان من الفضيلة أن أشكمه ، بل إن نفسى تحدثنى بأنى لن أقف عند حد وبأن النضال على عذابه خير من الاستكانة والنوم — قد لا يهمك هذا بقدر ما يهمك أن تعلم أنى قررت أن أضع حدا لاستبدادك ، استبدادك الذى يغشانى كما يغشانى هذا الظلام المحيط ، والذى يؤلمنى كما يؤلمنى هذا الأرق اللعين ، أما الخمر فلن أذوقها جزاء خيانتها لى ، وا أسفاه !، إذا كانت الخمر أيضا وهما خادعا فما بقى للإنسان ؟. أقول لك إنى قررت أن أضع حدا لاستبدادك ، لا بالتحدى والعصيان فأنت أكرم على نفسى من أن أفعل بك هذا ، ولكن بالهجرة !، أجل لأهاجرن من بيتك حال أقف على قدمى ، وفى أحياء القاهرة متسع لكل مضطهد ، أتدرى ماذا كانت عواقب حبى لك رغم استبدادك بى ؟ أنى عبدت مستبدا آخر طالما ظلمنى بظاهره وباطنه معا ، استبد بى دون أن يحبنى ، ورغم ذلك كله عبدته من أعماق ولا زلت أعبده ، فأنت أول مسئول عن حبى وعذابى . ترى ما نصيب هذه الفكرة من الحقيقة ؟!، لست مرتاحا إليها ولا متحمسا لها ، ومهما يكن من واقعية الحب فلا شك أنه يرجع إلى أسباب أعمق أصالة فى النفس ، فلنتركها الآن معلقة حتى نعود إليها بالدرس فيما بعد ، وعلى أى حال فأنت يا أبى الذى هوّنت علىَّ الإحساس بالظلم بمداومتك على الاستبداد بى ، وأنت يا أمى لا تحملقى فى وجهى بإنكار أو تتساءلى ما ذنبى وما جنيت على أحد ، إنه الجهل . هو جنايتك . الجهل .. الجهل .. الجهل . أبى هو الفظاظة الجاهلة ، وأنت الرقة الجاهلة ، وسوف أظل ما حييت ضحية هذين الضدين ، وجهلك أيضا هو الذى ملأ روحى بالأساطير ، فأنت همزة الوصل بينى وبين عالم الكهوف . وكم أشقى اليوم فى سبيل التحرر من آثارك كما سأشقى غدا فى سبيل

التحرر من أبى ، وما كان أحراكما أن توفرا علىَّ هذا الجهد المضنى ، لذلك أقترح ــ وظلام هذه الحجرة شهيد ــ أن تلغى الأسرة ــ هذه الحفرة التى يتجمع فيهاالماء الآسن ــ وأن تزول الأبوة والأمومة ، بل هبنى وطنا بلا تاريخ وحياة بلا ماض ، ولننظر الآن فى المرآة فماذا نرى ؟، هذا الأنف الضخم وهذا الرأس الكبير . أعطيتنى أنفك يا أبى دون مشورة أو رحمة فأنت تستبد بى حتى قبل أن أولد ، ومع أنه يبدو فى وجهك مهيبا جليلا فإنه ــ بذاته وشكله ــ يلوح مضحكا فى صفحة وجهى الضيقة كأنه جندى إنجليزى فى حلقة ذكر ، وأعجب منه رأسى لأنه لا إلى فصيلة رأسك ينتمى ولا إلى فصيلة رأس أمى فعن أى جد بعيد انحدر إلى ؟ فليظل ذنبه معلقا فوق رأسيكما حتى يتضح لى الحق . قبيل النوم يجب أن نقول « الوداع » فقد لا يطلع الصبح علينا . إنى أحب الحياة رغم ما فعلته بى على طريقة حبى إياك يا أبى . وفى الحياة أشياء جديرة بالحب وصفحة وجهها مليئة بعلامات الاستفهام مثيرة للشغف ، غير أن النافع فيها لا نفع فيه وما لا نفع فيه عظيم الشأن ، والراجح أنى لن أعود إلى تقبيل الكأس فقل وداعا أيتها الخمر ، ولكن مهلا . أذكر ليلة غادرت بيت عيوشة عاقدا العزم على ألا أقرب النساء ما حييت وكيف انقلبت بعد ذلك زبونها الأثير ، ويخيل إلىَّ أن الإنسانية تئن مثلى من الخمار والغثيان فادع لها بالشفاء العاجل ..

٣٨

فتر حماس ياسين حال انفراده بنفسه فى العربة بعد ذهاب كمال ، وبدا كالمتفكر رغم سكره ، إذ جاوزت الساعة الواحدة ودخل الوقت منذ كثير فى الهزيع المريب من الليل ، وسوف يجد زنوبة إما يقظى تنتظر وتغلى وإما أنها ستستيقظ حين دخوله ، وعلى أى حالين فلن تمر الليلة بسلام ، بسلام كامل على الأقل .

غادر العربة عند منعطف قصر الشوق ومضى يخوض الظلام الدامس وهو يهز كتفيه العريضين فى استهانة ويقول لنفسه بصوت هامس « ليس ياسين الذى يعمل حسابا لامرأة » ، وكرر هذا القول وهو يرقى فى الدرج مسترشدا فى الظلام بالدرابزين ، غير أن تكراره إياه لم ينم عن طمأنينة قاطعة . وفتح الباب ودخل ، ثم

مضى إلى حجرة النوم على ضوء مصباح الصالة ، وألقى على الفراش نظرة فرآها نائمة ، فردَّ الباب ليحول دون تسرب الضوء الخافت الآتى من الصالة ، وراح يخلع ملابسه فى هدوء وحذر وهو يزداد اطمئنانا إلى استغراقها فى النوم ، ويرسم فى ذهنه خطة للتسلل إلى موضعه فى الفراش دون أن يحدث صوتا .

ـــ أشعل المصباح لأكحل عينى برؤيتك !.

التفت رأسه نحو الفراش ثم ابتسم فى تسليم ، وأخيرا تساءل كالداهش :

ـــ أأنت يقظى ؟!، ظننتك نائمة فلم أشأ أن أزعجك !.

ـــ قلبك طيب ، كم الساعة الآن ؟

ـــ الثانية عشرة على الأكثر ، فإنى غادرت المجلس حوالى الحادية عشرة ، وجئت ماشيا واحدة واحدة ..

ـــ لازم كان مجلسك فى بنها !.

ـــ لماذا ؟.. هل تأخرت ؟

ـــ انتظر حتى يجيبك ديك الفجر بنفسه .

ـــ لعله لم ينم بعد !

وجلس على الكنبة ليخلع حذاءه وجوربه ولم يكن عليه إلا القميص والسروال ، وعند ذاك ندت عن السرير طقطقة ورأى شبحها يستوى جالسا ، ثم سمعها تقول فى حدة :

ـــ أشعل المصباح .

ـــ لا داعى لذلك ، فقد فرغت من خلع ملابسى .

ـــ أريد أن نصفى حسابنا فى النور ..

ـــ تصفية الحساب فى الظلام ألطف !

وصدرت عنها نفخة غيظ ثم غادرت الفراش ، ولكنه مد ذراعيه من مجلسه القريب فأصاب منكبها فجذبها إلى الكنبة وأجلسها إلى جانبه وهو يقول :

ـــ لا تشعلى الفتنة ..

تخلصت من يده ، وقالت :

ـــ أين ما تعاهدنا عليه ؟. لقد قبلت أن تسكر فى الحانات كما تحب على شرط أن تعود إلى بيتك فى وقت مبكر ، قبلت هذا على رغمى لأنك لو سكرت فى بيتك

لوفرت على نفسك مالا كثيرا يضيع هباء ، ومع ذلك فها أنت تعود قبيل الفجر غير مبال بما تعاهدنا عليه !

من يستطيع أن يخادع ربيبة التخت والعود ؟، وإذا ثبتت لها خيانتك يوما فهل تقف عند حد الشجار أم ..؟ ، فكر مرتين ، ولا تنس كذلك أن فقدها لا يهون ، إنها أحب زوجاتى إلىَّ خبيرة بما يسعدنى ، متمسكة بحياتنا ، اولا الملل ..!

ـــ كنت فى مجلس كل ليلة لم أغادره إلا إلى بيتى ، وعندى شاهد تعرفينه ، أتدرين من هو ؟ (وضحك بصوت عال) ..

ولكنها قالت ببرود :

ـــ تكلم فى الموضوع !.

فقال وهو لا يزال يضحك :

ـــ كان جليسى الليلة أخى كمال !

فلم تدهش كما توقع ، وقالت فى نفاد صبر :

ـــ من يشهد للعروس ؟!

ـــ لا تكابرى !.. براءتى كالشمس !.. (ثم متأففا) .. يحزننى والله أن ترتابى فى سلوكى ، شبعت من الدوران حتى المرض ، ولا رغبة لى الآن إلا الحياة الهادئة ، أما الحانة فتسلية بريئة لا غبار عليها ، ولا بد للإنسان من مخالطة الناس ..

فقالت بصوت دلت نبراته على الانفعال :

ـــ آه منك . أنت تعلم أنى لست طفلة ، وأن الضحك علىَّ مطلب عسير ، وأنه من الخير لكلينا ألا تدخل بيننا الريبة !..

موعظة أم وعيد ؟!. أين منى حياة أبى المثالية ، الرجل الذى يفعل ما يشاء فإذا رجع إلى بيته وجد الاستقرار والحب والطاعة ، لم يتحقق لى هذا الحلم على يد زينب ولا مريم وأخلق به ألا يتحقق على يد زنوبة ، لا ينبغى لهذه العوادة الجميلة أن تيأس طالما هى على ذمتى !. قال بحزم :

ـــ لو كان بى رغبة إلى مزيد من الحرام ما تزوجتك !..

فهتفت بحدة :

ـــ ولكنك تزوجت من قبل مرتين ، فلم يمنعك الزواج من الحرام !

نفخ ناشرا أنفاسا مخمورة ، ثم قال :

ـــ حالتك غير الحالتين السابقتين يا غبية ، الزوجة الأولى اختارها أبى وفرضها علىَّ ، والزوجة الثانية لم تجعل لى من سبيل إليها إلا بالزواج فتزوجتها ، أما أنت فلم يفرضك أحد علىَّ ، ولم يغلق بابك دونى قبل الزواج ، ولم يكن الزواج منك ليعدنى بشىء جديد لم أعرفه ، فلم تزوجتك يا غبية إن لم يكن الزواج نفسه ـــ أى الحياة المستقيمة المستقرة ـــ مطلبى ؟!، والله لو كان بك ذرة من عقل ما سمحت لنفسك بالشك فى أبدا ..

ـــ حتى إن جئتنى عند الفجر ؟!

ـــ حتى إن جئتك عند الصبح !

فهتفت بحدة :

ـــ نه ، قل كلاما آخر أو فعلى الأمن السلام !

فقال بحدة وهو يقطب فى نرفزة :

ـــ ألف سلام !

ـــ أرحل ، أرض الله واسعة والرزق على الله ..

فقال فى استهانة متعمدا :

ـــ أنت وشأنك ..

فقالت بصوت واش بالوعيد :

ـــ أرحل غير أنى كالشوكة لا تنتزع بيسر .

فتمادى فى الاستهانة بها قائلا :

ـــ خزعبلات !، تذهبين بأيسر مما يخلع الحذاء ..

ولكنها غيرت النغمة من التحدى والتهديد إلى التشكى ، فهتفت :

ـــ أأرمى بنفسى من النافذة فأريح وأستريح ..!

فهز كتفيه استهانة ، ثم نهض وهو يقول بلهجة أخف :

ـــ ثمة طريق أفضل هو أن تقومى إلى الفراش ، هلمى لننام واخزى الشيطان ..

اتجه نحو الفراش فاستلقى عليه وهو يتأوه كأنما طال به التشوق للرقاد ، أما هى فعادت تقول وكأنها تحدث نفسها :

ـــ مكتوب على من يعاشرك التعب ..

التعب مكتوب علىَّ أنا أيضا ، جنسك هو المسئول ، لا واحدة تغنى عن

الأخريات وقهر الملل فوق طاقتهن ، ولكن لن أعود إلى العزوبة مختارا ، لا أستطيع أن أبيع كل عام دكانا فى سبيل زواج جديد ، فلتبق زنوبة على شرط ألا تركبنى ، الرجل المجنون يحتاج إلى امرأة عاقلة ، زنوبة وعاقلة ؟!.

ـــ أتبقى على الكنبة حتى الصبح ؟

ـــ لن يغمض لى جفن ، دعنى لما بى وتمتع أنت بالنوم ..

لا بد مما ليس منه بد ، مد ذراعيه حتى قبض على منكبها ، ثم جذبها إليه وهو يغمغم :

ـــ فراشك !.

فقاومت مقاومة غير عسيرة ، ثم استسلمت ليده فمضت إلى الفراش وهى تقول متأوهة :

ـــ متى تتاح لى راحة البال كسائر النساء ؟

ـــ اطمئنى ، ينبغى أن تضعى فى كل ثقتك ، إنى أهل للثقة ، مثلى لا يكون سعيدا إلا إذا سهر ، ولن تسعدى أنت إذا أتعبتنى بوجع الدماغ ، حسبك أن تؤمنى ببراءة سهرى ، صدقينى ولن تندمى ، لست جبانا ولا كذابا ، ألم أجىء بك ليلة إلى هذا البيت وفيه زوجتى ؟، فهل يفعل هذا جبان أو كذاب ؟، شبعت من الدوران ولم يبق لى فى حياتى إلا أنت !.

تنهدت بصوت مسموع ، وكأنما أرادت أن تقول له « أود أن تكون صادقا فيما تقول » ، فمد يده لاعبا وهو يقول :

ـــ يا سلام ، هذه التنهيدة حرقت قلبى ، الله يقطعنى ..

قالت برجاء وهى تستجيب ليده رويدا رويدا :

ـــ لو ربنا يهديك !.

من يصدق أن هذه الأمنية صادرة عن عوادة !

ـــ لا تقابلينى بالشجار أبدا ، إن الشجار يثبط النشاط !.

علاج ناجع ولكنه لا ينفع فى جميع الأحوال ، لو نلت عيوشة الليلة ما تيسر ..

ـــ أرأيت أن ارتيابك لم يكن فى محله ؟!

٣٩

كان السيد أحمد عبد الجواد منهمكا فى عمله وإذا بياسين يدخل الدكان مقبلا على مكتبه ، فما أن تصفح وجهه حتى أدرك أنه جاء مستنجدا : كانت فى عينيه نظرة حائرة شاردة ، ومع أنه تبسم له فى أدب ومال على يده ليقبلها إلا أنه شعر بأنه يقوم بهذه الحركات التقليدية بلا وعى ، وأن وجدانه كله غائب فى مكان لا يعلمه إلا الله . أشار إليه بالجلوس فقرب الكرسى من مجلس أبيه ثم جلس ، وجعل ينظر إليه حينا ثم يخفض بصره أو يبتسم ابتسامة باهتة ، تساءل السيد عما دعا إلى هذه الزيارة ، وكأنما أشفق من أن يترك ابنه الصامت إلى صمته ، فقال كالمتسائل :

ــ خير ؟.. ماذا بك ؟، لست كعادتك ..

فنظر ياسين إليه طويلا كأنما يستثير عطفه ، ثم قال وهو يخفض عينيه :

ــ سينقلوننى إلى أقاصى الصعيد !.

ــ الوزارة ؟

ــ نعم ..

ــ لم ؟.

هز رأسه كالمعترض ، وقال :

ــ سألت الناظر فحدثنى عن أمور لا علاقة لها بالعمل ، ظلم ..

سأله الرجل بارتياب :

ــ أى أمور ؟، أوضح .

ــ وشايات وضيعة .. (ثم بعد تردد) عن زوجتى ..

تضاعف اهتمام السيد ، فسأله فيما يشبه الإشفاق :

ــ ماذا قالوا ؟

لاح الضيق فى وجه ياسين حينا ، ثم قال :

ــ قال السفهاء إننى متزوج من .. عوادة !

ألقى السيد نظرة جزعة على الدكان ، فرأى جميل الحمزاوى يعمل بين رجل قائم وامرأة جالسة لا يفصلهم عنه إلا أذرع ، فكظم غيظه وقال بصوت منخفض وإن

لم يخل انخفاضه تهدج الغضب :

ـــ لعلهم سفهاء حقا ، ولكن هذا ما حذرتك من عواقبه ، إنك ترتكب كل كبيرة دون مبالاة ولكن العواقب لن تغفل عنك إلى الأبد ، ماذا أقول ؟ إنك ضابط مدرسة ويجب أن تكون سمعتك بمنأى عن الشبهات ، طالما قلت لك هذا مرارا وتكرارا ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، كأنى يجب أن أخلص من هموم الدنيا جميعا لأتفرغ لهمومك أنت وحدها !

فقال ياسين فى ارتباك وحيرة :

ـــ ولكنها زوجتى الشرعية ، ولا لوم على الإنسان فى حدود الشرع ، فما شأن الوزارة فى ذلك ؟

قال السيد بغيظ مكتوم :

ـــ يجب أن تحرص الوزارة على سمعة موظفيها ..

هلا تركت الكلام عن السمعة لغيرك !

ـــ ولكن هذا تجن وظلم بالنسبة لرجل متزوج !

وهو يلوح بيده ساخطا :

ـــ أتريدنى أن أرسم لوزارة المعارف سياستها ؟

فقال بانكسار ورجاء :

ـــ كلا ، ولكنى أرجو أن توقف النقل بنفوذك ..

وجعلت يسراه تعبث بشاربه وهو يحدج ياسين بنظرة لم تره لأنها بدت مشغولة بالتفكير ، وراح ياسين يستعطفه ويعتذر له عن إزعاجه ويؤكد له أن كل اعتماده بعد الله عليه ، ولم يغادر الدكان حتى وعده الرجل بالسعى فى وقف نقله .

وعند مساء اليوم نفسه ذهب السيد أحمد إلى قهوة الجندى بميدان الأوبرا لمقابلة ناظر المدرسة ، فما أن رآه الرجل حتى دعاه إلى الجلوس وهو يقول له :

ـــ كنت منتظرا مجيئك ، ياسين جاوز كل حد ، إنى آسف لما يسببه لك من متاعب ..

فقال السيد وهو يجلس قبالته فى الشرفة المطلة على الميدان :

ـــ على أى حال فياسين ابنك أيضا ..

ـــ طبعا ، ولكن لا شأن لى بالمسألة كلها ، إنها محصورة بينه وبين الوزارة ..

فقال السيد كالمحتج وإن بدا وجهه مبتسما :

ــ أليس عجيبا أن يعاقبوا موظفا لأنه تزوج من عوادة !، أليس هذا شأنا يعنيه وحده ؟، ثم إن الزواج علاقة شرعية لا يصح أن يتعرض لها أحد بسوء !..

قطب الناظر متفكرا متسائلا ، كأنه لم يفهم ما قال صاحبه ، ثم قال :

ــ لم يجيء ذكر الزواج إلا عرضا وأخيرا !، أما علمت بالخبر كله ؟، يخيل إلى أنك لم تعلم بكل شيء !

انقبض صدر الرجل ، فتساءل فى إشفاق وقلق :

ــ أيوجد مطعن آخر ؟

فمال الناظر نحوه قليلا ، وقال بأسف :

ــ المسألة يا سيد أحمد أن ياسين تعارك فى درب طياب مع ساقطة ، فحرر له محضر بلغت صورته إلى الوزارة ..

بهت الرجل فاتسعت حدقتاه واصفر وجهه ، حتى لم يتمالك الناظر من أن يهز رأسه آسفا وهو يقول :

ــ هذه هى الحقيقة ، وقد بذلت قصارى جهدى لأخفف العقوبة ، حتى وفقت إلى إلغاء فكرة إحالته إلى مجلس تأديب فاكتفى بنقله إلى الصعيد ..

تنهد السيد مغمغما :

ــ الكلب ..!

فقال الناظر وهو يرمقه بعطف :

ــ إنى آسف جدا يا سيد أحمد ، غير أن هذا السلوك لا يليق بموظف ، لا أنكر أنه شاب طيب ومثابر على عمله ، بل أصارحك بأنى أحبه ، لا لأنه ابنك فحسب ولكن لشخصه أيضا ، ولكن ما أعجب ما يقال عنه !، ينبغى أن يصلح من شأنه ويقوّم سلوكه وإلا خسر مستقبله !.

صمت السيد طويلا والغضب مرتسم على وجهه ، ثم قال وكأنه يخطب نفسه :

ــ معركة مع ساقطة !. فليذهب إذن فى داهية !..

ولكنه لم يتركه للداهية وإنما بادر إلى مقابلة معارفه من النواب وعلية القوم مستشفعا بهم فى وقف النقل ، وكان محمد عفت على رأس الساعين معه ، فتوالت الشفاعات على كبار رجال المعارف حتى أثمرت فألغى النقل ، ولكن الوزارة أصرت

على ندبه للعمل بديوانها ، ثم أعلن رئيس المحفوظات ـــ صهر محمد عفت أو زوج زوجة ياسين الأولى ـــ عن استعداده لقبوله فى إدارته ـــ. بإيعاز من محمد عفت ـــ فتمت الموافقة على ذلك ، ونقل ياسين فى أول شتاء سنة ١٩٢٦ إلى إدارة المحفوظات . ولم تمر المسألة فى سلام تام فقد سجل عليه عدم صلاحيته للعمل فى المدارس ، كما صرف النظر عن بحث ترقيته إلى الدرجة السابعة رغم أقدميته فى الثامنة التى جاوزت عشرة أعوام ، ومع أن محمد عفت قصد من إلحاقه بإدارة صهره ألا تساء معاملته فإن ياسين لم يرتح إلى وضعه الجديد تحت رياسة زوج زينب ، وقد عبر عن مشاعره حين قال يوما لكمال :

ـــ لعلها سرت بما وقع لى ، ووجدت فيه تأييدا لموقف أبيها حين رفض إرجاعها إلى ، إنى خبير بعقول النساء ولا شك فى أنها شمتت بى وإنه لمن سوء الحظ ألا أجد مكانا كريما إلا تحت رياسة هذا التيس !. ما هو إلا كهل لا خير فيه للنساء ، وما أعجزه عن أن يسد الفراغ الذى تركه ياسين ، فلتشمت الحمقاء فإنى شامت ..

ولم تقف زنوبة على سر النقل ، وقصارى ما علمت أن زوجها ندب للعمل بمركز أفضل فى الوزارة ، كذلك تحاشى السيد أن يطرق فى حديثه مع ياسين موضوع الفضيحة الحقيقى ، واكتفى بأن قال له حين وفق إلى إلغاء النقل :

ـــ ما كل مرة تسلم الجرة !، لقد أتعبتنى وأخجلتنى ، ولن أتدخل فى أمورك بعد اليوم ، فافعل ما بدا لك ، وربنا بينى وبينك !..

ولكنه لم يستطع أن يسقط أمره من حسابه ، فدعاه يوما إلى الدكان ، وقال له :

ـــ آن لك أن تفكر فى حياتك تفكيرا جديدا يعود بك إلى طريق الكرامة وينتشلك من الحياة المنبوذة التى تحياها ، لا يزال فى الوقت متسع كى تبدأ عهدا جديدا ، وإنى أستطيع أن أهيىء لك الحياة التى تليق بك فأصغ إلىَّ وأطعنى ..

ثم عرض عليه مقترحاته قائلا :

ـــ طلق زوجك وعد إلى بيتك ، وإنى ، أتعهد بأن أزوجك زواجا لائقا فتبدأ حياة كريمة !.

فتورد وجه ياسين ، وقال بصوت خافت :

ـــ إنى أقدر رغبتك الصادقة فى إصلاح شأنى ، وسوف أعمل من ناحيتى على تحقيق هذه الرغبة دون إيذاء أحد ..

فهتف الرجل ساخطا :

ـــ وعد جديد كوعود الإنجليز !، الظاهر أن نفسك تراودك على زيارة السجن ، أجلٍ سيجيئنى صراخك المرة القادمة من وراء القضبان ، لا زلت أكرر عليك أن تطلّق هذه المرأة وتعود إلى بيتك ..

فقال ياسين وهو يتنهد ، متعمدا أن يسمع أباه تنهده :

ـــ إنها حبلى يا أبى ، ولا أريد أن أضيف ذنبا جديدا إلى ذنوبى !..

اللهم احفظنا !، فى بطن زنوبة حفيد لك يتكون !. أكان فى وسعك أن تتصور ما يدخر لك هذا الشاب من متاعب ساعة تلقيته وليدا فى يوم عد من أسعد أيام حياتك ؟!

ـــ حبلى ؟!

ـــ نعم ..

ـــ وتخاف أن تضيف ذنبا جديدا إلى ذنوبك ؟!

ثم منفجرا قبل أن يفتح الآخر فاه :

ـــ لم لم يؤنبك ضميرك وأنت تعتدى على الطيبات من بنات الطيبين !. أنت لعنة وحق كتاب الله !..

وعند انصرافه من الدكان أتبعه عينين مليئتين بالرثاء والازدراء . لم يكن بوسعه إلا أن يعجب بمظهره الذى ورثه عنه ، أما مخبره الذى ورثه عن أمه ..! وذكر بغتة كيف أوشك هو يوما أن يتردى فى الهاوية على يد زنوبة نفسها !، ولكنه ذكر فى الوقت نفسه كيف شكم نفسه فى اللحظة المناسبة . شكم نفسه ؟!، وشعر بامتعاض وقلق ، فلعن ياسين ، ثم لعن .. ياسين !

٤٠

جاء يوم ٢٠ ديسمبر فشعر بأنه يوم لا كبقية الأيام ، على الأقل بالقياس إليه هو ، ففى ساعة منه وجد نفسه فى هذه الدنيا ، وسجل ذلك فى شهادة حتى لا يمكث أكثر أو أقل مما تم الاتفاق عليه !.. وكان يرتدى معطفه ويقطع حجرته ذهابا وجيئة ، ثم يلقى نظرة على مكتبه فيرى كشكول الذكريات مفتوحا على

صفحة بيضاء رقم أعلاها بتاريخ الميلاد ، فيفكر فيما يريد أن يكتبه لمناسبة الذكرى ، ويواصل حركته مستمدا منها شيئا من الدفء يستعين به على مقاومة البرودة القارسة . وكانت السماء كما تبدو من زجاج النافذة ــ متوارية وراء سحاب متجهم والمطر ينزل قليلا ويسكت قليلا محركا فى نفسه بواعث التأمل والحلم . لا بد من الاحتفال بالميلاد ولو اقتصر الحفل على صاحب الميلاد وحده ، ذلك أن البيت القديم لم يعرف تقاليد الاحتفال بأعياد الميلاد . وأمه نفسها لم تدر أن اليوم من الأيام التى لا ينبغى أن تنساها ، فلم يبق من تواريخ الميلاد نفسها إلا ذكريات غامضة عن الفصول التى وقعت فيها والآلام التى صاحبتها فهى لا تعرف عن ميلاده إلا أنه « كان فى الشتاء وكانت الولادة عسيرة فجعلت أتوجع وأصرخ يومين متتابعين » قديما كان يذكر أنباء ميلاده فيملأ الرثاء لأمه قلبه ، ثم تضاعف شعوره بالرثاء عندما شاهد ميلاد نعيمة فخفق قلبه ألما لعائشة ، أما اليوم فإنه يفكر فى ميلاده بعقل جديد ، عقل قد عل من منهل الفلسفة المادية حتى ألمَّ فى شهرين بما تمخض عنه تفكير الإنسانية فى قرن من الزمان . تساءل عن عسر ولادته وهل يرجع بعضه أو كله إلى الإهمال أو الجهل ، وكان يتساءل وكأنما يستجوب متهما قائما بين يديه . فكر فى عسر الولادة وما عسى أن ينجم عنه من آثار تلحق بالمخ أو الجهاز العصبى فتلعب دورا خطيرا فى حياة الوليد ومصيره وما قد يساق إليه من خير أو شر . ألا يمكن أن يكون تهالكه فى الحب نتيجة لصدمات أصابت يافوخه أو جدار رأسه الكبير فى غيابات الرحم منذ تسعة عشر عاما ؟ ، أو أن تكون تلك المثالية التى أضلته طويلا فى مجاهل الخيال وأسالت منه الدمع مدرارا فوق مذبح العذاب ما هى إلا عاقبة محزنة لعبث داية جاهلة ؟! ، وفكر فيما قبل الولادة ، بل فيما قبل الحبل . فى المجهول الذى تنبثق منه الحياة ، فى تلك المعادلة الكيميائية الآلية التى تستوى كائنا حيا فيثور أول ما يثور على أصله مزدريا ، ويتطلع إلى النجوم مدعيا له نسبا فى مداراتها . بيد أنه قد عرف له بداية قريبة دعاها بالنطفة ، فهو على ذلك لم يكن قبل تسعة عشر عاما وتسعة أشهر إلا نطفة ، نطفة قذفت بها رغبة بريئة فى اللذة أو حاجة ملحة إلى العزاء أو صولة هياج بعثتها سكرة غاب فيها الرشاد أو حتى مجرد إحساس بالواجب نحو الزوجة القابعة فى البيت . فابن أى حال من تلك الأحوال

كان !. لعله جاء إلى هذه الدنيا نتيجة الواجب ، فإن الشعور بالواجب لا يزايله ، وحتى اللذات لم يقبل على ممارستها إلا بعد أن تمثلت له فلسفة تتبع ورأيا يعتنق ، إلى أنه لم يخل من الصراع والألم ولم يأخذ الحياة أخذا سهلا ، ومن النطفة مرق حيوان فالتقى ببويضة فى البوق وثقبها ، ثم انزلقا إلى الرحم معا ، فتحولا إلى علقة ، فكسيت العلقة لحما وعظما ، ثم خرجت إلى النور والألم بين يديها يسير ، ثم بكت قبل أن تستبين معالمها ، ومضت الغرائز المودعة بها تنمو وتتبلور مستجدة على مر الأيام عقائد وآراء حتى اتخمت ، وعشقت عشقا زعمت لنفسها به نوعا من الألوهية ، ثم زلزلت فتهاوت عقائدها وانقلبت أفكارها وخاب قلبها فردت إلى مكانة أذل من التى جاءت منها أول مرة !. إذن فقد مضى من العمر تسعة عشر عاما يا له من عهد طويل !، ويا للشباب الذى ينطوى بسرعة البرق ، هل من عزاء إلا أن تتملى الحياة ساعة فساعة بل دقيقة فدقيقة قبل أن ينعق غراب الغروب ؟، مضى عهد البراءة ، ولحق به العهد الذى كانت تؤرخ فيه الحياة بالحب ق. ح ، ب. ح ـــ اليوم الأشواق كثيرة إلا أن المحبوب مجهول الكنه ، فلم يجد على محبه إلا ببعض أسمائه الحسنى : فهو الحقيقة ومسرة الحياة ونور العلم ، والسفر فيما يبدو طويل ، وكأن المحب قد استقل قطار أوجست كونت فمر بمحطة اللاهوتية التى كان شعارها « نعم يا أماه » ، وها هو يطوى الأرض فى إقليم الميتافيزيقية التى شعارها « كلا يا أماه » وعن بعد تتراءى خلال المنظار المكبر « الواقعية » وعلى قمتها سجل شعارها « فتح عينيك وكن شجاعا ».

وتوقف عن السير أمام المكتب فثبتت عيناه على كشكول الذكريات ، وتساءل : أيجلس ليسود صفحة الميلاد كيفما يوحى القلم ، أم يؤجل ذلك حتى تتبلور الأفكار فى رأسه ؟، وعند ذاك طرق أذنيه وقع المطر على الجدران كالدندنة ، فاتجه بصره إلى زجاج النافذة المطلة على بين القصرين فرأى لآلىء عالقة برقعته المموهة برطوبة الجو ، وما لبثت لؤلؤة أن انسابت إلى حافة الإطار السفلى راسمة على الرقعة المموهة خطا ناصعا منعطفا كالشهاب فمضى إلى النافذة ورفع عينيه يتابع الأمطار المنهلة من السحب المترعة وقد وصلت السماء بالأرض بأسلاك لؤلؤية ، على حين لاحت المآذن والقباب غير عابئة بالمطر وقد بدا الأفق وراءها إطارا من فضة ، واكتنف المنظر كله لون أبيض مشرب بسمرة ساجية يقطر جلالا

وأحلاما .. وترامت من الطريق صيحات أطفال . فألقى نظرة إلى تحت ليرى الأرض تسيل بالمياه والأركان تعج بالوحل وقد تعثرت العربات وتطاير الرشاش من عجلاتها وخلت معارض الدكاكين من السلع ولاذ المارة بالحوانيت والمقاهى وما تحت الشرفات .

هذا منظر السماء يخاطب الوجدان بلسان الوجد فما أجدره أن يستلهمه طويلا ليتأمل موقفه من الحياة فى مطلع عامه الجديد . لم يعد يجد رفيقا يحاوره بمكنون روحه مذ غادر حسين شداد أرض الوطن ، فلم تبق له إلا نفسه ليحاورها إذا استشعر حاجة إلى الحوار ، فاتخذ من روحه صديقا بعد أن فارقه صديق الروح ، وسأل روحه : هل تؤمن بوجود الله ؟، فسألته بدورها لماذا لا تحاول أن تثب من نجم إلى نجم ومن كوكب إلى كوكب كما تثب من درجة إلى درجة فوق السلم ؟. وعن الصفوة المختارة من أبناء السماء فقد رفعوا الأرض إلى مركز الكون وجعلوا الملائكة تسجد للطين حتى جاء أخوهم كوبر نيكوس فأنزل الأرض بحيث أنزلها الكون جارية صغيرة للشمس ، ثم تلاه أخوه داروين فهتك سر الأمير الزائف وأعلن على الملأ أن أباه الحقيقي هو حبيس قفصه الذى يدعو الأصدقاء للتفرج عليه فى الأعياد والمواسم ، وفى الأصل كان السديم فتناثرت منه النجوم كالرشاش المتطاير من عجلة الدراجة ، وتجاذبت النجوم فى لهوها الأزلى فأنجبت الكواكب ، وانطلقت الأرض كرة سائلة والقمر فى أثرها يعابثها وهى تقطب له بجانب من وجهها وتبسم له بجانب آخر حتى فتر حماسها فاستقرت سماتها جبالا ونجودا وقيعانا وصخورا ثم حياة تدب ، وجاء ابن الأرض يزحف على أربع ويسائل من يصادفه عن المثل الأعلى . لا أخفى عنك أنى ضقت بالأساطير ذرعا ، غير أنى فى خضم الموج العاتى عثرت على صخرة مثلثة الأضلاع سأدعوها من الآن فصاعدا صخرة العلم والفلسفة والمثل الأعلى . ولا تقل إن الفلسفة كالدين أسطورية المزاج ، فالحق أنها تقوم على دعائم ثابتة من العلوم وتتجه بها إلى غايتها ، أما الفن فمتعة سامية وامتداد للحياة غير أن مطمعى أبعد من الفن مثالا ، لأنه لا يرتوى إلا بالحقيقة ، والفن بالقياس إلى الحقيقة يبدو فنا أنثويا ، وفى سبيل هذه الغاية ترانى مستعدا للتضحية بكل شىء إلا ما يمسك علىَّ الحياة ، أما عن مؤهلاتى للدور الخطير فرأس كبير وأنف ضخم وحب خائب وأمل فى المرض . واحذر أن تسخر من أحلام الشباب فما السخرية منها إلا عارض من

أعراض مرض الشيخوخة يدعوه المرضى بالحكمة ، وليس من تناقض فى أن تعجب بسعد زغلول كما تعجب بكوبر نيكوس واستولد وماخ ، فالجهاد فى سبيل ربط مصر المتأخرة بركب الإنسانية عمل نبيل وإنسانى كذلك . والوطنية فضيلة ما لم تتلوث بالكراهية العدوانية ، غير أن كره إنجلترا نوع من الدفاع عن النفس ، وليست الوطنية على ذاك إلا إنسانية محلية ، وتسألنى هل أومن بالحب ؟ فأجيب : بأن الحب لم يبرح فؤادى بعد ، فلا يسعنى إلا أن أقر بحقيقة الإنسانية ، ومع أن جذوره كانت مشتبكة بجذور الدين والأساطير فإن تقوض المعابد المقدسة لم يزعزع أركانه أو يقلل من خطورة شأنه اقتحام محرابه بالدراسة والتحليل ، وفرز عناصره البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية ، فكل أولئك لم يوهن من خفقة القلب إذا هفت ذكرى أو تخايلت صورة ، ألا زلت تؤمن بخلود الحب ؟، ليس الخلود أسطورة . فلعل الحب ينسى ككل شيء فى هذه الدنيا ، وقد انقضى على زواج ... عايدة — لم تتردد قبل التفوه باسمها ؟ — عام فقطعت شوطا فى طريق النسيان ، مررت بطور الجنون فطور الذهول فطور الألم الحاد ثم طور الألم المتقطع ، الآن قد يمضى يوم بأكمله فلا تخطر لى على بال إلا حين الاستيقاظ وحين النوم ومرة أو مرتين فى أثناء النهار ، ويتفاوت تأثرى بالتذكر ما بين حنين ينبعث معتدلا أو حزن يمر مرور السحاب أو حسرة تلسع ولا تحرق إلا أن تثور النفس بغتة كالبركان فتدور بى الأرض ،وعلى أى حال غدوت أومن بأننى سأواصل الحياة بلا عايدة . علام تعول فى طلب النسيان ؟.. على دراسة الحب وتعليله كما سلف ، والتهوين من الآلام الفردية بالتأملات الكونية التى يبدو عالم الإنسان فى مداراتها هباءة تافهة ، والترويح عن النفس بالشراب والجنس ، والتماس العزاء عند فلاسفة العزاء كإسبينوزا الذى يرى الزمن شيئا غير حقيقى وبالتالى فالانفعالات المرتبطة بحادث فى الماضى أو المستقبل مضادة للعقل ، ونحن خليقون بالتغلب عليها إذا كوّنا عنها فكرة واضحة متميزة . أسرّك أن وجدت الحب ينسى ؟.. سرّنى لأنه يعدنى بالنجاة من الأسر ، وأحزننى بما كان تجربة خبرت بها الموت قبل حضوره ، ومهما يكن من أمر فسأمقت ما حييت الأسر وأعشق الحرية المطلقة .

سعيد من لا يفكر فى الانتحار أو يتمنى الموت ، سعيد من تتوهج فى قلبه شعلة الحماس ، وخالد من يعمل أو يتهيأ صادقا للعمل ، حتى من يتأثر الخيام بكتاب

وكأس ومعشوق ، والقلب اللهج بالآمال ينسى أو يتناسى الزواج كالكأس المترعة بالويسكى لا تتسع للصودا ، وحسبك أن غرامك بالشراب يسير سيرا حسنا وأن إقبالك على المرأة لا تعترضه عقبات من تقزز أو نفور ، أما حنينك من حين لآخر إلى الطهر والتقشف فلعله بقية من تدينك القديم .

ولم ينقدع المطر عن الانهلال لحظة ، وقعقع الرعد ، ولمع البرق ، وأقفر الطريق ، وسكت الصياح ، وخطر له أن يلقى نظرة على فناء الدار فغادر الحجرة إلى الصالة ثم إلى النافذة ، ونظر من خلال خصاصها فرأى المياه تجرف سطح الأرض اللين فتخدده ثم تتدفق صوب البئر القديمة ، وفاض عنها جانب فتجمع فى نقرة بين حجرة الفرن والمخزن ، هذه النقرة التى ينجم فيها غب الجفاف — مما يتساقط عفوا من حنطة أو شعير أو حلبة من يدى أم حنفى — نبت يكسوها حلة سندسية فيترعرع أياما حتى تدوسه الأقدام ، وقد كانت على عهد دولة الطفولة حقل تجاربه ومراح أحلامه ، ومن ينبوع ذكرياتها يمتلىء قلبه الآن شوقا وحنينا ، ومسرة يغشاها حزن وان كسحابة شفافة تغشى وجه القمر . وتحوّل عن النافذة ليعود إلى حجرته فانتبه إلى وجود من كان بالصالة ، إلى الذكرى الباقية من مجلس القهوة القديم ، إلى أمه متربعة على الكنبة باسطة ذراعيها فوق المجمرة ولا جليس لها إلا أم حنفى وقد تربعت على فروة قبالتها . فذكر المجلس القديم فى أيامه الزاهرة وما أودعه من جميل الذكريات ، وكانت المجمرة هى الأثر الوحيد فيه الذى لم يكد يطرأ عليه تغير ينكره الرائى .

٤١

كان أحمد عبد الجواد يسير الهوينى على شاطىء النيل فى طريقه إلى عوامة محمد عفت ، وكان الليل ساجيا والسماء صافية متألقة النجوم ، والهواء مائلا للبرودة ، فلما انتهى إلى هدفه وهم بالميل إليه لم ينس — بحكم العادة وحدها — أن يرمى ببصره بعيدا إلى حيث تقوم العوامة التى دعاها يوما « عوامة زنوبة » . كان قد انتهى على الذكريات الأليمة عام فلم يعد يبقى فى قلبه إلا الامتعاض والخجل ، وكان من آثارها المتخلفة أن هجر مجالس النساء كما فعل عقب مصرع فهمى ، فثابر على

ذلك عاما حتى ضجر ، فرجع عن عزمه وعاد ساعيا على قدميه إلى المجلس المحرم ، وما هى إلا دقيقة حتى أقبل على المجلس فطالع المجموعة المحبوبة المؤلفة من أصدقائه الثلاثة والمرأتين ، أما الأصدقاء فكان اخر لقاء بينه وبينهم ليلة أمس ، وأما المرأتان فلم تقع عليهما عيناه منذ نحو عام ونصف أو — على وجه التحديد — منذ تلك الليلة التى أقحم فيها زنوبة فى حياته . ولم يكن شيء قد بدأ بعد ، فالقوارير لم تفض والنظام لم يمس ، وكانت جليلة محتلة كنبة الصدارة ، تعبث بأساورها الذهبية وكأنما تنصت إلى وسوستها ، على حين قامت زبيدة تحت المصباح المتدلى من السقف ، تنظر فى مرآة صغيرة بيدها ، متفحصة زينتها ، جاعلة ظهرها إلى المائدة الحافلة بقوارير الويسكى وصحاف المزة . وتفرق الأصدقاء حاسرى الرءوس وقد خلعوا جبابهم فصافحهم أحمد عبد الجواد ثم صافح المرأتين بحرارة ، فرحبت به جليلة قائلة « أهلا بأخى الحبيب » أما زبيدة فقالت له باسمة فى عتاب « أهلا بالذى لولا الأدب ما استحق منا السلام » . ونزع الرجل جبته وطربوشه ، ثم ألقى نظرة على الأماكن الخالية — وكانت زبيدة قد جلست إلى جانب جليلة — وتردد قليلا قبل أن يمضى إلى كنبة المرأتين ويتخذ مجلسه عليها ، ولم يغب تردده عن عين على عبد الرحيم ، فقال :

— هكذا تبدو كأنك تلميذ مبتدىء !

فقالت جليلة كأنما تشجعه :

— لا شأن لك به فلا حجاب بيننا وبينه ..

وسرعان ما ضحكت زبيدة قائلة بتهكم :

— أنا أحق الناس بأن أقول ذلك ، أليس هو بنسيبى ؟!

ففطن السيد إلى ما تعرض به ، وتساءل فى قلق عن مدى ما اتصل بعلمها فى هذا الشأن كله ، ولكنه قال برقة :

— لى الشرف يا سلطانة !

فتساءلت زبيدة وهى ترمقه بنظرة ارتياب :

— أأنت مسرور حقا بما كان ؟

فقال بلباقة :

— ما دمت خالتها !..

فقالت وهى تلوح بيدها فى استياء :

ـــ أما أنا فلن يرضى عنها قلبى أبدا !..

وقبل أن يسألها السيد عن السبب ، هتف على عبد الرحيم وهو يفرك يديه :

ـــ أجِّلوا الحديث حتى نعمِّر رءوسنا ..

ونهض إلى المائدة ففض زجاجة وملأ الكئوس ثم قدمها إليهم واحدا واحدا بعناية نمّت عن ارتياحه المعهود إلى القيام بمهمة الساقى ، ثم انتظر حتى تهيأ كلٌّ للشرب ، وقال « صحة الأحباب والإخوان والطرب دامت جميعا لنا » ، فرفعوا الكئوس إلى شفاههم باسمين ، ونظر أحمد عبد الجواد من فوق حافة كأسه إلى وجوه أصحابه .. هؤلاء الأصحاب الذين شاطروه حمل المودة والوفاء قرابة الأربعين عاما ، فكان كأنه يرى فلذات من صميم نفسه ، ما ملك أن جاش صدره بعواطف الأخوة الصادقة .

ومالت عيناه إلى زبيدة ، فعاد إلى حديثها متسائلا :

ـــ ولماذا لا يرضى عنها قلبك ؟

فاتجهت إليه بنظرة أشعرته بترحيبها بالحديث معه ، وأجابته :

ـــ لأنها خائنة لا ترعى العهود ، خانتنى منذ أكثر من عام فغادرت بيتى دون استئذان وذهبت إلى حيث لم أعلم ..

ترى ألم تعلم حقا أين ذهبت فى ذلك الوقت ؟. ولم يشأ أن يعلّق على قولها بحرف ، فعادت تسأله :

ـــ ألم يبلغك ذلك ؟

فقال بهدوء :

ـــ بلغنى فى حينه !.

ـــ أنا التى كفلتها من الصغر ورعيتها بقلب الأم ، فانظر كيف كان الجزاء !، سفخص على الدم النجس !

فقال على عبد الرحيم مازحا ، وهو يتظاهر بالاحتجاج :

ـــ لا تسبى دمها فإن دمها هو دمك !..

ولكن زبيدة قالت جادة :

ـــ دمى برىء منها !.

وهنا سألها السيد أحمد :

ـــ من كان أباها يا ترى ؟
ـــ أباها ؟!
ندت هذه الكلمة عن إبراهيم الفار بصوت أنذر بسيل من السخريات ، ولكن محمد عفت بادره قائلا :
ـــ تذكر أن الحديث عن حرم ياسين !
فزايلت وجه الفار هيئة المزاح ولاذ بالصمت فى شىء من الارتباك ، على حين عادت زبيدة تقول :
ـــ أما أنا فلا أهزل فيما أقول عنها ، وطالما رمقتنى بعين الحسد وطمعت فى منافستى وهى فى رعايتى ، فكنت أداريها وأغض عن مساوئها (ثم وهى تضحك) كانت تحلم بأن تكون عالمة !.
ورددت عينيها فى الحاضرين ، ثم قالت بلهجة ساخرة :
ـــ لكنها أفلست فتزوجت !..
تساءل على عبد الرحيم فى إنكار :
ـــ هل الزواج فى عرفك إفلاس ؟!
فضيقت له عينا ، ورفعت حاجب الأخرى ، وهى تقول :
ـــ نعم يا عمر !.. العالمة لا تهجر التخت حتى تفلس ..
وهنا غنت جليلة هذا المقطع « أنت المدام يا روحى انت آنستنا » ، فابتسم السيد ابتسامة عريضة وحياها بآهة لطيفة وشت بانبساطه ، غير أن على عبد الرحيم نهض مرة أخرى وهو يقول :
ـــ لحظة سكوت حتى نستوعب هذه الكأس ..
وملأ الكئوس ووزعها بينهم ، ثم عاد بكأسه إلى مجلسه . وقبض أحمد عبد الجواد على كأسه ولحظ زبيدة ، فالتفتت نحوه باسمة ورفعت يدها بكأسها كأنما تقول له « صحتك » ، ففعل مثلها وتشاربا ، وجعلت فى أثناء ذلك ترنو إليه بنظرة باسمة . مضى عام دون أن تشب به رغبة إلى طلاب امرأة ، كأن التجربة القاسية التى امتحن بها قد أخمدت حماسه ، أو لعله الكبرياء أو لعلة المرض ، غير أن نشوة الخمر ونظرة التودد حركتا فؤاده فاستشعر عذوبة الإقبال بعد مرارة الصد ، واعتدها تحية طيبة من الجنس الذى هام به حياته ، لعلها تضمد جرح كرامته التى قست عليها الخيانة

وتقدم العمر ، وكأن ابتسامة زبيدة الناطقة كانت تقول له : « لم يول عهدك بعد ! » فلم يحول عن نظرتها عينيه ولم يلغ ابتسامته .

وجاء محمد عفت بعود ووضعه بين المرأتين ، فتناولته جليلة وراحت تلعب بأوتاره ، ولما آنست من السامعين انتباها غنّت « وعدى عليك ياللى بحبك » ، وتظاهر أحمد عبد الجواد بالانسجام كعادته كلما سمع جليلة أو زبيدة ، وذهب مع النغمة برأسه وجاء ، كأنما يريد أن يخلق الطرب بتمثيل حركاته . والحق أنه لم يعد يبقى له من عالم الغناء إلا ذكريات ، فقد ذهب الحامولي وعثمان والمنيلاوى وعبد الحى ، كما ذهب شبابه وكما ولّت أيام النصر ، ولكن ينبغى أن يوطن النفس على الرضى بالموجود وأن يبتعث عاطفة الطرب ولو بتمثيل حركاته ، وقد دعاه حبه للغناء وغرامه بالطرب إلى ارتياد مسرح منيرة المهدية غير أنه لم يهو الغناء التمثيلى ، فضلا عن أنه ضاق بجلسة المسرح الذى شبهه بالمدرسة ، كما استمع فى بيت محمد عفت إلى أسطوانات المطربة الجديدة أم كلثوم ولكنه أعارها أذنا حذرة مضمرة سوء الظن ، فلم يتذوقها رغم ما قيل من أن سعد زغلول أثنى على جمال صوتها . بيد أن مظهره لم يش بحقيقة موقفه من الغناء ، فما زال يتطلع إلى جليلة راضيا سعيدا ويردد مع الجميع لازمة « وعدى عليك » بصوته الرخيم ، حتى هتف الفار بحسرة :

ـــ أين أين الدف ؟!. أين الدف لنسمع ابن عبد الجواد ؟.

سل أين أحمد عبد الجواد الذى كان ينقر على الدف ؟!. آه ، لم يغيرنا الزمان ؟. وختمت جليلة غناءها فى هالة من الاستحسان ، ولكنها قالت فى لهجة اعتذار وهى تبتسم شاكرة :

ـــ إنى متعبة ..

ولكن زبيدة كيلت لها الثناء كما يدور بينهما كثيرا على سبيل المجاملة أو حرصا على السلام العام ، ولم يكن يخفى على أحد أن نجم جليلة كعالمة آخذ فى الأفول السريع الذى كان آخر آياته هجر الدفافة فينو لتختها والتحاقها بتخت آخر ، وهو أفول طبيعى إذ كان الذبول قد أدرك كافة المزايا التى قام عليهامتجدهاالقديم من الفتنة وجمال الصوت ، ولذلك لم تعد زبيدة تجد نحوها غيرة تذكر فوسعها أن تجاملها دون مضض ، خاصة وأنها كانت بلغت ذروة حياتها ، تلك الذروة التى لا خطوة بعدها إلا نحو الانحدار . وكان الأصدقاء كثيرا ما يتساءلون عما إذا كانت جليلة قد

أعدت العدة لهذه المرحلة الخطيرة من الحياة ، وكان رأى أحمد عبد الجواد أنها لم تفعل ، واتهم بعض من عشقتهم بتبديد الكثرة من ثروتها ، ولكنه جاهر فى الوقت ذاته بأنها امرأة تعرف كيف تحصل على المال بأى سبيل ، وأيده على ذلك على عبد الرحيم قائلا : إنها تتاجر بجمال نساء تختها وإن بيتها يتحول رويدا رويدا إلى شيء آخر . أما زبيدة فقد انعقد إجماعهم على أنها رغم مهاتراتها فى ابتزاز الأموال — جوادة مفتونة بالمظاهر التى تحرق المال حرقا ، إلى ولعها بالشراب والمخدرات وخاصة الكوكايين . قال محمد عفت مخاطبا زبيدة :

— اسمحى لى بأن أبدى إعجابى بنظراتك الحلوة التى تخصين بها بعضنا ؟.

فضحكت جليلة ، وقالت بصوت خافت :

— الصب تفضحه عيونه ..

وتساءل إبراهيم الفار منكرا :

— أم تحسبين نفسك فى زاوية العميان ؟

فقال أحمد عبد الجواد متظاهرا بالأسف :

— بهذه الصراحة لن تكونوا قوادين كما تحبون !

أما زبيدة فقد أجابت محمد عفت :

— أنا لا أنظر إليه لغرض لا سمح الله ولكنى أحسده على شبابه ؟، انظروا إلى رأسه الأسود بين رءوسكم البيض وأجيبونى هل تعطونه يوما واحدا فوق الأربعين ؟.

— أنا أعطيه قرنا ..

فقال أحمد عبد الجواد :

— من بعض ما عندكم !

وعند ذلك ترنمت جليلة بمطلع الأغنية « عين الحسود فيها عود يا حليلة » ، فقالت زبيدة :

— لا خوف عليه من الحسد ، فإن عينى لا تؤذيه ؟!

فقال محمد عفت وهو يهز رأسه هزة ذات معنى :

— أصل الأذى كله من عيونك !.

وهنا قال أحمد عبد الجواد موجها الخطاب إلى زبيدة :

— أتتحدثين عن شبابى ؟، أما سمعت بما قال الطبيب ؟

فقالت كالمستنكرة :

ـــ أخبرني محمد عفت ، ولكن ما هذا الضغط الذى يتهمك به ؟

ـــ لف حول ذراعي قربة غريبة ، وراح ينفخ بمنفاخ جلدى ، ثم قال لى « عندك ضغط » !..

ـــ ومن أين جاء الضغط ؟

فأجاب السيد ضاحكا :

ـــ لا أظنه جاء إلا من ذات النفخ !.

قال إبراهيم الفار وهو يضرب كفا بكف :

ـــ لعله مرض معد ، فإنه لم يكد يمضى شهر على إصابة المحروس به حتى ذهبنا جميعا تباعا إلى الطبيب وكانت نتيجة الكشف فى جميع الحالات واحدة : الضغط !..

فقال على عبد الرحيم :

ـــ أنا أقول لكم سره ، إنه عرض من أعراض الثورة ، وآى ذلك أنه لم يسمع به أحد قبل اشتعالها !

وسألت جليلة السيد أحمد :

ـــ وما أعراض الضغط ؟

ـــ صداع ابن كلب ، وتعب فى التنفس عند المشى ..

فتمتمت زبيدة وهى تبتسم ابتسامة دارت بها شيئا من القلق :

ـــ ومن يخلو ولو مرة من هذه الأعراض ؟، ما رأيكم أنا عندى ضغط أيضا !..

فسألها أحمد عبد الجواد :

ـــ من فوق أم من تحت ؟

وضحكوا بلا استثناء زبيدة نفسها ، حتى قالت جليلة :

ـــ ما دمت قد خبرت الضغط ، فاكشف عليها لعلك تعرف علتها !

فقال أحمد عبد الجواد :

ـــ عليها أن تحضر القربة وعلىَّ أن أحضر المنفاخ !

فضحكوا مرة أخرى ، ثم قال محمد عفت كالمحتج :

ـــ ضغط .. ضغط .. ضغط .. لا نسمع الآن إلا الطبيب وهو يقول كأنما

يأمر عبيده : لا تشرب الخمر ، لا تأكل اللحوم الحمراء ، احذر البيض ..

فتساءل أحمد عبد الجواد ساخرا :

ـــ وماذا يصنع إنسان مثلى لا يأكل إلا اللحوم الحمراء والبيض ولا يشرب إلا الخمر ؟!

فقالت زبيدة من فورها :

ـــ كل واشرب بالهنا والشفا ، الإنسان طبيب نفسه ، وربنا هو الطبيب ..

ومع ذلك فقد اتبع تعاليم الطبيب فى الفترة التى اضطر فيها إلى الرقاد ، فلما نهض تناسى نصح الطبيب جملة وتفصيلا . عادت جليلة تقول :

ـــ أنا لا أومن بالأطباء ، ولكنى أقيم لهم العذر فيما يقولون ويفعلون ، فإنهم يتعيشون من الأمراض كما نتعيش نحن العوالم من الأفراح ، ولا غناء لهم عن القربة والمنفاخ والأوامر والنواهى كما لا غناء لنا عن الدف والعود والأغانى ..

فقال السيد بارتياح وحماس :

ـــ صدقت ، فالمرض والصحة والحياة والموت بأمر الله وحده ، ومن توكل على الله فلا يحزن ..

إبراهيم الفار ضاحكا :

ـــ اشهدوا يا ناس على هذا الرجل ، إنه يشرب بفيه ويفسق بعينه ويعظ بلسانه !

أحمد عبد الجواد مقهقها :

ـــ لا علىَّ من ذلك ما دمت أعظ فى ماخور !..

محمد عفت وهو يتفحص أحمد عبد الجواد ، ويهز رأسه متعجبا :

ـــ وددت لو كان كمال بيننا لينتفع معنا بوعظك !..

فتساءل على عبد الرحيم :

ـــ على فكرة ، ألا يزال على رأيه من أن أصل الإنسان هو القرد ؟!

فضربت جليلة صدرها بيدها هاتفة :

ـــ يا ندامتى !..

زبيدة فى دهش :

ـــ قرد ؟!.. (ثم كالمستدركة) لعله يقصد أصله هو !.

قال لها السيد محذرا :

ـــ وأثبت أيضا أن المرأة أصلها لبؤة !.
فقالت وهى تهأهىء :
ـــ ليتنى أرى سليل القرد واللبؤة !
فقال إبراهيم الفار :
ـــ سيكبر يوما فيخرج عن محيط أسرته ، ويقتنع بأن البشر من آدم وحواء ..
فبادره أحمد عبد الجواد :
ـــ أو أحضره معى يوما إلى هنا ليقتنع بأن الإنسان أصله كلب !.
وقام على عبد الرحيم إلى المائدة ليملأ الكئوس ، وهو يسأل زبيدة :
ـــ أنت أعرف منا بالسيد فإلى أى حيوان ترجعينه ؟
فتفكرت قليلا وهى تتابع يدى على عبد الرحيم وهما تصبان الويسكى فى الكئوس ، ثم قالت باسمة :
ـــ الحمار !.
فتساءلت جليلة :
ـــ ذم هذا أم مدح ؟
فقال أحمد عبد الجواد :
ـــ المعنى فى بطن القائل !.
وعاودوا الشراب على أصفى حال ، وتناولت زبيدة العود وغنت « ارخى الستارة اللى فى ريحنا » .
وفى نشوة غامرة راح جسد أحمد عبد الجواد يرقص مع النغمة ، رافعا الكأس التى لم يبق فيها إلا الثمالة أمام عينيه ، ناظرا خلالها إلى المرأة كأنما يروم أن يراها بمنظار خمرى . وبرح الخفاء إن كان ثمة خفاء ووضح أن كل شيء ـــ بين أحمد وزبيدة ـــ قد عاد إلى قديمه، ورددوا الغناء وراء زبيدة ، فعلا صوت أحمد فى طرب وسرور حتى ختمت الأغنية بالتهليل والتصفيق . وما لبث محمد عفت أن قال لجليلة :
ـــ لمناسبة « الصب تفضحه عيونه » ما رأيك فى أم كلثوم ؟
فقالت جليلة :
ـــ صوتها ـــ والشهادة لله ـــ جميل ، غير أنها كثيرا ما تصرصع كالأطفال !.
ـــ البعض يقولون إنها ستكون خليفة منيرة المهدية ، ومنهم من يقول بأن صوتها

أعجب من صوت منيرة نفسها !..
فهتفت جليلة :
ــ كلام فارغ !. أين هذه الصرصعة من بحة منيرة ؟
وقالت زبيدة بازدراء :
ــ فى صوتها شيء يذكر بالمقرئين ، كأنها مطربة بعمامة !
فقال أحمد عبد الجواد :
ــ لم أستطعمها ، ولكن ما أكثر الذين يهيمون بها ، والحق أن دولة الصوت زالت بموت سى عبده ..
فقال محمد عفت مداعبا :
ــ أنت رجل رجعى ، تتعلق دائما بالماضى .. (ثم وهو يغمز بعينه) .. ألست تصر على حكم بيتك بالحديد والنار حتى فى عهد الديموقراطية والبرلمان ؟!.
السيد ساخرا :
ــ الديموقراطية للشعب لا للأسرة ..
على عبد الرحيم جادا :
ــ أتظن أنه يمكن التحكم بالطريقة القديمة فى شبان اليوم ؟!، هؤلاء الشبان الذين اعتادوا القيام بالمظاهرات والوقوف فى وجه الجنود ؟!
فقال إبراهيم الفار :
ــ لا أدرى عما تتكلم ، ولكننى متفق فى الرأى مع أحمد ، كلانا أب لذكور ، والله المستعان ..
محمد عفت مداعبا :
ــ كلاكما متحمس للحكم الديموقراطى باللسان ولكنكما مستبدان فى بيتكما ..!
فقال أحمد عبد الجواد كالمحتج :
ــ أتريدنى على ألا أبت فى مسألة حتى أجمع كمال وياسين وأم كمال ، ثم نأخذ الأصوات ؟!.
فهأهأت زبيدة قائلة :
ــ لا تنس زنوبة من فضلك ..

وقال إبراهيم الفار :

ـــ إذا كانت الثورة هى سبب ما نعانى من أولادنا ، فالله يسامح سعد باشا ..

وتواصل الشرب والسمر والغناء والمزاح ، وتعالت الضجة واختلطت الأصوات ، وتقدم الليل غير عابىء بشىء ، وكان ينظر إليها فيجدها تنظر إليه أو تنظر إليه فتجده ينظر إليها ، وقال لنفسه : إنه ليس فى هذا الوجود إلا لذة واحدة ، وأراد أن يفصح عن فكرته ولكنه لم يفصح ، إما لأن حماسه للإفصاح فتر أو لأنه لم يستطع ، ولكن كيف جاء هذا .. الفتور ؟!، وتساءل مرة أخرى : أتكون لذة ساعة أم معاشرة طويلة ؟، ونزعت نفسه إلى التماس التسلية والعزاء ، ولكن ثمة وش كأن أمواج النيل تهمس فى أذنيه ، ومع ذلك فمنتصف الحلقة السادسة فى متناول اليد ، سل الحكماء كيف ينطوى العمر ونحن ندرى دون أن ندرى ..

ـــ ماذا أسكتك كفى الله الشر ؟

ـــ أنا ؟!.. شوية راحة ..

أجل ما ألذ الراحة !، ضجعة طويلة تقوم بعدها صحيحا ، ما ألذ الصحة ، ولكنهم يطاردونك ولا يدعون لك لحظة واحدة تنعم فيها بالسلام ، وهذه النظرة أليست فاتنة ولكن همسات الأمواج تعلو فكيف تسمع الغناء ؟

ـــ كلا ، لن نتركه حتى يزف ، ما رأيكم ؟. الزفة .. الزفة !..

ـــ قم يا جملى ..

ـــ أنا ؟.. شوية راحة ..

ـــ الزفة .. الزفة ، كما حدث أول مرة فى بيت الغورية ..

ـــ ذلك عهد قديم ..

ـــ نجدده ، الزفة .. الزفة ..

لا يرحمون ، وذلك زمن خلا تحجبه عن عينيك ظلمات ، ألا ما أكثف الظلام !، وما أشد الوش !، وما أغلظ النسيان ..!

ـــ انظروا ..!

ـــ ما له ؟!..

ـــ قليلا من الماء .. افتحوا النافذة ..!

ـــ يا لطيف يا رب ..

ـــ خير .. خير ، بل هذا المنديل بالماء البارد ..

٤٢

مضى أسبوع على « حادث » الأب ، وكان الطبيب يزوره يوميا ، وكانت الحال من الشدة بحيث لم يسمح لأحد بمقابلته ، حتى الأبناء كانوا يتسللون إلى الحجرة على أطراف أصابعهم فيلقون بنظرة على الراقد متفحصين ما يكسو وجهه من ذبول واستسلام ، ثم ينسحبون وفى الوجوه اكفهرار وفى الصدور انقباض ، يتبادلون النظرات ويتهربون منها فى ذات الوقت . قال الطبيب إنها أزمة ضغط ، وحجم المريض فملأ طستاً من دمه ، دم أسود كما قالت خديجة فى وصفه وجوارحها ترتعش ، وكانت أمينة تعود من الحجرة بين الحين والحين كشبح يهيم على وجهه ، على حين بدا كمال ذاهلا كأنما يتساءل كيف تقع هذه الأمور الخطيرة فى أقل من غمضة عين ، وكيف استسلم الرجل الجبار واستكان ، ثم يسترق نظرة إلى شبح أمه ، أو عينى خديجة الدامعتين أو وجه عائشة الشاحب ويتساءل مرة أخرى ماذا يعنى هذا كله ؟، ووجد نفسه تنساق وهو لا يدرى إلى تصور النهاية التى يخافها قلبه ، تصور عالم لا يوجد فيه الأب ، فضاق صدره وجزع قلبه ، وتساءل فى إشفاق كيف يمكن أن تتحمل هذه النهاية أمه ؟. إنها تبدو الآن كالمنتهية ولما يقع شىء ، ثم وردت ذهنه ذكرى فهمى ، فتساءل : أيمكن أن ينسى هذا كما نسى ذاك ؟. وتراءت له الدنيا ظلمات فوق ظلمات .

وعلم ياسين بالحادث فى اليوم التالى لوقوعه ، فجاء إلى البيت لأول مرة مذ غادره عند زواجه من مريم ، وقصد حجرة أبيه رأسا فألقى عليه نظرة طويلة صامتة ثم انسحب إلى الصالة مذهولا ، فالتقى بأمينة فتصافحا بعد طول فراق ، واشتد تأثره وهو يصافحها فامتلأت عيناه بالدموع . ولبث السيد راقدا ، ولم يكن أول الأمر يتكلم أو يتحرك ، فلما حجم دب فيه شىء من الحياة فاستطاع أن ينطق بكلمة أو عبارة مقتضبة يفصح بها عما يريد ، ولكنه فى الوقت ذاته شعر بالألم فصدر عنه الأنين والتأوهات . ولما خفت حدة الآلام المرضية أخذ يضيق برقاده الإجبارى

الذى حرمه نعمة الحركة والنظافة ، وقضى عليه بأن يأكل ويشرب ويفعل ما تعافه نفسه فى مكان واحد هو فراشه . وكان نومه متقطعا ، وكان ضجره متصلا ، غير أن أول ما سأل عنه كان خاصا بكيفية إحضاره إلى البيت مغشيا عليه ، وأجابته أمينة بأنه جىء به فى حانطور مع صحبه محمد عفت وعلى عبد الرحيم وإبراهيم الفار ، وأنهم حملوه برفق إلى فراشه ، ثم أحضروا له الطبيب رغم تأخر الوقت . وسأل بعد ذلك باهتمام عن عوّاده فقالت له المرأة إنهم لا ينقطعون ولكن الطبيب منع المقابلة إلى حين . وكان يردد بصوت خافت « الأمر لله من قبل ومن بعد » و « نسأل الله حسن الختام » ، ولكن الحق أنه لم يستشعر اليأس ، ولم يحس بدنو النهاية ، ولم تضعف ثقته بالحياة التى يحبها رغم آلامه وخوفه ، عاوده الأمل بمجرد عودة الوعى إليه ، فلم يحدث أحدا بحديث الراحلين كأن يوصى أو يودع أو يعهد لمن يهمه الأمر بأسرار عمله وثروته ، وعلى العكس من ذلك استدعى جميل الحمزاوى وكلّفه ببعض أعمال المبادلة التى لم يكن يعلم عنها شيئا ، كما أرسل كمال إلى خياطه البلدى بخان جعفر ليحضر ملابس جديدة كان عهد بها إليه وليدفع ثمن خيطها ، لم يكن يذكر الموت إلا بتلك العبارات يرددها كأنما يدارى بها قسوة الأقدار . وعند ختام الأسبوع الأول صرح الطبيب بأن مريضه اجتاز المرحلة الدقيقة بسلام ، وأنه لم يعد يلزمه إلا بعض الصبر كى يسترد صحته كاملة ويستأنف نشاطه . وأعاد الطبيب على مسمعه ما سبق أن حذره منه عند ارتفاع ضغطه أول مرة فوعده بالطاعة وعاهد نفسه صادقا على الإقلاع عن الاستهتار بعد ما تبين له من عواقبه الوخيمة التى أقنعته بأن الأمر جد لا هزل ، وجعل يتعزى قائلا : إن الحياة السليمة مع شىء من الحرمان خير على أى حال من المرض .

هكذا مرت الأزمة بسلام ، فاستردت الأسرة أنفاسها ولهجت قلوبها بالشكر ، وعند نهاية الأسبوع الثانى سمح للسيد بمقابلة عواده فكان يوم سعيد ، وكانت أسرته أول من احتفل بهذا اليوم فزاره أبناؤه وأصهاره وتحدثوا إليه لأول مرة منذ الرقاد ، وقلب الرجل عينيه فى وجوههم — ياسين وخديجة وعائشة وإبراهيم شوكت وخليل شوكت — وراح بلباقته — التى لم تخنه فى موقفه هذا — يسأل عن الأطفال رضوان وعبد المنعم وأحمد ونعيمة وعثمان ومحمد ، فقالوا له : إنهم لم يجيئوا بهم حرصا على راحته ، ودعوا له بطول العمر وتمام الصحة والعافية ، ثم حدثوه عن حزنهم لما ألم به

وسرورهم بسلامته ، تكلمت خديجة بصوت متهدج ، وتركت عائشة على يده وهى تقبلها دمعة تغنى عن كل بيان ، أما ياسين فقال بزلاقة لسان : إنه مرض معه حين مرض وبرىء معه حين منّ الله عليه بالشفاء . فتطلق وجه الرجل الشاحب بالبشر وحدثهم طويلا عن قضاء الله ورحمته ولطفه وأن على المؤمن أن يواجه مصيره بصبر وإيمان متوكلا على الله وحده ، وغادروا الحجرة إلى حجرة كمال ــ مخلين الصالة لمرور العواد المنتظر توافدهم ــ وهناك أقبل ياسين على أمينة ، فشد على يدها وهو يقول :

ــ لم أحدثك بما فى نفسى طيلة الأسبوعين الماضيين ، لأن مرض بابا لم يترك لى عقلا أفكر به ، أما الآن وقد أمر الله بالسلامة فأود أن أعتذر عن رجوعى إلى البيت دون استئذانك ، الحق أنك استقبلتنى بالعطف الذى عهدته منك فى الأيام السعيدة الخالية ، ولكن علىّ الآن أن أقدم فروض الاعتذار ..

فتورد وجه أمينة وهى تقول بتأثر :

ــ ما فات فات يا ياسين ، هذا بيتك تحل فيه أهلا وسهلا حين تشاء ..

فقال ياسين ممتنا :

ــ لا أحب أن أعود إلى الماضى ، ولكن أحلف برأس أبى وحياة رضوان ابنى أن قلبى لم يحمل قط سوءا لأحد من أهل هذا البيت ، وأنى أحببتهم جميعا كما أحب نفسى ، ربما يكون الشيطان قد دفعنى إلى خطأ ، وكل إنسان عرضة لهذا ، ولكن قلبى لم تشبه شائبة أبدا ..

فوضعت أمينة يدها على منكبه العريض ، وقالت بإخلاص :

ــ كنت دائما واحدا من أبنائى ، ولا أنكر أنى غضبت مرة ، ولكن زال الغضب والحمد لله ، فلم يبق إلا الحب القديم ، هذا بيتك يا ياسين ، أهلا بك أهلا ..

وجلس ياسين ممتنا ، فلما غادرت أمينة الحجرة ، قال للحاضرين بلهجة خطابية

ــ ما أطيب هذه المرأة ، إن الله لا يغفر لمن يسىء إليها ، لعن الله الشيطان الذى أورطنى يوما فيما جرح مشاعرها ..

فقالت له خديجة وهى تحدجه بنظرة ذات معنى :

ــ لا يكاد يمضى عام حتى يورطك الشيطان فى مصيبة ، كأنك لعبة فى يديه ..

فنظر إليها بعين كأنما يتوسل إليها أن تعفيه من لسانها ، وإذا بعائشة تقول مدافعة عنه :

ــ ذاك تاريخ مضى وانتهى ..

فتساءلت خديجة فى تهكم :

ــ لم لم تأت معك بالمدام « لتحيي » لنا هذا اليوم المبارك ؟

فقال ياسين فى كبرياء مصطنع :

ــ لم تعد زوجتى تحيي أفراحا بعد ، إنها الآن سيدة بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ..

فقالت خديجة بلهجة جدية لا أثر للتهكم فيها :

ــ يا خسارتك يا ياسين ، ربنا يتوب عليك ويهديك ..

قال إبراهيم شوكت ، كأنما يعتذر عن صراحة زوجته :

ــ لا تؤاخذنى يا سى ياسين ، ولكن ما حيلتى إنها أختك !.

فقال ياسين باسما :

ــ كان الله فى عونك يا سى إبراهيم !..

وهنا قالت عائشة وهى تتنهد :

ــ الآن وقد أخذ الله بيد بابا ، فإنى أصارحكم بأننى لن أنسى ما حييت منظره أول يوم رأيته ، ربنا لا يحكم على أحد بالمرض ..

خديجة بصدق وحماس :

ــ هذه الحياة لا تساوى بدونه قلامة ظفر ..

فقال ياسين بتأثر :

ــ إنه ملاذنا عند كل شدة ، رجل ولا كل الرجال !..

وأنا ؟. أتذكر موقفك بركن الحجرة وقد أطبق عليك اليأس ؟. وكيف تقطع قلبى وأنا أرى تهافت أمى ، نعرف الموت معنى من المعانى أما إذا هل ظله من بعيد فتدور بنا الأرض ، ومع ذلك فستتوالى طعنات الألم بعدد من نفقد من الأحباء ، وستموت أنت أيضا مخلفا وراءك الآمال ، والحياة رغيبة ولو ابتليت بالحب . وتعالى

من الطريق رنين جرس حنطور ، فوثبت عائشة إلى النافذة ثم نظرت من خصاصها ، التفتت قائلة فى مباهاة :

ـــ زوار من الأكابر !

وتتابع وصول العواد من الأصدقاء الكثيرين الذين امتلأت بهم حياة الأب ، موظفين ومحامين وأعيان وتجار ، وكانت منهم قلة لم تجىء البيت من قبل ، وآخرون لم يأتوا إلا مدعوين لبعض الولائم التى يولمها السيد فى المناسبات ، وغير هؤلاء وأولئك رجال ترى وجوههم كثيرا فى الصاغة والسكة الجديدة ، والجميع أصدقاء ولكنهم ليسوا من طبقة محمد عفت وصاحبيه . وقد مكثوا قليلا مراعاة لظروف الزيارة ، ولكن الأبناء وجدوا فى مظاهرهم الفاخرة وعرباتهم ذوات الجياد المطهمة ما أشبع خيلاءهم وزهوهم ، وقالت عائشة وهى لا تزال بموقف المراقبة :

ـــ ها هم الأحباب قد وصلوا ..

وترامت أصوات محمد عفت وعلى عبد الرحيم وإبراهيم الفار وهم يتضاحكون ويرفعون أصواتهم بالشكر والحمد ، فقال ياسين :

ـــ لم يعد فى الدنيا أصدقاء مثل هؤلاء ..

فآمن على قوله إبراهيم شوكت وخليل ، على حين قال كمال بحزن لم يفطن إليه أحد :

ـــ قل أن تتيح الحياة لأصدقاء أن يجتمع شملهم طويلا كما أتاحت لهؤلاء !

وعاد ياسين يقول كالمتعجب :

ـــ لم يمر يوم دون أن يزوروا البيت ، وما غادروه فى أيام الشدة إلا والدموع فى أعينهم ..

فقال إبراهيم شوكت :

ـــ لا تعجب ، فقد عاشروه أكثر منكم أنتم !

وهنا ذهبت خديجة إلى المطبخ لتقدم مساعداتها . أما تيار العواد فلم ينقطع ، وقد جاء جميل الحمزاوى بعد أن أغلق الدكان ، وتبعه غنيم حميدو صاحب معصرة الجمالية ، ثم محمد العجمى بائع الكسكسى بالصالحية . وإذا بعائشة تهتف وهى تشير إلى الطريق من وراء النافذة :

ـــ الشيخ متولى عبد الصمد !، ترى أيستطيع أن يصعد إلى الدور الفوقانى ؟!

وراح الشيخ يقطع الفناء متوكئا على عصاه ، متنحنحا ـــ من حين لآخر ـــ

لينبه من فى طريقه إلى حضوره . وأجاب ياسين :

ـــ إنه يستطيع أن يصعد إلى قمة مئذنة .. (ثم مجيبا خليل شوكت الذى تساءل عن عمر الرجل بعينيه وأصابعه).. بين الثمانين والتسعين !. ولكن لا تسل عن صحته !..

وتساءل كمال :

ـــ ألم يتزوج فى حياته الطويلة ؟

فقال ياسين :

ـــ يقال إنه كان زوجا وأبا ، ولكن زوجه وأبناءه انتقلوا إلى رحمة الله .

وهتفت عائشة مرة أخرى ، ولم تكن برحت موقفها من النافذة :

ـــ انظروا !. هذا خواجا !. من يكون يا ترى ؟..

كان يقطع الفناء ملقيا على ما حوله نظرة مترددة متسائلة ، واضعا على رأسه قبعة مستديرة من الخوص لاح تحت حافتها أنف مجدور مقوس وشارب منفوش ، فقال إبراهيم :

ـــ لعله صائغ من تجار الصاغة !..

فتمتم ياسين فى حيرة :

ـــ ولكنه يونانى السحنة ، أين يا ترى رأيت هذا الوجه ؟!

وجاء شاب ضرير ذو نظارة سوداء ، يجره من يده رجل من أهل البلد ملثما بكوفية رافلا فى معطف أسود طويل يبرز من تحت طرفه جلباب مقلم ، فعرفهما ياسين ـــ من أول نظرة ـــ وهو من الدهش فى نهاية : أما الشاب الضرير فكان عبده عازف القانون بتخت زبيدة ، وأما الآخر فصاحب قهوة مشهورة بوجه البركة يدعى الهمايونى ، فتوة وبلطجى وبرمجى الخ .. ، وسمع خليل وهو يقول :

ـــ الضرير قانونجى العالمة زبيدة !..

فتساءل ياسين متصنعا الدهش :

ـــ وكيف عرف بابا ؟

فابتسم إبراهيم شوكت وهو يقول :

ـــ والدك من السميعة القدامى ، ولا غرابة فى أن يعرفه جميع أهل الفن !..

وابتسمت عائشة دون أن تدير رأسها المتجه إلى الطريق لتدارى ابتسامتها ، ياسين وكمال رأيا ابتسامة إبراهيم وفطنا إلى ما وراءها . وأخيرا جاءت سويدان جارية

آل شوكت تتعثر فى خطوات الكبر ، فتمتم خليل وهو يشير إليها « رسول أمنا للسؤال عن السيد » . وكانت حرم المرجوم شوكت قد زارت السيد مرة ، ولكنها لم تستطع أن تعيد الكرة لما اعتراها فى الأيام الأخيرة من آلام روماتيزمية تحالفت مع الكبر عليها . وما لبثت خديجة أن عادت من المطبخ وهى تقول مبدية التشكى مضمرة المباهاة :

ـــ يلزمنا قهوجى ليقدم القهوة بنفسه !..

كان السيد جالسا فى فراشه ، مسند الظهر إلى وسادة منكسرة ، ساحبا الغطاء حتى عنقه ، على حين جلس العواد على الكنبة والكراسى التى أحدقت بالفراش ، وبدا سعيدا رغم ضعفه ، فلم يكن يسعده شيء كالتفاف الأصدقاء حوله وتسابقهم إلى مجاملته ورعاية عهده ، وإذا كان قد بلاه المرض بالشر فإنه لم ينكر حسنته فيما وجد من جزع إخوانه لما أصابه وتحسرهم على غيابه ومدى إحساسهم بالوحشة فى مجالسهم أثناء اعتكافه ، وكأنما أراد أن يستزيد من العطف ، فجعل يقص عليهم ما لاقى من آلام وسأم ، واستباح فى سبيل ذلك أن يهول ويبالغ ، فقال متنهدا :

ـــ فى الأيام الأولى من المرض اقتنعت فيما بيني وبين نفسى بأنى انتهيت ، فجعلت أتشهد وأقرأ الصمدية ، وفيما بين هذا وذاك أذكركم كثيرا فتقسو علىَّ فكرة فراقكم ..

فعلا أكثر من صوت قائلا :

ـــ لا كانت الدنيا بدونك يا سيد أحمد ..

وقال على عبد الرحيم بتأثر :

ـــ سيترك مرضك هذا فى نفسى أثرا لن يزول مع الأيام ..

وقال محمد عفت بصوت خافت :

ـــ أتذكر تلك الليلة ؟. رباه لقد شيبتنا !..

فمال غنيم حميدو نحو الفراش قليلا ، وقال :

ـــ نجاك الذى نجانا من الإنجليز ليلة بوابة الفتوح !..

تلك الأيام السعيدة ، أيام الصحة والعشق ، وفهمى كان النجابة والأمل الموعود .

ـــ الحمد لله يا سيد حميدو !..

وقال الشيخ متولى عبد الصمد :

ـــ إنى أسألك كم أعطيت الطبيب بدون وجه حق ؟!. ولا داعى للجواب ، ولكنى أدعوك إلى إطعام أولياء الحسين ..

فقاطعه محمد عفت متسائلا :

ـــ وأنت يا شيخ متولى ، ألست من أولياء الحسين ؟!. وضح هذه النقطة ..

فاستطرد الشيخ ـــ دون مبالاة ـــ وهو يضرب الأرض بعصاه عقب كل عبارة :

ـــ أطعم أولياء الحسين وأنا على رأسهم ، أراد محمد عفت أم لم يرد ، وعليه هو أيضا أن يطعمهم إكراما لك ، وأنا على رأسهم ، وعليك أن تؤدى فريضة الحج هذا العام ، ويا حبذا لو أخذتنى معك ليضاعف الله لك الجزاء ..

ما أطيبك وأقربك إلى قلبي يا شيخ متولى ، أنت من معالم الزمن .

ـــ أعدك يا شيخ متولى بأن آخذك معى إلى الحجاز ، إذا أذن الرحمن ..

عند ذاك قال الخواجا ، وكان قد خلع قبعته عن شعر خفيف ناصع البياض :

ـــ شوية زعل ، الزعل سبب كل شيء ، اترك الزعل ترجع مثل البمب .

مانولى الذى باعك الخمر طيلة خمسة وثلاثين عاما ، بائع السعادة وسمسار القرافة .

ـــ هذه عاقبة بضاعتك يا مانولى !

فنظر الخواجا فى بقية وجوه الزبائن ، وقال :

ـــ لم يقل أحد إن الخمر تأتى بالمرض ، كلام فارغ ، الانبساط والضحك والفرفشة تسبب المرض ؟!

هتف الشيخ متولى عبد الصمد ، وهو يلتفت نحو الخواجا مسددا نحوه بصرا لا يكاد يرى :

ـــ الآن عرفتك يا وجه المصائب ، عندما سمعت صوتك فى المرة الأولى تساءلت أين سمعت هذا الشيطان ؟!

وسأل محمد العجمى بائع الكسكسى الخواجا مانولى ، وهو يغمز بعينيه ناحية الشيخ متولى :

ـــ ألم يكن الشيخ متولى من زبائنك يا مانولى ؟

فقال الخواجا باسما :

ـــ فمه ملآن بالطعام ، فأين يضع الخمر يا حبيبى ؟
وصاح عبد الصمد وهو يشد على مقبض عصاه :
ـــ تأدب يا مانولى !
فصاح به العجمى :
ـــ أتنكر يا شيخ متولى أنك كنت أكبر حشاش قبل أن يقطع الكبر أنفاسك ؟
فلوح الشيخ بيده محتجا ، وهو يقول :
ـــ ليس الحشيش حراما ، أجرَّبت صلاة الفجر وأنت مسطول ؟. الله أكبر .. الله أكبر !
ووجد أحمد عبد الجواد الهمايونى صامتا ، فالتفت إليه باسما وهو يقول على سبيل المجاملة :
ـــ كيف حالك يا معلم ؟ . والله زمان !..
فقال الهمايونى بصوت كالنعير :
ـــ والله زمان زمان والله !. أنت السبب يا سيد أحمد وأنت الهاجر ، ولكن لما قال لى السيد على عبد الرحيم إن عدوك راقد ذكرت أيام الصبوات كأنها لم تنقطع ، وقلت لنفسى : لا كان الوفاء إن لم أزر بنفسى الرجل الحبيب ، رجل المروءة والفرفشة والأنس ، ولولا الملامة لجئت معى بفطومة وتملى ودولت ونهاوند ، كلهن مشتاقات إلى رؤيتك ، يا سلام يا سى أحمد ، أنت أنت سواء شرفتنا كل ليلة أم هجرتنا سنين !..
ثم وهو يجيل عينيه الحديديتين :
ـــ هجرتمونا كلكم ، البركة فى السيد على ، ربنا يخلى لنا سنية القللى التى تجذبه إلينا ، من فات قديمه تاه ، عندنا أصل الأنس ، ماذا غيبكم عنا ؟، لو كانت التوبة لعذرناكم ، ولكن التوبة لم يئن أوانها ، ربنا يبعدها بطول العمر والأفراح !
أحمد عبد الجواد وهو يشير إلى نفسه :
ـــ ها أنت ترى أننا قد انتهينا !..
فقال المعلم بحماس :
ـــ لا تقل هذا يا سيد الرجال ، وعكة وتمضى إلى غير رجعة ، لن أتركك حتى تنذر أن تعود إلى وجه البركة ـــ ولو مرة ـــ إذا أخذ الله بيدك وقمت بالسلامة !..
فقال محمد عفت :

ـــ الزمن تغير يا معلم همايونى ، أين وجه البركة الذى عرفناه قديما ؟. ابحث عنه فى التاريخ ، أما ما بقى منه فمراح الشبان من أهل اليوم ، كيف نسير بينهم وفيهم أبناؤنا ؟

وقال إبراهيم الفار :

ـــ ولا تنس أننا لا نستطيع أن نغالط ربنا فى العمر والصحة ، انتهينا كما قال سى أحمد ، ما منّا إلا من اضطر إلى زيارة الطبيب ليقول له عندك وعندك ، لا تشرب .. لا تأكل .. لا تتنفس ، وغير ذلك من الوصايا المقرفة ، ألم تسمع عن مرض الضغط يا معلم همايونى ؟

فقال المعلم وهو يحدجه بنظرة :

ـــ داو أى مرض بسكرة وضحكة ولعبة ، وإن وجدت له أثرا بعد ذلك الزقه فى كبدى !.

فصاح مانولى :

ـــ قلت له هذا وحياتك أنت !.

وقال محمد العجمى ، كأنما يتم ما بدأ صاحبه :

ـــ ولا تنس المنزول الأصيل يا معلم ..

فهز الشيخ متولى عبد الصمد رأسه متعجبا ، وتساءل فى حيرة :

ـــ دلونى يا أهل الخير أين أنا ، أفى بيت ابن عبد الجواد أم فى غرزة أم فى حانة ؟. دلونى يا هوه !..

تساءل الهمايونى وهو يرمق الشيخ متولى شزرا :

ـــ من صاحبكم ؟

ـــ ولى كله خير ..

فقال له متهكما :

ـــ اقرأ لى الطالع إن كنت وليا !.

فهتف متولى عبد الصمد :

ـــ إما السجن وإما المشنقة !..

فلم يتمالك الهمايونى من أن يضحك عاليا ، ثم قال :

ـــ حقا إنه ولى ، فهذه هى النهاية المتوقعة (ثم مخاطبا الشيخ) لكن اضبط لسانك ، وإلا حققت بك نبوءتك !..

على عبد الرحيم ، وهو يقرب رأسه من وجه السيد :

ـــ قم يا حبيبى ، الدنيا لا تساوى قشرة بصلة من غيرك ، ماذا جرى لنا يا أحمد ؟. أترى أنه يحسن بنا ألا نستهين بالمرض بعد ذلك ؟. كان آباؤنا يتزوجون وهم فوق السبعين ، فماذا جرى ؟!

متولى عبد الصمد بعنف، تطاير معه الرذاذ من فيه :

ـــ كان آباؤكم مؤمنين طاهرين ، لم يسكروا ولم يفسقوا ، فى هذا الجواب الذى تريد ..

وأجاب أحمد عبد الجواد صديقه قائلا :

ـــ قال لى الطبيب إن التمادى فى الاستهانة مع الضغط عاقبته الشلل والعياذ بالله . هذا ما وقع لصاحبنا الودينى أكرمه الله بحسن الختام ، إنى أسأل الله إذا حم القضاء أن يكرمنى بالموت ، أما الرقاد أعواما بلا حراك ..! اللهم رحمتك !

وهنا استأذن العجمى وحميدو ومانولى فى الانصراف ، وذهبوا وهم يدعون للسيد بالصحة والعمر المديد . ومال محمد عفت على السيد ، ثم همس بصوت هامس :

ـــ جليلة تقرئك السلام ، وكم ودَّت لو تراك بنفسها !..

فالتقطت أذن عبده القانونجى مقالته ، ففرقع بأصابعه ، وقال :

ـــ وأنا مبعوث السلطانة إليك ، وقد كادت أن تتزيى بزى الرجال لتحضر إليك بنفسها لولا أن أشفقت عليك من العواقب غير المتوقعة ، فأرسلتنى وقالت لى قل له :

وتنحنح مرة ثم مرة ، وغنى بصوت خافت :

أمانة يا رايح يمه تبوس لى الحلو من فمه

وقل له عبدك المغرم ذليل

فابتسم الهمايونى كاشفا عن طاقم ذهبى ، وقال :

ـــ نعم الدواء ، جرب هذا ولا تلق بالا إلى ولىِّ الله المتنبىء بالمشانق .

زبيدة ؟!، لا شوق بى إلى شىء . دنيا المرض شىء كريه ، ولو وقع المحذور مت سكران ، ألا يعنى هذا أنه لا بد من صفحة جديدة ؟!

وقال له إبراهيم الفار بصوت خافت :

ـــ تعاهدنا على ألا نذوق الخمر وأنت راقد ..

ـــ إنى أعفيتكم من تعهدكم ، وسامحونى عما فات !

على عبد الرحيم مبتسما فى إغراء :

ـــ لو كان فى الإمكان أن نحتفل هنا الليلة بشفائك !

متولى عبد الصمد موجها خطابه للجميع :

ـــ أدعوكم إلى التوبة والحج ..

الهمايونى محنقا :

ـــ كأنك عسكرى فى غرزة ..

وبإشارة متفق عليها من الفار ، تقاربت رءوس محمد عفت وعلى عبد الرحيم وإبراهيم الفار فوق رأس السيد ، وراحوا يغنون بصوت خافت :

أما انت مش قد الخمرة   بس تسكر ليه

على نغمة   أما انت مش قد الهوى   بس   تعشق   له

على حين جعل الشيخ متولى عبد الصمد يتلو آيات من سورة التوبة ، أما أحمد عبد الجواد فقد أغرق فى الضحك حتى دمعت عيناه ، ومر الوقت بلا حساب حتى بدا فى وجه الشيخ متولى عبد الصمد الجزع ، فقال :

ـــ ليكن فى معلومكم أنى آخر من سيغادر هذه الحجرة ، لأنى أريد أن أخلو إلى ابن عبد الجواد ..

٤٣

غادر أحمد عبد الجواد البيت بعد أسبوعين آخرين ، فكان أول ما فعله أن صحب ياسين وكمال إلى زيارة الحسين والصلاة فى مسجده شكرا لله . وكان نبأ وفاة على فهمى كامل قد نشر فى الصحف ، فتأمله السيد أحمد طويلا وخاطب ابنيه ـــ وهم يغادرون البيت ـــ قائلا : ـــ سقط ميتا وهو يخطب فى جمع حافل ، وها أنا أسعى على قدمى بعد رقاد كدت أرى فيه الموت رؤية العين ، فمنذا يستطيع أن يعلم الغيب ؟! ، حقا إن الأعمار بيد الله ، وأنه لكل أجل كتاب ..

كان عليه أن يصبر أياما وأسابيع حتى يسترد وزنه ، غير أنه بدا رغم ذلك مستوفيا آى وقاره وجماله . وقد سار فى المقدمة وتبعه ياسين وكمال . وهو منظر لم ير بهيئته الكاملة منذ وفاة فهمى . وفى الطريق ما بين بين القصرين والجامع لمس

الشابان المكانة التى يحظى بها أبوهما فى الحى كله ، فما من تاجر من أصحاب الدكاكين القائمة على جانبى الطريق إلا وقد صافحه وتلقاه بين ذراعيه وهو يهنئه بالسلامة . واستجابت نفسا ياسين وكمال لهذه المودة الحارة المتبادلة ، فملكهما السرور والزهو وارتسمت على ثغريهما ابتسامة لم تفارقهما طوال الطريق ، غير أن ياسين تساءل فى براءة : لم لم يحظ بمثل مكانة أبيه وكلاهما فى الجلال والجمال والعيوب سواء ؟!. أما كمال فبالرغم من تأثره الوقتى استدعى أفكاره الغابرة عن هذه المكانة المرموقة ليسبرها بعين جديدة . كانت فى الماضى تتمثل لعينيه الصغيرتين آية للجلال والعظمة أما الآن فإنه يراها لا شىء أو لا شىء بالقياس إلى مثله العليا ، ما هى إلا المكانة التى يحظى بها رجل طيب القلب لطيف المعشر جم المروءة ، والعظمة شىء قد يناقض ذلك كل المناقضة ، فهى دوىّ يزلزل قلوب الخاملين ويطير النوم عن أعين الراقدين ، وهى عسية بأن تستثير الكراهية لا الحب ، والسخط لا الرضى ، والعداوة لا المودة ، إنها الكشف والهدم والبناء ، ولكن أليس من السعادة أن ينعم الإنسان بمثل هذا الحب والإجلال ؟، بلى وآى ذلك أن عظمة العظماء تقاس أحيانا بمقدار تضحيتهم بالحب والطمأنينة فى سبيل أهداف أسمى ، على أى حال هو رجل سعيد فليهنأ بسعادته . انظر إليه ما أجمله !. كذلك ياسين ما ألطفه . وما أعجب منظرى بينهما كأنى صورة تنكرية فى كرنفال ، ازعم ما شاء لك الزعم أن الجمال حلية النساء لا الرجال فلن يمحو هذا من ذاكرتك موقف الكشك الرهيب . وقد برىء أبى من الضغط فمتى أبرأ من الحب ؟. والحب مرض غير أنه كالسرطان لم تكتشف جرثومته بعد . إن حسين شداد يقول فى رسالته الأخيرة : « إن باريس عاصمة الجمال والحب » فهل هى أيضا عاصمة العذاب . وقد بدأ العزيز يبخل برسائله كأنما يقطرها من دمه الغالى ، أريد عالما لا تخدَع فيه القلوب ولا تخدع .

عند منعطف خان جعفر لاح لهم الجامع الكبير ، فسمع أباه وهو يقول من الأعماق بصوت جمع بين رقة التحية وحرارة الاستغاثة « يا حسين » ثم حث خطاه فتبعه وياسين وهو ينظر إلى الجامع وعلى شفتيه ابتسامة غامضة . أيدور بخلد أبيه أنه لم يتبعه إلى هذه الزيارة المباركة إلا استجابة لرغبته هو دون أدنى مشاركة فى عقيدته ؟!. أما هذا الجامع فلم يعد فى نظره إلا رمزا من رموز الخيبة التى ابتلى بها

قلبه . كان فى الماضى يقف تحت مئذنته وقلبه خفاق ودمعه متحفز وصدره مرتعش لجيشات الوجد والإيمان والأمل ، واليوم يقترب منه وهو لا يراه إلا مجموعة ضخمة من الأحجار والحديد والخشب والطلاء تحتل مساحة واسعة من الأرض بغير وجه حق !. بيد أنه لا مناص من تمثيل دور المؤمن حتى تنتهى الزيارة رعاية لحقوق الأبوة واحتراما للناس أو اتقاء لشرهم ، وهو سلوك ينافى الكرامة والصدق ، أريد عالما يعيش فيه الإنسان حرا بلا خوف ولا إكراه !.

وخلعوا أحذيتهم ودخلوا تباعا ، فاتجه الأب إلى المحراب ودعا ابنيه إلى الصلاة تحية للمسجد ، ثم رفع يديه إلى رأسه مقيما الصلاة فائتما به . استغرق الأب فى الصلاة كعادته فأرخى جفونه وامتثل ، ونسي ياسين كل شيء إلا أنه بين يدى الله الغفور الرحيم . وجعل هو يحرك شفتيه دون أن يقول شيئا ، وانحنى واستوى ثم ركع وسجد وكأنه يؤدى بعض الحركات الرياضية الفاترة ، وقال لنفسه : إن أقدم الآثار المتخلفة على وجه الأرض أو فى باطنها معابد وحتى اليوم لا يخلو منها مكان فمتى يشب الإنسان عن طوقه ويعتمد على نفسه ؟. وهذا الصوت الجهير الذى يترامى من أقصى الجامع يذكر الناس بالآخرة فمتى كان للزمن آخر ؟، وما أجمل أن ترى إنسانا يغالب الأوهام ليغلبها ولكن متى ينتهى القتال ويعلن المقاتل أنه سعيد ؟. وأن الدنيا لتبدو لعينى غريبة فهل تراها خلقت أمس ؟، وهذان الرجلان هما أبى وأخى فلم لا يكون جميع الناس آبائى وإخوتى ؟، وهذا القلب الذى أحمله بين جنبى كيف ارتضى أن يسومنى العذاب ألوانا ؟. وما أكثر أن أرتطم كل ساعة بشخص لا أوده فلماذا نزح الذى أهواه من دونهم إلى أقصى الأرض ؟.

ولما فرغوا من صلاتهم ، قال الأب :

ــ لنمكث قليلا قبل أن نقوم للطواف .

وظلوا متربعين صامتين ، حتى عاد الأب يقول بصوت رقيق :

ــ لم نجتمع هنا منذ ذلك اليوم !

فقال ياسين بتأثر :

ــ الفاتحة على روح فهمى ..

وتليت الفاتحة ، ثم سأل الأب ياسين فيما يشبه الارتياب :

ــ ترى هل شغلتك أمور الدنيا عن زيارة الحسين ؟

فقال ياسين الذى لم يزر الجامع طوال هذه الأعوام إلا مرات معدودات :

ــ لا يمكن أن يمر أسبوع دون أن أزور سيدى !

فالتفت الأب نحو كمال ، ورمقه بنظرة كأنما تسائله « وأنت ؟ » ، فقال كمال وهو يجد استحياء :

ــ وأنا كذلك !.

فقال الأب بخشوع :

ــ إنه حبيبنا وشفيعنا إلى جده يوم لا ترجى فيه أم ولا أب ..

قام من المرض هذه المرة ــ بعد أن ألقى عليه درسا لا ينسى ــ وهو يؤمن ببطشه ويخاف عواقبه فصدقت نيته على التوبة ، وقد كان يؤمن دائما بأن التوبة آتية مهما طال بها الانتظار ، فاقتنع بأن تأجيلها بعد ذلك ضرب من السفه والكفر بنعمة الله الرحيم . وكان كلما طافت به ذكريات اللهو تعزى بما ينتظره فى حياته من مسرات بريئة ، كالصداقة والطرب والفكاهة ، لذلك دعا الله أن يحفظه من وساوس الشيطان وأن يثبت قدميه فيما اعتزم من توبة وراح يتلو ما تيسر من السور القصار التى يحفظها .

ونهض فنهضا وراءه ، ثم مضوا إلى الضريح ، وهناك استقبلهن عرف طيب يذكو فى المكان وغمغمة تلاوات تهمس فى الأركان ، فطافوا بالضريح بين جموع الطائفين ، وارتفعت عينا كمال إلى العمامة الكبيرة الخضراء ، ثم استقرتا مليا فوق الباب الخشبى الذى طالما لثمته شفتاه . فقارن بين عهد وعهد ، وحال وحال ، وذكر كيف انجلى سر هذا القبر عن أول مأساة فى حياته ، ثم كيف تتابعت المآسى بعد ذلك غير مبقية على حب أو عقيدة أو صداقة ، وكيف أنه رغم ذلك كله لا يزال واقفا على قدميه ، يرنو إلى الحقيقة رنو العابد ، غير آبه لطعنات الألم ، حتى المرارة انداحت على شفتيه فارتسمت ابتسامة ، أما السعادة العمياء التى تضىء وجوه الطائفين من حوله فقد نبذها غير آسف ، وكيف يشترى السعادة بالنور وقد عاهد نفسه على أن يعيش مفتح العينين ، مؤثرا القلق الحى على الطمأنينة الخاملة ، ويقظة السهاد على راحة النوم .

ولما فرغوا من طوافهم دعاهما الأب إلى الجلوس مليا فى مثوى الضريح ، فاتجهوا إلى ركن وجلسوا متقاربين ، ولمح السيد بعض معارفه ، فأقبلوا عليه مصافحين

مهنئين ، وجالسه نفر منهم ، وكان أكثرهم يعرفون ياسين ـــ إما عن طريق دكان والده وإما عن طريق مدرسة النحاسين ـــ أما كمال فلم يكد يعرفه أحد منهم ، وقد لفتت نحافته أنظار بعضهم فداعب السيد قائلا :

ـــ ما لابنك هذا كالبرص ؟

فبادره السيد قائلا ، وكأنه يرد تحية بأحسن منها :

ـــ أنت الأبرص !.

وابتسم ياسين ، وابتسم كمال ، وكان أول مرة يطلع فيها على شخصية أبيه « السرية » التي سمع عنها الكثير . هكذا بدا الأب رجلا لا تفوته النكتة حتى وهو في مقام الحمد والتوبة أمام ضريح الحسين . وقد بعث ذلك ياسين على التفكير في مستقبل أبيه ، فتساءل : ترى هل يعود إلى مسراته المعروفة بعد ما كان من أمر المرض معه .. ؟ وقال لنفسه : « إن معرفة ذلك عندي من الدرجة الأولى من الأهمية » .

٤٤

كانت أم حنفي متربعة على الحصيرة بالصالة ، بينما جلست نعيمة ابنة عائشة وعبد المنعم وأحمد ابنا خديجة على الكنبة قبالتها . وكانت النافذتان المطلتان على فناء البيت مفتوحتين ليلطفا من جو أغسطس المفعم بالحرارة والرطوبة ، غير أنه لم تكد تهفو نسمة واحدة فظل المصباح الكبير المتدلي من السقف يرسل نوره على الصالة وهو ثابت ، أما الحجرات فبدت مظلمة صامتة . وكانت أم حنفي خافضة الرأس ، شابكة ذراعيها فوق صدرها ، ترفع عينيها إلى الصغار الجالسين على الكنبة لحظة ثم تغمضهما ، ولم تكن تتكلم ولكن شفتيها لم تتوقفا عن الحركة ، وتساءل عبد المنعم :

ـــ إلى متى يبقى خالي كمال فوق السطح ؟

فتمتمت أم حنفي :

ـــ الجو حار هنا ، لم لم تبقوا معه ؟

ـــ الدنيا ظلام ، ونعيمة تخاف الحشرات .

وهنا قال أحمد فى ضجر :

ـــ إلى متى نبقى هنا ؟، هذا هو الأسبوع الثانى ، إنى أعد الأيام يوما يوما ، وأريد أن أعود إلى بابا وماما ..

أم حنفى برجاء :

ـــ إن شاء الله تعودون جميعا وأنتم على أسعد حال ، ادعوا الله فإنه يستجيب للصغار الأطهار ..

فقال عبد المنعم :

ـــ إننا ندعوه قبل النوم وعقب الاستيقاظ كما توصيننا ..

فقالت المرأة :

ـــ ادعوه فى كل وقت ، ادعوه الآن ، هو وحده القادر على كشف غمتنا ..

وبسط عبد المنعم راحتيه ، ثم نظر إلى أحمد داعيا إياه إلى مشاركته ، ففعل الآخر مثله دون أن يزايل الضجر وجهه ، ثم قالا معا كما تعودا أن يقولا فى الأيام الأخيرة :

ـــ يا رب اشف عمنا خليل ، وعثمان ومحمد ابنى عمنا ، حتى نعود إلى بيتنا مجبورى الخاطر ..

وبدا التأثر فى وجه نعيمة فأرخت أساريرها فى حزن واغرورقت عيناها الزرقاوان بالدموع ، وهتفت :

ـــ بابا وعثمان ومحمد كيف حالهم ؟. وماما أريد أن أراها ، أريد أن أراهم جميعا ..

فتحول عبد المنعم إليها قائلا بصوت المواسى :

ـــ لا تبكى يا نعيمة . قلت لك كثيرا لا تبكى ، عمى بخير ، عثمان بخير ، محمد بخير ، وسنعود قريبا إلى بيتنا ، جدتى تؤكد هذا ، وخالى كمال أكده أيضا منذ قليل ..

فقالت نعيمة وهى تجهش فى البكاء :

ـــ كل يوم أسمع هذا ، ولكنهم لا يسمحون لنا بالعودة إليهم ، أريد أن أرى بابا وعثمان ومحمد ، أريد ماما ..

قال أحمد بتذمر :

ـــ أنا أريد بابا وماما أيضا ..

عبد المنعم :

ـــ سنعود عندما يشفون ..

هتفت نعيمة بجزع :

ـــ لنعد الآن ، أريد أن أرجع ، لم يبعدوننا عنهم ؟

فأجابها عبد المنعم :

ـــ إنهم يخافون أن نشم المرض !.

قالت نعيمة بعناد :

ـــ ماما هناك ، وخالتي خديجة هناك ، وعمى إبراهيم هناك ، وجدتى هناك ، فلماذا لا يشمون المرض ؟

ـــ لأنهم كبار !..

ـــ إذا كان الكبار لا يشمون المرض ، فلماذا مرض بابا ؟..

تنهدت أم حنفى ، وقالت برقة :

ـــ هل ضايقك شيء ؟.. هذا بيتك أيضا ، وها هو سى عبد المنعم وسى أحمد ليلعبا معك ، وخالك كمال يحبك قد عينيه ، وستعودين قريبا إلى ماما وبابا وعثمان ومحمد .. لا تبكى يا ستى الصغيرة وادعى لبابا وأخويك بالشفاء ..

أحمد متأففا :

ـــ أسبوعان عددتهما على أصابعي ، ثم إن شقتنا فى الدور الثالث والمرض فى الدور الثانى ، لم لا نعود إلى شقتنا ونأخذ معنا نعيمة ؟

أم حنفى كالمحذرة وهى تضع أصبعها على شفتيها :

ـــ سيغضب خالك كمال إذا سمع بما قلت ، إنه يشترى لكم الشكولاطة واللب ، فكيف تقول إنك لا ترغب فى البقاء معه ؟. لم تعودوا صغارا ، أنت يا سى عبد المنعم ستدخل المدرسة الابتدائية بعد شهر ، وكذلك أنت يا نعومة !.

فقال أحمد متراجعا بعض الشيء :

ـــ دعونا على الأقل نخرج لنلعب فى الطريق !

فأمَّن عبد المنعم على الاقتراح قائلا :

ـــ كلام معقول يا أم حنفى ، لم لا نخرج إلى الطريق لنلعب ؟

فقالت أم حنفى بحزم :

ـــ عندكم الفناء وهو يسع الدنيا والآخرة ، وعندكم السطح أيضا ، ماذا تريدون أكثر من ذلك ؟. كان سى كمال وهو صغير لا يلعب إلا فى البيت ، وعندما أفرغ من شغلى أقص عليكم الحكايات .. ألا تحبون ذلك ؟

أحمد محتجا :

ـــ أمس قلت لنا إن حكاياتك انتهت !

نعيمة وهى تجفف عينيها :

ـــ خالتى خديجة عندها حكايات أكثر ، وأين ماما لنغنى معا ؟.

أم حنفى باستعطاف :

ـــ طالما رجوتك أن تغنى لنا وأنت ترفضين !.

ـــ لا أغنى هنا !. لا أغنى وعثمان ومحمد مرضى ..

المرأة وهى تنهض :

ـــ سأجهز لكم العشاء ثم ننام ، جبن وبطيخ وشمام ، هه ؟!

كان كمال جالسا على كرسى فى جانب السطح المكشوف فيما يلى سقيفة الياسمين واللبلاب ، لا يكاد يرى فى الظلام لولا جلبابه الأبيض الفضفاض ، وكان مادا ساقيه فى استرخاء ، مصعدا رأسه إلى الأفق المرصع بالنجوم ، مستغرقا فى التفكير ، يكتنفه صمت لا يكدره شىء إلا أن يرتفع صوت من الطريق أو تنبعث قوقأة عن حجرة الدجاج ، وكان فى وجهه أثر مما طرأ على الأسرة فى الأسبوعين الأخيرين ، فقد اختل نظام البيت المعهود واختفت منه أمه إلا فى أوقات نادرة ، وتشبع جوه بتذمر المساجين الصغار الثلاثة الذين يهيمون فى رحباته متسائلين عن « بابا » و « ماما » حتى أعيته الحيل فى ملاطفتهم وملاعبتهم .

أما فى السكرية فإن عائشة لم تعد تغنى وتضحك كما قيل كثيرا عنها ، ولكنها تقضى الليل ساهرة بين أسرة المرضى الأعزاء ، زوجها وطفليها ، وكم تمنى صغيرا لو تعود عائشة إلى بيتها القديم ، وكم يشفق اليوم من أن تضطر إلى العودة مهيضة الجناح كسيرة القلب ، وأما أمه فتهمس فى أذنه « لا تزر السكرية ، وإذا زرتها فلا تمكث طويلا » وإنه ليزورها من حين لآخر ، ثم يغادرها تفوح من راحتيه رائحة المطهرات الغريبة ويستحوذ القلق على فؤاده ، وأعجب شىء أن جراثيم التيفود ـــ كسائر الجراثيم ـــ آية فى الضآلة ، لا تراها العين ، ولكنها تستطيع أن توقف تيار الحياة ،

وأن تتحكم فى مصير العباد ، وأن تشتت إذا أرادت الأسرة . محمد المسكين كان أول المرضى ، ثم تبعه عثمان ، وأخيرا — وعلى غير توقع — وقع الأب ، والليلة جاءت الجارية سويدان لتخبره بأن أمه ستبيت فى السكرية ، ثم قالت — عن أمه وعن نفسها — إنه ليس ثمة ما يدعو إلى القلق !. إذن لم تبيت الأم فى السكرية ؟، ولم ينقبض صدره ؟، على أنه — رغم هذا كله — من الممكن أن يصفو الجو فى غمضة عين ، فيشفى خليل شوكت وطفلاه العزيزان ، ويتألق وجه عائشة ويضىء ، وهل نسى كيف ابتلى بيته بمثل هذه المحنة منذ ثمانية أشهر ؟. وها هو أبوه يسعى فى كامل صحته وعافيته ، وقد استردت عضلاته قوتها ، وعيناه بريقهما الجذاب ، ثم رجع إلى أصحابه وأحبابه كما يرجع الطير إلى الشجرة الغنَّاء ، فمنذا يعترض على أنه يمكن أن يتغير كل شىء فى غمضة عين ؟!

— أنت هنا وحدك ؟

عرف كمال الصوت ، فقام متلفتا صوب باب السطح ، ومد يده للقادم وهو يقول :

— كيف حالك يا أخى ؟، تفضل ..

وقدم له مقعدا ، فتنفس ياسين تنفسا عميقا ليعيد إلى رئتيه توازنهما الذى اضطرب بصعود السلم ، فامتلأ صدره بشذا الياسمين ، ثم جلس وهو يقول :

— الأولاد ناموا ، وأم حنفى نامت كذلك ..

فسأله كمال وهو يتخذ مجلسه مرة أخرى :

— مساكين ، لا يستريحون ولا يريحون ، كم الساعة الآن ؟

— فى الحادية عشرة ، الجو هنا ألطف من الطريق بكثير ..

— وأين كنت ؟!

— مترددا ما بين قصر الشوق والسكرية ، وعلى فكرة والدتك لن تعود الليلة ..

— سويدان أبلغتنى ذلك ، ماذا جد ؟، كنت من القلق فى نهاية ..

ياسين وهو يتنهد :

— كلنا فى القلق سواء ، وربنا عنده اللطف ، والدك هناك أيضا ..

— فى هذه الساعة ؟!

— تركته فى البيت .. (ثم مستطردا بعد قليل) .. كنت فى السكرية حتى

الثامنة مساء ، وإذا برسول يحضر من قصر الشوق ليخبرنى بأن زوجى قد جاءها الطلق ، فذهبت من فورى إلى أم على الداية ومضيت بها إلى البيت حيث وجدت زوجى فى رعاية بعض الجارات ، ومكثت هناك ساعة غير أنى لم أطق سماع الأنين والصراخ طويلا ، فعدت إلى السكرية مرة أخرى فوجدت والدك جالسا مع إبراهيم شوكت ..

ـــ ماذا يعنى هذا ، خبرنى بما عندك ..

ياسين بصوت منخفض :

ـــ الحال خطيرة جدا ..

ـــ خطيرة ؟!

ـــ نعم جئت إلى هنا لأريح أعصابى قليلا ، ألم تجد زنوبة ليلة تلد فيها إلا هذه الليلة ؟، لشد ما تعبت بين قصر الشوق والسكرية ، وبين الداية والدكتور ، والحال خطيرة ، وقد نظرت حرم المرحوم شوكت فى وجه ابنها وهتفت « أمان يا رب .. كان يجب أن تأخذنى قبله ! » فانزعجت أمك انزعاجا شديدا ، ولكنها لم تحفل بها ، وقالت بصوت مبحوح : « هذه صورة آل شوكت إذا حضرهم الموت ، رأيت أباه وعمه وجده من قبل ! » ، لم يبق من خليل إلا خيال ، وكذا الطفلان ، لا حول ولا قوة إلا بالله ..

ازدرد كمال ريقه ، ثم قال :

ـــ عسى أن تخيب الظنون !

ـــ عسى !، كمال .. لست صغيرا ، ينبغى أن تعلم بما أعلم أنا على الأقل ، الطبيب يقول إن الأمر جد خطير !..

ـــ عن الكل ؟!

ـــ الكل !.. خليل وعثمان ومحمد ، رباه !، ما أتعس حظك يا عائشة !..

تمثلت لعينيه فى الظلام أسرة عائشة الضاحكة كما كانت تبدو له فى الماضى . السعداء الضاحكون الذين مارسوا الحياة كأنها لهو خالص ، متى تضحك عائشة من قلبها مرة أخرى ؟، كما اختطف فهمى ، الإنجليز أو التيفود سيان ، أو غير ذلك من الأسباب ، الإيمان بالله هو الذى جعل من الموت قضاء وحكمة يبعثان على الحيرة ، وهو ليس فى الحقيقة إلا نوعا من العبث .

ـــ أفظع ما سمعت فى حياتى !..

ـــ هو ذلك ، ولكن ما الحيلة ؟، وماذا جنت عائشة حتى تستحق هذا كله ؟!، اللهم عفوك ورحمتك ..

هل ثمة حكمة رفيعة يمكن أن تبرر القتل بالجملة ؟، إن الموت يتبع قوانين « النكتة » بدقة ، ولكن كيف لنا أن نضحك ونحن هدف النكتة ؟، ولعلك تستطيع أن تلاقيه بالابتسام إذا تصديت له دواما بالتأمل الصادق والفهم الصحيح والتجرد الأصيل ، ذلك هو الانتصار على الحياة والموت معا ، ولكن أين من عائشة ذلك كله ؟!.

ـــ رأسى يدور يا أخى !.

فقال ياسين بلهجة الحكيم ، ولأول مرة فيما سمع كمال :

ـــ هذه هى الدنيا ، ويجب أن تعرفها على حقيقتها ..

ثم قام فجأة وهو يقول :

ـــ يجب أن أذهب الآن ..

فقال كمال كالمستغيث :

ـــ ابق معى بعض الوقت ..

ولكنه قال كالمعتذر :

ـــ الساعة الحادية عشرة ، ويجب أن أذهب إلى قصر الشوق لأطمئن على زنوبة ، ثم أعود إلى السكرية لأكون إلى جانبهم ، لن أنام من الليل فيما يبدو ساعة واحدة ، والله أعلم بما ينتظرنا غدا ..

فقام كمال وهو يقول فى جزع :

ـــ إنك تتكلم كما لو كان كل شىء قد انتهى ، سأذهب من فورى إلى السكرية ..

ـــ بل يجب أن تبقى مع الأطفال حتى مطلع النهار ، وحاول أن تنام وإلا ندمت على مصارحتى إياك بالحقيقة !

وغادر ياسين السطح فتبعه كمال ليوصله إلى باب البيت ، وعندما مرا بالدور الأعلى حيث ينام الأطفال ، قال كمال بأسف :

ـــ يا لهم من مساكين هؤلاء الأطفال ، وشد ما بكت نعيمة فى الأيام الأخيرة

كأن قلبها حدس ما هنالك ..

فقال ياسين باستهانة :

ــ الأطفال سرعان ما ينسون ، ادع بالرحمة للكبار ..

ولما خرجا إلى الفناء ، ترامى إليهما من الطريق صوت يصيح بقوة « ملحق المقطم » ، فتمتم كمال متسائلا :

ــ ملحق المقطم ؟!

فقال ياسين بلهجة أسيفة :

ــ أوه إنى أعرف عما ينادى فقد سمعت الناس يتناقلونه وأنا قادم إليك .. سعد زغلول مات !..

هتف كمال من الأعماق :

ــ سعد !؟..

فتوقف ياسين عن السير ، والتفت نحوه قائلا :

ــ هوِّن عليك وحسبنا ما نحن فيه !..

فحملق كمال فى الظلام دون أن ينطق أو يأتى حراكا ، كأنما قد ذهل عن خليل وعثمان ومحمد وعائشة ، عن كل شيء إلا أن سعد زغلول قد مات ، وواصل ياسين السير وهو يقول :

ــ مات مستوفيا حظه من العمر والعظمة فماذا تريد له أكثر من ذلك !، ليرحمه الله ..

فتبعه صامتا ولما يفق من ذهوله ، لو فى غير هذا الظرف الحزين ما درى كيف يتحمل النبأ ، ولكن المصائب إذا تلاقت تحدى بعضها بعضا ، هكذا ماتت جدته فى أعقاب مصرع فهمى فلم تجد لها باكيا ــ إذن مات سعد . النفى والثورة والحرية والدستور مات صاحبها ، كيف لا يحزن وخير ما فى روحه من وحيه وتربيته !.

ووقف ياسين مرة أخرى ليفتح الباب ، ثم مد يده له فتصافحا ، وعند ذاك تذكر كمال أمرا طال نسيانه له ، فقال لأخيه وهو يجد من نسيانه حياء :

ــ أدعو الله أن تجد زوجك قد ولدت بالسلامة ..

فقال ياسين وهو يهم بالذهاب :

ــ إن شاء الله ، وأرجو أن تنام نوما هادئا ..

﴿ تمت ﴾

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

Bibliotheca Alexandrina
02294387

الثمن ٩ جنيهات

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه